

احسان عبد القدوس

سلام

أنا الخير والسرعة .. لأني إنسان ،

امسان ..

الجزء الأول

لائحة

عزيرى احسان . .

أنا نادية لطفى ..

وأنت لا تعرفنى ، وان كنت قد استطعت أن ادير عنقك
فى المرتين اللتين وقعت عيناك فيها على .. مرة على شاطيء
سيدى بشر بالاسكندرية ، ومرة فى فندق سميراميس
بالقاهرة .. وفى كلتا المرتين لم أهتم بالتفاتتك كثيرا ، فقد
تعودت أن أدير أعناق الرجال !! .

وقد مضت على ثلاثة شهور وأنا أكتب لك هذا الخطاب ،
أو هذه « الكراسية » ، ولم أكن أنوى أبدا أن أكتب لك
كل هذه القصة الطويلة .. قصتى .. كان كل ما أهويه أن
أسألك سؤالا واحدا : « هل الله موجود ؟ » .

ولكنى وجدت انه سؤال سخيف .. فانى أشعر فعلا
بوجود الله ، وتملأنى الرهبة كلما ذكرته ، بل انى قضيت
سنوات من عمرى أصلى الفروض الخمس وألّف حول رأسى
طرحة بيضاء وأتسرّبل بقميص أبيض طويل الأكمام ينزل حتى
يغطى أطراف قدمى ، ويرتفع حتى يغطى عنقى ، كلما وقفت
للصلاة ، وكأنى ملاك يزفونه الى السماء .. الى المجهول ..
الى الله !!

نعم .. انى مقتنعة بوجود الله مقتنعة الى الحد الذى

يجعل القلم يرتعش في يدي الآن وأنا أكتب كلمات الشك
في وجوده .. يرتعش من الخوف .. وها أنذا أسمع نفسى
أردد في صدري : أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم ! .

ربما أردت أن أسألك : ما هو الله ؟

نعم .. ما هو الله !? ..

قل لى : ما هو الله !? ..

انه الحق ، وهو الفضيلة ، وهو الخير .. فلا يستطيع نبى
أن يدعونا الى عبادة الضلال أو الخطيئة ، أو الشر .

وهو القادر .. فلا يمكن لأهل الأرض أن يجتمعوا على
عبادة اله ضعيف لا حول له ولا قوة ..

اذن ، لماذا يتركنا الحق القادر ، للضلال الضعيف !? ..

لماذا تتخلى عنا الفضيلة للخطيئة !? ..

لماذا ينتصر الشر فينا على الخير !? ..

قل لى : لماذا ? ..

وقل لى : ما هو الله اذن !? ..

لقد قيل لى أن الله سبحانه وتعالى خلقنا وخلق فينا العقل
والارادة لتمييز بهما بين الخير والشر ، ثم تركنا ليختبر سلوكنا
في الحياة .. ليجرى لنا امتحانا .. فمن نجح كان نصيبه الجنة
ومن « سقط » كان للنار ..

قيل لى هذا الكلام ، وحاولت أن أقتنع به ، فلم أستطع ..

لا يمكن أن تكون فى السماء وزارة معارف تلقى الينا

بأوراق الأسئلة ، ثم تتلقى أوراق الاجابة لتعرضها على لجان التصحيح !!.

ثم هب انى «سقطت» فى هذا الامتحان ، فمن المسؤول؟..
المسؤول هو عقلى الغبى ، و ارادتى الضعيفة !!..
ومن الذى وضع فى رأسى هذا العقل الغبى ، وزودنى
بهذه الارادة الضعيفة ؟
من الذى خلقنى هكذا ؟..
انه الله ..

الله هو المسؤول عن سقوطى فى امتحان السماء .. فكيف
أعاقب عن جريمة لست مسؤولة عنها ؟ .. كيف أحترق بالنار
لذنب لم أجنه ، ولمجرد أن السماء ظلمتنى فكان نصيبى منها
عقلا قاصرا و ارادة ضعيفة ؟ ! ..

لا .. ألف مرة لا .. لا يمكن أن يكون هذا هو الله ..
ان الله ليس فى حاجة الى امتحان الناس ، فهو يعرفهم منذ
يخلقهم .. وهو أرحم بهم من أن يتركهم لمعركة يتنازعهم
فيها الخير والشر .. انه ليس كأباطرة الرومان الذين كانوا
يطلقون الأسود على رعاياهم ليتسلوا بمنابر العراك بين
الوحش والانسان ، وبرؤية الدماء تسيل على أرض الملعب ..
انه الله .. الرؤوف الرحيم .. انه الحب وهو السلام .. ولا بد
ان هناك تفسيراً آخر له ، لا بد ان هناك تفسيراً آخر للخير
والشر.. وللجنة والنار .. ولقاييس الحساب فى السماء ..
أم هل كفرت ؟..

انى أحس بوجيب قلبى يشتد ، وأحس كأن فى صدرى
انسانة أخرى تلمظ خديها وتصرخ وتولول كأنها تودعنى
الى الجحيم ..

انى أكرر مرة ثانية : أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله
العظيم ..

وسيعفر الله لى حتما ، فهو يعلم انه لم يدفعنى الى كل
هذا التساؤل والشك الا انى ضحية نفسى .. نفسى التى
لاذنب لى فيها .. نفسى التى غلبتنى دائما ، ودفعتنى دائما
الى الشر .. الى الخطيئة ..

نعم ياعزيزى احسان ، انى شريرة .. انى مدمنة شر !!
ورغم ذلك فالشر لايدو على وجهى .. انه وجه برى .
كوجه طفلة لم يمتد بها العمر بعد حتى تقف على الأرض
وتسير فى زحام الناس ويتعكر نقاؤها بضجيجهم .. وعيناي
فى لون الزرع الأخضر وقد بلله الندى ، لاتلمح فيهما أبدا
شيئا مما فى نفسى ، حتى عندما أبكى لا تعبران عن البكاء ،
انما تنسكب فوقهما الدموع كأن يدا غريبة تطوعت بغسلهما
.. وفى الصغير ترسمه شفتان مكتنزان ، لم أشعر أبدا
بحاجة لأن أصبغهما بالأحمر ، فهما دائما فى لون حبات
الكريز — على حد تعبيرك فى احدى قصصك — حتى ليخيل
اليك انك لا تكاد تلمسهما حتى يتفجر منهما الدم .. وشعرى
أصفر كالذهب عيار ١٨ لا عيار ٢٤ فهو أصفر غامق ليست
فيه هذه اللمعة الواجبة ، وكأنه كنز ثمين تركته للصدأ ..

وهو شعر طويل أجمعه أحيانا فوق رأسى ، وأحيانا أدليه
في ضفيريّين كأنهما سهمان من الذهب المجدول تشيران الى
صدرى .. والى قلبى !!..

وباختصار .. أنا جميلة .. واحدة من أجمل فتيات
القاهرة ، وقد قلت لك انى تعودت أن أدير أعناق الرجال
بما فيهم عنقك .. ولكنى لست فخورة بجمالى ولست متباهية
به .. فلم ينقذنى الجمال من الشر ، بل ربما كان سببا من
الأسباب التى تدفعنى اليه . وكم تمنيت على الله الذى وهبى
الجمال أن يسترده منى نظير أن يدلنى على طريق الخير !..
انما وصفت لك نفسى لتعرف انه ليس فى مظهرى ما يدلك
على ما تعتمل به روحى ، وليس فى وجهى ما يحذرك منى .
انما فيه ما يجذبك الى ، وما يطمئنك ، بل قد تغرّك منى
سمات البراءة فتخاف على من الناس ومن الدنيا .. وأذ
لا أخاف الا من نفسى ، ولا أطلب الحماية الا من نفسى ..
ورغم ذلك فلا تتصور انى قتلت أو سرت ، أو أن الشر
الذى أحدثك عنه يتمثل فى جريمة من الجرائم التى نص عليها
القانون وتعرض أمام المحاكم .. لا .. أبدا .. ولكن هل الشر
كله قتل وسرقة ؟.. وهل استطاع القانون أن يحصر كل
أنواع الجرائم !?

ان جرائمى كلها لم ينص عليها قانون الا قانون السماء .
ولم تعرض على محاكم الا محكمة الضمير ..
ولأحدثك عن جريمة من جرائمى .

كنت في الثانية عشرة من عمري ، وكنت أعود من المدرسة
مخترقة شوارع الدقي ، والخادم النوبى يتبعنى حاملا
حقيتى ..

ولاحظت فتى يقف على جانب الطريق وينظر الى فاغرا
فاه كأنه المصعوق ..

انى ما زلت أذكره حتى اليوم .. كان فى حوالى السادسة
عشرة من عمره طويلا ، عريض الكتفين ، كأنه من أبطال
الألعاب الرياضية فى مدرسته ، وكان وجهه أسمر قويا لم
تستطع سمات القوة فيه أن تخفى طبيته وسذاجته .. بل
ربما أوحى اليك بأنه ضعيف الذكاء .

وتكرر وقوفه على جانب الطريق فى موعد عودتى من
المدرسة .. ودائما ينظر الى فاغرا فاه كالمصعوق .. وكنت
فى هذه السن قد أحسست بجمالى ، وكنت أستطيع أن أفسر
نظرة الفتى تفسيرها الصحيح .. فبدأت أبتسم بينى وبين
نفسى كلما لمحته بظرف عينى واقفا مكانه ، وبدأت أتعمد
أن أتثنى قليلا فى مشيتى عندما أمر من أمامه وأشيح عنه
بوجهى فى حركة متعمدة لأشعره بأنى أحس بوجوده ..

وكنت أصل الى البيت فأفكر فيه ، ولكن تفكيرى بدأ
يتخذ - دون تعمد منى - اتجاها خبيثا .. كنت كالطفلة
التي تفكر فى تحطيم دميتها لسبب لا تدريه الا الرغبة فى
التحطيم .. كنت أريد أن أراه محطما دون ذنب جناه ..
وانسقت انسياقا لاشعوريا فى تنفيذ الخطة الخبيثة ..

بدأت أتسّم له .. وبدأت أتباطأ في مشيتي .. وتعمدت
كلما مررت به أن أفتعل حديثاً مع الخادم النوبى حتى أسمع
صوتي .. الى أن أفاق من الصاعقة التى تلم به كلما رآنى ،
فبدأ يتسّم لى بدوره وبدأ يسير ورائى عدة خطوات ، الى
أن يلحظه الخادم النوبى فيتعد ..

وعندما قدرت أن الخطة قد نضجت ، وأن الساعة
الحاسمة قد دنت .. خرجت من المدرسة وتعمدت أن أهرب
من الخادم الذى ينتظرنى على الباب ، وسرت وحيدة الى
البيت .. وعندما مررت أمامه ابتسمت له ابتسامة كبيرة ..
أكبر من الابتسامة التى تعودت أن أوجهها اليه كل يوم ..
ولاحظ هو أن الخادم النوبى لا يتبعنى فتبعنى ثم اقترب
منى حتى أصبحت أسمع أنفاسه بأذنى .. وسمعت صوته
لأول مرة :

— بونسوار ..

لم أتكلم وانما هزرت رأسى فتأرجحت الضفيرتان خلف
رأسى كأنهما تردان تحيته ..

وسكت كأنه يستجمع شجاعته ، ثم قال :

— أقدر أكلّمك !!!

ولم أرد ، انما أسرعت الخطى ، وفى صدرى شعور خبيث
جارف لا أدرى كنهه .. شعور فيه خوف ، وفيه لذة ، وفيه
رهبة ، وفيه تردد .. كشعور المقامر وهو يقامر بكل ما يملك ..
وعاد يقول :

— تسمى تقفى دقيقة واحدة ..
ولم أرد أيضا ، وأسرت أكثر فى خطاى ، والشعور
الخيث اللذيذ يشتد فى صدرى ، وتشتد معه ضربات قلبى .
وبدأنا تقرب من بيتى ، وخفت أن يعدل عن متابعتى
فالتفت اليه وابتسمت ابتسامة كبيرة أخرى ، ألصقته بخطاى .
وسمعه يقول :

— وبعدين معاكى .. مالك بتمدى كده ليه .. شوية
شوية حتجربى !!

وكنا قد أصبحنا أمام الباب .. باب بيتى .. وفجأة وبلا
مقدمات استدرت اليه بكل جسمى وصرخت فى وجهه بكل
غضب :

— أظن كفاية كده .. دى قلة أدب .. عايز منى ايه ..
جاي ورايا ليه !!

وعاد الفتى ينظر الى كالمصعوق ..

وهبّ عم عثمان البواب على صوت صراخى وهرع الى
جانبى . ثم نظر الى الفتى المصعوق وقدر الموقف حسب
عقليته ، فمد يده ولكم الفتى فى صدره لكمة قوية ، وهو
بصيح :

— ياللا انجر من هنا ..

ولم يهن على الفتى أن يضربه البواب — خصوصا
أمامى — فرد له لكمته .. فاذا بعسم عثمان يصرخ صراخا
رفيعا كأنه العويل ، واذا بكل بوابى وخدم المنازل المجاورة

يتجمعون وينهالون جميعا على الفتى ضربا وصفعا حتى وقع
على الأرض .. ثم قام وأخذ يعدو بعيدا بكل قواه ..
ووقفت أنا عند الباب أشاهد كل ذلك ..
كانت خطتي قد نجحت وحطمت الدمية !! ..
ولكن هل كنت سعيدة ؟

لقد فزعت وأنا أرى الفتى المسكين بين أيدي البوابين
والخدم وكدت اصرخ فيهم وأندفع اليهم لأخلصه من بين
أيديهم .. ولكن شيئا سمرني في الأرض وكنتم صراخى ..
وعندما استطعت أن أتحرك جريت الى غرفتى وانكفأت فوق
الفرش وأخذت أبكى . بكيت كثيرا ورغم ذلك فلم تستطع
الدموع أن تريحنى ولا أن تغسل جريمتى ..

ولم انم ليلتها ، وقضيت عدة ليال لا انام .. ظل قلبى
منقبضا حتى يكاد فى انقباضه يجبس الدم عن عروقى ،
وظللت كلما تذكرت فعلتى هذه أحس بالخجل من نفسى !
خجل مر جارح كأن سكيناً يشق صدرى ، حتى لأضطر ان
أفعل أى شىء .. أن أصرخ .. أن أتشاجر مع أحد من الخدم ..
ان اكسر شيئا مما فى البيت .. ان أضرب كلبى .. حتى أدارى
خجلنى من نفسى !! ..
لماذا ؟ ! ..

لماذا ارتكبت هذه الجريمة ؟ ! .. وما الذى دفعنى اليها
وأنا فى هذا العمر الصغير ؟ ..
ولماذا لم يقف الله بجانبى ليحول بينى وبين الشر ؟ ..

أم هل كنت ضحية للشيطان? ..
وما هو الشيطان? ..

أليس هو مخلوقا من مخلوقات الله? اذن .. ما هي
حكمة الله في أن يخلق مخلوقا يدفعنا الى الشر? ..
وإذا كان الشيطان ملاكا خرج عن طاعة الله ، فلماذا لم
يعاقبه الله فيمحوه من الكون ويريحنا من شروره? .. لماذا
يتركه بيننا ثم يحاسبنا نحن البشر على ما يدفعنا اليه هذا
الشيطان من شرور!?

استغفر الله ، فلا بد أن له في ذلك حكمة ..
وقد استغفرت الله كثيرا .. ولكن استغفاري له لم يحل
بيني وبين الشر .

تعددت جرائمى ، وأصبحت كلما مشى بى العمر أتفنن
في وضع خطط معقدة أنفذها في دقة .. ثم يحل بى عقب كل
جريمة هذا الفزع الذى ينتابنى .. الفزع من نفسى .. وأقضى
ليالى لا أنام ، يعذبنى خلالها قلبى المنقبض ، وضميرى
الذليل ، وفكرى المعذب ، والخجل المر الجارح الذى يشق
صدرى ..

وقد مضت عدة شهور قبل أن أتناسى هذه الجريمة التى
حدثتك عنها ، وقد كانت جريمة صغيرة لم تترك وراءها من
آثار الا أن أبى صمم على أن أذهب الى المدرسة وأعود منها
في سيارة ، رغم قرب المسافة بينها وبين البيت ..
ولكنى أذكر جريمة أكبر من هذه ..

كنت قد أصبحت في الرابعة عشرة من عمري ، وكانت
لي زميلة في المدرسة أكبر منى سنا ، ولعلها كانت في السادسة
عشرة واسمها كوثر !!

لم تكن كوثر صديقتي ، ولكني كنت أعجب بها ..
كانت سمراء جميلة ، رقيقة ، هادئة ، طيبة .. تمشي كأنها
تسيح في الفضاء ، وتتكلم كأنها ترنم بنغم جميل ، وتبتسم
كأنها تشرق ، وتسدل شعرها الأسود الطويل خلف ظهرها
كأنها ملاك يحتفى بالليل من النهار ..

كان كل البنات يحببنها .. وكنت أنا أيضاً أكاد أحبها ..
وفي فترة أجازة الصيف التقيت بكوثر على شاطئ
سیدی بشر بالاسكندرية ولم يدر بيننا أكثر من تحية عابرة
تبادلها كل صباح أثناء سيرنا على الشاطئ .. ثم مرت أيام
لاحظت بعدها أن ابن خالي .. مدحت .. يتبعها أينما سارت ..
ثم يقضى اليوم تحت « الشمسية » أمام « كاييها » ..
ولا ينتقل من تحت الشمسية الا اذا انتقلت كوثر من
« الكايين » !! ..

وكان من السهل على أن ألحظ أنه قد نشأ بينهما حب ..
هذا النوع من الحب العف البريء الذي ينشأ بين فتاة قد
أحکم أهلها رقابتها ، وشاب قوى الخلق سليم الغرض ..
حب لا يتجاوز عادة كلمات يتبادلها الاثنان خلسة وراء
« الكايين » وبعيدا عن أعين الأهل .

ولم يطلعني ابن خالي على حبه .. انما أصبح كثير

الاهتمام بى ، يدعونى الى أن أجلس معه تحت الشمسية ،
ويحدثنى حديثاً طويلاً ينتهى به الى مدرستى والى زميلاتى ..
وكان يعلم ان كوثر زميلتى وكان يريدنى أن أتحدث عنها ،
ولكنى كنت أتجاهل هدفه ، وكنت أصمت .. وعندما تقرأ
قصتى ستعلم انى أجيد الصمت !!

وكذلك كوثر أصبحت تهتم بى .. أصبحت تبذل مجهوداً
كبيراً لمصادقتى ، وكانت تصمم على أن تدعونى الى كابينها
وتقدم لى المشروبات .. ولكنى — وبلا تعمد — كنت أصد
محاولاتها وأتجاهل صداقتها التى تعرضها على .

وبدأ الشعور الخبيث يزحف على صدرى ..
بدأت أحس بالرغبة البشعة فى تحطيم الدمية .. وكانت
أمامى دميّتان لأحظهما ! ..

ترى ما الذى يدفع الطفل الى تحطيم الدمي ! ..
وأقسم لك انى قاومت هذا الشعور وهذه الرغبة بعنف ..
بكل ارادتى وبكل أعصابى .. فلم يكن هناك أى دافع معقول
يثيرنى على هذا الحب العف البريء .. كنت أحب ابن خالى
كأخ لى وأتمنى له الهناء ، وكنت أكاد أحب كوثر وأتمنى لها
هى أيضاً الهناء .. لم يكن هناك داع لأن أحقد عليهما أو أغار
منهما أو أخاف على ابن خالى منها أو أخاف عليها من ابن
خالى .. فلماذا أفكر فى تحطيمهما ؟ .. لماذا ارتكب جريمة
فى حقهما !؟ .

ونجحت فى التغلب على شعورى الخبيث طوال فترة

الصيف . كل ما فعلته انى كنت أتعمد أن أبدو مع ابن خالى كثيرا ، وان أجلس معه طويلا تحت « الشمسية » ، وقد أتحدى قليلا فى مداعبته ، خصوصا عندما تكون كوثر أمامنا جالسة فى « الكابين » ولم يكن ذلك — حتى هذا الوقت — يدخل ضمن أى خطة موضوعة !! .

وعدنا الى القاهرة ، والى المدرسة . وفوجئت بكثير من الطالبات يتحدثن عن حب كوثر .. حبا لابن خالى مدحت ! تجاهلت هذه الأحاديث .. لم أشترك فيها ، ولم أدع أحدا يتبادلها معى .. انما بدأت هذه الأحاديث تذكى الشعور الخبيث فى صدرى ، وبدأت الرغبة فى التحطيم تستبد بى ، وأصبحت كلما لجأت الى فراشى لا أنام .. انما أفكر .. وأفكر .. الى أن وضعت خطة .. وبدأت تنفيذها .. وبدأت أتلذذ بشعورى ، أتلذذ بالخوف والرغبة ، والتردد .. لذة امتحان الذكاء .. لذة النشوة بالأمل المرتقب .. لذة المقامر وهو يقامر بكل ماله !! ..

وكانت لى صديقة من بنات الجيران وليست من طالبات المدرسة اتفقت معها ولقنتها الخطة .

وطلبت نمره تليفون مدحت وعندما سمعت صوته أعطيت السماعه لصديقتى التى قالت وهى تفتعل اللهفة والخوف كأن أحدا يراقبها ، بينما أذنى بجانب أذنها فوق السماعه :

— ألو .. مدحت .. أزيك يا مدحت .

ورد مدحت :

— ازيك يا افندم .. ? ..

وقالت صديقتى :

— مش عارفنى يا مدحت .. أنا كوثر !! ..

وهتف مدحت فى صوت مرتعش كأن قلبه قد تعلق

بسلك التليفون :

— كوثر !! أنا كنت مختار أشوفك ازاي وأكلمك

ازاي ، من يوم ما ..

وقاطعته صديقتى فى صوت كوثر :

— أنا مش حاقدر أكلمك دلوقت .. أوريڤوار ..

وهتف كأنه يتعلق بها :

— بس اسمعى يا كوثر ..

وقالت صديقتى على عجل :

— بعدين .. بعدين يا مدحت !! ..

ثم أعادت السماعه مكانها ..

وابتسمت أنا فى نشوة .. نشوة الذكاء ! ..

وبعد يومين حادثنا مدحت مرة أخرى — صديقتى وأنا

— وتكلمت صديقتى — على أنها كوثر — بنفس الصوت

الخائف كأن أحدا يراقبها وكأنها على عجل :

— اسمع يا مدحت فوت بكره من قدام المدرسة واحنا

خارجين ، علشان أشوفك .. أوريڤوار !!

ولم أمكن المسكين من أن يتحدث كلمة واحدة !!

وفي اليوم التالي ذهبت الى المدرسة ، وأنا أفعل الشرود
والحيرة والحزن ، ثم تأبطت ذراع احدى زميلاتي ، واتحيت
بها جانبا ، وقلت لها بهمس :

— أقدر أقول لك سر .. بس تحلفي وحياة مامتك
ما تقوليش لحد !!

والتمعت عينا زميلتي غبطة .. فان واحدة من الزميلات
لم تكن تعلم عنى سرا .. وكان جمالى — ولا أعالى اذا قلت
انى كنت أجمل من فى المدرسة— يدفع الطالبات الى اكتساب
صداقتى والى معرفة أسرارى ، ولكنى كنت أحيهن ولا
أقول لهن شيئا .. كنت اتلذذ بأن أبدو أمامهن سرا مغلقا !!
وقالت زميلتى :

— وحياة ماما .. وحياة ماما .. ما حاقول لحد ..
قلت لها وأنا أفعل التردد والخجل :

— أصل ابن خالى حيفوت على النهارده بالعربية قدام
باب المدرسة .. وعازى اكى تلخمي « أبله زينب » المشرفة لغاية
ما أكلمه كلمتين ..

وفغرت الزميلة فاها دهشة ، ثم صاحت :

— ابن خالك .. مدحت ؟! ..

— أيوه ..

— انت بتحييه ؟! ..

— من فضلك .. هو اللى ييجبنى !!

— طيب وما تكلمهش فى بيتكم ليه ؟

— بعدين أقول لك ..
— بس قوليلي يا نادية علشان أفهم ، وأقدر أسبك
الحكاية معاكى ..

— أصله ياستى جه يخطبنى ، وبابا مرضيش الا بعد
ما يخلص الجامعة وأكون أنا بأه عندى ستاشر سنة .. ومن
بومها ما يبجيش البيت ..

واتسعت عينا زميلتى حتى بدت كالعبيطة ، ثم قالت فى
لجلجة :

— لكن .. لكن ..

ثم سكتت ..

وقلت وأنا أعلم ما تريد قوله :

— لكن ايه؟! ..

— ولا حاجة !!

ولست فى حاجة الى أن أقول لك ان « السر » قد ذاع
بين الطالبات فى نفس اليوم ، حتى وصل الى كوثر ..
ورأيتها من بعيد مهمومة تعسة .. كأنها كبرت مائة عام !!
وخرجنا من المدرسة ..

ومثلت دور الحائرة المرتبكة وأخذت أتلفت حولى حتى
وأيت ابن خالى فى سيارته ، فنظرت الى زميلتى كأنى أستنجد
بها واستنجزها وعدھا .. وفعلا بدأت الزميلة تشغل « أبله
زينب » بالحديث بينما الطالبات يتجمعن فى سيارات
المدرسة ..

وخطوت أنا الى سيارة ابن خالى وأخذت أحدثه فى لهفة
وعجلة كأنى أرتكب اثما .. كنت أسأله عن « منط » وعن
اخوته وعن خالى فى لهجة أقرب الى مطارحات الغرام ..
وكان يجيبنى فى اقتضاب ، وهو يدور بعينيه فى خجل وتردد
باحثا عن كوتر . وكنت أحرك رأسى أمام اتجاهات عينيه حتى
لا يراها !

وتركت ابن خالى وعدت وركبت فى سيارة المدرسة ،
وأنا أدعى الحياء والارتباك ..

واستقبلتنى الطالبات بالتعازم والابتسام ، ما عدا كوتر
فقد كانت صامتة منزوية ، وكان وجهها ممتعا . كأنما
امتصت دماءها كلها !!

وجاءت زميلتى تسألنى فى لهفة :

— قال لك ايه ؟ ..

قلت هامة :

— حب يقابلنى بره ، مارضيتش !..

وابتسمت بينى وبين نفسى .. أحسست بنشوة خبيثة ..

نشوة الغرور بذكائى !!..

واستطعت بعد ذلك أن أجعل ابن خالى ينتظر أمام باب

المدرسة مرتين .. وفى كل مرة كنت أمثل نفس الدور ،

وأمتص مزيدا من دماء كوتر !!..

ثم انتقلت الى الحلقة الثانية من الخطة .. كأنه لم تكفى

الحلقة الأولى !!..

انقطعت أياما عن الاتصال بأبن خالى بالتليفون — باسم
كوثر — ثم عدت واتصلت به بواسطة جارتي العزيزة ،
وسمعه يقول كأن قلبه ينفطر من الشوق :

— اتنى فىن ياكوثر .. شغلتنى علىكى لدرجة انى دورت
على نمركم فى الدفتر لغاية ما لقيتها وكل ما أضربك يرد
على صوت تانى ، أروح قافل السكة .. كتنى فىن؟! ..
وأجابت صديقتى كما لقتها :

— ما قدرتش يا مدحت .. ما قدرتش أكلمك أبدا ..
أصل التليفون فى أودة المكتب وبابا قاعد فيها ليل ونهار ..
وقال مدحت كأنه يبحث عن طريق الخلاص :

— وبعدين .. حنفضل كده على طول .. ده أنا بقالى
جمعتين حابس نفسى جنب التليفون!! ..
وقالت صديقتى وهى تدعى العجلة :

— اسمع يا مدحت .. ابعت لى جواب على شباك
البوستة ، وأنا حارد عليك .. ما فىش طريقة غير كده ..
اوريفوار بأه !.

— استنى بس ياكوثر ..

— ما أقدرش .. أنا سامعه رجلين بابا .. اوريفوار!! ..
وبعد يومين ذهبت الى مكتب البريد واستلمت خطاب
مدحت .. وفتحته وقرأته .. وأحسست بقلبي يغوص فى
صدرى كأنه يتوارى منى .. أحسست بضلوعى تنطبق وتكاد
تنغرز فى لحمى . كان خطابا رقيقا أنيقا عفا ، فيه حنين ، وفيه

حب ، وفيه عذاب تحبسه الكبرياء ، كدموع الرجل لاتنطلق
ولكنها تلمع في عينيه ..
ولم أنم ..

بت ليلتى على فراش من الجمر .. أحاول أن أهرب من
نفسى فلا أستطيع ، وأحاول أن أتصل من جرمى فيزداد
التصاقى بى كأن رأسى يلتهب ، وضميرى يصرخ ويكاد صراخه
يمزق جسدى ..

لقد تعذبت ليلتها يا احسان .. تعذبت كثيرا ..
وقررت مع الصباح أن أعدل عن كل هذا .. أن أعدل
عن اتمام هذه الجريمة البشعة !! ..

ولكنى ما كدت أرى نفسى بين الطالبات حتى عاد الشعور
الخبث يجتاحنى .. كالجندى عندما يجد نفسه وسط ميدان
المعركة فتستبد به شهوة القتل .. حتى لو قتل ابن خاله !! ..
وتذكرت ضحكاتى مع جارتي ونحن نسخر من
العاشقين ..

وتذكرت همسات الطالبات حول خطوبتى المزعومة الى
مدحت ..

وتذكرت نشوتى بدكائى وأنا أرى خطتى تنتصر ..
واذا بى أندفع فى تمثيل المسرحية التى بدأتها .. فأتعمد
أن أجلس فى مكان منزو من حوش المدرسة ثم آخذ فى قراءة
خطاب مدحت ، وأتهد فى افتعال .. حتى أكاد أتهد بصوت
مسموع !

وتأتى احدى الزميلات وتسألنى عن أمر الخطاب ،
فأحاول أن أخفيه عنها . وترجونى وتستحلفنى .. الى أن
أطلعها على جزء منه بعد أن أطوى الجزء الذى يحمل كلمة :
« حبيبى كوثر » !!

ويذاع أمر الخطاب بين الطالبات .. وتأتى كل منهن
لتطلع عليه .. وألح كوثر من بعيد وقد ازدادت امتقاعا حتى
كأنه لم يعد فيها مزيد من الدم لأمتصه !!..
وأندفع فى نشوتى ..

فأعود الى البيت وأستدعى صديقتى ونجلس سويا
نكتب خطابا لمدحت ونوقعه باسم « كوثر » .. كنا نضحك
عند كل كلمة نكتبها . وكنا نلجأ الى القصص والمجلات
لنختار من بينها عبارات الحب والهيام .. الى أن صنعنا
خطابا محشوا بكلمات الحب الضخمة المفتعلة ، وأرسلته الى
مدحت ..

واستلمت الرد بعد أيام .. وعدت أتهد بصوت مسموع
فى فناء المدرسة !!..

وأخيرا اقتنعت بأنى حطمت الدمية .

حطمت الحب العف البريء الذى نشأ بين زميلتى وابن
خالى وكان يمكن أن يعيش الى الأبد !!..

وكنت فى الوقت نفسه قد سئمت هذه اللعبة .. سئمت
الاتصال التليفونى بابن خالى ، وكتابة الخطابات الغرامية له،
وتمثيل دور العاشقة ..

ومضت أسابيع ، لم أفعل فيها شيئا .. الا انى كنت أحس بالضيق ، وبصراخ ضميرى كلما رأيت كوثر ..

كانت قد ذبلت حتى برزت عظام وجهها من تحت وجنتيها . ولم تعد رقيقة ولا هادئة .. انما كانت دائما عصبية خشنة تتشاجر مع الزميلات بسبب وبغير سبب ، ثم تنزوى وحيدة تفكر كأنها تهضم آلامها .. ثم بدأت تمرض ، وبدأت تغيب عن المدرسة أياما وتعود أياما ..

وكنت دائما أحاول أن أقنع نفسى بأن ليس لى يد فيما ألم بها . وانى لم أفعل الا «مقلبا» صغيرا من مقابل الزميلات بعضهن لبعض .. ولكنى لم أقتنع .. وبدأت لا أنام ..

الى أن جاءنى ابن خالى يوما .. وكان هو أيضا ذابلا تعسا كشجرة تفاح أصابها العطب .. واختلى بى فى ركن من البيت وقال هامسا كأنه لا يقوى على حمل أنفاسه :
— أنا حاطب منك حاجة يانادية ، عمرى ما طلبتها من حد أبدا ..

وفتحت عيني فى براءة كأنى دهشة بينما قلبى ينقطر أسى ، وقلت :

— ايه يا ترى !? ..!

وقال مدحت وهو لا يزال يهمس :

— حاجة مهمة جدا .. سعادتى كلها متوقفة عليها ..

ولولا كده ما كتتش طلبتها منك ..

قلت وأنا لا أزال أدعى الدهشة :

— ايه بس !! ..

قال وقد بدأت شفاته ترتعشان :

— تعرفي كوتر زميلتكم في المدرسة ؟

قلت كأني أتذكر :

— أيوه ..

قال وهو يخرج من جيبه خطابا :

— اديها الجواب ده ..

قلت وقد ارتبكت :

— بس مش أعرف ..?

وقاطعني :

— ما تسألينيش عن حاجة . أرجوكي يابنت خالي

ما تسألينيش !! ..

ثم ابتعد كالطيف النحيف ..

وتركني مبهوتة تكاد أنفاسي تختنق في صدري ..

ماذا أفعل بهذا الخطاب ..?

لم تكن أمامي خطة لأضعها .. لم يكن أمامي الا أن

أكذب ، أو أقول الصدق !! ..

لماذا لا أقول الصدق ؟ ..

لماذا لا أعترف لابن خالي ولكوثر بجريمتي وأنقذ جبهما

الجميل .. بل أنقذ مستقبلهما !! ..

لم أستطع ..

لم أقو على الاعتراف ..

وقضيت ليلتي أتعذب .. ولا أنام !

وفي اليوم التالي ذهبت الى المدرسة وفي جيبي الخطاب ..
ولم أكن في حاجة الى أن أدعى الشرود والارتباك ، فقد
كنت فعلا شاردة مرتبكة تمزقني الحيرة بين نفسى الشريرة
الجبانة ، وضميرى الصاحي الذي لا ينام ..

كان ضميرى يتغلب أحيانا فأكاد أتقدم الى كوثر لأعترف
لها وأسلمها الخطاب ، ولكن نفسى الشريرة لا تلبث أن تغلبه
فأعود وأحجم عن الاعتراف .
واتهى اليوم ..

وعدت الى بيتى لأجد ابن خالى فى انتظارى واللهمفة
ترسم فى عينيه ..

وقلت له قبل أن يسألنى وأنا أهرب بعينى من عينيه :
— كوثر مارضيتش تاخذ الجواب .. وقالتلى انها
اتخطبت ..

وكأنى طعنته بسكين ..

لقد بهت لون وجهه حتى أصبح فى لون الفراغ ،
وارتمشت شفثاه حتى خلت انها تتساقطان عن فمه ،
وزاغت عيناه حتى كأنه لم يعد يرى ..

ومد يده وأخذ منى الخطاب ، وهو يقول فى صوت
ضعيف مبجوح كأنه الحشرجة :

— مرسى .. أنا آسف قوى .. آسف يا نادية !!

وتركنى ...

وأقسم لك أن ما حل بمدحت وكوثر حل بي منذ ذلك
اليوم . فلم أعد آكل ولا أضحك ولا أنام ولا أتذوق الحياة ..
وهزلت ونحل عودي وامتنع لوني وبدأ أبى يطوف بي على
الأطباء ..

كنت أحس كأن مسام جسدى كلها تنفصد بجريمتى ..
وكنت أحس كأن ضربات رثتى قرعات فوق طبل أجوف فى
موكب جنائزى .. وكنت أحس بنبضات قلبى كأنها قبضة
يد فوق عنقى تنطبق وتنفرج ..
نعم .. تعذبت كثيرا ولأيام طويلة .

ولست بحاجة لأن أقول لك ماذا حدث بعد ذلك .. لقد
خطبت كوثر فى الصيف التالى وكأنها انتحرت ، فقد كان
خطيبها أبعد انسان يمكن أن يحقق آمالها وأحلامها .. أما
مدحت فقد ترك أمره للزمن ليرتق قلبه بخيوط النسيان ..
أما أنا فقد ظلت هذه الجريمة كالبقعة السوداء فى ثوبى
الداخلى .. أراها كل مساء وأنا أخلع ثيابى عن نفسى ،
وأتذكرها كلما التقيت بمدحت وأتساءل : « هل كان يمكن
أن يكون مدحت زوجا لكوثر ، وأنا التى هدمت عش
أحلامهما » ؟ !

ترى ما الذى يدفع الطفل الى أن يتسلق الشجرة ليهدم
عش العصفور ، ثم يبكى اذا مات العصفور ؟ ! .
ما الذى يدفعه الى ارتكاب هذا الجرم ؟ ..

تم ما الذى يدفعه الى الندم ؟.

أجبنى ..

ولكنك لن تستطيع أن تجيبنى الا اذا عرفتني وعرفت

قصتى .

وربما — بعد أن تعرف قصتى — ستعرف أن الوقت

قد فات ، وأنتك لن تستطيع أن تسعفنى برأيك ، ولا أن تمد

يدك لتتقذ ما بقى منى .

فقط ، دعنى أكتب اليك لأزيح الثقل عن صدرى ، لعلى

أرتاح .. ولعلى بعد ذلك أستطيع أن أنام ..



من أين أبدأ قصتي؟..

انى حائرة .. فكل يوم من أيامى هو بداية للقصة ، وكل يوم نهاية لها .. ولكنى أذكر يوما بالذات لا أستطيع أن أنساه .. يوما أحسست فيه أن حياتى بدأت تتحرك بعنف .. أحسست أن الأحداث تدفعنى بعد أن كنت أنا التى تدفع الأحداث ، وانى لم أعد أملك الدنيا ، ولكن الدنيا أصبحت تملكنى ...

كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري وكنت قد انتهيت من طوائى بعيد من المدارس العربية والانجليزية والفرنسية ، الى مدرسة « مدام اورلى » بالمعادي .. طالبة فى القسم الداخلى .

وجاء أبى الى المدرسة بعد ظهر أحد الأيام .. وأذكر أنه كان يوم الثلاثاء .. واستأذن مديرة المدرسة فى أن يصحبنى الى البيت ..

كان يبدو عليه الارتباك ، وكان وجهه محتقنا حتى تعمدت أن أشم فمه وهو يقبلنى لأتأكد من أنه لم يشرب خمرأ فى يومه قد تكون السبب فى احتقان وجهه .. كان كأنه يعانى أزمة حياء ، أو أنه يخفى فى صدره شيئا لا يدري كيف ييوح به ، وكيف ينفض عبأه ..

وسرت بجانبه صامتة وهو صامت ، الى أن خرجنا من المدرسة وركبنا السيارة .. هو في مقعد القيادة وأنا الى جانبه ، وتحركت بنا السيارة صوب القاهرة وكلانا لا يزال صامتا .

وحاولت أن أقطع هذا الصمت ، أو حاولت أن أشجعه على الكلام ، فسألته عن « دادا حليلة » فأجاب باقتضاب وعلى شفوية ابتسامة لا معنى لها :

— كويسة !!..

وعدت أسأله عن عبده السفرجى ، فأجاب بنفس الاقتضاب ونفس الابتسامة :

— كويس !!..

وسألته مرة ثالثة عن أخبار العزبة فلم تتغير لهجته ، وأجاب :

— الحمد لله !!..

وأخيرا قررت أن أصمت ، واستدرت الى نافذة السيارة أتلهى بمنظر الطريق .. الى أن سمعته يتنحج كأنه يستجمع ارادته ليتكلم ، ثم سمعته يتنحج مرة ثانية ، ثم سمعته يقول :

— تعرفى يا نادية .. انا مش عاجبانى عيشتك فى المدرسة الداخلية دى !!..

والتمت اليه .. ولم يكن ينظر الى ، انما كان يقود السيارة

وعيناه تأهتان كأنه ينظر بهما الى ما فى نفسه ، لا الى الطريق ..

وقلت وأنا أقرب منه وقد تيقظ اهتمامى :

— ليه يا بابا .. دى مدرسة كويسة !! ..

قال وهو لا يزال يهرب بعينه منى :

— ولو .. مهما كانت كويسة ، ما كنتش أحب أن بنتى

تربى فى مدارس داخلية .. واتنى عارفة انى ما دخلتكيش

داخلية الا غضب عنى .. ماكنش ممكن بعد ما بقيتى فى السن

ده انك تقعدى معايا لوحدى .. وتعيشى فى بيت مافهش

واحدة ست تاخذ بالها منك ..

وسكت قليلا كأنه يستريح وقلت :

— البركة فى دادا حليلة .. دى والله بتحبنى زى ماما

وأكثر .

قال وعيناه معلقتان أمامه :

— برضه اسمها خدامة .. مش ممكن تعرف تعمل منك

واحدة ست ..

والتفت الى لفته سريعة ثم عاد ينظر أمامه ، واستطرد

فى صوت حنون كأن قلبه بين شفثيه :

— أنا طول عمرى عايش مشغول عليكى .. حاجات كتير

فى حياتك كنت أحب أطمئن عليها وماكنتش أقدر ، لأننى

ماكنتش عارف أكلمك فيها ازاي ، وأسألك عنها ازاي ..

حاجات مش ممكن تكلمك عنها الا واحدة ست .. ويوم

ما حطيتك في المدرسة الداخلية ابتديت أنشغل عليكى أكثر .. كنت أقعد طول الليل أسأل نفسى : يا ترى نامت ولا مانامتش .. ياترى اتعشيت ولا ما اتعشتش .. ياترى مبسوطه ولا زعلانة .. بقيت زى المجنون ، وكتنى دايمًا وحشانى . كنت اتعودت أتصبح بيكى كل يوم ، وأبوسك كل ما أرجع البيت .. حسيت ان الدنيا كلها بقت فاضية ، وكرهت البيت ، وكرهت العزبة .. وابتديت أشرب أكثر .. شرب من غير طعم .. وكل ما أفكر أطلعك من الداخلية وأرجعك البيت أخاف عليكى من عيشتك معايا .. من عيشتك في بيت راجل عازب .. بيت ما فهش واحدة ست !!

ولم أتأثر بهذا الحنان الذى يفيض به كلام أبى ، انما أحسست أنه يرمى الى شىء لم يقله بعد .. شىء اتقبض له صدرى ..

وقلت ، والكلام يجف فوق شفتى :

— انما أنا عمرى ما اشتكيت من حاجة يا بابا .. عمرى ما حسيت انى محرومة من حاجة .. ولما كنت بتوحشنى وأنا في المدرسة كنت عارفة ان كل حاجة بتعملها لمصلحتى ..

وأوقف أبى السيارة على جانب طريق المعادى فى ظل شجرة ضخمة ، واستدار الى بجسمه ، وأخذ يداعب ضفيرتى — كعادته — ثم حاول أن يتسم ابتسامه كبيرة ، وقال وهو ينظر فى عينى نظرة مسكينة كأنه يستجدينى :

— مصلحتك ومصلحتى اننا نقعد مع بعض على طول ..

ده أنا يوم ما حتتجوزى حاشترط على جوزك انه يتجوزنا
احنا الاتنين ..

وحاول أن يضحك ، ولكن ضحكته سقطت جوفاء كأنها
سقطت فى بئر ضحلة ..

وحاولت أنا أيضا أن أضحك ، ولكنى لم أستطع حتى
أن أزور ضحكة .. كان قلبى قد بدأ يزداد انقباضا ، وكان
كل شيء فىّ يرتجف كأنى واقفة على حافة هاوية وأخاف من
يدفعنى إليها .

وصمت أبى ريشا ازدرد ضحكته ، ثم قال وهو يضع
يده على كتفى فى حنان ويحاول أن يقربنى منه :

— ما كانش فيه طريقة انك تقعدى معايا وأنا مطمئن
عليكى ، الا ائى أتجوز .

واتسعت عيناي كأنى رأيت شبحا ، وقلت أقاطعه وكأنى
أصرخ :

— اتجوزت؟! .

قال وهو يخفى عينيه عنى :

— أيوه يا نادية .. أنا بقالى أربعتاشر سنة عايش من غير
جواز علشان خاطرک .. انما كان لازم أتجوز دلوقت علشان
خاطرك برضه ..

قلت وأنا أكاد أبكى :

— مرسى ..

قال :

— ما كانش ليّه شرط في الست اللي أتجوزها الا انها
تقدر تاخذ بالها منك ، وتعتنى بشبابك .. وتساعدنى في
اسعادك .. ولقيتها .. وأنا واثق انك حتحييها ..

قلت في لهجة أقرب الى التهكم :

— المهم انك انت اللي تحبها ..

قال ورنه الاخلاص في صوته :

— اذا حبتها حاجبها أنا كمان ..

قلت وكأني أتكلم في صمت :

— مبروك !!

قال وهو يشدنى من ضفيري :

— مبروك كده حاف؟! .

واقتربت منه لأقبله .. وأنا أقول :

— المهم عندي سعادتك يا بابا ..

قال وهو يعانى حرجا شديدا :

— مرسى ..

وسكتنا نحن الاثنين ، وعادت السيارة تتحرك بنا نحو

القاهرة .

ولم أستطع أن أفسر شعورى في ذلك اليوم .. ربما
احتدم ساعتها صراع بين عاطفتى وعقلى .. عاطفتى تنكمش
وتتلوى كأنها مست بقضيب محمى في النار .. وعقلى يسخر
من عاطفتى ويناقشها في الحاح ويتهمها بالأنانية والجحود ..
وكان يجب أن أنزل على حكم العقل .. فأبى لم يكن

يتجاوز التاسعة والثلاثين من عمره .. كان شابا .. وكان من
حقه أن يتزوج .. بل انى ساءلت نفسى أكثر من مرة : لماذا
لا يتزوج .. وكنت كلما رأيت سيدة جميلة أتصورها
زوجة له ..

ولكنك لا تعرف ما كان بينى وبين أبى .. لا تعرف أنى
لم أكن له مجرد ابنة ، بل كان لى عليه كل حقوق الزوجة ..
لقد تفتح وعيى وأمى مطلقة .. كانت قد طلقت وعمرى
لايتجاوز العامين ، وتزوجت من آخر ، وتركتنى لأبى ..
ولا أدرى لماذا طلقت أمى ، ولا لماذا تركتى لأبى وأنا فى
هذه السن الصغيرة !؟.

لماذا تخلت عن حضاتى .. وتنازلت عن حقها فى ..
وحرمتى من حقى فيها ؟

لست أدرى .. فقد كان أبى وأمى كلاهما يتحفظ فى رواية
قصة طلاقهما ، وكان أفراد العائلة يتبادلون النظرات المريبة
كلما جاء ذكر هذا الطلاق أمامى ، وكنت أنا قد نشأت وقصة
هذا الطلاق ملقاة وراء ظهرى ، لا أفكر فيها الا نادرا وفى
فترات متباعدة .. فاذا ما فكرت فيها أحسست انى تائهة
وسط ضباب كثيف ، أو انى أمام صندوق مغلق ملقى فى
البيت .. ولا أملك مفتاحه !!

كل ما علمته ان أبى تزوج أمى عن حب .. وان جبهما
وزواجهما أثارا ضجة وسط العائلتين، وكلتا العائلتين عارضت
فى الحب وعارضت فى الزواج .. حتى اضطرا—أبى وأمى —

أن يهربا ويتزوجا ، ويضعا العائلتين أمام الأمر الواقع ..
وكان أبى أيامها فى الثالثة والعشرين من عمره ، وأمى لاتتجاوز
السابعة عشرة ..

ولكن هذا الحب العنيف لم يستطع أن يحمى الزواج ،
فانفض بعد ثلاث سنوات بالطلاق .. ولم يبق من آثاره
سواى !!..

وقد نشأت وأنا أحمل أمى مسؤولية فشل زواجها بأبى ،
ولا أدرى لماذا .. ربما لأنى كنت ملتصقة بأبى أكثر من
التصاقى بها .. ولأنى كنت أحس بأنى مسئولة عن الدفاع
عن أبى وعن تصرفاته حتى لو كان ضمن هذه التصرفات
طلاق أمى .

وقد وهب أبى حياته كلها لى ..

كان يشرف بنفسه على كل دقيقة من عمرى .. كان
يراقب بنفسه مواعيد تناولى الطعام ثم يجلس معى الى أن
أفرغ منه ، وكان يدخل بى الى الحمام ويغسلنى بيديه ، وكان
يشترى لى ثيابى ، ويقوم الليل بجانب فراشى اذا مرضت ،
ويقرأ دائما كتب الأطفال ليروى لى منها القصص ، ويقرأ
كتب التربية والطب ليتعلم كيف يرينى وكيف يعتنى بى ..
وهى كتب لا يزال يحتفظ بها فى مكتبته حتى اليوم ..

ولم يكن يكتفى أبدا بالمرييات الأجنبية اللاتى
يستأجرهن ، بل كانت كل منهن لا تحتمل ولا تطبيق شدة
اهتمامه بى فتهجر البيت لتحل أخرى محلها .. وكان كل

ذلك على حساب شبابه .. لقد باعنى هذا الشباب فلم يتمتع به نفسه .. لم أعرف عنه انه تغيب يوما عن موعد الغداء ، أو أنه تأخر عن العودة الى البيت فى المساء قبل أن أنام .. ولم أعرف عنه ان فى حياته امرأة .. كل ما كنت أعرفه عنه انه تعود أن يشرب ثلاث كؤوس من الويسكى كل ليلة .. يشربها فى البيت وهو جالس يقرأ أو يستمع الى الراديو أو الى « الريكوردر » ..

وكان أول ما تفتح عليه احساسى بعد أن تعدت دور الطفولة هو انه ليس فى الحياة الا أبى ، وليس له الا أنا .. ثم بدأت أحس بوضعى فى البيت .. أحس بأنى «السيدة» الوحيدة فيه . وكان بيتا كبيرا فى الدقى مكونا من مطابقين ، ذا حديقة كبيرة ، تملكه العائلة .. وكنت أنا وأبى تقسم فى الدور الأول ، ويقوم عمى فى الدور الثانى .. وهو عم أعزب، لم يتزوج فى حياته انما عرف عنه كثرة مغامراته النسائية .. وكانت شخصيته تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية أبى ، كان أكبر منه بعام واحد ، وكان فنانا يهوى الرسم بالزيت ، وكان بوهيميا فى حياته ، يسخر من كل شىء حوله ، ويتكلم كثيرا ، ويضحك كثيرا ، ولا يحمل هما ، ولا يعأ بشىء ، ولا يبقى على شىء ..

لم يكن يشترك مع أبى الا فى حبى .. كان يحبنى ، ولكن مظاهر حبه كانت تختلف عن مظاهر حب أبى .. فلم يكن فى حبه يتحمل مسئوليتى ، انما يدلننى كثيرا ويفرقنى

دائما في فيض من الهدايا والقبلات .. وكنت أحبه ، وأميل
الى مرحة ومداعباته ولكنى لم أكن أقدره تقديري لأبى ..
كان أبى هو مثلى الأعلى في الرجال ، بجده ووقاره ، وكان
عمى في نظرى شابا عابثا ، ولكنه لا يصلح أبا لى ولا لآى
فتاة أخرى ..

وعندما تقدم بى العمر ، وأصبحت فى الثامنة أو التاسعة
من عمرى ، بدأت أعتبر نفسى مسئولة عن هذا البيت الكبير
بمن فيه ..

وقد اتخذت هذه المسئولية مظهرا أكبر من سنى .. كنت
أتعهد أن أبدو جادة أمام الخدم .. حتى عندما جاءت الينا
« دادا حليلة » وأصبحت بمثابة أُمى .. كنت دائما أضع بينى
وبينها حجابا ، وأشعرها انى السيدة وهى الخادمة ، فلم
أكن أسمح لها بتقبيلى ، ولم أكن أسمح لها بأن تجلس
بجانبى ، انما تجلس دائما على الأرض تحت قدمى وهى
تروى لى القصص وأخبار الجيران ، ولم أكن أسمح حتى
بأن تنادينى باسمى مجردا ..

وأذكر انها قالت لى يوما ضمن حديثها :

— يا نادية يابنتى .. مش كده ..

فنظرت اليها نظرة عنيفة وقلت فى جفاف :

— من فضلك يادادا .. أنا مش بنتك !!..

وأحسستُ بالصدمة تكاد تخلع قلبها .. ولكنها حنت

رأسها وقالت فى ذل :

— أصلى ياست نادية كنت عايزة أقول ...
وأكملت حديثها ..

وقد بدأت أتلذذ بهذه المسؤولية وهذه السلطات التي منحتها لنفسى فى البيت ، والتي شجعتنى عليها أبى .. فبدأت أتعمد القاء الأوامر الى الخدم ، وأتلذذ وهم يهرعون الى تلييتها .. وأتعمد افتعال الأسباب اللومهم وأحيانا لطردهم من البيت ، وأتلذذ وهم يقفون أمامى صاغرين أو يخرجون من البيت أذلاء .. كانوا قد عرفوا انى صاحبة الأمر والنهى ، وان كلمتى لا ترد ، مهما كان فى هذه الكلمة من عبث الصغار ، وكانوا قد عرفوا أن غضبى من غضب أبى .. وان أبى يهون عليه أى شىء الا أن أغضب أو يسمح لأحد باغضابى ..

وكنت قد اعتبرت نفسى مسئولة عن كل ما أستطيع أن اعيه من حياة أبى .. كنت أهتم بطعامه وأجلس معه الى المائدة — عندما لا أكون فى المدرسة — وأحتم عليه أن يأكل من كل صنف أقدمه له ، وكنت أدخل غرفه وأشارك الخدم فى اعدادها ، وأقف معه وهو يرتدى ثيابه فأناوله الحذاء والجورب وأختار له رباط العنق .. وأجلس معه فى المساء وهو يتناول كؤوس الويسكى الثلاث ، وأحاول بكل ما أوتيت من ذكاء أن أفهم حديثه عن العزبة وعن القطن والقمح والفلاحين ..

وكان أبى سعيدا بهذا التدخل من جانبى فى حياته وفى حياة البيت .. وكان يشجعتنى عليه ، وكان يطلعنى شيئا

فشيئا على مركزنا العائلى وتفاصيل حالتنا المالية ، كأنه كان
يعدنى للحياة !

وتماذيت الى أن أصبحت أحاسبه .. كنت أحاسبه كلما
تأخر عن مواعده ، وأحاسبه اذا قال لى انه باع فدانا من
أراضيه ، وأحاسبه كلما تشاجر مع عمى .. وكان أسعد
ما يكون عندما يسمعى أحاسبه .. وكان يؤدى الحساب
أمامى كأنى زوجته أو أمه !..

الى هذا الحد بلغ تدليله لى ..

وقد شغلتنى هذه الحياة عن طفولتى وصبأى .. لم أكن
أميل الى اللعب مع البنات بقدر ما أميل الى القاء أوامرى
على الخدم ومراقبة تنفيذها .. ولم أكن أميل الى الحديث
مع صديقاتى والجلوس اليهن بقدر ما أميل الى الحديث مع
أبى والجلوس اليه .. بل لم أحاول أن تكون لى صديقات..
وليس لى صديقات حتى اليوم ، وكل من عرفتهن ليس
بينهن صديقة .. كلهن بنات جمعتنى بهن الصدفة أو الزمالة،
وكلهن كنت أتعمد انتقاءهن من مستوى أقل من مستواى،
وأعرفهن لفترة ، ثم أقاطعهن أو أهملهن .. وربما كنت أعرفهن
لمجرد حاجتى اليهن فى تنفيذ خطة خطرت لى أو لتسليتى ساعة
فراغ ، ثم أنساهن بمجرد قضاء حاجتى منهن .. ولم تستطع
واحدة منهن أن تدخل حياتى ، أو تكون موضع سرى أو
تشغل حيزا من قلبى ..

لم يكن فى حياتى انسان الا أبى . . ولم يكن فى قلبى
الا أبى ..

حتى عندما بدأت أحس بأنوثتى ، وعندما بدأ ذهنى
يتفتح عما يدور بين الصبيان والبنات .. لم يستطع صبرى
من أولاد الجيران أو من الصبيان الذين كانوا يلاحقوننى أن
يثير اهتمامى .. كنت أعتبرهم جميعا « عيال » ، وكنت أسمع
عن مغامرات زميلاتى مع هؤلاء « العيال » فأسخر منهن ،
وأدبر « المقالب » لأفرق بين كل منهن وصديقتها .. ثم
أضحك الى أن ينتابنى الندم على ما فعلته فأبكى ..

ورغم ذلك فقد كان « العيال » من أولاد الجيران ، وممن
يلاحقوننى .. يشبعون غرورى .. كنت لا أتصور أن يمر
أحدهم بى دون أن يلتفت الىّ ، ولا أتصور أن يبدى أحدهم
اهتماما بفتاة أخرى أكثر من اهتمامه بى ..

وأذكر وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى أن بدأ شاب من
أولاد الجيران يلاحقنى .. كان أجمل شباب الحى ، وابن
أكبر وأغنى عائلة فيه .. وكان عربيدا مدللا يملك سيارة
يطوف بها شوارع الحى ليل نهار ، ويزعج سكانه بالأبواق
المختلفة الأنغام التى تحملها سيارته .. كان حلم بنات الحى ..
واسمه حسن ..

ولم يكن حسن يتجاوز السادسة عشرة من عمره ..
وقد تعود أن يطوف حول بيتى عدة مرات كل مساء
— بعد موعد عودتى من المدرسة — ثم يضغط على أبواق

سيارته بطريقة تخرج نعم اللحن المعروف : « خد البزة
واسكت ، خد البزة ونام » !! .. وكان ينتظرنى الى أن أخرج
فى سيارتنا وحدى أو بصحبة أبى فيقود سيارته ورائى
ويلاحقنى بنفس النغم .. ولم أكن أدخل دارا من دور
السينما أو أطوف بالمحال التجارية ، أو أسير على الشاطيء ،
الا وأجده ورائى ..

وعرفت بنات الحى أن حسن يلاحقنى وأنه يحببنى ..
واعتبر حسن انى أصبحت له ، وأنه صاحب الحق الوحيد
فى ملاحقتى .. فكان يتشاجر مع كل فتى آخر يحاول نفس
محاولته .. وقامت فى الحى أكثر من معركة عنيفة بين الفتيان،
بسببى وبسبب حسن ..

كل ذلك دون أن ينال منى شيئا . لم ينل حتى مجرد
ابتسامة . بل انى كنت أتعهد أن أحده بنظرة احتقار كلما
وقعت عيناي عليه . نظرة يستقبلها واجما ثم يفيق منها ليعاود
ملاحقتى .. كنت فعلا أعتبره « عيل » ، ولم يكن يثير فى
شيئا ، ولا يستحوذ على بعض تفكيرى أو بعض قلبى ..

كل ما كان يثيره هو ارضاء غرورى .. وكلما تمادى فى
ملاحقتى وتماديت فى صده .. تمادى غرورى فى فهمه .. حتى
أصبح مروره أمام البيت كل مساء وسماعى لحن : « خد
البزة واسكت » كأنه وجبة طعام أشبع بها غرورى ..
وتعب حسن من ملاحقتى ..

وتعب من التوسل لبنات الجيران لاقتاعى بأن أقابله ،
أو أحادثه فى التليفون ، أو أبتسم له ..
وكنت أرفض وساطة بنات الجيران وأقول لهن أنه
« عيل » ..

وسمع أنى أصفه بأنه عيل .. وبعد أسبوع رأيتـه وقد
أطلق شاربه .. شاربا خفيفا هزيبلا كأنه ظل لأنفه فوق
شفتيه !! ..

وضحكت كثيرا عندما لمحت شاربه الهزيل .. ولكنى
بقيت مصرة على اعتباره « عيل » ، ومصرة على احتقاره ..
وفجأة انقطع عنى حسن ..

لم يعد يلاحقنى ، ولم أعد أسمع نعم « خد البزة
واسكت » ..

وبدأت أحس بالضيق .. بدأت أحس كأنى أهنت ، وكان
كرامتى ابتذلت أمام بنات الحى ..
وتقصيت حتى عرفت انه بدأ يلاحق فتاة أخرى اسمها
مرفت ..

وكانت مرفت فتاة طيبة سهلة كثيرة الضحك « مہرجة » ،
ولا أنكر انها كانت جميلة .. وكان يجب أن أترك حسن لها
وأتركها لحسن ، ما دمت لا أريده ، ولا يثير فى شيئاً
الا غرورى ..

ولكن هذا الغرور كان كافيا ليدفع خطط الشر الى

رأسى . وبدأت لا أنام .. بدأت أقاوم نفسى حتى لا أرتكب
اثما فى حق مرفت الطيبة السهلة البريئة .. ولكنى لم استطع ..
وفى يوم من الأيام ذهبت الى بيت مرفت ، وكنت أعلم
أنها ليست فيه ، واستقبلتنى أمها بترحاب واحتفاء وحنو
فقد كانت زيارتى لأحد من أهل الحى نادرة ..
وسألت فى براءة :

— مرفت موجودة ياطنط؟! ..

وأجابت وهى تمسك ييدى لتجلسنى بجانبها :

— لا والله يا بنتى .. راحت تزور بنت خالتها ..

قلت وأنا لا أزال أحتفظ ببراءتى :

— ده أنا كنت جايه أهنيها!! ..

وقالت أمها وفى عينها تساؤل :

— الله يهنيكى .. بايه ياترى!?

قلت بسذاجة :

— بخطبتها .. ولو انها لسه ما عزمتميش!!

وقالت الأم المسكينة فى دهشة :

— خطبتها!! خطبتها ملين!?

قلت دون أن أفقد أعصابى أو يهتز وتر منها :

— لحسن ال ...

ثم توقفت عندما رأيت نظرات حادة فى عينى الأم كأنها
نظرات الرعب .. وادعيت الارتباك والحيرة والخجل وأخذت
أضغط احدى يدي بالأخرى .. وقلت كأنى أتلعثم :

— هيه .. هيه مرفت مش اتخطبت؟!
وتماسكت الأم وقالت كأنها تحاول أن تكتم صرخة :
— لا يا بنتى .. ما اتخطبتش ..
ثم ركزت عيناها فى عيني وسألتنى :
— سمعتى الكلام ده منين .. مين اللي قال لك ؟
قلت وأنا أهرب بعيني من عينيها :
— بنات أصحابى ..
ثم قمت منتفضة ، قائلة :
— عن اذنك ياطنط .. أحسن بابا مستنينى .. أنا آسفة
قوى !

وودعتنى الأم المسكينة حتى الباب وداعا باردا !! ..
وكانت نتيجة هذه الخطة الساذجة الشريرة ، أن فرضت
رقابة عائلية شديدة على مرفت حالت بينها وبين لقاء حسن ..
وذهبت أم مرفت الى والده حسن تشكو لها ملاحقة ابنها
لابنتها ، فحرم حسن من سيارته عقابا له ..
وعرف الحى كله انى صاحبة « المقلب » وقاطعتنى بناته
.. ولكن الغريب أن حسن عاد الى ملاحقتى ، وعاد يمر أمام
البيت كل مساء .. وان كان قد أصبح يمر سائرا على قدميه
لا بسيارته .. وعدت بالتالى الى احتقاره والتعالى عليه
وارضاء غرورى !! ..

ولكنى تعذبت .. لا لأن الحى عرف عنى هذا «المقلب»
ولا لأن البنات قاطعتنى .. تعذبت لأنى ندمت ..

ندمت على جريمة ارتكبتها في حق صديقة بريئة ..
جريمة لم أكن في حاجة إليها . وبدأت أعانى انقباض صدرى
حتى يكاد في انقباضه يحبس الدم في عروقى .. وأعانى
الخجل من نفسى .. خجل مر جارح كأن سكيناً يشق صدرى ..
وبدأت أفتعل أزمات في البيت ، فأتشاجر خلالها مع الخدم ،
أو أكسر شيئاً ، أو أضرب كلبى حتى أدارى هذا الخجل ..
خجلى من نفسى !! ..

ومضت أسابيع وأنا . . لا أنام !!

وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة تحرمنى من النوم ..
كان هناك جانب من حياتى ، ومن شخصيتى ، يعذبنى ،
ويأكل فى صدرى وأعصابى ، ويشرب روحي ، ويتركنى
جافة صلدة كالحجر .. الحجر الجميل !

فان حبي العظيم لأبى .. هذا الحب الذى كان كل حياتى ،
لم يستطع أن يملأ فراغاً كبيراً تركته وحدتى معه ..
كنت أحبه الى حد أنى لا أستطيع أن أشكوه .. كنت
أعتبر نفسى مسئولة عن سعادته الى حد انى لم أكن أجروء على
أن أعكر هذه السعادة بشكواى .. وكنت أريد أن أقنعه
بأنى سعيدة ، وبأنه لا ينقصنى شىء ، الى حد أن أخفيت عنه
كل آلامى وكل حيرتى ..

وكانت هناك أشياء كثيرة تؤلمنى وأحتاج الى أن أفرج
عنها بالشكوى .. أشياء تمر بكل طفلة وبكل صبية وبكل
شابة .. وكانت هناك مظاهر فى الحياة تصادفنى وأحтар

أمامها وأحتاج لمن يرشدني عن حقيقتها .. بل كانت هناك
تغييرات جسمانية تمر بي ولا أفهمها ولا أجذ من أسأله عنها ..
لم أجرؤ على الشكوى اليه .. لأنني أخاف عليه من
شكواي ..

ولم أسأله عن حيرتي .. لأنني كنت أخجل منه .. ولأنني
كنت أعلم انه رجل ، وكنت أعتبر أنه لا يستطيع أن يفهم
شيئا من أمور النساء !!

لقد كان أبي علي حق عندما قال لي يوم صبحني في
سيارته ليطلعني على خبر زواجه ، ان هناك نواحي كثيرة في
حياتي كان يجب أن يبحثها معي ولا يستطيع ، لأنه لا يمكن
أن تبحثها معي الا سيدة !! ..

نعم .. هذا صحيح .. لقد كانت هناك نواح كثيرة في
حياتي لم يدخلها سواي !! ..

ولا زلت أذكر اليوم الأول الذي انطلقت فيه شارة
انوثتي .. كنت في الحادية عشرة من عمري .. وأحسست في
صباح أحد الأيام بالتغيير الجسماني الذي يلهم بي .. واستمر
هذا التغيير يلهم بي يوما بعد يوم ويصبحه ألم يشتد ساعة
بعد ساعة ، حتى وضح لي وتأكدت منه ..
وارتبكت ..

لم أدر ماذا أفعل ..

لم يكن أحد قد أطلعني على ما يمكن أن أفعله ، ولم
يكن حولي من أستطيع أن أسأله .. حتى « دادا حليمة » لم

أجروا على سؤالها فقد كان الحجاب الذى وضعته بينى وبينها يحول دون أن أطلعها على أسرارى الخاصة .. وقد خيل الى أن ما يحدث لى هو سر خاص .. بل أعز سر خاص .. وانه ليس من كرامتى أن أطلع عليه أحدا ..

ومرت أيام وأنا فى الآمى وارتباكى .. أغلق على نفسى الباب وأبكى وأضغط على معدتى حتى أكتم صرير السكين التى تمزقها .. ثم أفعّل فى نفسى أى شىء يخطر لى ويخيل الى انه ما يجب فعله .. ثم أجثف دموعى وأشد ظهرى وأضع ابتسامة بين شفتى وأخرج من الغرفة لملاقاة والدى ..

وكل ما لاحظته والدى أيامها هو الاصفرار الذى طغى على وجهى .. وقد طمأنته وقلت له انى مصابة ببرد خفيف!! .. الى أن اكتشفت « دادا حليلة » قطعة من ثيابى .. فجاءتنى واللفنة بين عينيهما ، والفرحة فوق شفثيهما ، وهى تقول :

— والنهى نفسى أزغرد ياست نادية .. عقبال ما تكبرى وأشوفك عروسة فى بيت جوزك!! ..

واستقبلت لهفتها ببرود ، ولكنى كنت حريصة على قبول نصائحتها والاستماع اليها .. كنت أستمع ، كأن فى استماعى اليها .. تنازلا منى عن كرامتى .. عن مركزى كسيده الى مركزها كخادمة!! ..

ولابد أن « دادا حليلة » أطلعت والدى على ما ألم بى ، فقد تعدد فى الأيام التالية أن يكتر من السؤال عن صحتى ،

وأن يدقق النظر في وجهي أكثر من عادته ، وأن يغالى في
تدليلي والعناية بي واجابة مطالبى .. ولكنه لم يجرؤ أبدا أن
يجعل هذا الذى ألم بى موضوعا لحديث بينى وبينه ..
وقس على ذلك كل ما كان يخطر على حياتى من
مشكلات ..

وقد كان من نتيجة حبس شكواى أن تعودت الصمت ..
كنت كثيرة الصمت .. أستطيع أن أجلس أياما دون أن
أتكلم .. بل انى أصبحت أعاقب كل من أغضب منه بصمتى ..
وهو صمت من النوع البارد الذى يثير أعصاب من حولك ..
وهذا الصمت أعاننى على أن أخفى ما فى رأسى وما فى
قلبى .. لم يكن أحد يعلم أبدا ما يدور خلف وجهى البرىء
وعينى الخضراوين .. كنت سرا مغلقة .. وكنت أتلذذ بأن
أكون سرا مغلقة ..

وعودتنى وحدثنى مع أبى ، أن أشعر بمسؤوليتى نحو
نفسى .. وكان يخيل الىّ انى مسئولة دائما عن الدفاع عن
نفسى .. الدفاع عن نفسى ضد حوادث الحياة وضد الناس ..
كنت أعتقد أن أبى لا يفهم حياة النساء .. فاعتبرت انى
أنا وحدى مسئولة عن كل ما يخطر لى فى هذه الحياة .
فكنت متحفزة دائما .. عنيفة دائما .. أسىء الظن دائما ..
وأبدأ بالهجوم دائما وأدع احتمال الشر يسبق احتمال الخير
.. وكان سلاحى الوحيد — قبل جمالى — ذكائى !! ..
وعرف عنى هذا كل من يحيط بى من أهلى وزميلاتى

وخدم البيت .. فخافوا منى .. وخافوا من ذكائى .. واقربوا
منى على حذر !! ..

ولكن أين أمى فى كل ذلك ؟ ..

لقد كانت دائما موجودة فى بيت زوجها

وهى زوجة مدللة ، لا تعرف من الحياة الا جانبها المرح ،
ولا تحمل هما الا هم اختيار ثيابها والتردد على الحفلات
واقامة الحفلات .. وليس معنى هذا انها زوجة عابثة .. ولكنها
فقط مدللة ، ولم يفقدها دلالتها حرصها على سمعتها وعلى
بيتها وعلى حب زوجها .

وكان هناك دائما شىء ضخّم كثيف يفصل بينى وبينها ،
حتى لكأنها تعيش فى دنيا غير الدنيا التى أعيش فيها ..
ولا أدرى ما هو هذا الشىء .. وربما احساسى بأنها المسؤولة
عن طلاقها من أبى هو الذى كان يقف بينى وبينها . بل انى
أحيانا كنت ألوم أبى على زواجه منها .. وكنت أعتبر هذا
الزواج غلطة فى حياته ، حتى لو كان وجودى هو نتيجة
هذه الغلطة !! .

وربما لأنى لم أكن أشبهها فى شىء حتى فى شكلى .. فأنا
شقراء لأبى ، وهى سمراء ، وعينائى فى لون عينى أبى وعيناها
سوداوان ، وأنا فارعة العود لأبى ، وهى متوسطة الطول ...
وكنت متحفظة فى شعورى وربما باردة — كأبى — وكانت
هى منطلقة الشعور تفيض أنوثة ورقة ..

ربما كان كل ذلك هو الذى يفصل بينى وبينها .. ورغم

ذلك فقد كنت أحبها ، وان كان حبا فيه كثير من التحفظ
وفيه كثير من عدم الرضا .. وكنت أزورها كل أسبوع مرة،
وقد أفضى اليوم كله معها ومع زوجها ومع اخوتي منها
— ولدين وبنت — ولكنى لم أحاول أبدا أن أدخلها في
حياتي الخاصة ، ولم تكن هى تلح كثيرا في معرفة شىء لا يبدو
لها .. ربما دون تعمد اهمالى ، وربما لأنى كنت أحس بحرج
شديد يلهم بها كلما جاء ذكر أبى وذكر حياتى معه ..

انما كنت أذهب اليها وأنا سعيدة .. لأنها كانت مرحلة ..
لا أترك اليوم يمر دون أن تضع فيه الكثير من مرحها ..
وكانت فى كل مرة أذهب اليها تجلس الى البيانو وتعزف
عليه لحن « رقص الهوانم » ثم تعلمنى الرقص البلدى ..
وقد تعلمت الرقص فعلا وأجدته ، ووصل اعجاب أُمى برقصى
الى حد أن صنعت لى « بدلة رقص » حمراء ، كانت تلبسها
لى وأنا أرقص أمامها ، دون أن يكون معنا أحد .. وقد
ظللت أرقص لها الى أن أصبحت فى الرابعة عشرة من عمري ..
فأضربت عن الرقص ..

هذه هى أُمى ..

لم يكن لها أبدا نصيب فى حياتى ، ولم تستطع أبدا أن
تعرف ابنتها ..

* * *

هذه — باختصار — هى أنا ، كما كنت يوم أطلعنى أبى
على نأى زواجه ..



... صنعت لي أمي « بدلة رقص » حراء كانت تلبسها لي وأنا أرقص أمامها ...
وقد ظلت أرقص لها إلى أن أصبحت في الرابعة عشرة من عمري ...

ووصلنا الى البيت ..

ونزلت من السيارة وصعدت السلم كأنى أصعد الى عالم
جديد مجهول لا أعرفه ..

واستقبلنى عبده السفرجى ، وخيل الىّ أن تحيته فيها
برود .. وكأنه قد عزلنى عن العرش الذى أجلس عليه ..
عرش « سيدة البيت » ..

وتقدمت سيدة شابة ترحب بى ..
وعرفت أنها زوجة أبى ..



كانت سمراء .. كأمى .. وكانت فى السابعة والعشرين
من عمرها ..

لم يكن أبرز ما فيها جمالها .. انه جمال من ذلك النوع
الذى تفترض وجوده مقدما ، كجمال الشجر وجمال الغروب
وجمال ملايين النساء .. جمال لا يبهرك ولا يلوى عنقك ،
ولكنك تفقده ان لم تجده أو تمر به ..

وربما كان أبرز ما فيها هو هذا الهدوء الذى يشع منها
كأنه عبير عطر مهدى للأعصاب .. كان كل ما فيها هادئا ..
نظرات عينيها ، وابتسامتها وعقصة شعرها ، ولون ثوبها
المحتشم ، ومشيتها ، وصوتها الخفيض ، وحديثها المسترخى
العف ..

وكان هذا الهدوء يدفعك الى احترامها والى الاطمئنان
اليها والثقة بها ..

ورغم ذلك فعندما قدمنى اليها أبى لأول مرة ، لم أستطع
أن أقابل هدوءها بهدوء .. لم أستطع أن أسيطر على ابتسامتى
فكادت تقع من فوق شفتى ، ولم أستطع أن أسيطر على يدي
وأنا أمدتها لمصافحتها فارتعشت فى يدها ، وبحث عن كلمة
فى رأسى أنطق بها فلم أجد فى رأسى الا دويا مرتبكا كصوت
الراديو عندما لا يكون مضبوطا على محطة الاذاعة ..

ووقف أبى بيننا .. بين زوجته وابنته .. مرتبكا هو
الآخر ، مكتفيا بإبتسامة بلهاء ليس لها معنى ..
وكانت هى أول من تكلمت ..
قالت وهى تلفنى بنظرات طيبة حنونة :
— أهلا بنادية .. ده اتنى أحلى كثير من صورتك ..
قلت وأنا أأنتم :
— مرسى ياطنط ..

وابتسم أبى عندما سمع كلمة « طنط » كأنه وجد فيها
حلا لاشكال .. وقال وهو لا يزال يحاول أن يخفى ارتباكها:
— اسمحوا لى أنزل شوية .. عندى مشوار .. ومش
حاجيب أكثر من نصف ساعة ..
وتركنا وحدنا ..

وجلسنا فى البهو . وبدأت طنط « صافى » — وهو اسم
الدلع « لصفية » — تبذل مجهودا كبيرا لتشدنى معها فى
حديث طويل .. ولكنى كنت متحفظة ، وكان شىء فى رأسى
يدفعنى بعيدا عن حديثها ..

كنت أفكر فى حياتى الجديدة معها ، وفى وضعى الجديد
بالنسبة لأبى ، وبالنسبة للخدم ، وبالنسبة للبيت ..
من فىنا سيدة البيت ..?
هى طبعا ..

وأنا .. ما هو وضعى ، وما هو نصيبى !!?
ولم أستطع أن أحدد وضعى الجديد فى البيت .. كنت

أضن بأن أتنازل عن حق من حقوقى التى اكتسبتها على مر
عمرى ، وكنت أعلم انى يجب أن أتنازل عن الكثير من هذه
الحقوق .. سواء أردت أو لم أرد !.

وكنت عندما أضيق بفكرى أنظر إليها وهى تتحدث
وأسائل نفسى .. ألم يجد أبى أجمل منها !?

وهل كنت أفضل أن يختار أبى زوجة أجمل من هذه ؟..
ربما .. فلو انه اختار زوجة جميلة خليعة مدللة طائشة ..
من هذا الصنف من النساء اللاتى كنت أعلم انهن يلاحقنه
للزواج به ، لوجدت مائة سبب لأكرهها وأكد لها .. أما
هذه الزوجة الهادئة المحترمة المحتشمة .. فكيف أكرهها ،
وأى عذر لى اذا كدت لها ، أو سلطت عليها روح الشر التى
تعيش فى صدرى ؟..

لقد أحسست منذ اللحظة الأولى أن هذه السيدة أقوى
منى .. أقوى منى بطبيعتها ، وحرصها على أن تسعد أبى
وتسعدنى ، وحرصها على البيت الذى يضمها .. حرصها على
أن تبقى دائما فيه ..

وطالت جلستنا سويا .. وتحدثنا فى عشرات الموضوعات
عن المدرسة ، وعن الخدم ، وعن العائلة ..

حدثتنى عن نفسها .. وسألتنى عن نفسى ..

وطالت غيبة أبى .. فاستأذنت فى أن أنصرف الى غرفتى
لأبديل ثيابى ، فقامت معى وهى تقول :

— أنا سمحت لنفسى أدخل أودتك واتى فى المدرسة .

واسمحيلي أهنيكى على ذوقك .. كل حاجة فيها جميلة
وحلوة زيك ..

وأحسست انها تعالى فى رأيها .. فلم تكن غرفتى جميلة
الى هذا الحد .. لم يكن البيت كله جميلا قبل أن تدخله ..
انما كان بيتا مزدهما بقطع الأثاث الثمينة القديمة ، رصت
بجانب الجدران بنفس النظام الذى رسمته أمى قبل أن تطلق
من أبى منذ أربعة عشر عاما . ولم أحاول أنا ، ولم يحاول
أبى ، أن يبدل أحدنا من هذا النظام ، أو يضيف شيئا جديدا
الى الأثاث العتيق ..

كانت غرفتى هى الغرفة الوحيدة التى تضم أثاثا جديدا ..
ولم يكن لى فضل فيها .. كل ما هناك أن أبى — بعد أن
كبرت — استدعى « بنترومولى » تاجر الأثاث ، وأوصاه
بصنع غرفة لى .. وتولى بنترومولى اختيار طرازها — وكان
« ستيل مودرن » — وتولى تنظيمها .. حتى لون الستائر ،
ولون الجدران ، والصور المعلقة .. كلها اختارها بنترومولى
بنفسه دون أن أتدخل فيها .

كانت غرفة ثمينة .. ولكنها لم تكن جميلة .. أو أن
جمالها كان مصنوعا ، لا يعبر عن شخصى ، ولا عن ذوقى
الخاص ..

ولم تحاول « طنط صافى » أن تبدل شيئا من غرفتى ،
ولكنها قلبت البيت كله رأسا على عقب ، دون أن تضيف
اليه شيئا جديدا .. اكتفت بنقل قطع الأثاث ، كل مكان

الأخرى ، ونقل قطع السجاد من غرفة الى أخرى ، وتنسيق
أواني الزهر وقطع الخزف الكثيرة الجميلة .. بحيث أصبح
البيت كأنه شيء جديد ، وكان كل ما فيه اشترى خصيصا لها ،
بمناسبة زواجها !

لقد كانت « ست بيت » ..

وتركتنى طنط صافى على باب غرفتى .. وأغلقت على
نفسى الباب .. ثم ارتيمت فوق فراشى أبكى !! ..
ولم أستطع أن أفسر سبب بكائى .. ولكنى لم أبك
أبدا بمثل هذه الحرارة ، ولم تنطلق دموعى أبدا بمثل هذه
الغزارة .. كأنى كنت أعتصر دمي كله دموعا .. وكأنى فقدت
أبى الى الأبد !!

وحبست نفسى طويلا فى غرفتى .. وبدأت أحس أن هذه
الغرفة هى كل ما بقى لى من البيت الكبير !! ..
وعندما حان موعد العشاء جاء أبى يدق على بابى ..
ومسحت دموعى ، وأصلحت شعرى وثوبى قبل أن أفتح
له .. وقال فى مرح وقد خيل الىّ انه صغر عن عمره عشرة
أعوام :

— اتتى فىن يا نادية .. كلنا مستنيينك على العشا ..
قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— أصل سريرى كان واحشنى .. نمت فيه شوية !! ..
ونظر أبى فى عينى يحاول أن يرى ما فى قلبى ، ثم قال
كأنه يحاول أن يطرد أوهاما طافت برأسه :

— طيب ياللا قوام .. ده احنا عاملين لك حفلة !!..
وارتديت ثوبا جديدا .. وعقصت شعري بحيث جمعته
في مؤخرة رأسي ، وكنت أبدو هكذا أكبر سنا مما أبدو
عندما أطلقه في ضفيرتين فوق صدري .. كنت أريد أن أبدو
كبيرة .. كزوجة أبي !!..

وانضمت اليهم في البهو .. كان أبي جالسا وأمامه كأس
الويسكي .. وكانت زوجة أبي تجلس بجانبه وقد ارتدت
ثوبا أسود من قماش « الفاي » اللامع .. ثوب محتشم يغطي
ذراعيها وعنقها ، ولكنه أنيق رشيق كأنه قطعة من جهاز
عروس .. وكانت تشرب كوبا من عصير التوت .. وكان
عمي عزيز—وقد قلت انه يقيم في الدور العلوي من البيت—
جالسا قبالتها ، يضحك كعادته ، ويشرب أكثر من عادته ..
واستقبلتني طنط صافي فرحة بي كأنى ابنتها .. وابتسم
أبي كأنه يتباهى بي وبجمالي .. واحتضنني « أونكل عزيز »
بين ذراعيه وقبلني فوق وجنتي .. وقال وهو يضحك :

— خلاص ما دام بابا اتجوز ، لازم اتنى كمان تتجوزى..
قلت وأنا أحاول أن أضحك :

— اذا كنت ترضى تتجوزنى . أنا مستعدة أتجوز

حالا !!..

قال وهو يقهقه :

— أنا متأكد ان أبوكى ما يرضاش بيه !

قلت :

— وهو حيا لى أحسن منك يا أونكل ..
ثم نظرت الى أبى وقلت وأنا لا أستطيع أن أخلص صوتى
المرارة :

— زمان وأنا صغيرة كنت عايزة أتجوز بابا !! ..
وقالت زوجة أبى فى صوت برىء مرح :
— أنا متها لى انه ما فىش راجل فى الدنيا يستاهل ناديه!! ..
قلت وأنا أتحداهما :

— حتى بابا !!? ..

قلت فى لباقة :

— وهو فىه راجل فى الدنيا زى بابا كى !! ..
وما كدت أجلس فى مقعدى بجانب عمى ، حتى جاء
عبده السفرجى يقدم لى كوبا من شراب التوت ..
من الذى علم عبده أن يقدم لى شرابا لم أطلبه منه !!? ..
ان عبده يخدم فى البيت منذ خمس سنوات ، ورغم
ذلك لم يفكر أبدا فى تقديم شىء لى لم أطلبه منه .. ولم
يتعود أن يقدم للضيوف سوى القهوة ، أو كؤوس الويسكى
إذا كانوا من أصدقاء أبى الخصوصيين ..
ثم ما قصة شراب التوت هذا !!? ..

انى أعلم ان فى «التريجيدير» دائما زجاجات الكوكاكولا
والغازوزة ، ولم يكن فيها أبدا شراب التوت أو أى نوع
آخر من الشراب !!? ..
ماذا حدث !!? ..

انها هى .. سيدة البيت !! ..
هى التى أدخلت فى الفريجيدير شراب التوت ، وهى
التى علمت عبده السفرجى كيف يقدمه قبل العشاء ..
انه عالم جديد تبنيه بيديها لأعيش فيه أنا وأبى .. عالم
لم أستطع أن أوفر مثله عندما كنت أنا سيدة البيت !! ..
وانتقلنا الى مائدة العشاء ..

جلست هى على رأس المائدة ، وأبى عن يمينها ، وعمى
على يسارها ، وأنا على الرأس المقابل ..
وظاف السفرجى بأطباق الطعام .. فكان يذهب اليها
أولا .. ويضىء الى بعدها !! ..

وكان هذا هو النظام الطبيعى الذى يجب أن يسود
البيت .. هى الأولى وأنا الثانية .. ولكنى صدمت بهذا
النظام الطبيعى .. كنت قد تعودت أن أكون أنا الأولى ،
وأنا الوحيدة .. وكنت قد تعودت أن أجلس على رأس
المائدة !! ..

ودار الحديث بيننا خلال تناول العشاء ..
كنت أنا أقلهم حديثا .. وكنت آخر من يوجه اليها
الحديث !?

كان عمى يوجه حديثه كله اليها ، ولا يصيبنى منه
الا تعليقات عابرة ..

وكان أبى يتحدث أكثر مما تعودت منه .. لم يكن جادا
وقورا كما عودنى ، بل أصبح يجارى عمى فى حديثه الكثير

ويبادلہ النكات المتحفظة ، وينظر الى زوجته بين كل لقمة
وأخرى كأنه يشكرها على هذه النعمة ..

وكانت هي لبقة في ادارة دفة الحديث .. تديره بحيث
تحاول أن يشترك فيه الجميع حتى أنا ..
وقالت لى :

— أنا عرفت من بابا انك تحبى المسقعة .. فوصيت
الطباخ يعملها مخصوص علشانك !!
وفعلا كنت أحب المسقعة .. ولكنى فى هذا اليوم لم
يكن يهمنى أن آكل « مسقعة » أو غيرها ، بل ربما كنت
أفضل ألا آكل اطلاقا ..

وقد عودتنى زوجة أبى بعد ذلك أن تصنع كل ما أحبه ..
وكانت تعالى فى ذلك لكى ترضينى .. ولكنها أخطأت ..
فهذه المجاملات التى كانت أحيانا تصل الى حد النفاق ،
كانت تضايقنى وكانت تشعرنى اننى ضيفة فى هذا البيت
ولست صاحبتة .. وقد حاولت كثيرا أن أترحر من هذه
المجاملات ، فكنت أخفى عنها ذوقى الخاص فيما أفضله
وما لا أفضله ، وكنت أتعمد أحيانا أن أقبل على أشياء
لا أحبها ولا تعجبنى ، حتى أحيروها فى معرفة ذوقى .. ولكنها
استمرت دائما تحاول أن ترضينى ، وتحاول أن تقنعنى بأنى
أهم انسانة فى البيت ..

ترى .. لو انها لم تحاول أن ترضينى الى هذا الحد ،
هل كنت أصفح عنها ؟ ..

لا أظن .. وقد عرفت فيما بعد أن ما كان يضايقنى منها
ليس هو محاولة ارضائى ، بل كان ما يضايقنى هو انها تسد
كل الأبواب التى يمكن أن أنفس خلالها عن كراهيتى لها ،
وحقدى عليها ، وأطلق منها عوامل الشر التى تعتمل فى قلبى ..
واتمهنا من العشاء ..

وعدنا ثانية الى البهو ..

وجلس عمى قليلا ريشما شرب القهوة ثم استأذن وانصرف ..
وجلست طنط صافى بجانب أبى تطرز قطعة القماش
« منياتير » وأخذت أنا أدير بعض أشرطة الريكوردر .

كانا يتحدثنان فى همس كأنه حديث جب .. وكان همسهما
يرتفع أحيانا حتى أسمعهُ وأنا بجانب الريكوردر ، وأحيانا
ينخفض حتى لا أسمع منه الا رفيفا هادئا كأن شفاهما
أجنحة ملائكة تسبح فى الهواء ..

وبغته . أحسست أنهما سكتا عن الهمس .. وان سكوتهما
قد طال .. فاستدرت اليهما فاذا به ينظر اليها نظرات ولهى
كأنه يقبل كل قطعة منها برموش عينيه .. واذا بها تتشاغل عن
عينيه بالنظر الى قطعة القماش التى تطرزها ، وقد اصطبغت
وجنتاها بلون الورد ، واذا بهما هما الاثنان ينظران الىّ فى
صمت ثم يتبادلان النظرات أحدهما مع الآخر .. كأن بين
عيونهما حديثا يشوّه وجودى بينهما ..

وغلى الدم فى عروقى ..

أحسست انى انسانة متطفلة ثقيلة ، وانى غريبة عن هذا البيت ..

أحسست — لأول مرة — ان ابى لا يريدنى بجانبه ..
وأنه يريد أن يتخلص منى ويزيحنى من أمامه ..

وأحسست كأن شيئاً فى صدرى يبكى ويمزق نفسه ،
وأن قشعريرة باردة تدب فى أعصابى ، وان جلدى «يتكرمش»
فوق عظامى ، كنت أريد أن أثور .. أن أحطم شيئاً .. أن
أهجم على أبى وأهزه من كتفيه لينتبه الى وجودى ..
ليذكرنى .. انى كل شىء فى حياته !!..

وضغطت على أعصابى بقسوة ، وقررت أن أنسحب ..
وقلت وأنا أحس بثقل فى لسانى كأنه قطعة من الطوب :
— بونسوار بأه .. أنا داخلة أنام !

وقال أبى فى استرخاء وبلا حماس كأنه يطردنى :

— ما تنسيش تقفلى باب الفراندة !

وقالت طنط وهى تفتعل الالاح :

— حتنامى بدرى كده !?

قلت وأنا لا أستطيع أن أبتسم :

— أصلى تعبانة ياطنط ..

وانحنيت على أبى أقبله كعادتى .. وكان حبه لى استيقظ
عندما لمست شفتاه وجنتى ، فضمنى الى صدره فى حنان
كبير ، وزاد على قبلته التى تعودتها ، قبله أخرى أكثر حنانا
وأكثر حبا .

ومددت يدي الى زوجة أبي ، فجذبتني اليها وضممتني
هي الأخرى الى صدرها ، وقالت وهي تضغط خدها على
خدي :

— تصبحي على خير يا حبيبتي !!..

كان في صوتها — كما أذكره الآن — رنة اخلاص
وصدق وحب ، ولكن أذني كانتا قد سدتا عن التقاط أي
رنين ، الا رنين قلبي وهو يتأرجح بين ضلوعي ويتخبط بينها
كأنه جرس كنيسة في قرية صغيرة يدق في قسوة وتحذير
ليعلن نبأ هجوم الشياطين !!..

ودخلت غرفتي وأغلقت بابها بالمفتاح .

ولم يكن من عادتي أن أغلق الباب بالمفتاح .. ولكنني
في هذه الليلة أدت المفتاح في ثقب الباب بحركة تلقائية ،
دون تعمد ، وكأن هاتفا في نفسي كان يحاول أن يحميني من
مجهول سيدخل اليّ أثناء نومي ، ويشدني في فراشي ، ويلقي
بي في النار .. نار الحقد ، ونار الاحساس بالتفاهة ..

وخلعت ثيابي بيدين عصيتين وكأني أمزقتها عن جسدي
.. ثم ارتيمت فوق الفراش وعلقت عيني بالسقف ..

لم أبك ..

ولم أنم ..

وظلت عيناى معلقتين بالسقف وصور من حياتي تمر في
خاطري وتختلط بالضجيج الذي يملأ صدري ، وتحترق في
النار التي تندلع من أعصابي ..

وكانت غرفتي لاصقة بغرفة أبي ، والغرفتان تفتحان على شرفة واحدة تطل على الحديقة .. وكثيرا ما كنت أذهب اليه عن طريق الشرفة ، وكثيرا ما كان يأتي الى عن طريقها ، وكثيرا ما كنا نقف فيها نحن الاثنين ، هو بالبيجاما وأنا بقميص النوم ، نتحدث حديثا طويلا لا نهاية له ولا بداية ، ولا يربط بعضه ببعض الا حبي وجه ..

وسمعت أقدام أبي وزوجته وهما متجهان الى غرفتهما..

وسمعت أبي يضحك ضحكة خفيفة .

وسمعت ضحكتها تختلط بضحكته كأنها قطع السكر

تذوب في فجان الشاي الساخن ..

ثم سمعتهم يغلقان الباب وراءهما .

ولم أعد أسمع شيئا ..

ولكن خيالي انتفض فجأة نشطا مفتحا ، ليصور ما يمكن

أن يحدث بينهما .. بين الرجل وزوجته .. في غرفة النوم !!..

خيال فتاة في السادسة عشرة من عمرها .. لم تعرف

الرجل من قبل .. ولم تسمع عما يدور في غرفة النوم الا في

كلمات عابرة التقطتها من أفواه صديقاتها وزميلاتها

المراهقات ..

وانطلق هذا الخيال يرسم صورا عجيبة ..

وكنت أبتسم أحيانا لبعض هذه الصور كأني أشاهد

فيلما سينمائيا مثيرا مسليا ..

وكنت أشمئز أحيانا لصور أخرى ، عندما أرسـم

بخيالى المراهق صورة عنيفة قاسية تنطلق من بين خطوطها
صرخات الألم ..

وكنت أثور وتملأنى الغيرة عندما يقفز الى خيالى نوع
ثالث من الصور .. صور ناعمة ترسم الحنان والحب ..
أثور وأغار لأن أبى الذى وهبنى عمره ، يحب ويحنو على
انسانة أخرى ..

واستبدبى هذا الخيال .. ولم يكن خيالا يقطر فى رأسى
وفى أعصابى فحسب ، بل كان يقطر سموه فى جسدى ...
كنت أحس كأن قطرات من الماء البارد تنسكب من هذا
الخيال وتقع على جسدى فى نغم رتيب متوال ، كأنها قطرات
الندى على ألواح الزجاج ..

وكان هذا هو أول احساس يلم بجسدى منذ ولدت ..
كانت هذه هى المرة الأولى التى اكتشفت فيها أن فى
شيئا حيا غير رأسى وقلبى ..
وأتعبنى هذا الخيال ..
تعبت حتى بدأت أتعذب ..

وحاولت أن أطرد خيالى من رأسى ومن جسدى .. وأصبت
بشبه حالة عصبية فكنت أضرب الوسادة بيديّ ، وأرفس
الغطاء بقدميّ ، وأتقلب على جنبىّ فى عنف كأنى أتلوى على
جمر ..

ثم قمت وأنا حافية القدمين لأغلق باب الشرفة .. وما
كدت أقترب حتى توقفت !! ..



ولكن خيال انتفض فجأة نشطاً مفتحاً ، ليصور ما يمكن أن يحدث بينهما ...
بين الرجل وزوجته ... في غرفة النوم ! ...

لقد سمعت همسا من الغرفة المجاورة ، همسا أشبه
بالتنهدات .. وألفاظا لا أكاد أتبينها حتى تضيع في الهواء
كفقاعات الصابون .. وجملا متقطعة ممزقة لا تحمل معنى
الا ما يضعه فيها خيالي من معان ..
وتأوهات .. وألم .. ونشوة .. وعتاب كأنه رضاء ..
وصد كأنه استجداء ..

وتفتحت أذناي .. أصبحت كلى آذانا مرهفة .. وخطوت
خطوة أخرى داخل الشرفة ، كأنى لصة ، وكأن خلجاتى كلها
تؤلف عصابة من اللصوص تسترق السمع .. تسرق الكنز
المحرم الذى تفتحت عليه عيناي فجأة ..

وطال وقوفى وعيناي مفتحتان كعيني البومة فى الظلام ،
وأنفاسى تتهدج وأنا أحاول أن أكتمها حتى لا تطغى على
الأصوات المنبعثة من الغرفة المجاورة .
سمعت كل شىء ..

ثم لم أعد أسمع شيئا .. سكت كل شىء ..
وأغلقت باب الشرفة ، وانسحبت الى فراشى ، وأنا أسير
بقدمى الحافيتين كالمذهولة التى تسير فى نومها ..
ولم أنم ..



وكان صباحا ككل صباح أتى بعده .

صباح يشرق فيه النور على البيت كله الا على قلبى !! ..
كان أبى يصحو من نومه كطلعة الشمس .. مرحا سعيدا
يكاد يقبل بابتسامته قطع الأثاث والجدران والخدم ، ثم
يدخل الى الحمام فيغنى تحت الدش ويرفع صوته بالغناء
حتى أسعده وأنا فى حجرتى ، وكأنه سكران أفقده السكر
صوابه .. ثم لا يكاد يرانى حتى يرفعنى بين ذراعيه كأنه
يتباهى بقوة جديدة دبت فى جسده ، وينهال على وجهى
بقبلات مسموعة تطرقع فى الهواء كأنها زغاريد تنطلق فى يوم
« الصبحية » !! ..

وكانت زوجة أبى تصحو كأن شبابها يتجدد كل يوم ،
وكان الوردة التى تعيش فوق خدها مختبئة تحت بشرتها
السمرء لن تذبل أبدا .. كانت تملأ البيت كله نشاطا منذ
اللحظة الأولى التى تفتح فيها عينيها .. تطوف بين الحجرات
لتشرف على الخدم ، ثم تختفى مع والدى حتى يرتدى ثيابه،
ثم تجلس معه على مائدة الافطار وتودعه حتى باب الحديقة
وهى تحيطه بعينيها كأنها تحرسه من الحسد .. ثم — بعد
أن يخرج أبى — تصعد الى الدور العلوى حيث يقيم عمى
عزيز ، وتشرف بنفسها على تنظيم حجراته ..

و كنت وحدى التى أصحو كأن ليلى لم ينته ... مقروحة
الجفنين ، ذابلة العينين ، شاردة الفكر ، ممزقة الأعصاب ..
و كنت أبقى فى فراشى طويلا أحاول أن أجمع أعصابى
و أسيطر على ارادتى حتى أعثر على ابتسامة أعلقها فوق
شفتى لأقابل بها أبى و زوجة أبى ..

كنت أضيّق بهذه السعادة الجديدة التى تلف البيت ..
سعادة أبى بزوجته ، و سعادتها به .. سعادة ليس لى منها
نصيب ، و ليس لى فيها فضل ..

و بدأت أبخرة الشر تملأ صدرى و تتصاعد الى رأسى ..
بخار يتصاعد من بوتقة ساحر يعدّ السم الأسود !!

وطافت برأسى عشرات الخطط ، كلها تهدم هذا البيت
السعيد .. ولكنى كنت أعلم انى سأهدم أبى اذا هدمت
بيته .. كنت أعلم انى اذا نزعت عنه زوجته فلن أستطيع أن
أعوضه عنها ..

و قد كنت أحب أبى .. أحبه الى حد أن أقتل نفسى قبل
أن أقدم على ايدائه .. و قامت فى نفسى معركة عنيفة بين هذا
الحب — حبى لأبى — و بين الحقد على زوجته ..

كان حبى ينتصر دائما على حقدى .. كنت أخنق الخطط
السوداء التى تطوف برأسى قبل أن أقدم على تنفيذها ..
و كنت أنا وحدى الضحية .. أنا التى يعتصرها الحقد حتى
يكاد الدم يجف فى عروقى .. و أنا التى يأكلها الشر حتى يكاد

لا يترك منى الا عظاما .. وأنا التى لا تنام حتى لم تعد جفونى
تسقط فوق عيني الا اعياء ..

ورغم ذلك فقد استطعت أن أخفى كل ذلك وراء وجهى
البرئ الجميل ، ووراء الابتسامة المعلقة فوق شفتى .. ولم
يلحظ أحد هزالي الا زوجة أبى — هى وليست أبى —
فأشارت باستدعاء طيبب أوصى لى بنوع من الحقن المقوية ..
كان ماؤها لا يكاد يسرى فى دمي حتى يمتصها حقدى !!
وقد حاولت زوجة أبى كل شيء لتجعل لى نصيبا فى
السعادة التى أغدقتها على البيت ..

صحبتنى الى « ريتا » صانعة الثياب ، والى « بابازيان »
صانع الأحذية .. وكانت المرة الأولى التى أفصل فيها ثوبا
أو حذاء ، فقد كنت الى أن عرفتتها أشتري كل ثيابى وكل
أحذيتى جاهزة . وكانت تقضى معى ساعات طويلة ونحن
نقلب صفحات مجلات الأزياء .. ثم كانت تقضى معى ساعات
داخل المطبخ ، دون أن تشعرنى أنها تعلمنى شيئا ، بل كانت
تبدو كأنها تشاركنى فى لعبة من ألعاب الأطفال تتسلى بها
وتقطع الوقت .. كانت تقول فجأة :

— تيجى يانادية نعمل فصل فى بابا ونطبخ له الغدا
بأيدينا !!

ثم تشدنى من يدي فى مرح وندخل سويا الى المطبخ
فتزيح الطاهى من أمام الموقد ، وتبدأ تصنع كل شيء بيديها ،
وتبدو كأنها جان دارك تقود معركة فى سبيل النصر .. تأمر

« المرمطون » بتقشير البصل .. وتأمرا دادا حليلة بعصر
القوطة .. وتأمرا الطباخ بتنظيف الفراخ .. ثم تضعنى لأراقب
المسلى على النار ..

و كنت أنهمك أحيانا فى هذه « اللعبة » المسلية ، وأحيانا
كنت أنظر إليها وهى منهمة فى الطهو ، وخصلات من شعرها
الأسود تتدلى فوق جبينها ، فأحسدها .. أحسدها على
شخصيتها القوية ، وعلى طيبة قلبها ، وعلى المرح الحلو
الذى تنثره من حولها ، وعلى الحب الذى يحيط بها .. حب
أبى ، وحب عمى عزيز ، وحب الخدم كلهم .. وكان الحسد
يستبد بى أحيانا حتى ينقلب حقدا وأكاد أفقد أعصابى ،
فأدعى انى تعب ، وأترك المطبخ مهرولة وأختفى فى حجرتى
بعد أن أقتل بابها بالفتاح ، ثم أغسل قلبى الأسود بدموعى !!
ورغم ذلك فقد تعلمت منها الكثير من شئون المطبخ ..
تعلمت كيف أحاسب الطباخ ، وكيف أعد ميزانية البيت ،
وكيف أطهو المسقعة التى أحبها والأرز بالكارى ، والشركسية
وبابا غنوج .. وقد كنت من قبل لا أدرى كيف أعد طبقا من
البيض المقلى ، وأحتر اذا ما حاولت اعداد فنجان من القهوة !!
وأكثر من ذلك ..

كانت كل أسبوع تقيم عشاء كبيرا تدعو اليه أفراد
الأسرتين ، أسرتها وأسرة أبى .. وبدأت ألاحظ أنها تهتم
كثيرا بزيتتى وثوبى فى موعد هذه الدعوات .. وانها تتعمد
دعوة شباب الأسرتين ، وأحيانا تدعو معهم بعض أصدقائهم ..

من الشباب أيضا .. وتيقنت أنها تفعل كل ذلك لتجد لى من
بينهم زوجا ..

وكان الطبيعى أن أحمد لها هذا المجهود العف الكريم
الذى تبدله من أجلى .. ولكنى لم أحمده لها .. كل ماتصورته
أنها تريد أن تزوجنى لتتخلص منى .. ليخلو لها البيت ،
ويخلو لها أبى !! ..
وبدأت أعاند ..

بدأت أقاوم جهودها لتزويجى ..

كنت أدعى المرض فى اللحظات الأخيرة قبل أن يأتى
المدعوون وأعتكف فى غرفتى .. وكنت اذا خرجت اليهم
وشاركتهم فى الحفل أتجههم فى وجوههم ، وأنقرهم منى ،
ولا أشجع أحدا منهم أو أفتح له بابا من أبواب الأمل .. كنت
أجلس بينهم وعيناي معلقتان بأبى كأنه رجلى الوحيد ..
لا أريد أن يأخذنى منه أحد ، أو يأخذه منى أحد !! ..

وربما كانت طنط صافى تلحظ تجهى ، وربما عرفت انى
أدعى المرض ولست مريضة .. ولكنها لم تحاول أبدا أن
تراجعنى فيما أفعل ، ولم تحاول أن تبدى لى استياءها ،
أو توجه لى ملاحظة ..

وقد عودتنى على ذلك .. عودتنى على أن تكون لى
صديقة ، وليست أما ولا زوجة أب .. صديقة متحفظة لها
حدود لا تتعداها .. وليس من حقها أن تحد من حريتى ،
أو تأمرنى ، أو تلومنى ..

ولكن ، هل قبلت صداقتها ؟.

أبدا ..

لقد كانت السعادة التي دخلت معها الى البيت تكاد تتجسم أمامي ، وكنت أعلم انى أستطيع أن أساهم في هذه السعادة وأن أسعد بها ، لو أن قلبى كان غير هذا القلب ، ولو أن عقلى كان غير هذا العقل ، ولو أن نفسيتى كانت غير هذه النفسية المعقدة الممزقة .. ولكن قلبى وعقلى ونفسيتى حرمتنى من السعادة ، وحرمتنى من صداقتها ..

كنت أصدها عنى .. كأن شيطاناً من خواطرى يقفه بينى وبينها ..

وكنت أهرب من حبها وطبيعتها ..

وكنت أتمنى لها الشر .. وكنت لا أزال أضع الخطط التى تهدم البيت كله عليها ، وعلى أبى ، وعلى .. ثم أقاوم هذه الخطط بكل ارادتى حتى لا أقدم على تنفيذها .. الى أن كان يوم ضعفت فيه ارادتى .

كنا جلوساً نحن الثلاثة فى البهو بعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء .. ودق جرس التليفون ، وكنت أقرب الثلاثة اليه ، فالتقطت السماعة ، وسمعت صوت احدى صديقات زوجة أبى ..

ولا أدرى أى شيطان ركبنى فى هذه اللحظة وأوحى الى بالشر .. فانى لم أرد على الصديقة التى تتحدث ، بل أخذت أكرر كلمة « آلو .. آلو .. آلو .. » .. كررتها عدة مرات

كأن أحدا لا يرد على ، ثم أعدت السماعه الى مكانها ،
والتفت الى أبى وزوجته وقلت فى سداجة بدت من فرط
المغلاة فيها كأنها تخابث :
— ما حدش بيرد !!..

وكنت أعلم — استنتاجا — أن الصديقة ستعاود الاتصال
التليفونى ما دام أحد لم يرد عليها فى المرة الأولى ..
وفعلا .. لم تمر دقيقة واحدة ، حتى دق جرس التليفون
مرة ثانية ..

وحملت آلة التليفون وقربتها من زوجة أبى ، وقلت
بنفس السداجة التى تبدو تخابثا :
خدى ردى اتتى ياطنظ ..
والتقطت طنظ صافى السماعه بمنتهى البراءة ، وأخذت
تحادث صديقتها ..

ونظرت الى أبى ، فلم أر على وجهه ما ينبىء بأنه فهم
شيئا ، أو أن الشك بدأ يساوره ، أو أنه يلقي بالا الى
ما يحدث ..

كان يدخلن سيجارته ، ويرشف فنجان القهوة ، كأهدأ
وأسعد ما يكون زوج ..

وانتهت طنظ من حديثها التليفونى .. ولم يسألها أبى
شيئا .. لم يسألها حتى عن اسم صديقتها التى كانت تتحدث.
وعاد الحديث يتصل بيننا حول الأصدقاء والثياب ..
وفجأة قلت وأنا أوجه حديثى لأبى :

— تعرف يا بابا أنا قررت انى ماكلمش صاحبتى «عليه»
تانى أبدا ..

وقال أبى فى هدوء ..

— ليه .. دى بنت كويسة ودمها خفيف ..

قلت فى براءة :

— ولا كويسة ولا حاجة .. تصور انى كنت عندها

النهارده ، وسابتنى وقعدت تكلم واحد صاحبها فى التلفون ..

وتصور انها كانت بتكلمه وماماتها قاعدة معانا ..

وقال أبى كأنه يستنكر :

— يا شيخه حرام عليكى ..

قلت وأنا أرفع صوتى وأضغط على الكلمات :

— كانت بتكلمه على أنه واحدة صاحبتها .. والغرابه

ان لسانها ما وقعش ولا مرة ، ما غلطش ولا غلطة !

وحدقت فى وجهه بعينين مفتوحتين .

أخذت أبحث فى عينيه عن معنى يرضى الشيطان الذى

يركب رأسى .. كنت أريده أن يفهم أن زوجته تحادث رجلا

على انه احدى صديقاتها .. ولكنه لم يفهم شيئا ، وقال وهو

ينفث دخان سيجارته :

— احنا مالنا ومال الناس ..

وقالت زوجته وعيناها فوق قطعة القماش التى تطرزها :

— صدق يا أحمد .. البنات اليومين دول يقدروا يعملوا

كل حاجة !! ..

وكان قولها صدمة لى ..
انها هى الأخرى لم تحس بشىء ، ولم تلمح الشر الذى
يحاول أن يتسلل اليها ليخنقها ..
ثم تعمد أبى أن يغير موضوع الحديث .
وعاد كل شىء هادئا .. كأن ليس هناك شروع فى جريمة ،
وكان الشيطان ليس هنا .. جالسا معهم .. مختفيا وراء وجه
جميل وعينين خضراوين وشعر أصفر !!
ووجدت نفسى أصمت ..
أحسست كأنى أتلفت حولى لأقيس حوائط هذا البيت
السعيد بكل ما فيه من حب وحنان وثقة ..
وتصورت كأن هذا البيت كله قد هدم .. وانى أنا التى
هدمته ببذور الشك التى أحاول أن أزرعها فى رأس أبى ،
كما يفعل عمال المناجم وهم يخفرون فى الجبل حفرا صغيرة
يدسون فيها أصابع الديناميت .. ثم يهدمون الجبل !!
وتصورت أبى وهو تحت حظام البيت بعد أن أهدمه ..
تصورته أشلاء ممزقة .. قدمه فى ناحية ، وذراعه فى ناحية
ورأسه فى ناحية .. وتصورت نفسى أحاول أن أجمع هذه
الأشلاء وألصق احداها بالأخرى لأعيد أبى الى الحياة ، الى
السعادة والحب والحنان ، فلا أستطيع .
تصورت كل ذلك فصرخت صرخة مكتومة مزقت
صدرى .. وأحسست بكل قطرة من دمي تعوى كالكلاب
الضالة وتتدافع وتزمجج وكأنى أعلنت الثورة .

الثورة على شيطان الشر ...

الثورة على نفسى !!..

وربما بدا أثر كل هذه التصورات على وجهى .. ربما كانت وجنتاى قد احتقنتا بالدماء الثائرة ، أو ربما كانت حدقتا عيني قد اتسعتا ، أو ربما كانت يداى قد ارتعشتا .. فقد أفقت من خيالى المريض على صوت طنط صافى تقول فى حنان :

— مالك يانا دية يا حبيبتى .. حاسة بحاجة !!..

قلت وأنا أهب من فوق مقعدى :

— لا أبدا .. بس يظهر انى ثقلت فى الأكل شوية !!..

قالت وفى عينيها جزع على :

— طيب خدى حبة « بيسين » قبل ما تنامى !!..

قلت وصوتى لا يكاد يسمع :

— حاضر !!..

وأسرعت الى غرفتى وأنا أكاد أقع من فوق خطواتى ..

ثم ألقيت بجسدى فوق سريرى قبل أن أخلع ثيابى .. وأنفاسى

تتهدج وعيناي معلقتان فى السقف .. ومرت فترة طويلة وأنا

تائهة فى دوامة من أفكارى السوداء ، الى أن سمعت نفسى

أهمس :

— يا رب !!..

وكان الله قد جاء ومسح بيده فوق عيني .. فبكيت !!..

وبقيت أبكى حتى سمعت خطوات أبى وزوجته متجهين

الى غرفتهما ، وسمعت ضحكته الخافتة ، وسمعت ضحكتها
تذوب في ضحكته كقطع السكر في فنجان الشاي الساخن !!
ثم سمعت باب الغرفة يغلق وراءهما وقمت من فراشي
حافية القدمين .. ودموعى لا تزال فوق خدى ، ووقفت على
باب الشرفة لأسمع همسهما .. همس الرجل وزوجته في
غرفة النوم ..
وكانت هذه قد أصبحت عادتي كل مساء ..

كان قد مضى على زواج أبى ستة شهور ، وفي كل مساء
من هذه الشهور الستة كنت أتسلل الى باب الشرفة لأسمع
هذا الهمس .. أسمع تأوهات .. وألما .. ونشوة .. وعتابا
كأنه رضاء .. وصدا كأنه استجداء !.
أصبحت كأنى على موعد معهما كل ليل .. بل أصبحت
أضيق وأتململ كلما تأخرا في دخول غرفتهما وأكاد أهم بأن
أستحشهما على خلوتهما .. كنت أقول لهما أحيانا بلا وعى :
— مش حثقوما تناموا بأه !!? .

كنت أقولها في براءة وصدق لا يبدو من ورائها شيء من
الاحساس الشاذ الذى تنبض به أعصابى .. وكانا أحيانا كثيرة
يستجيبان لدعوتى .. فيتبادلان نظرات حب فيها رغبة وفيها
حياة .. ثم يقومان الى غرفتهما ، وأكون أنا قد سبقتهما الى
غرفتى !! ..

وأحيانا كنت أقف على باب الشرفة وأطلق أذنى الى
الغرفة المجاورة لأسترق السمع .. فلا أسمع شيئا .. الا أنفاسا

منتظمة لائنين غارقين في نوم هادىء عميق .. فكنت أصاب
بخيبة أمل .. كنت أحس كأن حبيبي قد أخلف مواعده ..
أحس كأنى سأنام جائعة بلا عشاء !!..
هل هذا شذوذ !!? ..

لقد حدث ما هو أكثر شذوذا .. فان خيالى الذى يثيره
هذا الهمس المنبعث من غرفة نوم أبى وزوجته ، بدأ يتطور
حتى أصبح ينهك جسدى العف الطاهر .. وأصبحت أتصور
نفسى كل مساء فى أحضان رجل ..
هذا الرجل .. هو أبى !!..

نعم .. كنت أتصور نفسى فى أحضان أبى .. ذراعا
حول جسدى ، وأنفاسه تصهر وجهى ، وأسمع منه نفس
الهمسات التى يهمس بها لزوجته .. وأهمس فى أذنه نفس
الكلمات التى تهمس بها . الكلمات التى لا تكاد تنطق حتى
تضيع فى الهواء كفقاعات الصابون ..
كنت أتألم .. وأنتشى .. وأعاب .. وأرضى .. وأصد..
وأستجدى ! .

وكنت أتعذب ..
وكنت أعلم ما فى هذا الخيال من شذوذ ..
ودفعنى العذاب الى أن أبحث لنفسى عن طريق الفرار ..
الفرار من خيالى ! .
وبدأت أفكر بمنطق جديد عجيب :
انى لا أستطيع أن أعطى لأبى ما تعطيه له زوجته !!..

ولكن ، لابد أن هناك رجلا يستطيع أن يعطيني ما يعطيه
أبى لزوجته !!

هذا هو المنطق الجديد الذى بدأت أفكر به ، وبدأ
يوجه حياتى ..

وأخذت أبحث عن رجل ..

رجل يعطينى ما يعطيه أبى لزوجته ، ويهمس فى أذنى
نفس همساته ..

وأصبحت أنظر الى الرجال نظرة جديدة .. أصبحت أنظر
اليهم كأنى أتلقى ثوبا .. أو أشتري عبدا .. كنت أقيس بعينى
طول كل واحد منهم وعرضه وشكل ابتسامته ونوع حديثه ..
ثم أقيسه على الصورة التى انطبعت فى خيالى .. صورة
أبى !! ..

واستعرضت كثيرا من الرجال .. الى أن وجدته ..

وجدت الرجل .. أول رجل فى حياتى ..

كنا مدعويين - أبى وزوجته وأنا - الى عشاء ساهر
فى فندق ميناهاوس مع بعض أصدقاء الأسرة ..
ورأيتة هناك .. جالسا يتناول عشاءه مع أسرة نعرفها ،
وكان مقعده حول مائدة العشاء بجانب ابنة هذه الأسرة ..
فتاة فى مثل عمى شقراء مثلى وان كانت تقل عنى جمالا ..
وهو ليس صغيرا .. فهو - كما عرفت - فى السادسة
والثلاثين من عمره ، أى أصغر من أبى بثلاث أو أربع سنوات
.. وهو - بخلاف أبى - أسمر فى لون قطعة البفتيك
المشوية نصف شواء .. وشعره أسود مجعد ، لا يهتم كثيرا
بترجيله .. وربما كان أبرز ما فى وجهه .. عينيه وشفتيه ..
عينان صغيرتان تشعان ذكاء حادا يكاد لفرط حدته يخفى
طيبة قلبه ، ويكاد يوحى لمن لا يعرفه بأنه انسان خطير ..
وشفتان عاطفتان .. لا أستطيع أن أطيل النظر اليهما
الا وأفكر فى تقيلهما !!..

وكنت أعرفه .. أعرف اسمه على الأقل .. فقد سبق أن
رأيتة على شاطئ سيدى بشر بالاسكندرية .. كان يجلس
طول اليوم تحت الشمسية يقرأ كتابا ، ويرفع عينيه بين كل
صفحة وأخرى وينظر نظرة سريعة الى أسراب الفتيات ، ثم
يعود الى كتابه .. ثم كان يقوم من تحت الشمسية ويطوف

على كبائن أصدقائه .. وكانت كل « كابين » ترحب به ..
فهو معروف .. وهو من عائلة كبيرة .. وهو ثرى .. وهو
مغر .. وهو أعزب !!

وكنا — نحن الفتيات — نسير في جماعات تكاد كل
جماعة منها تسد الطريق المحاذى لصف الكبائن .. وكنا
نعرف مكان كل شاب من الشاطيء .. كنا نعرف ان مكان
فلان بعد خطوتين .. ومكان علان بعد ثلاث خطوات .. وكنا
تقطع الشاطيء كله حتى نمر على كل الشبان ، وحتى تمر كل
فتاة منا أمام الشاب الذى اختارته لنفسها ..

لم نكن نلتفت لأحد .. ولكننا كنا نميز الشبان بوقع
خطواتهم وراءنا — أقصد الشبان المهمين — كنا نعرف ان
هذه خطوة على ، وهذه خطوة محمد ، وهذه خطوة سمير ..
الخ ، وكنا نحس بالنظرات التى توجه الينا دون أن نستدير
اليها .. كان لكل منا حاسة سادسة أو « رادار » نلتقط به
الخطوات والنظرات دون أن يبدو علينا اننا التقطناها !! ..

ولم تكن واحدة منا — نحن الفتيات الصغيرات —
تحاول أن تلتقط خطوة لمصطفى ، أو نظرة له .. كان أملا
كبيراً بعيداً بالنسبة لنا .. حتى لم تجرؤ واحدة منا على أن
تمناه لنفسها ..

ورغم ذلك فقد نظر الى مصطفى مرة نظرة واحدة لم
يكررها .. وكأنه شبع منى فى هذه النظرة الواحدة ، أو كأنى
لا أستحق أكثر من نظرة واحدة .

وظلت هذه النظرة عالقة في خيالي عدة أيام .. ثم نسيتها ..
الى أن رأيته جالسا يتناول عشاءه في فندق مينا هاوس
مع هذه الأسرة وبجانب هذه الفتاة ..

كان يختصمها بحديثه طول الوقت حتى خلت أن الحديث
بينهما لن ينتهي أبدا ، وكانت تضحك خلال الحديث ضحكات
مرحة منطلقة كأنه يدغدغ قلبها ، وكان يضحك معها ضحكات
مقطعة متهدجة صافية كأنه طفل صغير لا تقوى رثائه على
تحمل الضحك الكثير ...

ثم قام يراقصها ..

ولاحظت ذراعه تلتف حول ظهرها وترتفع حتى تقع كفه
فوق كتفها .. ولاحظت انه ضغطها اليه حتى اختفى صدرها
في صدره ، وحتى اختفى أنفه في طيات شعرها .. ثم تحرك
بها في خطوات بطيئة قصيرة ناعمة كأنه يسبح بها في الهواء ..
وفار دمي ..

واغتظت ..

وطلبت من أبي أن يقوم ليراقصني .. وتعمدت أن أوجه
أبي خلال الرقص حتى اقتربنا منهما .. ونظرت اليه .. نظرت
اليه بكل عيني .. نظرت اليه كأنى أناديه ..

ورفع رأسه ونظر اليّ من وراء ظهرها نظرة واحدة ..
ثم عاد ودس أنفه في طيات شعرها !!

نظرة واحدة ..

وكأنه لا يزال يشبع منى في هذه النظرة الواحدة أو كأنى
لازلت لا أساوى أكثر من هذه النظرة ..
واغتظت أكثر ..

وأخذت أحملق في الفتاة .. ماذا فيها ؟ .. اذا كانت جميلة،
فأنا أجمل منها .. واذا كنت صغيرة السن بحيث لا أستحق
منه أكثر من هذه النظرة ، فهى فى مثل عمرى ، وربما كانت
أصغر منى ..

ووجدت نفسى أتخذ قرارا ، وأصمم عليه ..
قررت أن آخذه منها ..
قررت أن آخذه لنفسى ..

وقمنا لننصرف .. ومررنا بجانب مائدته ونحن فى طريقنا
الى الخارج .. وتعمدت أن أنظر اليه مرة ثانية .. نظرت اليه
بكل عينى .. ولكنه لم يلتفت ولم ينظر الى ولم يحس بى ،
انما ظل منهمكا فى حديثه معها .. بينما الناس كلهم يودعوننى
بنظرات ولهى .. نظرات بعضها فيها تمن ، وبعضها فيها
حسرة ..

وازددت تصميما على قرارى ..
ساخذه مهما كان الثمن ..
سأعاقبه على اهماله لى ..

ووجدت نفسى أزم شفتى كأنى أستجمع عزمى ، أو
كأنى أبصم بهما على القرار الذى اتخذه ..
وعندما ذهبت الى فراشى لم أنم .. ولكنى لم أحاول أن

استرق السمع الى همسات أبي وزوجته في غرفتهما المجاورة..
كانت الليلة الأولى منذ ستة شهور التي لا أخرج فيها الى
الشرفة حافية القدمين لأسرق شيئاً ليس لى .. انما بقيت في
فراشى مفتحة العينين أبحث بهما في رأسي عن تفاصيل الخطة
التي سأصل بها اليه .. ثم ذهبت مع الخيال حتى رأيت نفسي
قد وصلت اليه فعلاً .. ورأيت يركع تحت قدمي .. ورأيتني
أشير اليه بأصبعي فيقترب مني ويقبل خدي وشفتي ثم
يحيطني بذراعيه ويهمس في أذني .. نفس الهمسات التي
يهمسها أبي لزوجته !!.

وفتحت عيني على دفتر التليفون .. وأخذت أقلب
الصفحات بيد متلهفة حتى عثرت على اسمه ورقم تليفونه
وترددت قليلاً قبل أن أدير القرص .

لم أكن أدري بالضبط ماذا أقول له وكيف أبدأ حديثي
معه .. حديثي مع أول رجل في حياتي !!.

وأغمضت عينيّ وضغطت فوقهما بجفوني كأنني أستجمع
شجاعتي ثم التقطت السماعة وأدردت القرص .. وسمعت
رنين جرس يرد على .. وقلت وأنا أضع كل رقتي في صوتي:
— مصطفي ييه موجود !? .

ورد الصوت الخشن في اقتضاب :

— نايم ..

قلت بسرعة :

— مرسى ..

وألقيت السماعة من يدي كأنى ألقى بقطعة من نار ،
وكان أحدا قد جرح كبريائى !!
ونظرت الى الساعة ..
كانت لا تزال الثامنة صباحا ..

وابتسمت ، فان من حقه أن ينام حتى الساعة الثامنة ،
خصوصا بعد سهرة الأمس .. وشعرت أن جرح كرامتى
قد التأم !.

وقمت أطوف بحجرات البيت وأفعل أى شىء .. ولم
ألحظ ما كنت ألحظه كل صباح .. لم ألحظ سعادة أبى ولم
أسمع غناؤه تحت الدش ، ولم يثرنى نشاط زوجة أبى ، بل
لم التفت الى وجودها .. كان كل ما يملأ رأسى وأعصابى هو
العالم الجديد الذى أحاول أن أطرق بابه .. عالم يجلس
مصطفى على عرشه ، وأجلس بجانبه على نفس العرش !.
وكانت الساعة التاسعة عندما أدت القرص مرة ثانية ..
كأنى أدير سنوات عمرى !.

ورد على نفس الصوت الخشن .. وسألت :

— مصطفى بيه صحى ؟.

وأجاب الصوت فى اقتضاب :

— فى الحمام .. تقول له مين ؟ .

وقلت وخيبة الأمل تطل بين كلماتى :

— معلش .. أنا حاطله تانى !

وألقيت سماعة التليفون ..

وقى الساعة العاشرة عدت والتقطتها وأدرت القرص ،
ورد على نفس الصوت الخشن فى اقتضاب :
— خرج !! ..

وقذفت السماعة فوق آلة التليفون بكل قوتى حتى
كدت أطمها .. وشعرت انى أهنت ، ان كرامتى قد مزقت ..
كيف لا ينتظرنى ؟ .. كيف يخرج قبل أن أحادثه ؟ ..
ولكنه لا يعرفنى .. ولا يعرف أنى أريد محادثته ..
واستطعت أن أقنع نفسى الى أن هدأت ..

وقضيت يومى فى انتظار ساعة الغداء حتى أحاول أن
أصل به ، اعتقادا منى انى سأجده فى بيته فى تلك الساعة ..
ولكنى لم أجده ، وبقيت حائرة لا أستطيع أن أفعل شيئا
الا أن أنظر الى آلة التليفون بعينين مفتوحتين كأنى أحاول
أن أنطقها بصوته .. لم أستطع أن أتناول غدائى ، ورفضت
أن أخرج من البيت ، واعتكفت فى غرفتى وآلة التليفون
فوق فراشى ، أدير رقمها بين كل ساعة وأخرى ..

وأخيرا .. فى الساعة السابعة مساء ، سمعت صوته ..
لم يقل « آلو » انما قال بصوت كسول كأن أوتار صوته
أكلها « تينور » :

— نعم ..

قلت وأنا أسيطر على أعصابى حتى لا تبدو فى صوتى
رعشة قلبى :

— حضرتك مصطفى بيه ؟ ..

— أيوه ..

— أنا واحدة ..

وسكت كأنى أنتظر منه أن يتولى هو باقى الحديث ..
ولكنه لم يقل شيئا .. انما صمت طويلا ثم قال فى صوت
أكثر كسلا وأكثر تعبا !..

— يعنى مين ؟..

قلت وأنا أرقق من صوتى :

— واحدة .. انت مش تحب تكلم واحدة ؟..

قال فى سرعة :

— مش كل واحدة ..

قلت فى دلال :

— انما أنا متأكدة انك تحب تكلمنى ..

قال وكأنه يلتقى العباء كله على :

— ليه ؟!..

قلت وكأنى أغريه :

— بكره تعرف !..

قال فى برود :

— طيب كلمينى بكره !!..

وئارت أعصابى لبروده ، وقلت فى حدة :

— لأ .. حاكلمك دلوقت .. عاجبك ولا مش عاجبك ؟..

قال وهو لا يزال أبرد من الثلج :

— لأ .. مش عاجبنى !!..

قلت وكأنى صبية صغيرة تضرب الأرض بقدمها وتصمم
على ما تريد :

-- انما أنا عايزة أكلمك دلوقت !!..

قال البارد :

— اتفضلى اتكلمى ..

وسكت .. لم أدر ماذا أقول له .. وظل ساكتا معى

فترة ، ثم قال وقد بدأ الثلج يسبح :

— اتنى فيه حد مسلطك عليه?..

وفتح هذا التساؤل بابا من أبواب الحديث ، فقلت فى

تخايب :

— زى مين?..

— أنا عارف !!..

— طبعا أنت تعرف ستات كثير ، وأى واحدة منهم

يمكن تسلطنى عليك !

— مش كثير قوى !!..

— يعنى مثلا امبارح كنت مع مين ?

قال فى اخلاص وكأنه مسؤول فعلا عن تقديم حساب لى:

— امبارح !!.. ما كنتش مع حد !!

قلت :

— ياكداب .. أمال مين اللى كنت بترقص معاها امبارح

فى مينا هاوس ?

قال فى براءة :



— يا كذاب .. آمال مين اللي كنت بترقص معاها امبارح في مينتا هاوس ؟

— قصدك مين؟ ..

قلت كأنى أكشف سره :

— نجلا ..

وضحك ضحكته المنقطعة التى يبدو فيها كطفل لم تقو
رئته بعد على تحمل الضحك .. وقال :

— يا شيخة حرام عليكى .. دى زى بنتى !! ..

قلت وقد شعرت انه يعينى أنا :

— وبنتك تعمل معاها ده كله .. وترقص معاها
بالشكل ده !.

قال وهو لا يزال يضحك :

وحياتك أنا دايمًا بارقص كده !

وقلت بصوت خافت :

— احلف بحياتى كمان نوبة !! ..

وكانه تنبه الى أنه أقسم بحياتى خطأ ، فقال وكأنه

يتراجع :

— حياة كل الناس عزيزة علىّ .. وكل الناس بأحلف

بحياتهم .. تسمى تقوللى بأه اتى مين ؟

قلت :

— أنا واحدة معجبة بيبك ..

قال وكأنه يحاول أن يقنعنى :

— يعنى حضرتك شفتىنى وعارفانى ؟

— أيوه ..

— طيب مش حرام عليكى تكلمى واحد اتنى عارفاه
وهو مش عارفك .. دى تبقى أنانية ..

— أنانية ليه ؟. ما انت بتكلمنى زى ما باكلمك ..

— الفرق انك بتكلمى واحد عارفاه .. واحد تقدرى
تتصوريه قدامك واتنى ماسكة سماعة التليفون .. انما أنا
باكلم صوت فى الهوا .. صوت مالوش صورة متجسمة
قدامى .. وطول ما أنا باكلمك قاعد أسأل نفسى ياترى مين
اتنى ، ويا ترى حلوة ولا وحشة ، وياترى مين مسطك
على .. دى حاجة تجزن !!..

وكدت أقتنع وأكشف له عن شخصيتى ولكنى تراجعت
وقلت فى رجاء :

— علشان خاطرى استحملنى شوية ..
قال فى عصبية :

— خاطر مين .. خاطر الهوا اللى ييكلمنى ؟!..

— أنا مش هوا ، أنا واحدة مش حتندم يوم
ما حاتعرفها !..

— طيب ما تعرفينى بيها ؟..

— بعدين .. بعد ما أطمئن !!

— تطمئنى على ايه ؟!..

— أطمئن انك تستاهلنى !!

وارتفع صوته حتى ملأ أذنى وقال فى حدة :
— بأه ده اسمه كلام ياست الستات .. واحد قاعد فى

بيته في أمن الله تقوم تيجي واحدة .. ييجي صوت في الهوا
يعمل له امتحان علشان يشوفه يستاهل ولا ما يستاهلش ..
حد قال لك اني ناقص ستات .. اترجيتك قبل كده علشان
تكلميني في التليفون ?

وقاطعته في برود :

— أنا عايزه كده ..

وقال في تهكم :

— حاضر يا أفندم .. سمعا وطاعة .. أنا تحت الأمر ..
بس اسمحيلي دلوقت أروح أغير وأغسل وشي أحسن لسه
جاي من بره ، وأنا متأكد اني بعد ما أتشيك وأتوجه
حاستاهل حضرتك .

قلت وأنا لا زلت أدعى البرود :

— أنا ما أحبش الرجالة الشيك ..

قال في تهكم وكأنه يضغط على أعصابه حتى لا تنفجر :
— طيب اسمحيلي أروح أبهدل نفسي شوية !!
وضحكت وقلت في مرح :

— طيب اورفوار .. تحب أكلمك تاني امتي ? ..

— وقت ماتجبي ..

— يعني امتي !?

— بعد نص ساعة بس !!

— باي ..

— باي !! ..

وأعدت السماعه الى مكانها برفق ، وأحسست انى أظير
الى العالم الجديد الذى تصورته ، وانى أسير وذراعى فى
ذراع مصطفى نحو العرش الذى سنجلس عليه سويا .. ولم
أتنبه الى تفاهة الحديث الذى دار بينى وبينه ، والذى بدوت
به كطفلة لم تحدث رجلا من قبل ، فقد كان يكفينى الاحساس
بالمغامرة التى أقدمت عليها والتى ملأت كيانى كله ، وكان
يكفينى انى فتحت الباب اليه ..

وبعد نصف ساعة بالضبط رفعت سماعة التليفون وأدرت
القرص ، فرد على الصوت الخشن الذى أكرهه ، وقال فى
أدب جاف :

— نقول له مين يا افندم ؟ ..

— قول له واحده ..

— هوه مش موجود يا افندم ..

وألقيت السماعه وقد انهارت كل أحلامى ..

عرفت انه يهرب منى !! .

والتهبت أعصابى .. ان النار اندلعت فى دمنى ، ولكنى
بدلا من أن أثور لكرامتى واعدل عن خطى ، انقلبت نارى
الى عناد .

كانت المرة الأولى التى أشعر فيها أن هناك رجلا
لا يريدنى ، ويهرب منى ..

ولكنى عدت أقنع نفسى : انه لا يعرفنى فكيف يريدنى
أو لا يريدنى !!? ..

وبدأت أحاول أن أتصل به مرة أخرى .. أدت نمرة تليفونه عشرات المرات .. في كل ساعة من ساعات النهار والليل .. كنت أحيانا أتسلل من غرفتي على أطراف أصابعي في الساعة الثالثة صباحا الى حيث يوجد التليفون ، وأحاول أن أتصل به .. ولكنى فشلت .. كان الخادم يرد على دائما ، ويسألني عن اسمي وعندما أقول له « واحده » أو « هوه عارف » يعتذر عن وجوده ..

وبدأت أدعى لنفسي أسماء عجيبة .. قلت اني «مرفت» ، واني « سعاد » واني « فاطمة » .. و .. و .. فكان الخادم يمهلي لحظة قائلا :

— دقيقة واحدة لما نشوفه ..

ثم يعود كالجلاد لينفذ الحكم القاسي قائلا :

— والله اليه نزل !!..

وكدت أجن ..

ولم تكن هناك طريقة أخرى للاتصال به الا التليفون .. فجن معي التليفون .. وأصبحت أتصل به في اليوم الواحد أكثر من خمسين مرة ..

وبعد خمسة أيام وجدته ..

رد بنفسه على التليفون — ربما بطريق الخطأ— وعرفني من صوتي .. وقال كأنه يستغيث مني :

— اتنى تعبتيني خالص ياست الستات .. وتعبتني معايا

« عوض » السفرجى .. وتعبتى البيت كله .. كفاية تليفونات
بأه اعملى معروف !!..

قلت متجاهلة ثورته وكأنى أناجيه :

— وانت كمان تعبتى يامصطفى ، بتعمل فيّه كده

ليه !!?..

قال كأنه يشد شعر رأسه بيده :

— يا عالم .. ياهوه .. ياستى أنا عملت فيكى حاجة ..

أنا أعرفك ، اتنى لازم مجنونة ..

قلت وأنا محتفظة بهدوئى :

— أنا مش مجنونة يامصطفى .. لو كنت مجنونة كنت

قلت لك أنا مين من أول يوم ..

ونطقت اسمه بلا تكليف كأنى أعرفه من زمان بعيد ..

وقال كأنه يلقي على درسا :

— طيب اسمعى ياست العاقلين .. حكاية التليفون دى

بطلت من زمان .. الدنيا اتغيرت ، بأه فيه حفلات ونوادى

ومجتمعات علشان الناس تتعرف ببعض . ومش معقول ان

البنت اللى بتكشف نص جسمها على البلاج تخبى اسمها

فى التليفون ، الناس ما بقاش عندها وقت للنفاق ده كله .

الموضوع كله ما بقاش ياخذ أكثر من كلمتين : أنا فلانة ..

أهلا وسهلا .. رايح فين النهارده !!? الحته الفلانية .. طيب

أشوفك هناك .. وخلصنا !!..

وقلت كأنى أقاوم اقتناعى :

— یعنی کنت غایزنی آهجم عليك في مينا هاوس ،
وأقول لك تعالى حبنى .

وضحك ملء فمه ، وقال كأنه يسخر منى :

— اتنى بتحيينى !!?

قلت وكأنى أصحح خطئى :

— مش عارفة .. مش قصدى .. انما ..

وقال يقاطعنى :

— ما دام المسألة وصلت للدرجة دى .. تسمحى تقوليلى

اتنى مين ؟?

قلت فى عناد :

— لأ مش النهاردة .. لغاية دلوقت مش قادرة أعرف اذا

كنت تستاهلنى ولا لأ !!

قال وقد بدا أكثر عنادا منى :

— أنا حاقول واحد اتنين تلاته .. اذا ماقلتيش اتنى مين

حاقل السكة .

وسكت قليلا ، ثم قال كأنه يعد الثوانى قبل اطلاق النار :

— واحد ..

— مش حاقول ..

— اتنين ..

— برضه مش حاقول ..

— تلاته ..

— وسكت ..

وسكت هو أيضا برهة ، ثم ألقى السماعه مكانها ، كأنه أطلق النار علىّ !! ..

وذعرت .. وفي نفس اللحظة أدت قرص التليفون مرة ثانية بيد مرتعشة كأنها يد غريق تلمس النجاة ، وسمعت صوته وهو يصرخ كأنه جن :

— نعم ..

قلت في عجلة كأنى أخاف أن يطلق النار علىّ مرة ثانية :
— أنا نادية لطفى .. وأبويا اسمه أحمد لطفى .. وساكنه في الدقى .. طويلة وحلوة وبلوند .. وسبق شفنتى وعجبتك ..
مبسوط بأه !! .

قال في هدوء وكأنه تلقى تقريرا رسميا كان متأكدا من وصوله اليه :

— وحاشوفك امتى ؟ ..

قلت كأنى أرجوه :

— بلاش اليومين دول يامصطفى .. استنى علىّ شوية !! ..
قال في ثقة :

— أرجوكى يانادية .. اذا كان لازم نعرف بعض يبقى النهارده أحسن من بكرة ..

وكانت المرة الأولى التى أسمعه فيها ينطق باسمى ..
وخيل اليّ أنها المرة الأولى التى أسمع فيها اسمى ينطلق من قلب رجل !!

وقلت فى استسلام :

— بكره .. بكره الساعة أربعة ونص .
قال دون أن تبدو عليه فرحة :
— فين ؟ ..

وفكرت قليلا .. ثم قلت :
— قدام نادى الفروسية ..
قال :

— خليها الساعة خمسة ..
قلت في عناد كأنى ثرت على استسلامى :
— لأ .. أربعة ونص !!

قال ، وقد خيل الىّ انى ألمح ابتسامة ساخرة فوق
شفتيه :
— حاضر ..

قلت ، وقد تعبت من هزيمتى :
— أورفوار ..

قال دون أن يحاول أن يطيل الحديث :
— أورفوار ..

وتركنى لأفكارى ..

لم تكن أفكارا .. انما كانت سحبا بيضاء كثيفة لا أرى
من خلالها شيئا الا صورا مهزوزة ، تجمعنى أنا ومصطفى
فى اطار واحد ..

ومرت الساعات وأنا أحاول أن أفسر هذه الصور ..
هل أخطأت ؟ ..

هل أنا مقدمة على جريمة جديدة ؟.

لست أدري ..

لم أعد أدري شيئاً من كل ما حولي الا انى حائرة ..
تأهتة .. تدفعنى يد مجهولة نحو مصير مجهول ، وأحسست
انى أريد أحدا بجانبى .. أريد انسانا يرشدنى ويأخذ بيدي
ويدلنى على طريق الأمان .. انسانا أروى له حيرتى ..
وعذابى .. ولكنى لم أجد أحدا .. لم أكن أستطيع أن
أستشير أبى ، ولا زوجته ولا أمى اللاهية عنى ، ولم تكن لى
صديقة أأتمنها على سرى ..

وأحسست بالوحدة كما لم أحسها من قبل ..

أحسست انى وحيدة مع مصطفى .. وانى لا أعرف
مصطفى ، ولا أعرف ما يستطيع أن يفعل بى ..
وخفت ..

خفت لأنى شعرت انه أقوى منى ، وأكبر منى ، وأكثر
تجارب ، ولأنه أول انسان استطاع أن يحطم خطة وضعتها ..
كانت خطتى أن أدعه يلاحقنى .. أن أثيره الى حد أن
أشغله عن دنياه ، ثم أقرر بعد ذلك ماذا أفعل به ..

ولكنه قلب الخطة .. وأصبحت أنا التى ألاحقه ، وأنا
التى شغلت به عن دنياى ، ثم استطاع أن يملئ ارادته ،
ويسحبنى الى لقائه بعد المرة الثانية التى أحادثه فيها بالتليفون
.. ولا أدري بعد ذلك ما يريد أن يفعل بى !!? ..

وقضيت الليل أفكر فى العدول عن لقائه ..

ولكنى لم أعدل ..
كنت كأنى أريد أن أفر من شيء يعذبنى لأنى أعرفه ،
الى شيء يعذبنى لأنى لا أعرفه ..

وذهبت اليه فى موعده والضباب الأبيض لا يزال يبلا
رأسى وقلبى .. وكل ما تعمدته هو أن جمعت شعرى فوق
رأسى ، وضغطت بقلم الأحمر فوق شفتى .. حتى أبدو أكبر
من سنى ..

ولم أجدته أمام نادى الفروسية ..
كنت قد تعمدت أن أذهب بعد الموعد بخمس دقائق ..
ولكنى لم أجدته ..

وثرت على نفسى ، وقررت أن أعود ولكنى تناقلت فى
عودتى ، كأن قدمى قد التصقتا بالأرض ..
ثم سمعت صوت سيارة تتبعنى .. والتفت فرأيته فى
مقعد القيادة ..

وأوقف سيارته بجانبى .. وابتسم لى ..
وكرهت ابتسامته .. كان يبتسم كأنه انتصر على .. أو
ربما كرهت ساعتها نفسى .. فانى أنا التى انهزمت له ..
ولم يتكلم ..
ولم أتكلم ..

ودرت من أمام السيارة .. وفتح لى الباب .. وركبت
بجواره !! ..

ثم قلت وهو يقود السيارة فوق كوبرى الجلاء :

— من فضلك سوق بسرعة .. أحسن الحتة دى كلها
عارفانى !!

ثم حنيت رأسى داخل السيارة حتى لا يرانى أحد من
شبان الدقى .. وقال وهو ينظر الى وبيتسم :

— خدى بالك ان الأوتوييس اللى جنبنا أعلى من
العربية .. وكل اللى فيه شايفينك واتنى بتخبى نفسك ..
وكان هذا أول ما سمعته منه فى أول لقاء ..

ووجدت كلامه معقولا ، فاعتدلت فى جلستى دون أن
أناقشه رأيه .. وكأنه ألقى الى أمرا لا أستطيع أن أعصيه .
وقد عودنى بعد ذلك أن يكون كلامه دائما معقولا ..
كان له منطق سلس صريح لا تملك الا الاقتناع به .. لم
يكن يعترف بالناس ، ولا بالتقاليد ، ولا بالنظم .. لم يكن
يعترف الا بالمنطق .. وكان يستطيع دائما أن يصرعك
بمنطقه !..

والتفت الى والسيارة تنطلق بنا فى طريق الهرم ، وقال
وهو ينظر الى بعينه اللتين تخفيان طيبة قلبه :
— أنا شفتك قبل كده ، انما ماكنتش فاكر انك صغيرة
لمدرجة دى !?..

قلت وكأنى أدافع عن نفسى :
— أنا مش صغيرة .. أنا عندى تمتناشر سنة !!..
وكنت أيامها لم أتم السابعة عشرة من عمرى !!..
قال وهو يبتسم :

— تفكرى أنا عندى كام سنة ؟..

قلت والنفاق يقطر من كلماتي :

— خمسة وعشرين !!..

قال وهو يضحك فى حسرة :

— يا ريت .. أنا عندى ستة وتلاتين سنة .. يعنى أدك

مرتين !!..

قلت كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— وماله .. مش ربنا قال الرجل ضعف الست !!..

وضحك ضحكته العالية المتقطعة ، وقال :

— ربنا قال ، للرجل مثل حظ الأنثيين ، يعنى لما يكون

أنا عندى ستة وتلاتين سنة ، يبقى لازم أخرج مع بنتين كل

واحدة عندها تمتاشر سنة !!..

وضحكت معه ، ثم ضاعت ضحكتي وقلت فى مرارة :

— يعنى كنت تحب أجيب معايا نجلا .. مثلا !!..

قال فى حدة :

— أنا قتلتك ان نجلا زى بنتى .. وأبوها صاحبى ..

أرجوكى تصدقيني !

وتظاهرت بتصديقه .. ولكن هناك دائما شىء يفتح فى

قلبى مجالاً للشك .. كان يبدو من الخطورة بحيث لا سهل

تصديقه !!..

ووصلنا الى مدينة النازلية ..

وكنت طوال الطريق منزوية فى ركن السيارة بعيداً عنه،

قريبة من الباب كأني أتحمض للقفز من السيارة .. كنت لا أنظر إليه انما كنت أحادثه ، وأنا أتلفت الى مناظر الطريق ، ولا التفت اليه الا بين الحين والحين كأني أسرق صورته .. كنت خائفة .. لا ، لم أكن خائفة .. انما كنت أرهب المغامرة ، وكنت قليلة الثقة في نفسى . لم أكن أدري بالضبط ما أفعله .. ورغم ذلك فقد كنت أشعر انى منقادة في طريق مفروش بالسعادة .. سعادة تنسينى نفسى ، وتنسينى الشر الذى يعمل فى نفسى .

وأوقف السيارة فى شارع هادىء من شوارع النازلية .. ثم استدار بكل جسمه وأطلق عينيه على ..

ولم أجد فى نظراته ما يجرحنى أو ما يخجلنى .. لم يكن فى عينيه رغبة أو خطيئة .. ولم ينقل عينيه الى صدرى أو الى ساقى .. انما كان ينظر الى وجهى فقط ، وكان ينظر اليه كفنان يختبر لوحة زيتية ، أو يختبر وجه نموذج لينقل صورته على لوحته ..

واسترحت الى عينيه والى نظراته .. بل انى تعمدت أن أحرك رأسى حتى يرى وجهى من مختلف نواحيه .. وقال دون أن يرفع عينيه عنى :

— ياريتك تسيبى شعرك فى ضفاير !

وابتسمت .. ثم رفعت يدى الى رأسى ونزعت الدبابيس التى تمسك شعرى ، فانطلقت الضفيرتان فوق صدرى .. ولم أتكلم .. انما شعرت بالدماء تنساب الى وجنتى

وتصهرهما كأنى تماديت فى ارضائه .. أو كأنى جارية تعرض
جمالها على السلطان !! .

واتسعت عيناه وقال فى صوت خافت كأنه يتنهد :

— الله ..

ثم مد أصابعه وداعب ضفيريتى .. تماما كما تعود أبى
أن يفعل ! .. ونكست رأسى ولم أقل شيئا .. ثم سمعته
يقول :

— شايفه الخط اللى بيرسم خدك ده .. أهو كل
الرسامين الكبار قضاوا حياتهم يدوروا عليه ويحاولوا
يرسموه .

وكان هذا نوعا جديدا من ثناء لم أسمعته من قبل ..
ربما لم أفهمه ، ولكنى فهمت انه ثناء على جمالى .. وقلت
فى حياء :

— مرسى !

قال ، وهو يبعد عينيه عنى :

— احكىلى عن نفسك ..

والتفت اليه كأنى أحاول بدورى أن أشبع من وجهه ..
وخيل الى انه يبدو أصغر كثيرا من عمره .. خيل الى انه
فى مثل عمرى أو انى فى مثل عمره .. وقلت :

— احكىلى أنت عن نفسك .. أنا كل اللى سمعته عنك

حاجات تخوف !! .

وضحك الضحكة التى أحبها .. وقال :

— شوفى ياستى .. أنا ..

ولم يتم حديثه فقد مر بجانبنا جماعة من عمال البناء ،
أخذوا يتلكأون حول السيارة ، ويقذفوننا بتعليقات جارحة
تتخللها أنواع مختلفة من الضحكات والصفير ..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

— عاجبك كده ..

قلت كأنى أحاول أن أواسيه :

— همه مالهم ومالنا الباردين دول !

قال كأنه يلقي على درسا :

— همه ما لهومش ذنب .. ناس ماشيين شافوا واحدة
حلوة من حقهم يقفوا يتفرجوا عليها ، وشافوا واحد وواحدة
قاعدين فى أوتومبيل واقف فى الشارع ، من حقهم برضه
يقفوا يشوفوا الواحد والواحدة دول بيعملوا ايه .. الشارع
مش بتاعك ولا بتاعى .. الشارع بتاع الناس كلها ، واللى
يحصل فيه من حق الناس كلها أن تتفرج عليه ..

وقلت كأنى اقتنعت زغم انى لم أكن قد اقتنعت تماما :

— فعلا ..

واستطرد مصطفى :

— الحق علينا احنا .. لو كنا مش عاوزين حد يشوفنا ،

ماكانش لازم نقف فى الشارع ..

ولم أرد ..

ولم يزد فى حديثه .. انما أدار موتور السيارة وقادها

الى خارج مدينة النازلية ، وقال وقد أصبحنا في شارع الهرم:

— تحبى نروح فين ..

قلت والكذب واضح في كلامى :

— أظن لازم أرجع البيت .. أنا اتأخرت قوى !!

وصدقتى !!..

واتجه بالسيارة ناحية البيت .. كان يقودها ببطء ..
تماما كما يقود أبى سيارته ، وكان يتحدث أيضا ببطء حتى
أحسست كأن قلبى يتلهف بعد كل كلمة لسماع الكلمة
الأخرى .. ولم يكن حديثنا فى موضوع واحد .. كنا لا نكاد
نبدأ فى موضوع حتى نجد أنفسنا فى موضوع آخر .. كنا
كأننا نريد أن نجمع حديث العمر كله فى ساعة واحدة ..

وأوقف السيارة فى شارع جانبى من شوارع الدقى قريبا
من بيتى ، وقلت وأنا أمد له يدى :

— يا ترى لو كلمتك فى التليفون حترد على ، ولا برضه

حيرد السفرجى .

واحتفظ بيده فى يدى دون أن يضغط عليها ، وقال
وهو ينظر الى كما نظر أول مرة .. نظرة فنان يختبر لوحة
رائعة :

— جربى !!

ثم قلب يدى التى فى يده وانحنى يقبل باطن كفى ..
وأحسست بقبلته تسرى فى أعصابى كلها ، وانها وصلت
الى كل قطعة من جسدى ..

كان أول فم غريب يلمس قطعة منى ..
وسحبت يدي من يده ، كأني أسحبها من فرن ساخن ،
وفتحت باب السيارة ونزلت وقد نسيت أن أودعه بكلمة ..
ومشيت الى بيتي فى خطوات مرتبكة وأنا لا أجرؤ على
الالتفات خلفى .. خيل الى أن عينيه تتبعانى كمصباحى سيارة
يسلطان على ظهري ضوءاً ساطعاً ..

وهدأت خطواتى قليلاً عندما انحرفت فى الشارع الجانبى
المؤدى الى البيت ، وبدأ شعور جميل لذيد يملأ صدرى ،
شعرت انى انسانية أخرى .. ان قامتى قد طالت .. وانى
أصبحت فتاة مجربة وانه أصبح لى سر كبقية النساء
صاحبات الأسرار !!

والنقيت بزوجة أبى فى البهو .. فنظرت اليها كأنى
أستخف بها وبعقليتها .. احسست اننا أصبحنا متساويتين ..
هى لها رجل ، وأنا لى رجل .. وقلت وأنا أبتسم ابتسامة
تعبر عن ثقة بالنفس ، وكأنى رفعت ما بيننا من تكليف :

— ازيك ياطنظ ..

وقالت ، وكأنها لمحت ماطراً على من تغيير :

— بنسوار .. مالك فرحانة كده .. خير ؟

قلت وقد اتسعت ابتسامتى :

— خير ياطنظ ..

ولم أجبها .. واتجهت الى غرفتى ، وفتحت باب حجرة
أبى ، وقلت فى مرح كأنى أزغرد :

— بونسوار بابى ..

ونظر الى أبى ، ورد على تحيتى بعينيه وظلُّ ابتسامه
بين شفثيه ثم عاد الى الكتاب الذى يقرأ فيه ، وانحرفت
ابتسامتى على جانب شفثى كأنى أرثى لحاله ، وكأنى أقول
لنفسى : « لقد أصبح لى الآن رجل آخر » !! ..

وفى نفس المساء حادثت مصطفى فى التليفون .
وحادثته فى الصباح التالى .. ثم فى كل صباح ومساء ..
لم يعد فى رأسى ولا فى قلبى ولا فى وقتى الا هو .. لم أعد
يهمنى أبى ولا زوجته .. لم يعد يهمنى ماذا يقول وماذا
تقول .. ولا أين ذهابا .. ولا متى أتيا .. كنت أعيش يومى
لأحاده ، أو فى انتظار أن أحاده .. وكنت قد عرفت موعد
وجوده فى بيته ، وكان دائما يرد على . ودائما تتحدث هذا
الحديث الذى لا يكاد يبدأ فى موضوع حتى نجد أنفسنا
فى موضوع آخر ، ولكنه كان لا يطيل الحديث .. ولم نكن
تتحدث الساعات ، كان حديثنا لا يزيد عن عشر دقائق ثم
أحس أنه على عجل لانهايه .. وكان كل نصيبى منه عشر
دقائق فى النهار ، وعشر دقائق فى المساء ..

ومرت ثلاثة أيام دون أن يطلب منى أن أقابله .. وبدأت
أحن اليه .. وبدأ حنينى يجتاز سحبا من الشك .. ربما لم
أعجبه .. ربما وجدنى صغيرة السن الى حد لا أستحق أن
يقابلنى .. ربما كانت هناك فتاة أخرى !! ..

وقلت له فى اليوم الرابع :

— تعرف يامصطفى .. امبارح بابا وطنط خرجوا
لوحدهم ، وكنت أقدر أشوفك .. لكن طلبتك بالتليفون
مالقيتكش ..

وكنت كاذبة .. فاني أستطيع أن ادبر لقاءه .. سواء
خرج أبى وزوجته أو لم يخرجها ..

وقال فى صوته الكسول :

— وبابا وطنط حيخرجوا تانى امتى ؟
قلت فى لهفة :

— بكرة بعد الظهر ..

وقال ولهفته أضعف بكثير من لهفتى :

— طيب تتقابل بكرة ..

— فين ؟

— أديكى العنوان ..

قلت فى فزع :

— عنوان ايه ؟ ..

— عنوان الشقة ..

قلت كأنى أطرده شبحا :

— لا يامصطفى .. مش ممكن .. مش ممكن أبدا ..

قال فى هدوء :

— ليه ؟ .. اذا كنتى عايزة تقابلينى فى الشارع يبقى مش

ممكن تتقابل الا فى قهوة .. لأن القهوة هيه المكان الوحيد

اللى الناس تقدر تقعد فيها فى الشارع ..

قلت :

— لا .. مش ممكن .. تتقابل فى أى حته .. فى جنينة
الأسماك ..

قال وكأنه يتسهم ساخرا من عقليتى :

— أنا كبرت على جنينة الأسماك يانادية ..

وسكت .. فقد شعرت انه يذكرنى بأنى صغيرة السن ،
وكنت أعتبرها اهانة أن يتهمنى أحد بصغر السن ..
واستطرد ضاحكا :

— واذا كنت غاوية سمك .. أنا مستعد أشتري وقتين
وأحطهم فى الشقة قدامك ..

ولم أضحك .. انما بقيت ساكنة ، وطال سكوتى .. ثم
قلت كأنى ألقى بنفسى فى البحر :

— بس يامصطفى ..

— بس ايه ..

قلت وأنا أكاد أسمع رجفة قلبى :

— بس توعدننى انك ما تعملش حاجة تزعلنى ..

قال فى اختصار :

— أوعدك ..

وكان العنوان الذى أعطاه لى .. غير عنوان البيت الذى

يقيم فيه !! ..

ولم أنم ، في انتظار الغد ..
كان في صدري انسان آخر يناقشني ولا يسكت أبدا ..
ولا يرحمني !! ..

انسان مجنون شاذ ، يخيفني مرة ، ويفريني مرة ،
ويجعلني جبانة حيناً ، ومستهترة حيناً ، ويصرخ في أذني :
« كيف تذهبن اليه يا مجنونة ! » .. ثم يهز كتفيه بلا مبالاة
وكأنه يتسم ابتسامة ساحرة ويقول في هدوء : « أنظري
حولك .. ألم تسأمي هذه الغرفة الجامدة الأثاث .. ألم
تسأمي البيت كله .. ألم تسأمي زوجة أبيك ، ألم تسأمي
أباك ، ألم تسأمي نفسك ، ماذا يمكن أن يحدث اذا لم
تذهبي اليه ؟ ستقضين يوماً آخر في هذه الحجرة .. وفي هذا
البيت .. ستمر بك نفس الساعات التي مرت بعمرك كله ..
وسيعاودك الحقد على زوجة أبيك .. وتعاودك خطط
الشر التي تتجمع في رأسك .. اذهبي .. اذهبي اليه ، واقطعي
هذه السلسلة الرهيبة التي تقيد حياتك » !! ..

وأكاد أقتنع .. أكاد أنام وقد قررت أن أذهب اليه ..
ولكن الصوت الذي ينبعث من صدري يهش النوم عن عيني ،
ويعاود الكلام : « صدقت يا مجنونة !! وستذهبن اليه !! ..
ألم تسألي نفسك ماذا يستطيع أن يفعله بك .. ستكونين أنت

وهو فى حجرة وحدكما .. وفى بيت خال الا منكما .. وفى
هذه الحجرة يمكن أن يحدث كل شىء .. يمكنه أن يذبح
مستقبلك كله ، وحياتك كلها .. لا تعتقدى انك قوية ..
أقوى منه .. ولا تثقى فى ارادتك .. لا تكونى مغرورة ..
انه رجل .. رجل كبير قوى « !! ..

وأفتح عينى على سعتهما وأضغط احدى شفتى بالأخرى
كأنى قررت ألا أذهب اليه فى مواعده ..
ولكن الصوت لا يلبث أن يعود هادئا منغما كأنه مزمار
ساحر :

« نعم انه رجل .. ورجل قوى .. ولكنه رجلك أنت ..
لقد أصبح لك رجل ، كما أن لزوجة أليك رجلا .. وأصبح
لك سر تتحلين به ، كما أن لكل فتاة سرا تتحلى به .. فكيف
تضحين برجلك وبسرك .. ولماذا تخافين منه ولا تثقين به ..
لا .. اذهبي اليه !»

وظل هذا النقاش بينى وبين نفسى حتى الصباح ..
وقمت من فراشى فى اليوم التالى ، كأنى شبح تجسد
فى ثيابى .. عيناى ساهمتان ، وفكرى شارد ، وأخطو ببطء
كأنى أخشى ان تحركت أن يسقط منى قلبى ..

وكان مواعده فى الخامسة مساء .. ولكنى وجدت نفسى
فى الساعة الحادية عشرة صباحا أخرج من البيت دون أن
أبدى لأحد سببا لخروجى ، ثم أضع نفسى فى احدى سيارات
الأجرة ، وأذهب الى العنوان الذى أعطاه لى ..

كانت عمارة كبيرة فى شارع قصر النيل .. مررت من أمامها ونظرت الى بابها من تحت أهداى نظرات مترددة خفية ، كأن كل من فى الشارع يراقبنى ، وكأنهم يعلمون انى سأعود الى هنا فى الساعة الخامسة لألقى مصطفى فى شقته .. وعبرت باب العمارة وسرت حتى آخر شارع قصر النيل، ثم عدت مرة ثانية على نفس الرصيف ، ومررت من أمام العمارة مرة ثانية .. كأنى مجرمة تدرس المكان الذى سوف ترتكب فيه جريمتها .

وفى هذه المرة استطعت أن أقرأ بعض اللوحات المعلقة على الباب .. طيب ، وخياطة ، ومحام ، وشركة .. الخ . وقلت لنفسى : « لو رآنى أحد وأنا خارجة أو داخلة الى العمارة ، فأستطيع أن أدعى انى كنت عند الخياطة » .. وحفظت اسم الخياطة جيدا ، وكأنى بذلك قد حلت اشكالا كبيرا !.. وأكثر من ذلك ..

لقد ذهبت واشترت أصبع « روج » أعمق قليلا من اللون الطبيعى الذى كنت أصبغ به شفتى ، واشترت جوربا شفافا جديدا ذا كعب غامق لم أكن أستعمله من قبل لأنه أكبر من سنى ، واشترت أيضا « بارت » أو محبسا مرصعا لشعرى ...

فعلت كل ذلك وأنا لم أقرر بعد أن أذهب اليه .. كنت لا زلت مترددة ..

وكان النقاش بينى وبين نفسى لا يزال قائما .. وكنت
أحمل هذا النقاش فى رأسى وصدرى وأسير مدفوعة بقوة
مجهولة لا أعرفها ..

كنت قد فقدت ارادتى ..

أصبحت انसानه أخرى ، غير الفتاة القوية الذكية التى
تملك أعصابها وتملك التحكم فى كل تصرفاتها ..

وعدت الى البيت ..

ولم أستطع أن آكل شيئا ساعة الغداء ، فقد كان كل
شئ فىّ يرتجف حتى شعرت كأنى مصابة بمغص ، وكأنى
لن أستطيع أن أتحمل لقمة فى جوفى ..

لم أستطع حتى أن أشرب فنجان الشاى الذى تعودته
بعد الغداء ..

ووقفت أمام المرأة .. ولم أدر كيف عقصت شعرى ،
ولا كيف وضعت الروج ، ولا كيف اتقيت ثوبى ..

كنت لا زلت مدفوعة بالقوة المجهولة التى تسيرنى ..
وكان النقاش لا يزال يدور بينى وبين نفسى ، ولكنه أصبح
نقاشا خافتا بعيدا ، كأنه نقاش بين غريبين لا أعرفهما ولا أتبين
صوتيهما .

ووقفت أمام باب العمارة فى شارع قصر النيل .. وترددت
قليلا ثم جذبت من أعماقى نفسا طويلا ، ثم أقدمت ..

ووقفت داخل المصعد ، وأطرافى باردة رطبة .. ونظرت

الى مرآة المصعد بعينين منتبهتين فهالنى لون وجهى الباهت
المتع ، فقرصت وجنتى قرصات عنيفة سريعة بأصابع
مرتعشة ، علتنى أرد اليهما حمرتهما ..
ووقف المصعد فى الدور السادس .

وتلفت أبحث عن الشقة رقم « ٢٨ » .. واهتزت أرقام
الشقق كلها أمام عينى حتى خيل الى انها كلها تحمل
رقم « ٢٨ » ..

ومددت يدى لأضغط جرس الباب .
وعدت وسحبت يدى ، كأنى قررت أن أعود .. ولكنى
لم أستطع .. لم أستطع أن أعود ..
ومددت يدى مرة أخرى ، وضغطت الجرس .. وخيل
الى انى أسمع رنينه داخل الشقة كأنه زغرودة تطلقها الملائكة
فى فرح الجنة ..

وخفت .. خفت من الجنة !!
وفتح الباب فى بطاء وبلا صوت .. كأنه فتح بقوة
سحرية ..

ورأيته أمامى .. مصطفى !! ..
كان مرتديا حلته الكاملة .. وبين شفثيه ابتسامة هادئة
يحية ، كأنه طيب يستقبل احدى مريضاته ..
ولم يتكلم ..
لم يقل « بونسوار » أو « أهلا » .. أو أى شىء ..

انما أفسح لى الطريق صامتا وظلال من عينيه تلتفتى فى رفق
وحنان .. ثم أغلق الباب ورائى فى هدوء .. بلا صوت ..
وأمسك ييدى وقلبها فى يده ، ثم انحنى يقبل باطن كفى ..
وابتسمت له ابتسامة مترددة مرتعشة .. وقلبى لا يزال
فى أقدامى لم يعد بعد الى مكانه .. كنت لا أزال خائفة ..
ورفعت عينى وأخذت أطوف بنظراتى فى أنحاء الشقة ، كأنى
أتظر أن أجد خلف كل مقعد عفريتاً ، أو خنجراً ، أو زجاجة
سم ..

وتتبع نظراتى ، ثم قال فى صوته الكسول :
— تحبى تشوفى الشقة؟! ..

ولم أجب انما سرت وراءه فى أنحاء الشقة ..

كانت شقة مكونة من حجرتين .. احدها تضم أريكة
عريضة أمامها مائدة صغيرة ، و « فوتيل » كبير يفتح ذراعيه
كأنه يتوسل اليك أن تجلس عليه .. ثم مكتبة تمتد على طول
الحائط نصفها للكتب والنصف الآخر للاسطوانات ، ثم
راديو ويك آب من خشب الجوز الغامق .. والأريكة
والفوتيل مكسوتان بقماش مخطط بخطوط عريضة من
اللونين الأخضر الغامق والأحمر الغامق ، وبينهما خط رفيع
أصفر .. وستائر تسدل على باب الشرفة المطلة على شارع
قصر النيل من اللون الأخضر الغامق أيضا ، وتحتها ستارة
أخرى من « الماركيزت » فى لون « الاوكر » أو البيج ..
ولم يكن على الحائط الا لوحة زيتية لرجل ريفى من رسم

أنجى أفلامون ، وعلى الراديو تمثال غريب من صنع
السجيني ..

ولم يكن بين هذه الحجرة والحجرة الأخرى باب ..
انما يفصلهما « آرك » تسدل عليه ستارة حمراء .. وهى
حجرة تضم « بار » ، كسيت جدرانها « بالمربريت » الأسود ،
ومقاعد البار كسيت بالجلد الأحمر ، وثلاثة مقاعد فوتيل من
الحجم الصغير ، مكسوة بالجلد الأحمر أيضا .. ومائدة
زجاجية عليها رسوم زيتية عجيبة.. وصور هزلية كاريكاتورية
كثيرة معلقة فوق الجدران ..

ثم الحمام ، وهو من اللون الأخضر ..
ومطبخ أنيق صغير به فريجيدير ، وموقد بوتوجاز ..
ولم يكن فى الشقة حجرة نوم .. ولا أدرى لماذا استرحت
عندما لم أر حجرة نوم .. وقلت وأنا أشد صوتى من نهاية
حلقى ، كأن أوتار صوتى قد علاها الصدا من قلة الكلام ؛
— تعرف ان ذوقك حلو !! ..

قال وابتسامته الهادئة لا تزال بين شفثيه :

— بكره تعرفى ان ذوقى حاجة تانية خالص غير ذوق
الشقة دى !! ..

وكنا وقوفا فى حجرة المكتبة — هكذا سميتها — فأشار
بيده الى الحجرة كلها ، وقال :
— تحبى تقعد هنا ؟ ..

وجلست على طرف المقعد الكبير ، وكأنى جلست على

أعصابي ، فقد كانت كل حواسي متنبهة الى أية حركة تصدر
منه .. كنت أعتقد انه سيهجم على ويقبلني عنوة .. أو يشدني
اليه بالقوة ويأخذني بين ذراعيه ، بل اني كنت أضم أطراف
ثيابي حولي خوفا من أن ينزعها عني ..

ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك ، انما تلفت حوله ثم
حمل صندوقا أنيقا مليئا بالحلوى وقدمه لي ..
ومددت يدي لآخذ قطعة من الحلوى .. ثم عدت
وسحبته .. خفت .. خفت أن تكون في الحلوى مادة مخدرة
.. من يدري؟! ..

الى هذا الحد كنت أخافه ..

والى هذا الحد كنت فاقدة الثقة بنفسى!! ..

ولم يلح علي ، انما أخذ لنفسه قطعة حلوى ، ثم أعاد
الصندوق مكانه .. وجلس على الأريكة العريضة ، وفتح
كتابا كبيرا كان ملقى عليها .. كتابا عن أعمال الرسام
لوتريك .. وقال وهو يقلب صفحاته :

— أنا كنت قاعد بادور على صورة تشبهك تمام .. مش

فاكر مين رسمها وشفتها فين ..

قلت وأنا لا زلت متشبهة بمقعدي ، ولا تزال موجات
الخوف تضطرم في صدري :

— انت تعرف ترسم؟! ..

قال وقد رفع وجهه عن الكتاب ، واتسعت ابتسامته :

— شوفي ياستى .. أنا أحب الرسم وما أعرفش أرسم ،

وأحب المزيكة وما أعرفش أضرب مزيكة ، وأحب الورد
وما أعرفش أزرقه .. وأحب القصص وما أعرفش أكتب
قصص .. أحب الجمال لكن للأسف ما أعرفش أخلقه !
وسكت قليلا ريشا أشعل سيجارته ، ثم قال كأنه يكلم
نفسه :

— ساعات كنت أحس انى أقدر أعمل تماثيل .. كانت
صوابعى تتحرك فى الهوا زى ما تكون الطينة قدامى وباعمل
منها تماثل .. وكنت أروح أشتري طينة فعلا وأحاول أعمل
منها حاجة .. ما أقدرش .. وساعات كان يتهى لى انى أقدر
أضرب كمنجة .. كنت أبقى مليون أنغام وألحان .. أروح
أشتري كمنجة وآجى أضرب عليها ما أعرفش .. أتجنن
وأروح كاسر الكمنجة !!
وسكت ، كأنه يتألم ويتحسر على نفسه ، ثم قال بصوت
خافت :

— أنا دلوقت تقدرى تسمينى « ناقد » أفهم فى كل
الفنون ، انما مش فنان .. مش خالق .. والفنانين كلهم بيعجوا
ياخدوا رأى فى الكويس والوحش .. انما أنا لا أقدر
أعمل كويس ولا وحش !

وتأثرت له .. أحسست أنه يشكو شيئا فى نفسه
لا أفهمه .. لم أستطع أن أفهم بالضبط كلامه ، ولكنى
أحسست أن فى هذا الكلام شكوى ، وانه لا يشكو لى

بالذات انما يشكو نفسه لنفسه .. يشكو من قدر مكتوب
عليها .. قدر يقيد روحه فلا يطلقها ..

وتعجبت .. تعجبت أن يكون هذا هو مصطفى .. كنت
أظنه أقوى من أن يشكو شيئاً ، وأقوى من أن يكون
محروماً من شيء .. كنت أظنه كأبى .. ولكنى رأيته أرق
كثيراً من أبى ، وأحسست انه يعيش فى دينا غير الدنيا
التي يعيش فيها أبى . دينا لا يستطيع أن يرسمها لأنها دينا
مضطربة كموج البحر ليس لها حدود ثابتة ..
وبدأت أطمئن اليه ..

وبدأت أسترد هدوئى وثقتى بنفسى !
وقلت كأنى أواسيه :

— المهم ان اللى شايفاه لغاية دلوقت ان ذوقك جميل .
قال كأنه يتناسى شيئاً :

— سيبينا من الموضوع ده .. تحبى تسمى اسطوانات؟
وقبل أن أرد عليه قام وفتح « البيك آب » وأخذ يعلق
به الاسطوانات ..

وسألته وهو مدير ظهره لى .. سؤالاً كان يلح على رأسى
قبل أن أحضر اليه :

— يا ترى كام واحدة دخلوا الشقة دى قبلى ؟!
قال فى بساطة دون أن يلتفت الى :
— كثير !!

واغتظت .. كنت أنتظر منه أن يكذب مجاملة لى ، وأن

أناقشه في كذبه .. كنت أنتظر منه أن يحاول اقناعي بأنى أول
من دخلت عشه ، أو على الأقل آخر من سيدخله .. ولكنه لم
يكذب .. ولم يجاملنى .. انما كان — كما عرفته دائما
بعدها — صريحا بسيطا .. يعترف بالحقائق مهما كان فيها
من شذوذ ، ثم يبررها بمنطق سلس مقنع ..
وقلت :

— ويأتري أنا واحدة زى « الكثير » بتوعك دول !!?
والتفت الى برأسه وهو لا يزال ممسكا بالاسطوانات:
— اسألينى السؤال ده بعد أسبوعين .. أكون قدرت
أعرف الفرق بينك وبين أى واحدة .. على كل حال فيه فرق
واضح باين من دلوقت !.
قلت فى لهفة :
— ايه !!?

قال وقد بدأت الاسطوانات تدور وترتفع أنغامها :
— انك أصغر واحدة فيهم ..
قلت فى حدة وكأنه أهاننى :
— أنا مش صغيرة !! ..
— عندك ستاشر سنه بحالهم !! ..
— تمتاشر من فضلك !! ..
— تبقى برضه أصغر واحدة فيهم !!
قلت وأنا أرحى أهداى فوق عينى ، كأنى أعرض
نفسى عليه :

— أنا عمرى ما عجبني حد من الشبان الصغيرين ..
قال مبتسما :

— وعجبك رجالة كبار كثير؟! ..
قلت وأنا أرفع عينيّ اليه في لفتة سريعة ثم أخفضهما :
— انت أول واحد عجبني .. وأول واحد أعرفه!! ..

ونكس رأسه كأنه يفكر فى مشكلة كبيرة ، أو كأن أحدا
ألقى عليه مسؤولية ضخمة ، ثم قال وهو ينقر على المائدة
التي أمامه فقرات عصبية :

— أنا خايف عليكى يانادية ؟
قلت فى صوت كأنه الهمس :
— من ايه؟! ..

قال كأنه حزين ، والنغم الذى ينبعث من الاسطوانة
حزين ايضا :

— من نفسى .. اتتى ما تعرفيش انا ايه .. وأقدر اعمل
ايه فى حياتك !

قلت مترددة كأنى أنافته :
— كفاية انك تخاف على ..
قال كأنه يحاول ان ينفرنى منه :
— واتتى؟ .. مش خايفة منى؟ ..

قلت وقد انتهت الأسطوانة ، وسقطت مكانها اسطوانة
أخرى لعبد الوهاب :

— دلوقت مش خايفه .. أول ما دخلت كنت خايفه

موت لدرجة انى مارضيتش آخذ من الشيكولاته اللي قدمتها
لى ، خفت تكون حاطط فيها حاجة .. تصور !! ..

قلت بانطلاق كأنى نسيت نفسى ..

وضحك ملء فمه ضحكته المتقطعة الحلوة ، وقال :

— قصدك .. أكون حاطط فيها مخدر !! ..

قلت وانا أبتمس فى مرح :

— أيوه ..

قال وقد انحسرت ضحكته عن ابتسامه :

— وبعد ما أخذرك أعتدى على أعز ما تملكين .. تمام

زى قصص روايات الجيب والافلام المصرية !! ..

قلت وانا لا زلت مرحة :

— مين عارف ؟ ! ..

وضاقت ابتسامته ، وقال فى صوت جاد :

— مش بس الشيكولاته اللي فيها حشيش ولا أفيون ،

هيّه اللي بتخدر البنات .. ساعات البنت هيّه اللي تخدر

نفسها بعقلها .. تفضل تمنع فى نفسها لغاية ما تتخدر .. وبعدين

تفوق على الندم !!

قلت وكأنى أسد فى وجهه كل الطرق التى تنفرنى منه :

— أهو يوم ما ابتدى اقنع نفسى ، وقبل ما اتخدر ..

تبقى أنت تلحقنى ! .

ثم استطردت وانا انظر اليه بكل عينى :

— انا واثقة فيك يا مصطفى !! ..

ورغم ذلك فلم أكن حتى هذا اليوم — ولأيام طويلة
أخرى — أثق به .. كنت أحاول أن أعرفه ، وكلما عرفته أكثر
ازدادت حيرتي فيه .. كأني في بحر كلما تعمقت في مياهه
خفت الفرق !! ..

كان كل ما فيه يبدو متناقضا بعضه مع بعض .. عيناه
الضيقتان اللتان توحيان بذكاء حاد خطر ، وشفته العاطفيتان
اللتان توحيان بالطيبة والبساطة .. وسمرته اللالحة وفكاه
القويان توحى بالقسوة والعنف .. وأصابعه الرفيعة الطويلة
توحى بالركة والضعف .. وكان غنيا ، ورغم ذلك فأصدقائه
كلهم من الشبان الفقراء .. وآراؤه من التطرف الى حد
الشيوعية ، وكان يحمل ثلاث شهادات من كمبردج ورغم
ذلك فهو لا يعمل شيئا ولا يبحث عن عمل ، وكان يبدأ
سهرته في سميراميس ، وينتهي بها في الفيشاوى . وكان يقرأ
كتابا في الفلسفة ثم يلقيه ويسك بمجلة « البعكوكة »
ويقفه ضاحكا لنكاتهما .. حتى مجموعة الاسطوانات التي
كان يضعها دفعة واحدة فوق « البيك آب » ، كانت تتناقض
احداها مع الأخرى .. اسطوانة لبيتوفن ، ثم اسطوانة
« ياعم يابنا » يغنيها شفيق جلال ، ثم اسطوانة لأم كلثوم ثم
اسطوانة « جاز » سريعة عنيقة ، وكان عندما يبدل
الاسطوانات يغنى لنفسه منولوجا لشكوكو مطلعته :

« عين الحسود فيها عود وكنجة » .

« أنا الترامواي وانت السنجة »

« بعدك رنجة وقربك منجه » !!
كيف تستطيع أن تحكم على هذه الشخصية ؟
كيف تستطيع أن تثق بها أو لا تثق ؟ ..
ورغم ذلك فقد تركنى فى اليوم الأول الذى ذهبت اليه
فيه ، وهذه الشخصية تسكن كيانى كله !!
وعدت الى بيتى دون أن يلمسنى ..
عدت وقد تضخم السر الذى أحمله فى صدرى حتى
كاد يرتفع بى عن الأرض ويطير بى .. سر الرجل الذى ذهبت
اليه .. سر حبنى الأول !!

وأحسست أن هذا السر أكبر منى ، وأقوى من صدرى ..
أحسست انى فى حاجة الى انسان آخر يحمله معى .. انسان
أحدثه عن كل ما حدث .. أشركه فى سعادتى وفى خوفى ،
وفى حيرتى ، وفى رأى .. انسان أزهو أمامه بأنى أصبحت
كبيرة ، وبأنى قد أصبح لى رجل ، ولى مغامرة ، ولى سر .
ونظرت الى طنط صافى — زوجة أبى — وتمنيت فى
هذه الساعة لو أنها كانت صديقتى لأقول لها كل شىء ..
ولكنها كانت تنظر الى جامدة صامته ، وكأنها تبحث فى
وجهى عن سرى ..

كنت قد تأخرت فى العودة عن البيت .. كنت قد عدت
فى الساعة الثامنة ، وكان يجب أن أبدى عذرا لتأخرى ،
ولكنى لم أجد نفسى مضطرة لأن أبدى عذرا ، وخصوصا
ان أبى لم يكن قد عاد الى البيت .. كما أن طنط صافى لم

تسألنى شيئاً ، انما اكنفت بهذه النظرات الصامته الثاقبة
التي توجهها الىّ .. وربما انتظرت منى أن أتكلم .. أن
أقول شيئاً .. فلما لم أتكلم ، لم تتكلم هى الأخرى .. فهكذا
عودتنى ، ألا تسألنى عن شيء ، أو تحاسبنى عن شيء ، أو
تعطى لنفسها حقاً على ..

ولا أدرى لماذا أحسست فى هذا اليوم اننا ابتعدنا احدانا
عن الأخرى ، أكثر مما كنا عليه من البعد .. وأن الستار
الكثيف الذى يفصل بيننا قد ازداد كثافة .. أحسست أن
وجودها فى البيت يضايقتنى .. انها قيد على حريتى وتصرفاتى
.. انها رقيب صامت يرقبنى كلما دخلت ، أو خرجت ..
أحسست أنها تفهمنى جيداً ، وتفهم كل شيء دون أن تتكلم !!
ولكنى تناسيت وجودها !! ..

وكان من السهل علىّ أن أتناساها كلما ذكرت مصطفى ..
وقد كنت أذكر مصطفى طول يومى ولىلى .. أذكره بقلبى
وعقلى وأعصابى .. قلب حائر وهو يسمع طرقات الحب على
بابه ، وعقل تائه لا يدرى أين الخطأ والصواب ، وأعصاب
مشدودة كأوتار قيثاره جديدة لم تلن بعد بين أصابع
صاحبها .

وذهبت اليه مرة ثانية فى شقته بشارع قصر النيل ..
وكان لا يزال يراودنى بعض الخوف .. كنت أعتقد أنه اذا
كان قد أعفانى من رجولته فى المرة الأولى .. فانما ليغرينى
بأن أذهب اليه فى المرة الثانية !! ..

ولكنه فى المرة الثانية كان أكثر تحفظا من المرة الأولى ..
لم يحاول أن يلمسنى .. سوى هذه القبلة التى يضعها فوق
باطن كفى وهو يستقبلنى ، ثم وهو يودعنى ..
ثم ذهب الى كئيرا ..

ولم يعد لى ما أهتم به ، أو ما يثيرنى الا أن أذهب اليه ..
ولكنه ظل دائما متحفظا باردا !! ..

كنت أسعد بحدِيثه الحلو عن حياته وكتبه وآرائه
وتجاربه .. وكنت أسعد بسماع اسطواناته التى لم تكن
تكف عن الدوران . وكنت أسعد باللوحات التى يجمعها
ويظل يحدثنى عنها ساعات ، ويطلعنى على أسرار جمالها ،
وكنت أسعد أيضا بحدِيثى اليه .. كنت أحدثه عن نفسى ..
عن كل شىء فى حياتى .. عن طفولتى وصبأى .. وعن أبى
وزوجته : وعن أمى وعن عمى عزيز ، وعن دادا حليلة ،
وعبده السفرجى ، والأسطى محمد الطباخ .. وكان يعلم
أولا بأول أخبار البيت كله .. ماذا اشترينا ، ومن زارنا ، بل
كان يعلم ماذا يحوى « الفريجيدير » فى مطبخنا ..

كان الرجل الوحيد الذى استطاع أن يدفعنى الى
الحديث عن نفسى بهذه الطلاقة .. وكان حديثى عن نفسى
يربحنى ويفتح صدرى للحياة ، وقد أخفيت عنه أشياء كثيرة
من حياتى .. ولكن ما قلته له لم أقله لانسان آخر .
كنت سعيدة ..

سعيدة بهذه الدنيا الجديدة الواسعة التى فتحها مصطفى
أمامى .. دنيا لم أكن أعرفها ولم أكن أحلم بها ..
ولكنى لم أكتف بهذه السعادة .. كان هناك شيء أنتظر
أن يحدث ، ولا يحدث أبدا !
كنت أنتظر أن يقبلنى ..
نعم .. يقبلنى !
لم لا ؟!

ان كل قصة حب تبدأ بقبلة .. انى أرى القبلات فى كل
صورة وفى كل مجلة ، وفى كل فيلم سينمائى .. وأكاد
أسمعها من الغرفة المجاورة .. غرفة أبى وزوجته !
فأين قبلتى ؟!
متى تبدأ قصة حبنى ؟!

ربما كان لا يحببنى .. ربما كان لا يزال يعتبرنى كابنته ..
كما وصف مرة صديقتى نجلاء !!
أو ... ربما كانت هناك امرأة أخرى ... ان رجلا مثله
لا يستطيع أن يعيش بلا امرأة !

وعذبتنى هذه الأفكار ، وأصبحت لا أنام ..
كنت لا أكاد أخرج من عنده حتى أتصور أن هناك امرأة
أخرى ستدخل بعدى .. وكنت لا أكاد أنام فى فراشى حتى
أتخيل امرأة أخرى تنام فى فراشه ..
وأحيانا كنت أكاد أجن .. فكنت أغادر بيتى — كلما
سنحت لى الفرصة — وأمر من أمام العمارة ، وأبحث عن

سيارته أمام الباب لأتأكد أنه ليس في شقته مع امرأة أخرى..
وكنت كلما ذهبت مع والدى وزوجته الى السينما تحايلت
في عودتنا حتى نمر في شارع قصر النيل ، وأبحث بعينين
مجنونتين عن سيارته أمام العمارة ..

ولم يتأكد لى شىء ..

لم أتأكد من انه يعرف امرأة أخرى ولم أتأكد من انه
لا يعرف امرأة أخرى !!
وسألته .. قلت له :

— يا ترى بتعرف مين غيرى دلوقت يامصطفى ؟..
ونظر الىء كأنه يفهم ما أعنيه وقال فى بساطة وصدق :
— اليومين دول .. مافيش !!
قلت وأنا أكاد أحتد :

— مش معقول .. راجل زيك وعازب يقعد كده من غير

واحدة !!

وقال مبتسما :

— الراجل اللى فى سنى يقدر يقعد طول عمره من غير

واحدة ..

— ليه .. انت عندك ستة وتلاتين سنة وبابا اتجوز وهو

عنده تسعة وتلاتين .

قال فى فتور :

— لازم لقى اللى تستاهل الجواز !!

قلت كأنى أشير له على نفسى :

— وانت ؟. لسه مالقيتش !?

ونظر اليّ ثم قال وهو يدير عينيه عنى كأنه يتردد فكرة
من رأسه :

— لسه !!..

وأحسست بغصة .. أحسست بريح باردة يطلقها
مصطفى على قلبي .. وفضلت أن أسكت ..

وقد دار مثل هذا الحديث بيننا أكثر من مرة .. وفى كل
مرة كان ينتهى دون أن ينقذنى من الشك الذى يعذبنى ..
الشك فى أن يكون على علاقة بامرأة أخرى .. امرأة كبيرة ..
قد تكون زوجة تخون زوجها ، أو مطلقة .. وليست فتاة
مثلى لم تتم السابعة عشرة من عمرها ..

ثم بدأت أحرّضه ..

بدأت أحرّضه على نفسى ..

كنت أتعمد أن ألتصق به كلما جلسنا لنقرأ كتابا ..
وكنت أتعمد أن أضع يدي فى يده وأبقيا فيها .. وكنت
أتعمد أن أسقط شعرى حتى يهفو على وجهه . ولا شك أنه
كان يحس بكل هذا التحريض وكان يبذل ارادته كلها
لمقاومته .. كان يحتج بأى حجة ويقفز من جانبي ، أو يسحب
يده من يدي .. أو يبعد وجهه عن طيات شعرى ..

وكنت أشعر بمقاومته ..

وكنت كلما قاوم أتمادى فى تحريضه .. وكنت أستعد
لهذا التحريض قبل أن أذهب اليه كأنى مقدمة على رحلة

صيد .. فكنت أتعطر بالعطر الذى يحبه ، وكنت أذهب اليه
في زينة تبرز مفاتنى على قدر ما كنت أفهم الفتنة في مثل
عمرى ..

وأكثر من ذلك ..

تعودت أن أقف عارية أمام المرأة .. وتعودت أن أنظر
الى جسدى ، قطعة قطعة ، كأنى أنتقى منه ما يعجب مصطفى ،
وكأنى أنظر الى نفسى بعينيه .. ساقاى ، وجذعى ، ووسطى ،
ونهداى ، وكنتاى ، وظهرى الذى يشقه ظل خفيف يمتد من
أول كنفى حتى جذعى .. عرفت أسرار جمالى كلها ، وعددت
« الحسنات » التى تحلى بشرتى البيضاء .. واحدة فى أعلى
ساقى ، وواحدة فى جنبى ..

وكنت أجزع كلما توقفت عيناى عند صدرى المنعكس
في المرأة .. كان صدرى أصغر قليلا مما يجب أن يكون
بالنسبة لطول قامتى .. وكنت أعلم هذا طول عمرى ، ولكنى
لم أجزع له ، ولم أهتم به الا عندما خيل الىّ أن أعدّ نفسى
لمصطفى .. عندما أصبحت أقف أمام المرأة عارية ومصطفى
واقف معى فى خيالى .

وأصبح همى أن أطوف بمحال الأزياء باحثه عن «ستيان»
يلائم صدرى ، ويبرزه من تحت ثوبى فى حجم ملائم ..
واشترت عشرات من « الستيانات » من جميع الماركات
وجميع الابتكارات الأمريكية والباريسية .. ولم أكن أعتقد
أن هذا النقص الطفيف فى جسدى يمكن أن يتعبنى الى هذا

الحد .. ويمكن أن يشتد احساسى به حتى يصبح عقدة
نفسية تدفعنى الى أن أرقب صدور جميع السيدات اللاتي
التقى بهن لأقارن بينها وبين صدرى .. وتدفعنى الى
الاحساس بأن كل ما يمكن أن يحدث لى ليس له سبب
الا صغر صدرى .. بل انى أصبحت أتعمد كلما ذهبت الى
مصطفى أن أرقب عينيه وأنا خائفة أن تسقطا فوق صدرى ..
ولكن مصطفى لم ينظر أبدا الى صدرى أو الى جسدى ..
كان كما عودنى منذ أن التقيت به أول مرة لا ينظر الا الى
وجهى .

الى أن كان يوم ..

وكان مصطفى واقفا بجانب « البيك آب » يعلق بعض
الاسطوانات ، ويدمدم باحدى منولوجات شكوكو ..
وجئت ووقفت بجانبه ، ووضعت يدي على كتفه— وكان
قد خلع سترته — وانحنيت برأسى داخل البيك آب متظاهرة
بأنى أقرأ عنوان الاسطوانة ، ثم أدت رأسى اليه حتى كادت
شفتاى تلتصقان بشفتيه ، وقلت وأنا أتحداه بعينى :
— الاسطوانة دى تعجبنى قوى !!

ولم يرد على .. انما نظر الى طويلا .. ورأيت فى عينيه
شيئا جديدا مثيرا .. رأيت أنه كأنه قد قرر أمرا طال أمد تفكيره
فيه . وأحسست بأنفاسه أسرع مما تعودتها .. ولمحت حمرة
خفيفة تصبغ وجهه الأسمر .. وقال فى صوت لم أسمعه من
قبل ، وكأنه يتكلم من أعماقه :



تمودت أن أتف عارية أمام المرأة .. وتمودت أن أنظر إلى جسدي

انتى خلاص أعفتينى من وعدى !?
قلت وشفنأى لا تزالان قريبتين من شفتيه ، وصوتى
يكاد يصبح همسا :
— وعد ايه ؟ ..

— مش فاكرة انى وعدتك قبل ما تيجى الشقة أول مرة ،
انى ...
وقاطعته :

— لأ .. مش فاكراه !!

وطافت بشفتيه ابتسامه ، اختفت سريعا .. ثم شعرت
بوجهه يقترب من وجهى ، ثم بخده ينام على خدى .. ثم
بشفتيه ترحفان فى رقة دافئة وتضمان شفتى ..
لقد قبلنى .. أخيرا !!
ولم أحس الا بفرحتى بالقبلة الأولى .. القبلة التى
انتظرتها كل هذه الأسابيع ..

ثم ألقى الاسطوانة التى كانت لا تزال بيده وضمنى الى
صدره .. ثم ارتفعت يده ودست أصابعها فى طيات شعرى ،
بينما ذراعه الأخرى لا تزال تضمنى فى قسوة تمنيت أن تكون
أقسى .. ثم انحنى يقبل عنقى .. عشرات القبل !!
ورفع رأسه ونظر الى وأنا لازلت بين ذراعيه ، وقال فى
صوت مرتعش مبهور :

— أنا قاومت كثير يانادية .. أنا ..

ولم يتم حديثه انما نظر الى قميصه فرأى عليه آثار

أحمر شفتي .. فابتسم ابتسامة كبيرة .. ثم حل أزرار القميص وشده من تحت سرواله ، ثم خلعه وألقاه على الأرض.. ورأيت صدره عاريا .. صدرا أسمر في لون البقتيك المشوى نصف شواء !!..

وكنت قد رأيت صدورا عارية لرجال كثيرين على شاطئ البحر .. وكنت قد رأيت صدر مصطفى نفسه عاريا .. ولم أشعر أبدا أن الصدر العاري يمكن أن يثير في كل هذه الأحاسيس التي ثارت في نفسي ذلك اليوم .. أحسست كأن صهدا لافحا ينبعث من صدره .. أحسست كأن قوة كبيرة تنبعث من هذا الصدر العاري وتشدني إليه .

وارتبكت .. وكأني ضعفت .. وكأن كل شيء يتخلى عني .. وكأني لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي .. وكان ناراً تندلع في أعصابي وتصهرني ثم تذيبني ..

ولم أعد أستطيع أن أنظر إليه أو الى صدره العاري .. وقال في صوت متقطع خشن وكأنه يعتذر :

— أنا آسف.. كان لازم أقلع القميص علشان ما اضطرش أغسله قبل ما أنزل .. ولم أرد عليه ..

وسكتَ طويلا ، وأنا أشعر بعينه تطوفان فوق وجهي.. ثم مد ذراعيه وضمني إليه ، وضغط رأسي فوق صدره العاري .. وأحسست بشفتي تحتضنان قطعة من صدره .. قطعة من لحمه !!..

هل أخطأت ..?

انى لم أشعر — وأنا معه — بمعنى الخطيئة ولا بطعمها..
كان كل ما يجرى بينى وبين مصطفى ، يجرى سهلا
بسيطا كجريان الحياة نفسها .. لم أشعر أبدا بأنى أرتكب
اثما ، ولم أشعر أبدا بمعنى من هذه المعانى الضخمة المخيفة
التي تصورها القصص والأساطير .. لم أكن أشعر انى
أخافه ، ولم أشعر بالمستقبل .. كان كل ما أشعر به هو أنى
أعيش .. وأنى أعيش أسعد لحظات حياتى !!

وقد جرى بينى وبين مصطفى الكثير .. بعد أن اختفى
فارق السن بيننا كأن كلينا ولد فى يوم واحد .. يوم قبلنى
لأول مرة .. وبعد أن أصبحت له — على مر الأيام —
وأصبح لى ..

أعطيته كل ما أراد .. وأخذت كل ما أعطانى .. ولم أحس
وأنا أعطى انى أفقد شيئا ، ولم أحس وهو يأخذ انه يفتصب
شيئا .. كانت الطبيعة نفسها — طبيعة الكون — هى التى
تأخذ منى وتعطيه ، وتأخذ منه وتعطينى .. طبيعة منظمة
مقدرة ، كل بادرة منها لها موعد ولها دافع .. كانت قبلته
تأتى دائما فى مواعدها ، وكانت لمستته تقع دائما فى مكانها ،
وكانت أنفاسه تهب دائما فى موسمها ..

لم يكن بيننا شيء مفتعل .. لم أشعر انه يعدّ شيئاً
مقدماً .. ولم أكن أذهب اليه وأنا أعرف ما سيجري بيننا ..
أبداً .. انما كنت أذهب اليه وكل ما أعرفه انى سألقاه
وسأدخل دنياه .. ثم تترك الطبيعة تتحكم فينا .. قد تهب
الريح ، وقد لا تهب .. وقد تمطر وقد تصحو .. وقد يلحقنا
الليل وقد يطول بنا النهار ..

وأكثر ما التقينا ، لم نلتق الا على حديث تبادلته ..
وكان دائماً يجد ما يقوله لى ..

وكنت دائماً أحب كل ما يقوله ، وأقتنع به .. كانت
آراؤه كلها جديدة علىّ ، لم أسمعها من قبل ، ولم أر صورة
لها فى الحياة التى تحيط بى .. كان يهدم كل التقاليد التى
عشت فيها فتقع من حولى دون أن أسمع صوتاً لسقوطها ،
وكأنها لم تكن قائمة أبداً .. ثم كان يبنى فى عقلى عالماً
جديداً .. عالماً ذا قباب مذهبة لامعة تخطف البصر حتى
لا تعود ترى شيئاً تخافه أو تخشاه ..

وكان هذا العالم ذو القباب المذهبة الذى بينه مصطفى
بآرائه ، عالماً كله حب .. سماؤه حب ، وأرضه حب .. لم
يكن فيه شر ولا أشرار ، ولا جريمة ولا مجرمون .. كان
الناس كما يراهم مصطفى كلهم ناس .. مجرد ناس .. يستوى
منهم المجرم والصالح .. فالصالح دفعته ظروفه الى الصلاح ،
والمجرم دفعته ظروفه الى الاجرام ، ويوم تتوحد الظروف
لن يكون هناك صالحون ولا مجرمون ، بل سيتغير أيضاً

معنى الصلاح ومعنى الاجرام ، ويصبح هناك معنى واحد
تقوم عليه تقاليد واحدة يتبعها الناس جميعهم دون أن يشذ
عنهم فرد ، لأن الظروف الواحدة التي يعيش فيها الأفراد
كلهم لن تدفع فردا منهم الى الشذوذ .. لن يسمى الرجل
الذى يعطى بعض ماله لرجل آخر ، محسنا كبيرا .. لأن
العطاء بين رجلين يعيشان فى ظروف متساوية لا يسمى احسانا
.. ولن تعتبر الفتاة التي تهرب مع فتى ، انها هاربة .. ولكنها
مجرد فتاة ذهبت مع فتى ، فالظروف الموحدة بينهما لا يمكن
أن تجعل لذهابها معنى الهرب ..

كان هذا هو العالم الذى بينه مصطفى بأرائه ..

ولم أكن أفهم آراء مصطفى تماما ، لم أفهمها الا بعد أن
كبرت ، ولكنى كنت أقتنع بها لأنه يقولها ، ولأنى معه !! ..
كان كل ما أفهمه أنه يجد دائما عذرا لكل شيء .. عذرا
يصفح به عن كل جريمة !! ..

رويت له مرة قصة زوجة أعرفها ، وأعرف انها تخون
زوجها .. رويتها وأنا نائرة على الزوجة ، وعلى خيانتها ..
فقال بكل بساطة :

— لازم ما بتحبوش !! ..

قلت وأنا لازلت فى ثورتى :

— وعلشان ما بتحبوش تقوم تخونه !? ..

قال :

— الحق عليه هوّه .. قاعد معاها ليه اذا كانت
ما بتحبوش!?

قلت :

— وهيه قاعدة معاه ليه?..

قال :

— مضطرة .. المجتمع اللي حوالها يضطرها أنها تفضل
معاها ، لأن الطلاق عند الناس معناه فضيحة .. وخراب
بيوت!!..

قلت :

— طيب بتكذب عليه ليه .. وتفهمه انها زوجة
مخلصة!!?..

قال كأنه يلقي محاضرة :

— بتدافع عن نفسها .. عن مركزها في المجتمع .. المجتمع
هو اللي غلطان مش هيه .. المجتمع هو اللي بيحتم عليها
انها تكذب ، وتخدع ، وتنافق وتخون .. علشان تفضل عايشة
فيه وتفضل محتفظة باحترامها .. زى الفلاح ما يكذب ويخدع
ويسرق صاحب الأرض .. مضطر .. لأن ما فيش في ايده
سلاح تانى يدافع بيه عن حقوقه .

قلت ، وأنا أقاومه :

— يعنى كل واحدة ما بتحبش جوزها تخونه?..

قال :

— اذا ما كانتش بتخونه مع غيره .. تبقى بتخونه مع

نفسه .. بتديله عواطف كدابة وجسم ميت .. بتفكر فى ماهيته
أكثر ما بتفكر فيه .. بتفكر امتى حيموت أكثر ما بتفكر
أدأيه حايعيش ، بتفكر امتى حيخرج من البيت أكثر ما بتفكر
امتى حيرجع ..

قلت فى حيرة :

— انت مجنون يامصطفى .. يا اما أنا غبية ؟..

قال وهو يتسم :

— اتنى مش غبية .. وأنا مش مجنون .. بس أنا شايف
وانتى مش شايفة ، وبكره الدنيا حتتصلح .. المجتمع حيترقى
.. مش حتلاقى اتنين متجوزين وما ييجبوش بعض .. ومش
حتلاقى واحدة بتخون جوزها ، ولا واحد يبخون مراته .
الانسان نفسه حيترقى والحب حيبقى له معنى أرقى من
معناه دلوقت ..

قلت متهكمة :

— بكره امتى .. باذن الله !?

قال كأنه يقرر حقيقة :

— قولى كمان ألف سنة .. بعد الناس ما تتمرمط
وتشبع مرمطة .. وتضطر تصلح نفسها ..

قلت :

— ومن هنا لألف سنة نعمل ايه ؟.

قال :

— حنفضل حيرانين .. كل اللى تقدرى تعمله انك

تشفقى على الناس وتعذريهم .. الست اللي خانت جوزها
دى .. لو كنت اتى مكانها كنت خنتيه برضه .. فارحميها من
لسانك .. واشفقى عليها .. واشفقى على جوزها .. وعلى
اللى بتخونه معاه كمان .. كلهم ضحايا .. ضحايا مجتمع
مسكين حيران !!..

قلت وأنا أفكر :

— لك حق ..

هكذا كنا نتحدث — مصطفى وأنا — حديثا يتجدد
دائما .. وينتهى دائما باقتناعى .. وربما كانت هذه الآراء
هى التى كانت تخفى عنى خيليتى .. وتخفى عنى الله ..
ولكن هذا الاقتناع لم يكن يبلغ مداه الا وأنا معه ..
فاذا تركته وعدت الى بيتى عاودتنى حيرتى !!..

وكان أكثر ما يحيرنى هو مصطفى نفسه .. كنت لا أكاد
أبتعد عنه حتى تهتز صورته أمام عيني ، وتجتاحنى موجة من
الشك تطغى على عقلى ، وعلى قلبى ، وتتلف أعصابى ..
كنت أشك فى اقتناعى بأرائه ، وأشك فى إخلاصه وأشك
فى حبه ..

هل يحبنى ؟..

هل يحبنى ؟..

هل يحبنى ؟..

سؤال كان يتردد فى صدرى كدقات ساعة ضخمة مزعجة
تعد الثوانى بمطرقة فوق رأسى .. ولم تكن هذه الدقات

تسكت الا عندما أكون معه .. ساعتها أنسى السؤال ،
وأنسى الشك وأنسى حيرتى .. واتجمع كلى فى احساس
واحد : انى معه !! ..

ثم أتركه لأعود الى حيرتى ..

كنت لا أستطيع فى وحدتى أن أصدق انه يجبى ..
يجبى كما أحبه .. كانت شخصيته أضخم فى نظرى من أن
تكتفى بى ، وكان تماديه فى البساطة والصراحة يجعله يبدو
أمامى معقدا غامضا .. انه ليس ككل الناس .. لا يعيش
مثلهم ولا يتكلم مثلهم ، فلا بد انه أذكى من كل الناس
وأخطر من كل الناس .. ثم ان آراءه التى يحدثنى بها لا يمكن
أن تدعو الى الاطمئنان ، انه رجل لا يؤمن أن هناك شيئا
اسمه فضيلة وخطيئة ، وحرام وحلال .. لا يؤمن بتقاليد ..
انما يؤمن بأن الظروف هى التى تسيّر الانسان .. فكيف
أثق بالظروف التى تحيط به والتى تحكم تصرفاته .. من
أدراى أن هذه الظروف لن تلقى فى طريقه امرأة أخرى ..

واقلمت حيرتى الى غيرة ..

أصبحت أغار عليه الى حد العذاب .

وتماذيت فى المرور أمام باب العمارة — فى الساعات التى
لا ألقاه فيها — حتى أرقب سيارته وأتأكد انه ليس فى
شقتة .. ثم بدأت أشك فى انه قد يأتى الى العمارة بلا سيارته ،
فبدأت أسخو على بواب العمارة بالمال ، وأسأله كلما
مررت به :

— مصطفى بيه موجود فوق ؟ ..

وكان الجواب غالبا :

— والله ماجاش النهارده ياست هانم ..

وأعود أسأله :

— وياترى امبارح كان سهران هنا ؟

ويرد البواب فى تخابث :

— امبارح؟! .. لا ياست هانم !

وعرف البواب ما أرمى اليه ، فعين من نفسه جاسوسا

على مصطفى يبلغنى كل أخباره ، ويبتز نظيرها تقودى ..

وربما كرهت نفسى أيامها .. كرهت نفسى لأنى نزلت بها الى

هذا المستوى الذى أسلم فيه سرى الى بواب ، ولكن كل

هذا كان أرحم من الغيرة التى تعذبنى !!..

ولم ينقذنى التجسس على مصطفى من حيرتى ، ولم تبرد

غيرتى ، فان مصطفى نفسه كان أصرح من أن يخفى عنى

شيئا ..

قال لى البواب مرة أن مصطفى قضى سهرته فى الشقة

مع بعض الأصدقاء والصدقات ، ولم أكد أقابل مصطفى

حتى بدأ يروى تفاصيل السهرة ، قبل أن أسأله شيئا أو

أحاسبه عليها . وأبحث فى عينيه وهو يتكلم عما يؤيد

شكوكى .. فلا أجد الا صفاء الدنيا ، دنياى معه !..

كان الحل الوحيد أن أكون معه فى دنياه .. لأرتاح ..

وتماذيت فى ذهابى اليه .. كنت ألقاه كل يوم تقريبا ؛

ولكننى كنت مضطرة أن أتركه دائما قبل الساعة السادسة..
قبل أن يعود أبى .. ثم لم أعد أكنفى ، كنت أريد أن أقضى
الليل معه .. الليل الذى تعذبني فيه غيرتى عليه !!
وبدأت أضغ الخطط لأقضى الليل معه .

وبدأت الخطة بالتودد الى أمى .. أصبحت أحادثها كل
يوم فى التلفون .. واكتشفت أن حديثي معها ، ثم إعادة
رواية هذا الحديث لأبى يضايق زوجته ، فأمتلىء بشعور
الشماتة .. الشماتة فيها . وأصبحت أكثر من الحديث عن
أمى أمام أبى وزوجته .. جعلت من أمى شبحا يعيش معنا ..
كنت أقول لهما أين ذهبت أمى اليوم ، وماذا اشتريت ، ومن
زارها ، وبماذا أوصت طبأها ليعد طعاما .. كان كل ما أسلمعه
من أمى أقوله لهما .. وأشمت فى زوجة أبى ..

ولم يعلق أبى على توددى لأمى .. ربما نسب ذلك الى
وحدتى فى البيت بعد أن انقطعت عن المدرسة .. وربما نسبة
الى اننى كبرت وأصبحت فى حاجة الى صداقة أمى ..
وبعد أن اطأنتت الى أن صداقتى لأمى أصبحت أمرا
معترفا به فى البيت .. تعمدت فى إحدى المرات وأنا أحادثها
فى التلفون ، أن اضغط بأصبعى — ومن طرف خفى — على
مكان السماعة .. فانقطعت المحادثة .. ولكننى استمررت فى
الحديث ، وقلت كأن المكالمة لا تزال مستمرة بينى وبينها :

— بس لازم أستأذن بابا ؟

ثم التفت الى أبى قائلة :

— ماما عازماني على السينما سواريه .. أقدر أروح ؟
وهز أبى رأسه علامة الموافقة . وعدت أقول في سماعه
التليفون :

— بابا موافق !! ..

ثم سكت قليلا ، وعدت أقول :

— لأ .. بلاش تفوتوا على .. أنا أفوت عليكم الساعة
تمانية .. تتعشى ونروح السينما !!
ثم أعدت الساعة مكانها ..

ولم أنس بعد قليل أن أتصل بأمي مرة ثانية ، وأقول لها
في سذاجة :

— ايه اللي قطع السكة !!? ..

وفي الساعة الثامنة كانت سيارتنا تحملني الى العمارة
التي تقيم بها أمي في حي الزمالك ، ووضعت نفسي في المصعد
وصعدت به الى آخر طابق .. ثم نزلت به ثانية ، وكانت
سيارتنا قد انصرفت ، فركبت سيارة أجرة وذهبت الى
مصطفى ..

وقلت له كل ذلك ..

سردت له تفاصيل الخطة التي اتبعتها لألقاه ولأبقى معه
حتى منتصف الليل .. فنظر الى دهشنا .. وربما كان في
دهشته معنى الاعجاب بذكائي ، وربما كان فيها معنى الجزع
من اندفاعي ، ولكنه لم يلمنى .. أو يحذرني ..

كان هو الآخر في حاجة الى لقائي .. وكان يسعد ببقائي

معه حتى منتصف الليل .. فكان يكتفى بإبتسامة تحترق فوقها
المعاني ، وكأنه يلوم الظروف التي تضطرنى الى أن أخدع
وأن أكذب وأن أنافق لألقاه ، ويلوم نفس الظروف التي
تدفعه الى أن يقرنى على خداعى وكذبنى وتفاقى .. ثم يدير
لى ظهره ويعلق الاسطوانات فى « البيك آب » وكأنه يفتح
باب دنياه بالأنغام
.....

وفى الثانية عشرة كان مصطفى يعود بى الى بيتى ..
وكانى سندريللا ، أخشى ان تأخرت عن موعدى أن تتخلى
عنى الساحرة !! ..

وتكرر ذهابى الى مصطفى وبقائى معه حتى منتصف
الليل ، وكنت فى كل مرة أجد خطة جديدة .. خطة مجبكة
الأطراف لا تنفضح ولا تثير شبهة أحد .. لا تثير الا هذه
النظرات الصامتة الجامدة التي تقابلنى بها زوجة أبى ، كأنها
تقرأ سرى على وجهى ..
ورغم ذلك لم أكن سعيدة ..

كنت لا أكاد أعود الى بيتى حتى أحس بانقباض فى
قلبى .. كنت أحس بالخجل من نفسى .. خجل حاد كسكين
يشق صدرى ..

كنت أسمع الصوت المجهول يصرخ بين ضلوعى
ويسألنى : لماذا ؟ ..
لماذا أفعل كل ذلك ؟

لماذا أندفع كل هذا الاندفاع في الحب ؟
لماذا لا أقاوم نفسى ؟

وكانت هذه الأسئلة تنطلق حولى فى رنين أجوف
ضخم .. كأنها آتية من عالم بعيد .. عالم كل ما فيه قديم ،
وكل ما فيه فراغ ، وسكانه ذو عمائم ضخمة ، وذقون طويلة ،
ووجوه نحيلة وعيون واسعة .. واسعة جدا ، وكنت أحس
كأن هذه العمائم تسقط ثقيلة على صدرى حتى تكاد تحطم
ضلعوى ، وهذه الذقون تلتف حول عنقى وتكاد تخنقنى ،
وهذه العيون تلتهمنى حتى أختفى فيها وأصبح فى ظلام
مخيف ..

كنت كأنى أصاب بكابوس .. فأخفى رأسى فى وسادتى ..
وأهمس كأنى أصرخ : « مصطفى .. مصطفى » .. كأنى
أستنجد به .. أستنجد بحبيبى !!:

وكنت فى هذه النوبات أشفق على أبى .. أشفق عليه
وأنا أهدر ثقتى به .. وأشفق عليه وأنا أمزق الصورة البريئة
الظاهرة التى رسمها لى فى خياله .. وأشفق عليه وأنا أهدم
المستقبل الذى يتمناه لى .. أشفق عليه الى حد أن يبكينى
ضميرى !!

وكنت أحاول أن أخدع هذا الضمير ، وأحاول أن
أناقشه .. كنت أقول له — لضميرى — : « ان أبى رجمى ..
انه لا يعيش فى الدنيا التى نعيش فيها .. ولا يفهم العقلية التى
نفكر بها .. ولا يقدر الحاجة التى يدفعنا إليها المجتمع

الحديث « .. ثم أحاول أن أؤيد قولي فأستعرض في مخيلتي
حكايات البنات اللاتي أعرفهن واللاتي سمعت عنهن .. انهن
كلهن مثلى .. كل واحدة لها رجل تذهب اليه وتعطيه نفسها
.. كلهن مثلى .. وان كنت قد تماديت فلأن ظروف حياتي
قد سمحت لى بالتمادى ..

ولكن ضميري كان يرفض أن يقتنع .

وكان يعذبنى ..

كنت أحس كأن يدا تخرج من صدري وتقبض على
عنقي وتحاول أن تخنقنى .

وكنت أحلف بالله — عندما يشتد بى العذاب — أن
أقاوم .. أن أسلط ارادتى على نفسى حتى أمنعها من
مصطفى ..

ولكن محال ..

كان الوقت قد فات ..

كنت قد أدمنت مصطفى .. أدمنت رقته ، وأدمنت
بساطته وصراحته ، وأدمنت لقاءه ، وأدمنت الشقة التى أقابله
فيها ، وأدمنت العالم ذا القباب المذهبة الذى يفتحه لى ، وأدمنت
قبلاته ولمساته ، وأدمنت حيرتى فيه ، وغيرتى عليه ..

كنت كالمدمن .. كلما تمادى ازداد تماديا ..

وكلما فكر فى مصيئته أمعن فيها .

وكلما قاوم ادمانه ، اندفع اليه ..

كان مصطفى هو المخدر الذى ينسينى ضميرى ، وينسينى
شورى ، وينسينى كل ما مر بى فى حياتى ..

ولم يعد يكفينى ما أتعاطاه منه .. لم يعد يكفينى أن
ألقاه كل يوم ، وأن ألقاه أحيانا حتى منتصف الليل ..

طمعت فى أن أزيد « الوجبة » التى أتناولها من المخدر ..
طمعت أن أقضى ليلة كاملة معه حتى الصباح .. أن أبيت
معه ، فقد سئمت دور « سندريللا » التى تعود الى حياتها
الفقيرة عندما تدق الساعة معلنة انتصاف الليل ..

أريد أن أكون أكثر من سندريللا ..

وبدأت كالمجانين — مجانين المخدرات — أضع خطتى ..
وكانت خطة أبسط مما تصورت .. مهدت لها بضعة أيام
ثم أفنعت أبى بأن أمى تقيم حفلة بمناسبة عيد ميلاد ابنها ،
وانى وعدتها بأن أبيت عندها ليلتها ..

وعارض أبى قليلا ثم وافق ..

وكنت واثقة انه لن يحاول أن يسأل أمى عن الحفلة
الموهومة التى تقيمها ، ولن يحاول أن يطمئن على وأنا فى
بيتها .. فهما — أبى وأمى — لا يتبادلان الحديث منذ وقع
بينهما الطلاق ..

ورغم ذلك فقد كنت حذرة .. أردت أن أواجه جميع
الاحتمالات فاتصت بـ مصطفى قبل أن أغادر البيت وقلت له
هامسة :

— اسمع .. أنا حقتل السكة دلوقت ، واطلبنى تانى
حالا ..

ووضعت السماعة ..

واتصل بى مصطفى فى الحال ، وعدت أهمس :

— أنا حاققل السكة تانى دلوقت .. انما انت ما تقفلهاش
.. خلى سماعتك مرفوعة على طول .. حطها جنب التليفون
واسبقنى على هناك ..

وقال مصطفى فى عبط :

-- هناك فين? ..

— على الشقة ..

وقال دهشا :

— دلوقت?! ..

— دلوقت حالا .

ووضعت سماعة التليفون ..

ولم يضع مصطفى سماعته ..

وبذلك ضمنت أن أبى لن يستطيع أن يسأل عنى بالتليفون
فى بيت أمى ، فقد كنت أعلم انه اذا اتصل شخص من الخارج
بأى نمرة تليفون ، وعلق سماعة تليفونه فى الهواء ولم يضعها
فى مكانها ، تعطلت النمرة التى اتصل بها الى أن يعيد
سماعته ..

كنت أعلم كل شىء عن التليفون !!

ثم ذهبت اليه ..

لم أذهب اليه ككل مرة .. فقد قضيت نهارى كله أفكر
فى الليلة التى سأقضيها معه .. كنت أفكر كأنى عروس تستعد
لليلة زفافها .. وأعددت نفسى كعروس ..

أعددت كل التفاصيل التى تعدها كل عروس ..
وكنت وأنا أعد نفسى أرتعش كلى .. رعشة المغامرة ..
رعشة لذيدة فيها خوف ، وفيها تردد ، وفيها لهفة .. لذة
المقامر وهو يقامر بكل ماله ، وينظر الى عجلة الحظ وهى
تدور أمام عينيه ، فى انتظار الريح .. أو الخسارة !!.. أو لذة
المدمن وهو يمد يده ليتناول المخدر فى انتظار أن ينتشى ..
أو يموت !!..

وأعددت لنفسى ثوبا أبيض .. كثوب العروس .. يضيق
على جسدى حتى يكاد يلتصق به ، وينفتح عند الصدر
فيكشف عن كتفى وعن الخط الأول من دائرة نهدى ..
وأعددت معه قفازا طويلا ينسحب فوق ذراعى حتى يغطى
مرفقى ..

ولم أكن أستطيع أن أخرج من أمام أبى وزوجته بهذا
الثوب ، فانه ثوب أكثر تجملا مما تستحقه حفلة عيد ميلاد
طفل صغير .. وكنت أحرص على أن أبعد عنى كل الشبهات ..
أبعد عنى حتى مجرد التساؤل .. فارتديت هذا الثوب
الأبيض ، وارتديت فوقه « جيب » طويل واسع ، « وبلوز »
مقفولة الصدر ، وأمسكت بحقيبة يد كبيرة من حقائب
الصباح ، وضعت فيها قميص نوم من الحرير الأبيض ،

ووضعت فيها قفازى الطويل ، وخاتمى الماسى .. ثم مررت
من أمام والدى وزوجته فى طريقى الى باب الخروج ..
لم يكن فى ما يثير الشبهة أو التساؤل ..
وكنت واثقة من ذلك ..

ورغم ذلك فقد أحسست وأنا واقفة أمام أبى ، كأن
وجهى قد احتقن ، وكأن أطرافى تتخلى عنى ، أو كأن الأرض
تמיד بى ، أحسست بالصوت المجهول يكاد يرتفع فى صدرى
من جديد ... ولكنى أخمدته .. بذلت مجهودا كبيرا لأخمده
.. وقلت لنفسى : « ان أبى سعيد مع زوجته ... ولن يبخل
علىّ بالسعادة مع حبيبى » !!

ثم انحنيت أقبلة قبلة سريعة باردة .. ولكنى ما كدت
أرفع شفتى عن خده ، حتى عدت وألصقتهما به مرة ثانية ..
وكانت القبلة الثانية حارة كأنى أبكى بشفتى فوق خده ..
ثم أسرعت بالخروج ، وأنا أحبب زوجة أبى بصوت مرتفع ..
أكثر ارتفاعا مما يجب .. وكأنى أصرخ :
— بونسوار طننط !!

ووصلت الى العمارة التى ينتظرنى فيها مصطفى ،
وشعور المغامرة لا يزال يستبد بى ، حتى لا أستطيع من فرط
استبداده أن أفسره ..

وصعدت بالمصعد ، ثم أوقفته بين طابقين .. وبدأت أخلع
« الجيب » و « البلوز » ووضعتهما فى الحقيبة ، وأخرجت
القفاز ووضعت فى ذراعى ، ووضعت فى أصبعى — فوق

القفاز — خاتمي الماسي الكبير .. ثم التفت الى المرأة أصلح
من نفسي .. أخرجت قلم الحواجب وضغطت به على حواجبي
.. وقلم « الروح » وضغطت به على شفتي ..

ثم عدت أصعد بالمصعد ..

وفتح باب الجنة . .

ووقف مصطفى ينظر الى مشدوها .. لم أره أبدا ينظر
الى كما نظر الى هذه المرة ..

وقال في صوت تحشرجه الدهشة :

— ايه ده كله !!!? ..

وابتسمت ابتسامة غرور .. كنت أعلم اني في هذه الساعة
أجمل منى في أى ساعة أخرى .. كنت فعلا عروسة ..
لا ينقصها سوى الطرحة !! ..
ودخلت صامتة ..

ونظر مصطفى الى الحقيبة الكبيرة في يدي ، وقد اشتدت
دهشته حتى بدا كالبيط :

— ايه الحكاية !!!? ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعية :

— ولا حاجة .. حانام هنا الليلة !! ..

واختفت ابتسامة مصطفى .. ونظر الى بوجه جاد ،
وعينين حائرتين .. كأنهما صادفتا مشكلة خطيرة .. ولم
يتكلم !! ..

وقلت كأننى اكتشفت جرمى .. قلت متسائلة .. وكأنى
لا أسأله انما أسأل نفسى :
— أنا غلظت يامصطفى؟! ..

وبقى صامتا كأنه لا يزال يفكر .. ثم لانت نظرات عينيه ..
وعادت الى شفتيه ابتسامة حانية حلوة .. ومد ذراعيه
واحتوانى فى صدره فى حنان ، وسمعت صوته يهمس بجانب
أذنى .. كأنه يعيرنى :

— اتتى ماغلظتيش يانا دية .. الدنيا هى اللى غلظت
معاكى .. ومعايا !! ..

وأبعدنى عن صدره ، وجذبنى الى حجرة البار ، وجلسنا
فوق مقعدين من المقاعد المرتفعة ، ثم قال ضاحكا وهو يفرغ
لى كأسا من الويسكى ويفرغ لنفسه كأسا :

— احكىلى .. ايه اللى حصل بالضبط ؟ !! ..
وبدأت أحكى له كل ما جرى فى يومى ، وكان يتسم ،
وخيل الىّ ان فى ابتسامته مرارة .. ولكنه ضحك .. ضحك
كثيرا وأنا أروى له كيف لبست « الجيب » و « البلوز »
فوق ثوبى الأبيض ، وكيف خلعتهما فى المصعد .
وانتهيت من كأسى ..

ولم تكن المرة الأولى التى أشرب فيها كأسا .. كنت
قد شربت عدة كئوس فى عدة مناسبات ، وكنت قد شربت
كئوسا أخرى مع مصطفى .. ولم يكن مصطفى يقدم لى
الكأس ليسكرنى ، لم يلح على ابدا فى ان أشرب أكثر مما

أريد ، وفعلا لم أسكر ابدا في حياتي .. لم يكن الويسكى
يؤثر فيّ ، ولكنني احسست لهذه الكأس بنشوة لم احسها
من قبل ! ..

وجذبنى مصطفى من يدي مرة ثانية .. ودخلنا الى
الحجرة الأخرى ، التي كنت اسميها حجرة المكتبة .. وكان
ضوءها أصفر خافتا ينبعث من « أباجور » كبير منزو في
ركن بعيد ..

وبدأ مصطفى يعلق بعض الاسطوانات في «اليك آب» ..
ثم التفت الى ، ولفني بنظرات عينيه .. نظرات مبهورة
ساخنة ..

وقال على أنغام أول اسطوانة :

— تعرفي أنا نفسي في ايه دلوقت ؟.. نفسي أخرج بيكي
في الشارع وأمشي قدام الناس وأقول لهم : دي بتاعتي .. كل
الجمال ده بتاعى .. عينيكى بتوعى .. وشفايفك بتوعى ..
وشعرك بتاعى .. كل حته فيكى بتاعتي أنا .. تعرفي أحلى
حاجة فيكى ايه ؟..

قلت وأنا أزهو بنفسى وبجمالى :

— ايه ؟..

قال كأنه يعيظنى :

— أنا .. حبى !!..

قلت كأنى أصد غروره بنفسه :

— أبدا كل الناس بتقول ان أحلى حاجة فيه .. لون
عينيه !! .

قال وهو يضحك :

— لو ما كنتيش بتحيينى ما كان اون عينيكى بأه حلو
كده .. كانت بقت عينيكى دبلانه .. وخدودك نايمة على
شفايفك .. وشفايفك نايمة على دقنك .. قولى يانادية ..
قولى ان أحلى حاجة فيكى هيّه جبي !!..

ولم أقل شيئا .. انما ارتميت فوق صدره .. وتركته
يسمع جبي من دقات قلبى ..

كنت أصدقه وأصدق نفسى .. كنت أصدق كل شىء وأنا
معه !!..

ورقصنا على أنغام الاسطوانة الثانية .. ثم بدأت خطواتنا
تتناقل حتى توقفنا عن الرقص ، وشفناى بين شفتيه وأنفاسه
تلسع وجهى ، وذراعااه تضغطانى اليه .. تضغطانى بقسوة !!.
ولم أحس وأنا هائمة فى قلبته بأصابع مصطفى وهى
تبحث عن « سسته » ثوبى وتشدها لتخلع الثوب عنى !!..
ولم تكن المرة الأولى التى أخلع فيها ثوبى أمام مصطفى..
كانت الطبيعة خلال الشهور الطويلة التى عرفته فيها قد
أعطته منى ما أراد ، وأعطتنى منه ما أردت .. ولكنى فى هذه

المرّة أمسكت بأصابعه التي تخلع ثوبى .. وقلت فى حزم
مبتسم :

— لأ ..

ونظر الى مصطفى دهشا كأنى أزعجته فى أحلامه ،
واستطردت قائلة :

— دور وشك ..

ولم يفهم مصطفى .. وظل ينظر الى دهشا . وقلت وأنا
أدير ظهره لى ييدى :

— دور وشك .. وماتبصش الا لما أقول لك ..

وابتسم مصطفى .. وخطا عدة خطوات الى آخر الغرفة
بجانب « الأبا جور » وأدار وجهه ، وانتظر ..

وخطوت أنا الى ركن الغرفة المقابل .. وفتحت حقيبتى ،
وأخرجت منها قميص النوم الحريرى الأبيض .. وخلصت
ثوبى ييدى .. وأنا أقول له بين الحين والآخر :

— أوعى تبص !! ..

ثم لبست قميص النوم ..

وقلت بصوت هامس خجل .. كأنى أقابل مصطفى
لأول مرّة :

— بص بأه !! .

والتفت الى ونظر كأنه لا يصدق عينيه !!
وأبعدت عينيّ عن عينيه .. كأنى لا أستطيع أن أواجهه،
أو لا أستطيع أن أواجه النشوة التى تضطرم بين أضلعي !
ومد ذراعه وأطفأ « الأبا جور » .. لم يبق سوى ضوء
خافت ينبعث من الحجرة المجاورة ، يتسلل الينا مترددا على
استحياء ..

وأحسست به .. بجانبى ..

وأحسست به يجذبنى الى الأريكة العريضة ، ثم تقع
فوقها كأننا ورقتان خفيفتان يسقطهما الهواء من فوق شجرة
الى الأرض .

وأحسست بنفسى بين ذراعيه !!

وتمنيت ساعتها أن يكون فى الشقة غرفة النوم .. ليتم
بها حلم العروس ..

وانقضى الليل ونحن الاثنىن لا ننام !!

* * *

وعدت الى بيتى فى صباح اليوم التالى .. عدت عذراء ..
وليس لى فضل .. فقد كان مصطفى منذ عرفته يحرص على
أن يبقينى عذراء ، ربما لأنه أراد أن يترك شيئا منى يعترف
به المجتمع .

ولم ألتق بوالدى .. كان قد خرج . ولم أرفع عيني
لى زوجة أبى .. كنت لا أستطيع !.

وخلعت ثيابى ، ورقدت فى فراشى مفتحة العينين أنظر
بهما الى سقف الغرفة .. كأنى أبحث فيه عن مصيرى .

وأحسست برغبة ملحة فى البكاء .. ولكنى قاومت
دموعى .. فلم أكن أعرف سببا للبكاء .. ثم أمسكت سماعة
التليفون ، واتصلت بمصطفى كأنى أستعين به على دموعى،
وقلت وأنا أحاول أن أضحك :

— وحشتنى !!.

وقال فى برود .. وكأنه يتشاءب :

— واتنى كمان !!.

ووضعت السماعة .. ثم بكيت ..

لماذا البكاء !?.



لا أدري متى بدأ الحديث بيني وبين مصطفى يدور حول
زوجة أبي ..

ربما ذكرها كان يرد في كل حديث ، ولكنها لم تكن أبدا
موضوعا لحديث .. كنت لا أكاد أذكرها حتى أطردها من
فوق لساني ، وكأني أضن عليها بأن تشاركني في متعتي
بحديث مصطفى .

وفي كل مرة كنت أذكرها ، كنت أحاول أن أثير مصطفى
عليها .. كنت أحاول أن أجعله يكرهها كما أكرهها ، ويحقد
عليها كما أحقد عليها .. كنت لا أذكر له عنها الا ما أتصوره
عيبا فيها ، وكنت أجعل من كل فضائلها نقائص .. ولكن
مصطفى لم يكن يثار ، ولم يكن يكرهها ، بل خيل اليّ انه
يحاول الدفاع عنها ، لا لشيء الا لأنه يشعر بمدى حقدى
عليها ..

قلت له مرة :

— تعرف ان طنط صافي صعبانه على قوى !

قال بلا مبالاة :

— ليه ؟

قلت كأني أشفق عليها :

— لأن بابا ما يجبهاش !!

قال بلا مبالاة أيضا :

— ايه عرفك !?

قلت :

— أنا عارفة .. متأكدة ..

قال وهو ينظر الى كأنه يؤنبني :

— وكان اتجوزها ليه ؟

قلت وأنا أتجاهل نظرته :

— علشان خاطرى .. كان عايز يجيب واحدة فى البيت

علشان تعيش معايا وتأخذ بالها منى !

قال وهو لا يزال ينظر كأنه يحقق معى :

— واشمعنى اختار الست دى بالذات علشان تعيش

معاكى .. ما اختاروش واحدة يحبها ليه ..?

قلت كأنى أحاول أن أقنعه :

— لأنها غلبانة !! .. ولأنها ست بيت .. عارف ستات

البيوت الللى من المطبخ للسرير ، ومن السرير للمطبخ ..

اهى زيهم ؟

قال وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

— ولازم على كده تكون وحشة وتخينة وما بتعرفش

تقرا وتكتب !

قلت وأنا مغتازة من ابتسامته :

— نص نص .. مش تخينه قوى ، ولا وحشة قوى ،

ولا تقرا وتكتب قوى !

وسحب ابتسامته الساخرة ، وأمسك يدي بين يديه ،
وقال في جد ووقار كأنه يلقي على درسا :

— على كل حال ينادية اذا كان بابا ما يبجهاش لازم
تخليه يجها .. و ..

وقاطعته كأنى لا أريده أن يستمر :

— أخليه يجها ازاي .. هو الحب بالعافية !!
قال في هدوء :

— اذا كان اتجوزها علشان خاطر ك ، تقدرى تخليه
يجها علشان خاطر ك برضه .. المهم انها تكون سعيدة في
حياتها علشان أبوكى يبقى سعيد وانت كمان تبقى سعيدة ..
مش ممكن حاتعيشى سعيدة في بيت مافيهش سعادة ومع ناس
متسكدين ..

وضغط على يدي ونظر في عيني وابتسم في حنان كأنى
ابنته .. واستطرد :

— .. ومش ممكن حاصدق انك بتحبينى الا لما تحبى
كل الناس ، ومن ضمنهم طنطك صافى .. اللى بتحب قلبها
بيكبر لدرجة انه يساع كل الناس ويصفح عن كل الناس ..
وكنت أعرف ان هذه هى فلسفة مصطفى فى الحياة وفى
الحب .. وكنت أعلم انى مهما ناقشته فلن أستطيع أن أحوّله
عن فلسفته أو أجعله يكره أحدا .. فغيرت موضوع الحديث ،
وقلت بسرعة :

— أبدا والله .. ده أنا باحب طنط صافى قوى !!

ثم رفعت اليه عيني ، وقلت كأنى أهمس بها :
— انت لسه مصدق انى باحبك يامصطفى ! .

وسحب يده من يدي ووضعها فوق خدي ، كأنه يحتضن
وجهي بكفه .. ثم ارتفع بيده ودس أصابعه بين طيات شعري ،
وشدني اليه والتقط شفتي بشفتيه ..
وقال وأنا لازلت مبهورة بقبلته :

— أنا مش مصدق انك فاهمة معنى الحب !!
قلت كأنى أتحدث بأنفاسي :
— فهمنى !!

وابتسم ابتسامة القوى الواصل من نفسه ، وكأنه يعرف
ما أريد ، ثم بدأ ينزع بأصابعه المشابك التي تمسك بشعري
فوق رأسي ، ليطلقه وراء ظهري ، كعادته عندما يريدني
.....
.....

ومن يومها لم أتحدث اليه عن زوجة أبي ..
بل انى من يومها حاولت أن أحبها ، وأن أتخذها صديقة ،
وفكرت أن أطلعها على سرى .. وكان ما فيها يدعوني الى
حبها والى صداقتها ، ولكنى لم أستطع .. كل ما استطعته
هو انى تجاهلتها .

كان الشر والحقد يرسان في أعماقي ، فلم أستطع أن
أنتزعهما ، ولكنى استطعت أن أخفيهما .. أخفيهما حتى
عن نفسي ..

لم أعد أرقب لهفة أبى عليها وتدليله لها ، ولم أعد أتبع
كلفة عمى عزيز بها ، ولم أعد أثور وأنا أرى شخصيتها تطفئ
على البيت كله ، وتبرز فى كل حفلة ..

وكان حبنى لمصطفى يعيننى على كل ذلك .. كنت أقول
لنفسى دائما : « لقد أصبح لى رجل يعينى عن أبى وعمى ،
وأصبح لى بيت غير هذا البيت .. رجل هو مصطفى .. وبيت
هو البيت الذى ألتقى فيه بمصطفى .. »

كان حبنى لمصطفى هو دوائى من شرى وحقدى ..
وكنت أفكر فيه وأتخيل رفته وابتسامته ، وقبلاته ولمساته ،
كلما حاول هذا الحقد وهذا الشر أن يطلقا شرارتهما ، أو
يطفوا على سطح نفسيتى .. وكنت أحاول أن أطبع شقته التى
نلتقى فيها بطابعى الخاص حتى ازداد اقتناعا بأن هذه الشقة
هى بيتى .. كنت أصرف كل ما يصل الى يدى من نقود فى
شراء أشياء أضعها هناك .. اشتريت كثيرا من التحف الصغيرة
نثرتها فى كل مكان ، واشتريت «طاقم» من كوبات الكريستال
ووضعتها فى « البار » ، واشتريت عشرات الاسطوانات
وعشرات الكتب .. كتب لم يكن مصطفى ولا أنا نقرأها ،
ولكنى كنت أسعد بها وأنا أراها فوق أرفف المكتبة ..
وتعلمت أشغال « الكانا فا » وطرزت مفرشين صغيرين
وضعتهما هناك .. وكنت أحيانا أنقل صورة مكان صورة
أو مقعدا مكان مقعد .. كنت أفعل كل ذلك باحساس « ست

البيت « .. كنت أريد أن أقنع نفسي بأن هذا هو بيتي الذي لا يشاركني فيه أحد .. ولا تشاركني فيه طنط صفية !!

شئ واحد كان ينقصني ، وهو أن يعطيني مصطفى مفتاح الشقة .. كنت أريد أن أدخل بيتي دون أن أضغط على الجرس ، ودون أن يفتح لي الباب أحد .. كنت أريد أن أكون أنا في استقبال مصطفى وفي انتظاره ، بدل أن يستقبلني هو وينتظرنى ..

ولكن مصطفى لم يعطيني مفتاح الشقة ولم يعرضه على .. ربما لأنه لم يخطر على باله انى أريده .. وربما ...

لقد عذبنى هذا المفتاح ، عذبنى كثيرا . كان يخيل الى دائما انه يحرمنى منه حتى يحتفظ بحريته فى دعوة من يشاء من النساء ..

وكانت الغيرة تصور لى أحيانا باب الشقة وهو يفتح ، وتدخل منه امرأة أخرى ، ويستقبلها مصطفى كما يستقبلنى ، ثم يسحبها من يدها ويرقد معها فوق الأريكة الكبيرة .. وكنت أجن من هذه الأوهام .. جنون الزوجة عندما تتصور عشيقته زوجها فى فراشها .. وكان يخيل الىّ وسط هذه الأوهام انى أرفع ييدى فأسا وأحطم بها الباب الذى يفصلهما عنى .. ثم أخطب نفسي : « آه ، لو كان معى المفتاح » !
ورغم ذلك لم أجرؤ على أن أطلب المفتاح من مصطفى ..

ربما حياء ، وربما لأنى كنت أكتفى وأنا معه بأنى معه ، وكنت
أنسى كل أوهامى وكل العذاب الذى يدهننى فى وحدتى .

* * *

وهكذا مر عام ..

عام تجاهلت فيه زوجة أبى ، وتجاهلت البيت الذى
أعيش فيه وأعطيته كله لمصطفى .. أسعد به ، وأتعذب به ،
وأستعين بحبه على شرورى وحقدى ..
ثم كان يوم ..

ودعينا — أبى وزوجته وأنا — الى حفلة راقصة يقيمها
صديق لأبى بمناسبة ذكرى زواجه ..

ولم أكن أريد أن ألبى الدعوة مع أبى وزوجته .. كنت
قد تعودت خلال هذا العام أن أرفض كثيرا من الدعوات
التي ندعى اليها ، وكنت أفضل عليها أن أبقى وحيدة فى
البيت ، أفكر فى مصطفى أو أحادثه فى التليفون ، أو أتسلل
لألقاه فى شقته ، وأعود قبل أن يعود أبى ..

ولكن أبى ألحّ على كثيرا فى هذا اليوم .. وكنت أعلم
ان الحاحه بايعاز من زوجته ، فقد كانت تعترض دائما على
انزوائى ووحدى .. كانت تريدنى أن أظهر دائما فى المجتمعات
ليتسع أمامى مجال اختيار زوج لى ..

ولم أقرر أن ألبى الدعوة ارضاء لأبى الا فى المساء ..
واتصلت بمصطفى بالتليفون لأنبئه بذهابى ، فلم أجده
فى بيته ..

وذهبنا ..

وكنت ليلتها هادئة النفس والأعصاب وفي قلبي سكينه
واطمئنان ، فوقفت طويلا أمام المرأة .. تزينت كأحلى
ما يمكننى أن أزين ، وانتقيت ثوبا «كوكتيل» من «الداتيل
جيبير» رمادى اللون تحليه «فيونكة» عريضة من اللون
الوردى الفاتح الخفيف ، ويكشف عن ظهري وكنتى ..
ووضعت فوقه فراء من «الرينار بلو» .. أما زوجة أبى فقد
ارتدت ثوبا للسهرة «سواريه» من «الساتان دوشيس»
أسود اللون تنتشر فوقه حبات من الترتير الأسود كأنها نجوم
تختفى وراء ستر الليل حياء من القمر .. كان ثوبها «حشمة»
لايكشف عن ظهرها ولا عن كتفيها ، وكانت تضع فوقه
«ايتول» من فراء «الفيزون» ..

كنت شقراء جميلة .. وكانت سمراء جميلة .. وكان أبى
يسير بيننا والدنيا لا تسعه من فرط سعادته ، وكأنه يضم
بأحدى يديه الشمس ، وبالأخرى القمر ..

ووصلنا الى الحفل ..

وسارت معنا صاحبة البيت حتى أجلست أبى وزوجته
الى مائدة صغيرة .. ووقفت أنا على قيد خطوات منهما ،
وقد التفت حولي شلة من البنات والشبان .. وكنت كعادتى
أسمع أكثر مما أتكلم ، وأتحدث الى نفسى أكثر مما أتحدث
الى غيرى ، وأرغب من طرف خفى نظرات الفتيان تلتهمنى ،
فأتجاهلها ، وألتقط محاولات التودد الى ، فأصدها فى برود

واهمال .. كنت كعادتي — وكما يقال عنى — باردة ..
صامتة .. جميلة .. لا يعبر وجهى عن شىء مما فى نفسى ..
ولم يكن فى نفسى شىء الا مصطفى .. لم أستطع أن
أنساه وسط هذا الزحام والضجيج الذى يحيط بى .. كنت
أنظر الى كل شاب وأسخر منه بينى وبين نفسى لأنه ليس
كمصطفى .. وكنت أسمع كل حديث فأجده حديثا تافها
ليس فيه متعة كحديث مصطفى ..

وفجأة رأيتة ..

مصطفى نفسه ..

واتسعت عيناي .. وانبهرت أنفاسى .. واهتزت رموشى
فوق عينى فى ذبذبات سريعة كأنى أطردها بها شبحا جميلا
صوره خيالى ..

ولكنه لم يكن شبحا .. كان مصطفى نفسه .. وكان
يرتدى حلة « سموكنج » سوداء يبدو فيها كأنه اله الليل ..
ساحرا ، غامضا ، مثيرا ، جذابا .. وكان يسير بين المدعوين
وابتسامته الحلوة بين شفثيه كأنه نبي الحب يبارك أتباعه ..
وكانت العيون تلتف حوله كأنها تنهامس وتردد آراءه فى
الحياة والحب ..

ولم أدر ماذا أفعل ، ولا كيف أسيطر على ارادتي ..
خيل الى انى سأهرع اليه وألقى بنفسى بين ذراعيه وأصيح
فى الناس: « هذا حبيبى » .. ثم أتركه يقبلنى وينزع المشابك
التي تمسك بشعري فوق رأسى !! ..

وسارت به صاحبة البيت ، حتى وقفا بجانبنا ، وسمعتها
تقول : طبعا انت عارف كل اللي هنا ..

ورفع عينيه ورآنى .. ولم أر فى عينيه اهتزازا ولا معنى
المفاجأة ، بل استقرت عيناه على وجهى لحظة فى نظرة ثابتة
كأنه لا يعرفنى ، ثم قال لصاحبة البيت :
— مش كلهم ..

والتفتت صاحبة البيت الى أبى ، وقالت لمصطفى :
— ما تعرفش لطفى بيه ؟

ثم بدأت تقدمنا اليه : « أحمد بيه لطفى .. مدام لطفى »
ثم استدارت الى واستطردت : « ودى عروستنا الحلوة ..
مدموازيل لطفى » ..
ثم قالت لنا :

— طبعا كلكم عارفين مصطفى بيه ، أو على الأقل سمعتم
عنه .

وقام أبى يصفح مصطفى فى حرارة .. وكان يكفى أن
يعرف أبى عن أى انسان انه من عائلة كبيرة وأنه غنى ، حتى
يصفحه فى حرارة ..

وانحنى مصطفى يقبل يد زوجة أبى .. وخيل الى انه
أطال النظر الى وجهها وهو يقبل يدها ، كأنه يريد أن
يتحقق من صدق وصفى لها عندما كنا نتحدث عنها .

وكنت فى وقتى بعيدة عنه ، بحيث لا يستطيع أن يمد
يده الى ، فاكتفى بأن أحنى رأسه لى من بعيد ، وبين شفثيه

ابتسامة مرسومة في دقة حتى لا تعبر عن معنى غير معنى
التحية الرسمية ..

ولم أدر كيف رددت له التحية .. هل أحيت رأسي أنا
الأخرى .. أم هل ابتسمت له .. أم هل وقفت جامدة ؟ لست
أدرى .. ولكنني احتجت الى مجهود كبير حتى لا أترنح في
وقفتي !

ودعاه أبي الى الجلوس .. وانسجت من بيننا صاحبة
البيت ..

ولم يكن هناك مكان ليجلس عليه الا بجوار زوجة أبي،
وجلس بحيث أصبح ظهره لى .. ولم أكن أستطيع أن أنظر
اليه .. خيل الى انى لو نظرت اليه فسيعرف كل الناس ما بينى
وبينه .. فوقفت ملتفتة بوجهي الى الصديقات والأصدقاء
الذين يحيطون بي ، وملتفتة بأذني اليه ..
كنت أريد أن أسمع كل كلمة يقولها .
ولكنني لم أسمع شيئاً ..

كانت ضجة الحفل تحول بيني وبين سماع شيء ،
الا أصداء حديث لا أستطيع أن أفسره ..
وبدأت أقلق ..

وبدأ القلق يسرى تحت جلدي حتى أحسست بمسامي
كلها تنتفض كأن زفرة من الهواء البارد تلفحني .. ثم أحسست
كأن يد مصطفى تمسح على ذراعي العارية ، وتطوف بنهدي ،
وتضغط على ظهري ، وترحف فوق جزعي .. هذه اللمسات

التي عودني عليها مصطفى .. أحسست بها كأنها تدفئني
وتحميني من الهواء البارد .. كنت ألصق كنفى بكتفه ..
وأضع وجهي قريبا من أنفاسه ..

ثم بدأ القلق يستبد بي ويثير في رأسي أفكارا سوداء!!
ماذا يقول مصطفى الآن? ..
ماذا يقول لها? ..

وفجأة .. سمعت زوجة أبي تضحك ضحكة مرحة منطلقة
كأنها تزغرد .. ضحكة أعلى وأكثر مرحا مما تعودت أن
أسمعه منها ..

والثفت اليها كأن كل أعصابي حبال تشدني الى الالتفات
اليها . فرأيت وجهها كله غارقا في الضحك كأنها سكرى ..
عينها تضحكان ، ووجنتها تضحكان ، وخصلات شعرها
الأسود تتأرجح في الهواء كأنها تفتقه ..

وبهت .. والثفت الى أبي كأنى أسأله عن سبب الضحك ،
فإذا به يتسم ابتسامته الوقورة التي يبدو بها أكبر من سنه ..
والثفت الى مصطفى كأنى أعاتبه ، فإذا بين شفقيه ضحكة
هادئة .. ضحكة مغرورة كأنه يهنئ بها نفسه !
وأحسست بالنار تندلع في دمي ..

أحسست كأنى أريد أن أهجم عليها—على زوجة أبي—
وأشدها من شعرها وألقى بها على الأرض ، ثم أجلس مكانها
وأضحك مثلها ..

وتركت الشلة التي تحيط بي ، وذهبت اليهم ..

ووقف مصطفى نصف وقفة تحية لى .. وأفسح أبى لى
مكانا بجانبه ، وجلست وقد وضع ذراعه فوق كنفى وضمنى
اليه برفق كعادتى عندما أجلس بجانبه ..

وسمعت زوجة أبى تقول :

— لآ .. انت جرىء فى آرائك قوى يامصطفى ييه ..

وقال مصطفى :

— أنا مش جرىء ولا حاجة .. انما أنا مش مقتنع باللى
الناس بتعمله .. الناس كلها ماشية غلط ، ولما الواحد يمشى
صح يقولوا عليه جرىء .. يا مجنون .. يا مجرم !

ونقلت عينى بينهما فى تساؤل لا يخلو من اتهام !! ..

ترى أى رأى من آراء مصطفى كان يقوله لزوجة أبى ؟

بماذا كان يحاول أن يقنعها ؟

انى أعرف آراء مصطفى كلها .. وأعرف انها كلها آراء
تسرى كالمخدر فى الأعصاب .. فهل كان يحاول أن يخدرها ؟

واتبعت من تساؤلى ، لأجد الحديث مستطردا بينهما ..
كانا يتحدathan عن ذكريات أوروبا ، وعن الأطعمة ، وعن الكتب ،
وعن السينما ، وعن الأزياء ، وعن كل شىء .. كان لايسكت
الا لتتكلم ، ولا تسكت الا ليتكلم ، وكان الحديث مقصورا
عليهما يروح ويحىء بينهما ، كأنهما يتقاذفان بالزهور ..

لم يستطع شىء أن يوقف هذا الفيض من الحديث ، ولم
يحل تردد بقية المدعوين على مائدتنا دون استمرارهما فيه ..

وكان أبى يجلس مستمعا .. يضحك أو يبتسم أو يعلق بكلمة
عابرة ..

وحاولت أن أفسح لى نفسى مجالا بينهما .. أن اشاركهما
فى الحديث .. أن أتكلم ..
ولم أستطع ..

كانت الكلمات تفر من فوق لسانى ، والموضوعات تدوب
فى رأسى .. كنت أقول لى نفسى عندما أسمعها يتحدثان عن
أوربا : « سأروى لهما قصة صديقتى التى ذهبت لتناول
الطعام فى مطعم البرج الفضى بباريس » .. ثم ابتدء فى
ترتيب الكلمات التى أتحدث بها ، ثم لا أكاد أهم بالنطق بها
بعد تردد والحاح على لسانى ، حتى أجد أن مناسبة الحديث
قد فاتت ، وانهما بدأ يتحدثان عن السينما ..

وهكذا فى كل مرة أحاول فيها أن أتكلم ..
وقد حاول مصطفى مرارا أن يشركنى فى الحديث ، كان
يلتفت الى قائلا :

— وانت ايه رأيك يا مدموازيل !?

وأرتبك ، ولا أجد رأيا أقوله كأنى كنت بعيدة عنهما
فى عالم آخر ، أو كأن خاطرى قد تجمد حتى لم يعد يستطيع
أن يسعبنى برأى .. فأقول اية كلمة عابرة تخطر على لسانى ..
يضطر بعدها مصطفى أن يستطرد فى حديثه مع زوجة أبى ..
ثم كان يسألنى كأنه يلح على أن أتحدث :

— والمدمازيل .. تفضل كريستيان ديور والا كارفن..
مين اللى ذوقه أحسن ؟

وأرتبك مرة ثانية .. ولا يمن الله علىّ الا بكلمة واحدة :
— كارفن !! ..
ثم أسكت ..

وينظر الىّ مصطفى كأنه ينتظر منى أن أتم حديثى ،
أو أتتهز الفرصة لأفتح بابا آخر لحديث .. ولكنى أدير عيني
عنه وأظل صامته ..

· وأحسست فى هذه الساعة بضعف شخصيتى ، كما لم
أحس به من قبل .. أحسست انى قضيت حياتى كلها لا أستطيع
أن أواجه الناس الا بهذا الوجه الجميل البرىء ، وهذا القوام
الفارع المثير ، ولا شىء آخر .. قضيت حياتى كلها لا أتحدث
الا مع نفسى ولا أفكر الا بينى وبين نفسى .. لم أشرك أحدا
فى حديثى أو تفكيرى الا مصطفى عندما نكون وحدنا ..
ربما لأن مصطفى كان نفسى وكان روحى .. ولكننا الآن
لسنا وحدنا .. وأنا لا أستطيع أن أواجه أحدا غيره ، بل
لا أستطيع أن أواجهه بين الناس ، الا بهذا الوجه الجميل
البرىء . وهذا البرود .. وهذا الصمت ..

وكرهت ساعتها جمالى .. تمنيت لو كنت أقل جمالا
وأقوى شخصية ، حتى أستطيع أن أجذب الناس الىّ ،
وأجذب مصطفى من زوجة أبى ..

لقد اكتسحتنى شخصية زوجة أبى حتى أبعدتنى عن

حبيبي . الشخصية القوية النشطة التي تضح فيها الحياة ،
وتسيطر على كل من حولها ..

وأحسست كأنى أريد أن أبكى على نفسى .. ثم انقلب
احساسى الى ثورة تصورت نفسى فيها أخمش وجه زوجة
أبى وأمزقه بأصابعى العشر . وتصورت نفسى خلالها أنزع
ثيابى عن جسدى وأقف عارية بين الناس حتى يلتفوا جميعا
حولى ويتركوا خلف ظهورهم زوجة أبى ، ثم أروى لهم
بأعلى صوتى كل قصتى ليعرفوا انى لست بريئة كما يبدو
على وجهى .. وانى ذكية أستطيع أن أضع الخطط وأنفذها ..
وانى تسببت فى مصائب كثيرة .. وأنى عرفت كل أسرار
الرجال والنساء .. عرفت أكثر مما عرفت أية فتاة فى مثل
سنى ..

وأفقت من خيالى المجنون على صوت عمى عزيز ..
كان قد جاء الى الحفل متأخرا كعادته كلما دعى الى
حفلى ..

وانحنى عمى يقبلنى فوق رأسى ، وانحنى يقبل يد زوجة
أبى ثم تولى أبى تقديمه الى مصطفى ، وتقديم مصطفى اليه ..
وفى لحظات كان الرجال الثلاثة ملتفتين حول زوجة أبى
بعيونهم وآذانهم .. وأصبحت أنا منسية من الثلاثة .. ليس لى
من أبى نصيب الا ذراعه التى يحيطنى بها . وليس لى من
عمى الا كلمة تدليل يوجهها الىّ بين الحين والحين .. نفس
الكلمة التى يوجهها الىّ مذ كنت فى الرابعة من عمرى ..

وليس لى من مصطفى الا نظرات يرفعها الىّ ويشنفها
بابتسامة .. كأنه يعتذر عن اهماله لى ..

وكنت أتوه أحيانا فى نوبة من نوبات خيالى .. وأحيانا
اتبته وأتبع حديثهم .. وفى فترة اتباهى لاحظت تقورا بين
عمى ومصطفى .. واحتكاكا بين الشخصيتين .. كان كل منهما
يحاول أن يتحدث أكثر من الآخر ، وكل منهما يحاول أن
يسيطر بحديثه ، وكل منهما يسفه آراء الآخر .. وكانت زوجة
أبى تحاول بشخصيتها وكياستها أن توفق بينهما ، وأن
ترضى كليهما ..

وعزوت هذا التنافر الى تشابه الشخصيتين .. فكلاهما
أعزب ، وكلاهما خاض تجارب كثيرة فى المجتمع ، وكلاهما
عرف بالمغامرات الغرامية .. وان كان لكل منهما فلسفة خاصة
فى الحياة .

ولكن هل هذا وحده يكفى سببا للتنافر؟! ..

وفى هذه اللحظة تمنيت أن ينتصر عمى على مصطفى فى
احتكاكهما .. كنت أفضل أن أراه مهزوما ولى وحدى ، على
أن أراه منتصرا بامرأة أخرى ..

وسمعت مصطفى يدعو زوجة أبى للرقص :

— تحبى ترقصى يا صافية هانم ؟

ورن فى أذنى لفظ « صافية هانم » .. من أين عرف اسمها؟
وإذا كان قد عرف اسمها خلال الحديث فكيف جرؤ على أن

يرفع الكلفة بينها وبينه حتى يناديها باسمها ؟ .. ولماذا يرفع
الكلفة حتى اذا كان من حقه أن يرفعها ؟

ومدت له « صفيه هانم » يدها ، وقامت مستعينة بيده ،
واتجها الى حلبة الرقص ..

وتبعتها وقد أحسست أن نارا تنطلق من عيني ..
ولف ذراعه حول خصرها .. وتراقصا في خطوات بطيئة ..
والتصق جسمها بجسمه .. ثم بعد عدة خطوات التصق خده
بخدها .. وتناقلت خطواتهما حتى كأنهما لا يتحركان .. ثم
كانت تبعد خدها عن خده وتضحك كأنه همس في أذنها
شيئا .. ثم يعود الخد الى الخد ..

تماما كما رأيته يرقص أول مرة منذ عام مع صديقتي
نجلاء ..

واقبض قلبي حتى أحسست كأن الدماء تختنق في
عروقي ، وضاق صدري حتى خيل اليّ أن ضلوعي ستبرز
من لحمي ..

والتفت كأني أستغيث بأبي .. ولكن أبي كان هادئا ،
يشرب كأسه وينقل بصره بين الناس ..

ونظرت الى عمي ، فإذا به مثلي يتبعها بعينيه وقد قلب
شفتيه امتعاضا وأخذ ينقر على المائدة بأصابعه نقرات منتظمة
كدقات طبول الحرب ..

وقلت له كأني أستغيث :

— مش تقوم ترقص معايا يا عمى .. انت عمرك ما رقصت
معايا !!

وكأنى فتحت له الطريق .. فقد قام فوراً وصحبنى ،
أو — على الأصح — شدنى الى حلبة الرقص .. ثم رقص بى
حتى أصبحنا بجوارهما ..
وتبادلنا نحن الأربعة ابتسامات مزيفة ..

وعندما أصبح وجهى فى مواجهة وجه مصطفى من وراء
ظهر زوجة أبى ، ضم شفتيه وأشار بهما الى كأنه يرسل لى
قبلة فى الهواء ..
وكرهت هذه القبلة ..
وددت لو رددتها اليه صفة ..

ثم بعد عدة خطوات ، رأيتهما ينسحبان من حلبة
الرقص .. ولم يتوجها الى مائدتنا حيث ينتظرنا أبى .. بل
خرجا الى الشرفة ..
ورآهما عمى أيضا ..

وسحبنى من يدى فى حركة عنيفة وتبعهما الى الشرفة ..
ولم تكن الشرفة خالية من الناس ، كان فيها كثير من المدعويين ،
ورغم ذلك فقد شعرت وأنا أقف بينهما انى أريد أن أطلق
الرصاص عليهما .. على مصطفى ، وعلى زوجة أبى !! ..
وقال عمى فى غيظ مكبوت :

— مش الدنيا برد هنا يا جماعة ..
وردت طنط صافية فى لهجة طبيعية :

— أصل الدخان جوه يكتفم النفس .. على كل حال
الساعة بقت اتنين ، وأظن نروح بأه !!
ولم يعترض أحد ..

وجاء معنا مصطفى حتى مائدتنا .. وصافح أبي في حرارة،
وصافح عمى في برود ، وانحنى يقبل يد زوجة أبي . ثم
صافحني وضغط على يدي وهو ينظر الي ويحاول أن يلفني
بعينه ..

وصددت نظرتيه بعينين غاضبتين ، وسحبت يدي من يده
في قسوة ، وأدرت له ظهرى ..
وابتعد قائلاً :

— باذن الله نشوف بعض تانى ..
ولم يرد سوى أبى :
— باذن الله .. قريب خالص ..

ووضع عمى « الايتول الفيزون » فوق كتفى طنط صافية
ووضع أبى « الريناربلو » فوق كتفى .
وودعنا صاحبي الحفل .. وخرجنا . ومصطفى لا يزال
بين المدعويين .

وقال عمى ونحن في السيارة :

— الجدع ده باين عليه مغرور قوى !
وقالت زوجة أبى :

— أهو كل العزاب اللي زيه مغرورين كده !!
وقال عمى غاضباً :

— يعنى أنا مغرور كده !!
وقالت زوجة أبى ضاحكة :
— أهو اذا كنت مش عايز الناس تقول عليك مغرور ...
اتجوز !! ..

وعاد عمى يقول وهو لا يزال غاضبا :
— ياسلام عليكى ياصفية .. الواحد مايعرفش ياخذ
منك رأى أبدا !
وقال أبى :

— ده بيقولوا عليه مزارع شاطر قوى .. الفدان عنده
رمى السنة اللى فاتت سبعة قناطير قطن ، والأرض اللى جنبه
بتاعة عيلة عبد اللطيف مارمتش الا تلاته !!
وبقيت أنا صامته أغلى فى نفسى .. ووصلنا الى البيت ..
وصعد عمى الى الدور العلوى حيث يقيم .. ودخلنا نحن
الثلاثة ، ولا أذكر انى حبيت أبى أو زوجته انما أسرعت الى
غرفتى ، وأغلقت بابها ورائى بالمتفاح ، ونزعت ثيابى دون أن
أغسل وجهى كعادتى كل مساء .. ولم أنم ..
وبدأ الشر يرتفع من قلبى ويزحف الى رأسى لينسج
خيوط جريمة ..



كانت الجريمة التي تسج خيوطها في رأسى جريمة بشعة،
خفت منها أنا نفسى ..

كانت قد تملكتنى رغبة طاغية فى الهدم .. هدم كل شىء ..
هدم زوجة أبى ، وهدم أبى ، وهدم مصطفى ، وهدم
نفسى .. كنت أفكر كالمجنونة ، أحاول أن أحطم بيدي كل
من حولى بلا سبب معقول الا التفريج عن احساسى بالنقص
واحساسى بشخصيتى الضعيفة التى عجزت عن اجتذاب
مصطفى من زوجة أبى خلال الحفل ..

وحاولت كثيرا أن أطرد من رأسى هذه الأفكار السوداء .
حاولت أن أمنع الجريمة قبل وقوعها .

كنت أتحايل على نفسى لأقنعها بأن ليس هناك ما يدفعنى
الى مثل هذا التفكير .. كنت أقول لنفسى : « ان مصطفى لم
يخطئ ولم يهملنى ، انه فقط وجد سيدة تجيد الحديث
فتحدث معها .. تعمد ألا يتحدث الى حتى لا يبدو شىء مما
بيننا .. نعم .. انه فقط تعمد أن يتجاهلنى حتى لا تفضحه عيناه
ولا يفضحه قلبه .. لو كنت أية فتاة أخرى لأقبل على كما
أقبل على زوجة أبى ، ولكنى لست أية فتاة .. اننى الفتاة
التي يجبها .. التي يختصها بمواطفه وحياته » .

وكنت أحاول أن أبرر أيضا موقف زوجة أبى ، كنت

أقول لنفسي : « انها لم تقبل عليه الا كما تقبل على أى صديق جديد . وهى لم تتحدث اليه أكثر مما تعودت أن تتحدث الى أى انسان .. انها طبيعتها الحية ، وشخصيتها القوية .. واذا كان قد جذبها الى مصطفى شئ ، فلم يجذبها منه الا مايجذب كل الناس .. آراؤه الجريئة ، وفلسفته الغريبة فى الحياة .. انها لا تريد منه شيئا .. ولا تسعى وراءه .. ليس هناك دليل واحد يمكن أن يثير غيرتى أو يدفعنى الى الحقد عليها !! »

كنت أقول لنفسي هذا الكلام ويخيل الى اننى اقتنعت بالعدول عن جريمتى ، ولكنى لا ألبث أن أتصور نظرتة اليها كأنها كانت المرأة الوحيدة فى الحفل ، وأتصور نظرتها اليه كأنها لم تر رجلا من قبل .. ثم أستعيد حديثهما الطويل الذى لم ينقطع كأنهما كانا يتقاذفان بالزهور .. ثم تشب النار فى أعصابى كلها — نار الغيرة والحقد — وأنا أستعيد صورتها وهما يتراقصان .. ذراعاه ملتفة حول ظهرها حتى تصل كفه فوق كتفها .. وصدورها فى صدره .. وخده على خدها .. وأنته مدسوس فى شعرها .. ثم تبعد خدها عن خده وتضحك كأنه همس فى أذنها .. ثم يعود الخد الى الخد . لا . لا يمكن أن يكون هذا مجرد رقص .. واذا كانت هذه هى طبيعة مصطفى عندما يرقص ، فكيف سمحت له بأن يراقصها بهذا الأسلوب .. لا بد أن هناك شيئا بينهما ، أو شيئا يمكن أن يكون بينهما .. وربما اتفقا على أن يحادثها

في التليفون ، أو ربما تواعدا على لقاء في شقته .. نفس الشقة
التي ألقاه فيها .. لتستمع الى نفس الاسطوانات التي أستمع
اليها ، وتستلقى على نفس الأريكة العريضة التي أستلقى
عليها ..

وتصورتها عارية مستلقية بين ذراعيه وهو يطل عليها
بوجهه كأنه هبط فوقها من السماء .. تماما كما كنت أتصورها
بين ذراعى أبى في الشهور الأولى من زواجها به ..

وأحسست كأنى أختنق ، وكأن عيني قد خرجتا من
محجريهما وسمعت الشيطان يسكب في صدرى سما ، ويردد:
« احذرى . احذريها .. انها تستطيع أن تأخذ منك مصطفى
كما أخذت منك أباك .. انها امرأة قادرة .. فيها كل ما يغرى
الرجال .. ثم انها امرأة .. امرأة .. أما أنت يامسكينة فعذراء ..
مجرد عذراء » !! !

وخيل الى انى صرخت .. صرخة لم يسمعها أحد
سواى .. وغطيت عينيّ بيدي حتى لا أرى ما يصوره لى
خيالى .. وحتى لا أرى نفسى وأنا أشعل النار فى كل ما حولى،
وأقف وسط النار أضحك ضحكات مجنونة ، وقد تملكتنى
شهوة الهدم .. فهدمت .. وهدمت .. الى أن هدمت نفسى
وجعلت من نفسى امرأة .. امرأة وليست عذراء .. حتى
لا تتفوق على زوجة أبى فى شيء !!

ورفعت يديّ عن عينيّ وبدأت أشد بهما شعري كأنى
أحاول أن أقتلعه من فوق رأسى ..

ثم انكفأت على وجهي وأخذت أعض الوسادة بأسناني ،
وأضرب الفراش بقدمي .. كأنني في عراك مع الشياطين ..
شياطين الشر والحقد ..

ثم .. أخيرا .. بكيت ..
بكيت كثيرا وبحرقة ..

وكان دموعي قد غسلت رأسي مما فيه من شرور ،
وغسلت قلبي مما فيه من حقد .. فهدأت .. كأنني استيقظت
من كابوس ، وأخشى أن أنام فيعاودني الكابوس ..
وبدأت أستعيد حياتي كلها في هدوء ..

وعلى ضوء الفجر سمعت بأذني خيالي صوت مصطفى
وهو يقول لي : « .. اللي بتحب قلبها بيكبر لدرجة انه يساع
كل الناس ويصفح عن كل الناس » .

اني أحب ..

أحب مصطفى ..

وقلبي لا بد أن يكون كبيرا حتى يحب كل هذا الحب.
فلماذا لا أحاول أن أدخل فيه زوجة أبي .. لماذا لا أحاول
مرة أخرى أن أحبها .. محاولة أخيرة !?
وقررت أن أحاول ..

وقررت أن أسعى الى صداقتها .. وأن أكشف لها عن
سري .. أن أفتح لها قلبي وأقول لها اني أحب .. وأحب
مصطفى بالذات .. الرجل الذي كانت تراقصه ليلة أمس ..
واني أحبه منذ عام مضى وقد أصبحت له وأصبح لي !! ..

سأقول لها كل هذا ..
وسأضمن بعد هذا انها لن تأخذه منى .. لن تأخذ الرجل
الذى تحبه فتاة في مثابة ابنتها ..
وسنصبح بعد هذا صديقتين ..
وسأرتاح من شرورى ومن حقدى ومن خيالى الذى
يرسم جرائمى ..

وفى الصباح التالى خرجت من غرفتى فى الساعة العاشرة،
بعد أن اغتسلت وارتديت ثوبا زاهى اللون من ثياب الصباح،
وكنت متعبة منهكة اثر ما لاقيته طول الليل .. ولكنى تعمدت
أن أبذو مرحلة ، وتعمدت أن أضع طبقة من « الكريم » فوق
وجهى لأخفى بها ذبوله ، ولأخفى الظلال السوداء التى تحيط
بعينى ..

وكان أبى وزوجته جالسين الى مائدة الطعام يوشكان
أن ينتهيا من طعام الافطار .. فقبلت أبى فوق رأسه وأنا
أصيح مهللة فى لهجة أكثر مرحا مما تعودت البيت منى :
— بونجور بابى ..

ثم درت حول المائدة وتعمدت أن أقبل زوجة أبى فوق
وجنتها ثم أضغط خدى بخدها وأنا أحياها :
— بونجور طنظ صافى ..

ولم تكن من عادتى أن أقبلها كل صباح ، وربما غاليت
قليلا — أو كثيرا — عندما ضغطت خدى بخدها ، فقد
نظرت الى فى دهشة ، وقالت وبين شفيتها ابتسامة :

— بونجور يا حبيبتى .. اتى باين عليكى نمتى كويس
امبارح .

قلت وأنا أضحك :

— زى الفسيخة ..

وقال أبى وهو يردد ضحكتى :

— على كل حال أنا مش خايف على نادية من قلة النوم ..
لأنها نامت وهى صغيرة اللى يكفيها العمر كله .. كانت أول
ما تدخل البيت تقفل باب أودتها وهات يانوم !! ..

وعدت أضحك .. وكان فى ضحكتى مرارة لم أستطع
أن أخفيها .. ان أحدا لا يعلم ما يحدث لى عندما أدخل
حجرتى وأقفل بابها !! .

وقالت زوجة أبى وكأنها تتم حديثا لم أحضر أوله :

— انما تعرف يا أحمد برضه الحفلة كانت زحمة أكثر
من اللازم .. الجماعة دول ما يعملوش الا حفلة أو اتنين فى
السنة ويعزموا كل الناس من غير ترتيب .

وعرفت انها يتحدان عن حفلة الأمس ..

وقال والدى بطيبته الحلوة :

— أهو برضه الواحد بيقابل ناس كويسين .. تعرفى أنا
عجبنى مصطفى بيه .. كنت فاكروه متنزح وطالع فيها ، انما
لقيته لطيف وييعرف يتكلم ..

وقالت زوجة أبى بسرعة :

— ده مايسكتش كلام ..

وأحسست بقلبي يعوص في صدري .
وعاد أبي يقول :

— والله حقنا نعزمه نوبه عندنا ..

واشدت ضربات قلبي ، وخيل الى أن وجهي قد امتقع
حتى لم يعد « الكريم » يكفى ليخفي امتقاعه ، وسعت
زوجة أبي تقول :

— بس مش لوحده .. الصنف ده ما يتعزمش الا في
الحفلات الكبيرة .. عزومة الراجل العازب بتحير الواحدة ،
ياترى تقعهده على يبينها والا على شمالها .. تمشى جنبه
والا تمشى جنب جوزها .. و ..
وضحك أبي وقاطعها :

— أهو يبقى يقعد جنب أخويا عزيز !

وأحسست انى يجب أن أغير موضوع الحديث قبل أن
ينتهى الى تحديد موعد لدعوة مصطفى الى البيت ، فقلت
لزوجة أبي وبين شفتى ابتسامة كبيرة مرسومة :

— تعرفى انك كنت أشيك واحدة امبارح ياطنظ ..
ماكنش فيه فستان أجمل من فستانك .. وكانوا كل الستات
حياكلوكى بعينهم ..

وقالت زوجة أبي وهى تنظر الى أبي :

— البركة فى باباكي .. هوه اللى اختار الفستان
بنفسه ..

ثم التفتت الى واستطردت :

— واتى كمان كنت أجمل واحدة في الحفلة كلها ..
لو كنتى عملتى بصباك كده .. كان كل الشبان اللي هناك
جم خلبوكى ..
قلت وأنا أقلدها :
— البركة في بابا برضه !!..

وضحكت .. وضحك أبى وزوجته .. ولم يكن لأبى
فضل في اختيار ثوب زوجته أكثر من فضله في زينتى ، ولكن
هكذا كانت زوجته تتقرب اليه وتحاول أن تقنعه دائما بأنه
صاحب الفضل في كل شيء .. وهكذا كنت أقلدها في التقرب
اليه !!..

وكان أبى قد انتهى من تناول افطاره وتدخين سيجارته،
فقام وجاء الى يقبلنى ، ثم خرج الى النادى كعادته كل
صباح ، وقامت معه زوجة أبى تودعه حتى الباب الخارجى ،
كعادتها كل صباح أيضا ..

واتهيت من افطاري بسرعة ، ثم قمت وذهبت الى
غرفتى ، وعدت أحمل مفرش « الكانافا » الذى أطرزه ،
وجلست في البهو في انتظار زوجة أبى ..

وكانت قد عادت من توديع أبى ، ثم دخلت تطوف
بحجرات البيت ، وسمعتها تلقى ببعض الأوامر للخدم ، ثم
جاءت وجلست بجانبى ، وهى تقول :
— ما فيش فايده ، الخدامين دول مهما علمتهم ، لازم
تفضلنى واقفة على ايديهم .

ثم نظرت الى المفرش الذى أطرزه ، وقالت :
— ورينى اشتغلتى أد ايه يانادية ..

وناولتها المفرش ، فأخذت قلبه بين يديها ، وأنا أنظر الى
وجهها كأنى أستجمع شجاعتى ، ثم قلت فى صوت ضعيف
مهتز :

— أنا عايزه أقول لك حاجة ياطنط .

قالت وهى لا تزال تنظر الى « غرز الكانافا » كأنها تبحث
فيها عن أصابعى :
— خير يا حبيبتى ..

وترددت .. وطال ترددى كأنى لم أعد أستطيع أن أحرك
لسانى .. فأبعدت عينيها عن المفرش ورفعتها الى .. وربما
رأت علامات الجد على وجهى ، وربما تذكرت ساعتها ان
قبلتى لها فى الصباح لم تكن مجرد قبلة لله ... فقد دقت
النظر فى عيني ، ثم مدت يدها والتقطت يدي وضغطت عليها
فى حنان ، وقالت بصوت هادىء مريح كأنها تشجعنى :
— قولى يانادية ..

وأرخيت أهدابى فوق عيني حتى لا أواجه نظراتها ،
وقلت كأنى تلميذة ساذجة لا تقوى على الكلام :

— أنا .. أنا باحب !! ..

وقالت فى دهشة كأنها لا تفهم :

— ب ..؟! ايه ..

قلت وأهدابى لا تزال تغطى عيني :

— باحب .. باحب واحد !!

وقالت وقد ارتفع صوتها في فرحة كأنها فهمت أخيرا :

— آه .. قصدك فيه واحد جاى يخطبك .. طيب ومالك
مكسوفة كده ، ودى حاجة تكسف .. اعتمدى على يانادية..
أنا حالكم بابا وحامل كل حاجة .. مادام بتحببه وهو كويس ،
يبقى خلاص .. تقدرنا تعتبرنا نفسكم متجوزين من
النهارده .. ألف مبروك ..

ورفعت اليها عيني وهي تتكلم ، وكأني أصبت بخيبة
أمل ، وأخذت أنظر اليها كأني أحاول أن أكشف حقيقتها ..
هل هي ساذجة الى هذا الحد ، أم هي تتخايب لتخرجنى ..
ثم قلت في صوت لا يخلو من حدة وكأني أقاطعها :

— ما حدش حبيجى يخطبنى ..

وبهتت فرحتها ، وقالت متسائلة في خيبة :

— اتنى مش بتقولى فيه واحد يبحبك ؟ ..

قلت وصوتي لا يزال حادا :

— هوه يبحبنى وأنا باحبه .. انما مش حا يخطبنى ..

قالت وعلى وجهها أمارات الجذ :

— ولما يبحبك ما يخطبكيش ليه !?

قلت في تردد وقد أحسست بضعف مركزى ، وعدت

ألقى أهداى فوق عيني لأختفى من نظراتها :

— أصله مش بتاع جواز !! ..

قالت في هلع خافت :

— ايه !!? ..

قلت مرتبكة :

— قصدى .. قصدى اننا لسه ماتكلمناش فى الجواز!!..

وسكتت قليلا .. ثم أدارت رأسها ، وصاحت تنادى على

السفرجى :

— عبده .. عبده ..

ثم التفتت الى قائله ، وكأنه لم يكن بيننا حديث :

— الخدامين دول مصيبة .. الساعة بقت حداثر ولسه

الدور فوقانى ماتعملش .. عن اذنك يانادية يا حبيبتي أما

أشوفهم بيعملوا ايه !!..

وقامت وتركتنى وهى تسير فى خطوات مترنحة كأنها

تبذل مجهودا لتسيطر على أعصابها ..

وأحسست أنها صفعتنى ..

أحسست أنها عندما قالت « الخدامين دول مصيبة »

كانت تعنى : « البنات دول مصيبة » !!..

أحسست انى أهنت ..

وأحسست بكل ما فى ينتفض .. وقمت أجرى الى غرفتى

كأنى أخشى أن تقع دموعى منى على الأرض ..

وأغلقت الباب ورائى بالملفتاح ..

وألقيت بنفسى على الفراش ، وثبتت عيني فى السقف ..

انى أتساءل اليوم عما كان يمكن أن تكون عليه حياتى

لو أن صفة استمعت الى حديثى كله .. لو انها شاركتنى

في سرى وعرفت بحبي لمصطفى؟! ربما كانت استطاعت أن
تنقذنى وتنقذ أبى ، وتنقذ نفسها ؟ .

ربما كانت حياتنا كلها قد تغيرت ؟

ولكنها لم تستمع .. أبت أن تشاركنى فى سرى .. ترفعت
عن عواطفى .. وفضلت أن تتزمت وأن يظل الستار الكثيف
يفصل بينى وبينها حتى تحتفظ بشخصيتها فى البيت كاملة ،
فلا تعرضها لما يمكن أن ينقص من قدرها ..

هكذا أراد الله .. أو أراد الشيطان .. أراد أحدهما أن
يضيف وقودا جديدا الى النار التى تشتعل فى صدرى .. نار
الشر والغيرة والحقد .. نار تندلع فى خيالى فينسج على
ضوئها جرائم سوداء ..

وبدأت أفكر تفكيرا هادئا خبيثا .. كأن حية رقطاع قد
انطلقت من رأسى وبدأت تزحف على بطنها وسمها فى
أنيابها .. وتملكنى نفس الشعور الذى تعودته كلما أقدمت
على ارتكاب شر .. شعور تختلط فيه لذة الخوف ، ولذة
الحقد ، ولذة التردد ولذة الذكاء .. شعور المقامر الذى
وضع كل ما يملك فوق المائدة وانبهرت أنفاسه فى انتظار أن
تقف عجلة الحظ ..

كنت ساعتها أبحث عن الخطة ..

الخطة التى سأهدم بها زوجة أبى .

سأقضى عليها .. سأجعلها تدفع ثمن اهانتى من حياتها ..

وسأضمن مصطفى لى وحدى !!

ولكن كان هنالك جانب من خواطري يفكر في شيء آخر .. جانب رسبت فيه كلمة زوجة أبي عندما قالت : « ولما يبحك ما يخطبكيش ليه ؟ » .

وساءلت نفسي : هل يمكن أن يتزوجني مصطفى ؟
وابتسمت ساخرة ..

ساخرة من نفسي ومن نصيبي في الرجل الذي أحببته ..
لقد مرت فترات من عمري تمنيت فيها أن أتزوج مصطفى ، ولكنها كانت دائما أمنية بعيدة .. بعيدة جدا ..
أراها من وراء سحب أفكارى كوهم جميل لا يمكن تحقيقه ،
ولا يحق لى أن أتحدى فى تمنيه .. كأنى أتمنى أن أكون ملكة انجلترا ، أو أودرى هيورن .

كانت حياة مصطفى وشخصيته وفلسفته لا توحى بالزواج .. بل انى كنت أخاف أن يعتقد أنى أسعى لزواجه ..
فبقيت دائما جبانة كلما خطر لى هذا الخاطر ، فلا أستطيع أن أتحدث فيه أو ألمح اليه ..

كانت شخصيته أقوى من أن تقف أمام مآذون .. هكذا كان يخيل الى !!

وكان يعتقد — طبقا لفلسفته فى الحياة — أن الحب لا يرتبط بالزواج .. ان الحب — فى نظره — فضيلة مجردة ، كالصدق والأمانة والشهامة .. فهو ليس فى حاجة الى اثبات رسمى ، ولا الى اجراءات ، ولا الى تدخل الحكومة والمجتمع .. وكما أن الصادق لا يذهب الى موثق العقود

ليكتب له عقدا يبيح له الصدق ، فكذا المحب ليس في
حاجة الى مأذون الشرع ليبيح له الحب .
هكذا كان يقول ..

وهكذا كنت أحاول أن أقنع نفسي !
وأذكر أنه قال لى مرة :

— .. يعنى اتنى عندك سبعناشر سنة ، وأنا سبعة
وتلاتين .. يعنى بينى وبينك عشرين سنة .. يعنى لما اتنى
يبقى عندك سبعة وعشرين يبقى أنا عندى سبعة وأربعين ..
تبقى اتنى فى عزك وأنا فى آخرتى .. اتنى فى القمة وأنا فى
النهاية !!

كان يتكلم فى مرارة ..

وخيل الى انه يتكلم وهو يفكر فى زواجه بى .. وقلت
متضاحكة كأنى أحاول أن أخفف عنه مرارته :

— ده أنت تبقى جنان وأنت عندك سبعة وأربعين سنة ..
قال والمرارة لا تزال تقطر من ابتسامته :

— أبقى عجوز ومهتم وايدى بترتعث وأمشى متعكز
على عصايا ..

قلت وأنا ألف ذراعى حول عنقه :

— بعد الشر .. بعد الشر .. بعد الشر .. حاتفضل زى
ما أنت كده ، بس شعرك حيببيض ، ويومها ما حدش حيرضى
بيك الا أنا ..

وكانت المقارنة بين عمره وعمرى ترد كثيرا فى حديثه ،

وفي كل مرة ألمح المرارة في عينيه وأسمعها في لسانه ، وفي كل
مرة كنت أحاول أن أنسيه مرارته بقبلاتي ، وأظن أنه أثيره بقبلاتي
حتى ينسى عمره .. وأنسى عمري !!

واختلطت كل هذه الذكريات في رأسي بتفكيرى الأسود
في ارتكاب جريمة .. ثم جمعت خواطري مرة أخرى بينهما ..
وبين زوجة أبى وحبيبي مصطفى !!

انها أكبر منى .. ان سننها قريبة من سنه ، فلا يفصل
بينهما الا تسع سنوات ، وهو لن يشعر معها بالمرارة التي
يحس بها معى .. وربما كانت عقليتها أقرب الى عقلية
من عقليتي .. ربما استطاعت أن تفهمه أكثر مما فهمته .. وربما
استطاعت أن تعطيه أكثر مما أعطيه ، وتأخذ منه أكثر مما
أخذت ..

وتصورت مصطفى يدخل بيتنا بناء على دعوة أبى ..
وتصورته جالسا معنا فى البهو ، وهو يتبادل مع طنط صفة
الحديث .. حديثا مقصورا عليهما .. وتصورت عينيه تلتقيان
بعينيها فى نظرات ذات معنى رقيق .. وتصورتها وقد أرخت
أهدابها أمام نظراته ، واصطبغت وجنتها بدمائها كأنها خجلة
مما فى نفسها ، ومما فى نفسه ..

وتصورت أبى جالسا بينهما وهو لا يدرى شيئا ..
وتصورت نفسى جالسة ودمائى تغلى ، لا أستطيع أن أشاركهما
فى حديث ، ولا أستطيع أن أحول بين نظراتهما المتبادلة ..
وتصورت .. وتصورت ..

وأحسست انى فى دوامة سوداء تلفنى بعنف .. وطافت
امام عينى أسئلة تنتصب كأنها الأشباح المخيفة :

هل ستكون له ؟

وهل ترضى أن تكون له بلا زواج ؟

وهل تستطيع أن تتزوجه ؟

وهل هى قوية الى هذا الحد .. الى حد أن تغلب على

فلسفة مصطفى فى الحياة وفى الحب وفى الزواج ؟

وخيل الى انى أرى زوجة أبى عملاقة ضخمة ، طويلة
جدا وجميلة جدا ، تضحك فى اغراء مثير فيركع أمامها كل
الرجال ويرفعون أذرعتهم اليها مبتهلين . ثم تتقدم وتدوسنى
بقدميها وتلتقى بمصطفى فوق جتى !.

كان كابوسا آخر .. كابوسا أراه فى يقظتى ..

وأحسست كأنى أصرخ طالبة النجدة .. وقمت من فراشى
مدعورة من خيالى ، وهرعت الى التليفون وطلبت مصطفى ..
وسمعت صوته كسولا هادئا كأنه آت من عالم بعيد ..

عالم ليس فيه كل هذا العذاب الذى أعانيه ..

وقلت له انى أريد أن أراه حالا !! ..

وقال كأنه يغفو :

— حاضر !!

ووقفت أمام المرأة لحظات ، ثم انطلقت خارجة ..
والتقيت بزوجة أبى فى البهو ، وقلت لها وأنا فى طريقى :
— أنا رايحة أزور منيرة ..

ولم ترد زوجة أبى ..
ولا أدرى لماذا قلت لها انى ذاهبة لزيارة صديقتى ..
فلم تكن من عادتى أن أقدم لها حسابا .. ولم يكن من عاداتها
أن تسألنى شيئا .. ربما كان احساسى بالجريمة التى تنسج
خيوطها فى صدرى هو الذى دفعنى الى أن أموه عليها ..

وذهبت الى هناك .. الى شقة مصطفى ..
وضغطت الجرس ، وانتظرت قليلا فلم يفتح الباب ..
وضغطت الجرس مرة ثانية .. فلم يفتح الباب أيضا ..
ان مصطفى لم يأت بعد ..

انها المرة الأولى — منذ عرفته — التى يتأخر فيها عن
موعد ، ولا يصل الى الشقة قبلى ليكون فى انتظارى !! ..
هل هذا من تأثير ليلة الأمس .. هل ملنى وبدأ يفتح بابه
لواحدة أخرى .. لزوجة أبى !!? ..

وركبنى عناد عجيب ..
سأنتظره مهما طال انتظارى ..

وأحسست أن قدمى قد سمرت أمام الباب .. وخيل الى
أن كل دقيقة تمر كأنها شهر ، وكان بعض الناس يرون بى
وأنا فى وقتى .. فأتظاهر بأنى فى انتظار المصعد ، وكان
المصعد يقف أمامى أحيانا حاملا أحد سكان الشقق المجاورة ..
فأضطر أن أدخل فيه ، وأنزل به دورا أو دورين ، ثم أعود
به ثانية ، وأخرج منه لأقف أمام باب الشقة .. كالكلبة
المسكينة الضالة !

وأخيرا جاء مصطفى ..
جاء متأخرا عشر دقائق ، وبدأ فمه يتدفق بكلمات
الاعتذار ، وهو يفتح باب الشقة .. وكان عذره انه صحا من
نومه متأخرا ، واني حادثته في التليفون وهو لا يزال في
فراشه ، فلم يسعفه الوقت للاغتسال وارتداء ملبسه .. عذر
قبلته في صمت .. فقد كانت ثورتى أقوى من أن أعبر عنها
بالكلام ..

ودخلنا ، وأغلق الباب ..

وأمسك يدي الباردتين وقبلني في باطن كفى ، ولم أحس
لقبلته بطعم ، لم تسر في أعصابى ، ولم ترتفع الى قلبى ا
وجلسنا في حجرة المكتبة صامتين ..

وطال بيننا الصمت ..

ثم قال فى صوته الكسول .. كأنه يريد أن يقول أى شىء:
— انبسطتِ فى الحفلة امبارح ؟ ..

قلت ، وأنا أضم أعصابى حتى لا تفلت منى :

— يظهر انك انت كنت أكثر واحد انبسط امبارح ..
قال بلا مبالاة :

— أنا طول عمرى أنبسط فى أى حثة أكون فيها !!

قلت ، وأنا أنظر اليه كأنى أتهمه :

— انما يظهر ان كان فيه أسباب تخليك تنبسط أكثر

من عادتك .

قال وكأنه يفعل :

— كان فيه اتتى .. كنتى جميلة موت !

قلت :

— أتاريك قعدت طول الليل تكلمنى وترقص معايا !!..

قال وقد أحس بالزوبعة التى تهب عليه :

— قصدك ايه? ..

قلت فى اقتضاب :

— قصدى طنط صافية ..

قال وكأنه تذكر :

— آه .. ده اتتى كنتى مديانى عنها فكرة وحشة

خالص .. انما طلع انها جميلة ولطيفة ولازم بابا يبجها? ..

قلت :

— بابا بس !!? ..

قال فى دهشة :

— فيه حد تانى !!? ..

قلت كأنى أحاول أن أسكب فوقه جردل ماء بارد :

— حضرتك ..

قال ضاحكا :

— يا شيخه حرام عليكى ..

قلت فى حدة :

— ومش حرام عليك انك ترقص معاها بالشكل ده ..

قال :

— اتنى عارفه انى طول عمرى بارقص كده .. مش حاجة
جديدة على !! ..

قلت :

— انما هى مش متعودة ترقص بالشكل ده ..

قال :

— كانت بترقص فى منتهى الاحترام دى ست محترمة ،
وكل الملى يعرفها لازم يحترمها ..

ومد ذراعه ليضعها على كتفى .. فابتعدت عنه كأن كل
ما فى يكرهه ، ويتقزز منه ، وأخذت أنظر اليه بعينين ثائرتين
أحاول أن أبحث فى وجهه عن الحقيقة ، وقد احتبس فى حلقى
الكلام وتزاحمت الأسئلة .. حتى لم أعد أستطيع أن أتكلم
ولم أعد أدري بماذا أسأله .

وقام يعلق بعض الاسطوانات فى « البيك آب » وهو
يقول :

— ما تبقيش مجنونة .. ما تترفيش نفسك !! ..

ولم أرد عليه ...

وأخذت أنظر اليه وقد أدار لى ظهره .. وخيل الى أنه بعيد
عنى جدا .. بعيد .. بعيد .. بعيد عن احساسى ، وبعيد عن
شعورى ، وبعيد عن قلبى .. انه لا يشاركنى فى هذه
العواطف النفسية التى أعانيها ، ولا يحاول أن يشاركنى فيها
أو يفهمها .. انه بعيد عن شكوكى .. وبعيد عن الأفكار

السوداء التي تطوف برأسى .. فلا يستطيع أن يناقشها ولا أن
ينقذنى منها .

انه انسان آخر ، وليس قطعة منى .. ليس روحى !! ..
انه هادىء ، بارد ، بسيط ، صريح لا يحمل هما ،
ولا يفكر فى هم .. لا يفكر فى شىء الا فى متاعه .. فى
أسطواناته ، وفى كتبه ، وفى شقته ، وفى السهرات التي
يتردد عليها ، وفى زواته التي يحاول أن يبدو بها شاذا .
هل هذه الدنيا التي يعيش فيها مصطفى تستطيع أن
تسع غيره ؟ دنيا بلا مسئولية !! ..

نعم .. انه انسان بلا مسئوليات ، حتى مسئولية رزقه
قد أعفاه منها القدر ، ولم أستطع أنا أن أكون شيئا يحمل
مسئوليته فى حياته . انه ليس مسئولا عنى .. انى لم أكلفه
شيئا .. مجرد فتاة جميلة ألتقت نفسها عليه فأخذها ليمتع
نفسه بها .. ويقضى معها أوقاتا سعيدة بين اسطواناته وكتبه،
بل خيل الى فى تلك اللحظة انه أبقانى عذراء ، لا لأنه يخاف
على مستقبلى ، ولا لأنه يحترم سمعتى ، ولا لأنه فاضل
يؤمن بالفضيلة ، ولكن فقط حتى لا يتحمل مسئولية
يستطيع أن يستغنى عنها .. مسئولية التطور بى الى امرأة ..
مسئولية قد أحاسبه عليها ، وقد يحاسبه عليها ضميره ، وقد
يحاسبه عليها الناس والمجتمع .. انه جبان يهرب من
المسئوليات ، هذا هو حيبى مصطفى !
وارتفعت أنغام الاسطوانة الأولى ..

وكنت أستطيع أن أتحمل أى شىء فى هذه اللحظة الا أن
أستمع الى نغم موسيقى .. كنت أريد أن أحطم .. أن أهدم ..
أحطم كل الاسطوانات ، وكل قطع الأثاث ، وكل شىء ..
بل كنت أتمنى لو أن مصطفى حاول فى هذه اللحظة أن
يحطمنى بدل أن يحيطنى بهذه الرقة الملساء ، وهذه الأنغام
الناعمة .. كنت أتمنى لو انه ضربنى ، وشد شعرى ، وألقانى
على الأرض ورفسنى بقدمه ، حتى أجد فى قسوته ما يلهينى
عن عواصفى النفسية وأفكارى السوداء ..

مرت كل هذه الخواطر برأسى فى لحظة واحدة ، ثم
سمعت صوته يقول وهو يستدير الى :

— وتعرفى ان باباكى لطيف قوى .. ده باين عليه أب

مثالى !

قلت وكان صوتى يخرج محشرجا من خلال ثورة نفسى:

— ده مبسوط منك هو كمان .. وناوى يعزمك عندنا !!

وكأنى رأيت فرحة على وجهه وقال كأنه يهمل كالأطفال :

— صحيح ??? ..

ووقفت على قدمى واقتربت منه وقلت فى صوت جاد

وأنا أثبت عيني على وجهه :

— لو بابا عزمك ، مش عايزاك تقبل العزومة !! ..

وبانت على وجهه نظرة بلهاء ، وقال فى غباء :

— ليه ؟

قلت فى اقتضاب :

— كده .. علشان خاطرى يامصطفى !!

قال :

— بس مش ..

وقاطعته :

— علشان خاطرى .. اوعدنى .. وبعدين حتعرف ايه

السبب !!

وقال بلا مبالاة :

— حاضر ياستى .. علشان خاطرلك !!

قلت :

— مرسى .. أنا نازله بأه .. أحسن بابا مستينى فى

النادى !!

قال وقد عادت اليه بلاهته :

— مش معقول .. أمال كنتى عايزه تشوفينى ليه ؟

قلت فى برودة :

— علشان كنت واحشنى . أوقفوار !!

واتجهت الى الباب فى خطوات سريعة كأنى أجرى ..

وتركت مصطفى ونظرته البلاء !!

انه لم يستطع أن يتقدم من نفسى .. ولا من شرى

وحقدى وجرائمى .

وألقيت بنفسى فى سيارة أجرة وأنفاسى تتمزق كأنى

ألهث عقب « مشوار » بعيد قطعته عدوا ..

وارتفع مع صوت موتور السيارة صوت مصطفى وهو
يقول « دى ست محترمة واللى يعرفها لازم يحترمها » !!.

وأنا !!

ألست محترمة !?

ولماذا تكون هى محترمة !!!

انها ليست محترمة ، ولا يجب أن تكون محترمة !! ..
ووصلت الى البيت ، وقابلتنى «دادا» حليلة ، وسألتها:

— ست صافية فين يادادا !?

وأجابت « دادا » حليلة :

— فوق ..

وابتسمت فى خبث مسموم ..

ان الجريمة تبدأ من الدور العلوى !!



كان من عادة زوجة أبى أن تصعد كل صباح — بعد خروج أبى — الى الدور العلوى حيث يقيم عمى عزيز لتشرف على أعمال الخدم ..

ولم يكن من عادة عمى أن يخرج فى الصباح .. كان يستيقظ من نومه متأخرا ، ويبقى فى فراشه فترة طويلة يتناول خلالها الشاى ويقراً الصحف ، ثم يقوم متكاسلا يطوف بحجرات البيت يعنى ويصفر بفيه ويشيع المرح بيننا بمداعباته وضحكاته العالية ، ثم يرتدى ثيابه وينزل الى الحديقة ويشغل نفسه بمناقشة الجنائى أو بقراءة كتاب ، ائى أن يحين موعد الغداء فيتناوله معنا ثم يخرج الى عالم عرييد لا يعود منه الا فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ..

كانت هذه هى حياته معنا ..

وكان أبى يعتبر نفسه مسئولا عنه ، فكان يدير له أرضه ، ويرتب حساباته ويحاول دائما أن ينظم حياته .. وكنت أنا — قبل أن يتزوج أبى — أعتبر نفسى مسئولة عن عمى كما أنا مسئولة عن أبى ، وكنت أصعد كل صباح الى الدور العلوى لأشرف على أعمال الخدم ، كما بدأت تفعل طنط صافى بعد زواجها ..

ولم يحدث أبدا خلال العمر الطويل الذى عاشه أبى وعمى أن وقع بينهما شجار أو خلاف ، رغم التفاوت الكبير بين الشخصيتين .. شخصية الرجل المرح البوهيمى الذى لا يحمل هما ولا يقبل أن يحمل هما ، وشخصية الرجل الجاد الرزين المنظم الذى يحمل مسئولية نفسه ومسئولية غيره ..

ولم يجد جديد فى حياة البيت يمكن أن ينذر بخلاف بينهما ، أو بكارثة ..

لم يجد الا الخطة السوداء التى ارتسمت فى رأسى .. المصيبة التى أعددتها ، ثم بدأت أرفعها بكلتا يدي ، وأهم أن ألقياها على البيت كله .. وعلى أعدائى يارب ؟ ..

كنت قد قضيت الليل أبحث عن منفذ الى زوجة أبى لأطلعنها منه .. عن شئ أستطيع أن أتهمها به ، وأحط به من كرامتها ، وأهدم به كبرياءها ، وأمزق به ستر « الاحترام » التى تحيط به نفسها ..

كنت أقول لنفسى : « لا بد أن فى حياتها شيئا .. سرا .. ان كل امرأة لها سر .. فما هو سرها ؟ » ..

ثم بدأت أقول لنفسى : « لا بد أن فى حياتها رجلا .. رجلا آخر غير أبى .. انى أعرف نساء كثيرات لكل منهن عشيق بجانب الزوج .. لماذا لا تكون كبقية النساء .. ولكن من هو عشيقها ؟ » .

وبدأت أقلب فى مخيلتى كل الرجال الذين يترددون على

البيت ، أو الذين نعرفهم ، وأحاول أن أجد من بينهم عشيقا لها ..

ولم أجد ..

كانت تعامل كل الرجال في مستوى واحد .. كلهم تجذبهم بشخصيتها القوية الحلوة ، وكلهم يلتفون حولها أينما ذهبت ..

وعندما لم أجد عشيقا ، تخيلت واحدا ...

وكان الرجل الذي تخيلته كعشيق لزوجة أبى ، هو

عمى ..

عمى عزيز؟! ..

لم لا؟! ..

انه أقرب الرجال اليها ، ثم ان شخصيته تكمل نقصا كبيرا فى شخصية أبى ، فلماذا لا تجمع بينهما حتى يكتمل لها من كليهما كل ما تحبه المرأة فى الرجال .. الجد والمرح ، والنظام « والهرجلة » ، والاستقرار والقلق .. الى آخر الصفات المتناقضة! ..

كان هذا ما تخيلته ..

وكان يجب أن أقنع نفسى بهذا الخيال حتى أنسج منه

حقيقة تزودنى بالجرأة على ارتكاب جريمتى ..

وعندما بدأت أقنع نفسى بخيالى ، لاحظت أشياء كثيرة

لم أكن ألاحظها من قبل ، ولم تكن تثير فى نفسى شكاً ، ولم

أكن أفسرها تفسيراً يحمل معنى الريبة ..

لاحظت أن عمى بدأ منذ تزوج أبى ، يتناول طعام العشاء معنا ، ولم يكن يتناوله معنا من قبل أبدا ..

ولاحظت أنه يتعمد أن يقبل كل دعوة ندعى إليها ، حتى ولو ذهب إليها متأخرا . وكان من قبل يرفض جميع الدعوات ، ويحتقر مجتمعنا ، سواء المجتمع الذى يضم أقاربنا أو مجتمع أصدقائنا ..

ولاحظت انى لم أره يرقص أبدا الا عندما بدأ يرقص مع طنط صفيه ، وكان يراقصها دائما فى كل حفلة ، خصوصا أن أبى كان دائما كسولا عن الرقص ..

ولاحظت أنه يعطى لنفسه حقوقا عليها ، لايمكن أن تكون حقوق أخ على زوجة أخيه .. كان هو الذى يبدى رأيه فى ثيابها ، وكان هو الذى يعارض فى دعوة هذا الصديق أو ذلك ، وكان هو الذى يلفت نظرها اذا تأخرت عن موعد عودتها ، وهو الذى يسألها أين كانت !!

لاحظت ظواهر كثيرة ..

وبدأت أقتنع !!

وعندما عدت من لقاء مصطفى ، وقالت لى «دادا حليلة» أن طنط صافى فى الدور الأعلى .. بدأ اقتناعى الجديد يصور لى صورا لم تكن تخطر لى من قبل .. بدأت أقول لنفسى : « ان الساعة الآن قد بلغت الواحدة .. فما الذى أبقاها فى شقة عمى حتى الآن ؟ .. هل لا تزال تشرف على الخدم ؟ ..

أم انها انتهزت فرصة خروجي وأطالت بقاءها معي ؟ .. ومن
يدري ماذا يفعلان الآن ؟!! ..

وصعدت الى الدور العلوى على أطراف أصابعي ...
كأني متأكدة اني سأراها في الوضع الذى يصوره خيالى !!
كان البهو الخارجى خاليا ..

ولم يكن هناك صوت للخدم ..
وسرت في الممر الذى يؤدى الى حجرة نوم عمى ..
سرت على أطراف أصابعي ..

وكان باب حجرة النوم مفتوحا ..
وتقدمت .. على أطراف أصابعي أيضا ..
ورأيتهما ..

كان عمى جالسا في فراشه وهو لا يزال بالبيجاما ، وقد
انتشرت من حوله الصحف والمجلات ، وبجانبه مائدة عليها
أدوات الشاي .. وكانت طنط صافي جالسة على حافة الفراش
في الركن البعيد ، وسمعتها تقول له :

— انت حاتقوم والا أقومك بالعافية !!?
وفجأة التفتت ورأتني ..

وارتبكت .. خيل الى أنها اكتشفت اني أتجسس عليها ،
ولكنها قالت لى ببساطة وهى لاتزال محتفظة بابتسامتها:
— تعالى ينادية .. تعالى ساعدينى علشان نشد الرجل

الكسلان ده من السرير !!

والتفت عمى الى قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. اتتى طلعتى منين ! ..
وقلت وأنا أحاول أن أبتمس :
— من تحت !!

وقامت طنط صافى وأمسكت بقدم عمى وهى تصيح
ضاحكة :

— تعالى ينادية امسكى الرجل الثانية !!
وتقدمت وأنا أقتعل المرح ، وأمسكت بقدم عمى الثانية،
وتعاوننا نحن الاثنتين وأخذنا نجذبه من فوق الفراش حتى
أوقعناه على الأرض ، وهو يقول ضاحكا :

— يا أخوانا أنا ذنبى ايه . أخويا اتجوز ، يبقى أنا
ذنبى ايه .. ما أتجوز أنا أحسن اذا كان كل يوم حتنزلونى
من السرير فى الفجر ..
وقالت طنط :

— الفجر بتاعك يبقى الساعة واحدة بعد الظهر ..
ياللا بلاش كسل .. الساعة اتنين تمام الغدا حيتحط !!
وحاولت أن أتركهما وأنا لازلت أضحك ضحكى
المفتعلة .. ولكن عمى صاح بى :

— نادية .. الحقينى يا حبيبتى !
قلت ضاحكة :

— ألحقك بايه .. ما حدش يقدر يلحقك من طنط
صافى !..

قال :

— الحقى بوسينى علشان أقدر أقوم من على الأرض!..
ثم جذبني من يدي ، وأوقعني في أحضانه ، وقبلني فوق
وجنتي وضمني الى صدره في حنان ..

ولم يستطع هذا الحنان أن يلهيني عن جريمتي ..
ونزعت نفسى منه ، وابتسامتى المفتعلة لاتزال فوق
شفتى ، ثم تظاهرت بأنى أجذبه من يده ليقوم من على
الأرض ، ثم خرجت من الغرفة ، وأنا أقول :

— أما أنزل أشوف بابا جه والا لسه !

ونزلت ..

وسمعت أقدام طنط صافى تنزل خلفى ..

ولا أدري ، لماذا ازددت يومها اقتناعا بأن بينهما شيئا..
بينهما علاقة آئمة .. ربما لأننى كنت أريد أن أزداد اقتناعا ،
فلم يكن هناك شيء يثير الريبة ، كان كل ما رأيته يمكن أن
يمر بسلام ويمكن أن يكون مظهرا عاديا من مظاهر حياتنا
العائلية ، لولا أننى لم أكن أريد سلاما ولم أكن أريد حياتنا
العائلية .. هذه الحياة التى تتربع زوجة أبى على عرشها !!..

وكان على بعد ذلك أن أقنع أبى بما أقنعت به نفسى ..

كان على أن أقنعه بأن زوجته تخونه مع أخيه !!

كانت هذه هى خطتى ..

هذه هى جريمتى البشعة !!..

ولم أكن أتصور لهذه الجريمة من نتائج .. الا نتيجة

واحدة ، هى أن تخرج طنط صفية من البيت .. أن يطلقها
أبى .. أن يعزلها عن العرش ، وأعود أنا أتربع عليه .. على
عرش البيت وعرش مصطفى وعرش قلوب كل أقاربنا
وأصدقائنا ..

ولكن كيف أقنع أبى؟ ..

لم يكن الأمر سهلا .. كانت طبيته الحلوة أقوى من أن
تدع الشك يثور فى نفسه ، وكانت أخلاقه القوية تحول
دون أن يسيء الظن بأحد .. وكان حبه المكين لزوجته أقوى
من أن يتهمها لمجرد ريبة أو لمجرد نزوة ..
كان باردا هادئا دائما ..

وكان لا يفار أبدا ، ولا يسيء الظن أبدا ..
كيف تقنع مثل هذا الرجل بأن زوجته تخونه ؟
كيف أقنعه ؟

ووضعت خطة طويلة الأجل ..

بدأت أبدو أمامه دائما مهمومة حزينة كأن شيئا خطيرا
يشغلنى ..

وكان يسألنى عن سبب همى .. فأجيب :

— ولا حاجة !

وكانت زوجته تلاحظ هذه المظاهر التى أفتعلها فلا
تتكلم ولا تعلق بشيء ، فقد كانت تعتقد— كما استنتجت—
أنى مهمومة بسبب الحب الذى صرحت لها به ورفضت أن
تسمع تفاصيله ، وربما كان أبى قد حادئها بشأنى فى هذه

الأيام ، ولكنى واثقة من أنها لم تبلغه شيئا مما صرحت لها
به عن حبي ، فقد كانت سياستها ألا تقحم نفسها في حياتي
الخاصة ، ولا أن تجعل منى موضوعا بينها وبين أبي حتى
لا تفتح على نفسها أبوابا قد لا تستطيع أن تسدها ..

وجلسنا تناول الإفطار يوما ، ثم قام أبي منصرفا الى
النادى كعادته ، وقلت فجأة كأنى أصرخ :
— ما تخليك النهارده يا بابا .. بلاش تخرج علشان
خاطرى !.

ونظر أبى في دهشة ، فقد كانت المرة الأولى التى أحاول
أن أغير فيها نظام حياته .. النظام الذى يسير فى دقة كدقائق
الساعة ..

وقال ودهشته تطل من عينيه :

— ليه .. فيه حاجة ؟ .. تعبانة ؟

قلت فى انكسار :

— لأ .. أبدا .. بس كنت عايزه أقعد معاك !!

وقال مبتسما ابتسامته الحانية :

— على كل حال مش حاتاخر النهارده .. الساعة واحدة

حاكون هنا !

وأحنيت رأسى صامتة ..

وعدت بعد يومين أقول له وهو خارج :

— أنا عارفه بتروح النادى تعمل ايه .. مش احنا أولى

بيك ؟

وقال أبى ، وقد عادت الدهشة الى عينيه :
— بس اتنى عارفه انى باعمل كل شغلى فى النادى ..
قلت فى حدة :
— أيوه عارفه .. بس احنا كمان محتاجين لك !!?
قال كأنه تلقى اتهاماً :
— أنا قصرت فى حاجة يانادية .. فيه حاجة تقصاكي !!?
قلت .. وأنا أنكس رأسى :
— لا .. قصدى انك بتوحشنى .. ما باعدش معاك
كفاية !!

وضمنى الى صدره فى حنان .. وقال :
— أنا حاغيب ساعة واحدة .. وحارجع حالا !!?
وعاد فعلاً بعد ساعة .. ليجدنى مهمومة كما عودته أن
يرانى ، وليسألنى ويلح على فى السؤال .. فأجيبه وأكرر
نفس الجواب :
— ولا حاجة .. أبدا والله يا بابى ، ولا حاجة ..
ثم ألقى برأسى فوق صدره ، وأتهد كأنى أشد أنفاسى
من آخر الدنيا ..

وفى احدى الأمسيات .. جلست فى غرفتى منظرحة فوق
فراشى ، وتركت بابى مفتوحاً ..
وجان موعد العشاء ، وجاء الخدم يدعوننى اليه ،
فتلكأت الى أن جاء أبى نفسه ، وعندما سمعت صوت أقدامه

فى المر الذى يؤدى الى حجرتى .. تظاهرت بالنشيج كائى
أبكى ، وتركنه يسمع صوت نشيجى ..

وما كاد يدخل الغرفة ، وقد ارتست اللففة على وجهه ..
حتى اعتدلت من رقدتى ، وكنت قد عصرت عينى حتى بدا
فيهما آثار دموع .. فأخذت أجففهما ..

وجلس أبى بجانبى .. وقال جادا حزينا مهموما ، وكان
قلبه يتفتت بين شفتيه :

— اسمعى ينادية .. اتتى مش عاجبانى أبدا اليومين
دول .. لازم تقولى على كل حاجة .. ايه اللى مضايقتك ..
ايه اللى مزعلتك .. اتتى عمرك ماخيتى على حاجة ينادية ؟
قلت وأنا أهز رأسى كالطفلة البريئة :

— ما فيش حاجة .. وحياتك ما فيش حاجة يا بابا !!
قال مهموما :

— لأول مرة أحس انك بتحلفى بحياتى كذب يا نادية ..
بتكذبى على ليه .. قوللى على الحقيقة ينادية .. أنا بابا ..
اتتى مالكيش غيرى وأنا ما لياش غيرك !!
قلت .. كائى أبكى :

— صدقنى ما فيش حاجة .. بس مضايقة .. طهقانه مش
عارفه من ايه !!

ووضع يده تحت ذقنى ورفع وجهى البرىء ، وقال
وهو يدقق النظر الى :

— يمكن عايزه تغيرى هوا .. يمكن أعصابك تعبانه ..
بكره نروح سوا للدكتور براده !!..

قلت :

— لأ .. بلاش دكتور .. أنا متأكدة انى كويسة .. بس
اليومين دول أعصابى بتبقى تعبانه !!..

وابتسم أبى .. كأنه فهم معنى كلمة «اليومين دول» !!..
ثم أخذ بيدي ، وذهبنا الى مائدة العشاء ..
وكررت هذه التمشيلات الصغيرة خلال عدة أسابيع ..
حتى وثقت من أن أبى قد تأكد من أن هناك شيئاً خطيراً
يشغل حياتى ويمزق قلبى ، ويملاّ صدرى بالهم ..
الى أن كان يوم

وتعمدت أن أبدو ونحن نتناول العشاء كأنى مهمومة
أكثر من كل يوم ، وان الأسى قد فاض بى ، حتى لم أعد
أحتمله .. ثم قمت بعد العشاء مباشرة ، ودخلت حجرة
مكتب أبى ، وجلست الى المكتب ، وأخذت أكتب خطابا
الى أمى التى كانت قد سافرت مع زوجها وأولادها الى
الاسكندرية ..

كتبت لها :

« حبيبتى ماما ..

« أقبلك ألف قبلة ، ولو انى أخشى أن أبلل وجهك »
« بدموعى .. انى أبكى ياماما ، أبكى طول النهار ، وطول »
« الليل حتى احمرت عيناى من البكاء ولم أعد أستطيع »

« أن أنام .. ومما يزيد في بكائي انى لا أعلم اذا كان من
« حتى أن أكتب لك هذا الخطاب أم لا ؟ هل من حتى
« أن أقول لك عن كل شيء حتى لو كان شيئاً خاصاً
« بأبى وزوجته وعمى ، وبحياتنا فى البيت ، أم ليس هذا
« من حتى ؟
« ولكنى مضطرة أن أقول لك . فانى لا أستطيع
« أن أسكت أكثر من هذا والا جنتت .. تصورى ياماما
« انى أعيش فى بيت كله خيانة .. وأنى أشهد الخيانة
« بعينى ، ولا أستطيع أن أتكلم .. وتصورى ان الخائنة
« هى طنط صافية ، وأنها تخون بابا .. وتخونه مع من ؟
« مع عمى .. نعم يا ماما انها تخون بابا مع أونكل عزيز ..
« وهى خيانة مستمرة منذ شهور ، وقد رأيتها مرة مع
« بعض فى شقة عمى ، وكان يقبلها ، وكانت .. لا ..
« لا أستطيع أن أصف لك المنظر الذى رأيتها فيه ..
« ومن يومها وهى تصعد الى شقته كل يوم بعد خروج
« بابا ، وتبقى معه الى أن يحين موعد عودته . . .
« ومن يومها وأنا أبكى .. أبكى لأنى لا أستطيع أن
« أفعل شيئاً .. لا أستطيع أن أقول لبابا ، ولا أن أرجو
« عمى ليترك زوجة بابا فى حالها ، ولا أن أرجوها أن
« تصون شرف حيبى بابا .. بابا الطيب ، الذى يثق بها
« ولا يدرى عنها شيئاً ، و

هذا هو الخطاب المسموم الذى كتبته بأسلوب ساذج
برىء ، وأنا لم أتعُد بعد الثامنة عشرة من عمرى ..

ولم أتم كتابة الخطاب ، انما تركت الورقة موضوعة
على المكتب فى مكان ظاهر وضوء « الأباجورة » مسلط
عليها ، وتركت بجانبها القلم ، ثم خرجت من الغرفة ، وتركتها
مضاعة كأنى لا ألبث أن أعود اليها ..

وكان من عادة أبى أن يدخل حجرة المكتب بعد العشاء
لينتقى لنفسه كتابا يقرأه فى البهو أو فى حجرة نومه ..
وكنت أريده أن يدخل الحجرة ليرى الخطاب ، ويقرأه
وليحدث بعد ذلك ما يحدث !..

ولكن ، هل يقرأه ؟

قد لا يدخل حجرة المكتب ..

قد يغير عادته هذا المساء ، ولا يجد نفسه فى حاجة الى
قراءة كتاب ..

وقد يدخل حجرة المكتب ولا يرى الخطاب !!

وقد يرى الخطاب ولا يقرأه ، احتراما منه لأسرارى ،
فهو لم يتعود أن يقرأ خطابا أرسله أو خطابا يصلنى ..

واشدد وجيب قلبى .. أحسست كأن شيطانا مجنوننا
يخبط على صدرى بكلتا يديه خبطات منتظمة عنيفة كدق
طبول الزنوج المتوحشين ..

حملت قلبى المضطرب وتسلفت كالمجرمة المتبدئة ، الى
شرفة حجرة المكتب عن طريق الحجرة المجاورة .. وكان باب

الشرفة مقفولا ، ولكنى كنت أستطيع أن أرى ما يجرى
فى داخل الغرفة من خلال الزجاج ، فوقت هناك مستندة
الى الحائط حتى لا يرانى أحد وعيناي تكادان تصهران
زجاج باب الشرفة ، وأنا أطل من خلاله .

وطال انتظارى والشيطان المجنون لا يزال يضرب فوق
صدرى بكلتا يديه ..

وتعبت من الانتظار .. خيل الى انى انتظرت دهرا ..
وتعبت من ضربات قلبى الواجب المنتفض ، حتى خيل
الى انه سيغى على ، أو أنى سأموت بالسكته القلبية ..
وبدأت أفكر فى أن أعدل عن كل هذا وأستريح ..
أن أعود الى غرفة المكتب وأمزق الورقة التى كتبها ،
ثم ألقى بنفسى فوق فراشى لعل قلبى يهدأ ، ولعل الشيطان
المجنون يكف عن ضرباته فوق صدرى ، ولعل أنفاسى
تنتظم ، ولعلنى بعد ذلك .. أنام !!

ولكن - وقبل أن أياس بلحظة واحدة - فتح
باب غرفة المكتب ورأيت أبى من خلال زجاج الباب ..
وتلفت أبى فى الغرفة دهشا عندما وجدها مضاءة .. ثم
ازدادت الدهشة فى عينيه عندما وجد «الأباجورة» الموضوعه
فوق المكتب مضاءة أيضا ..
واقترب من المكتب ومد يده ليطفىء الأباجورة وقد
أصبح واقفا وظهره لى .

ورأيت رأسه ينحني في اتجاه الورقة الموضوعه فوق
المكتب ، ولكنه عاد وأشاح به في الحال قبل أن تمر فترة
كافية ليقرأ شيئاً ..

ومد يده مرة ثانية ليظنيء « الأباجورة » ..
وأطفأها فعلاً ..

وتنهدت ووضعت يدي على صدرى كأنى أحمد الله لأن
الجريمة قد خابت .

ولكن أبى عاد في نفس اللحظة وأضاء الأباجورة من
جديد . ورأيت رأسه ينحني مرة ثانية في اتجاه الورقة
الموضوعه على المكتب .. وثبت رأسه في هذا الاتجاه كأنه
بدأ يقرأ !!

ثم جذب مقعد المكتب وجلس عليه .. وظهره لا يزال
متجها الى الشرفة التى أقف فيها ..

ورأيته يرفع الورقة بيديه ويقرأ فيها ..

ثم ألقى الورقة في عصبية كأنها اشتعلت بين يديه نارا ..
ثم استند بمرفقيه على حافة المكتب ، وأسقط رأسه
بين كفيه .

ثم رأيت أصابعه ترتفع الى قمة رأسه وتشد في شعره
بقسوة كأنه يريد أن ينتزع من رأسه شيئاً ..

ثم اعتدل في جلسته ، وأمسك الورقة وبدأ يقرأها مرة
ثانية . ثم ألقاها فوق المكتب كأنه يقذف بها بكل قوة

ذراعه .. وقام من فوق المقعد واستدار في الغرفة ، ورأيت وجهه ..

وكدت أصرخ ..

بل انى صرخت فعلا ، صرخة مكتومة ووضعت كلتا يدي فوق شفتي حتى أكنمها ..

ماذا فعلت به ؟

ماذا فعلت بأبى !!!? ..

كان وجهه الذى رأيته فى تلك اللحظة غريبا مخيفا . شفناه مزمومتان فى عنف كأنهما اختفتا من وجهه ، وطاقنا أنفه مفتوحتان كأنهما ينفثان لها ، وعيناها جاحظتان حائرتان ، تدوران فى بلبه كأنهما تائهتان ، وحاجباه معقودان مشعثان كأن أحدهما يمسك بخناق الآخر ، ووجنتاه ترتعشان كأن لحم وجهه يتهدل فوق عظامه ، وشعره مبعر فوق رأسه كأن كل شعرة تريد أن تنطلق وحدها .

كان كأنه قد كبر فى لحظة واحدة مائة عام ..

وأحسست كأن سكيننا قد انفرزت فى جنبى ..

أحسست أن سياتا حادة تنهال على وتمزق وجهى

وجسدى .

أحسست انى أريد أن أهرع اليه ، وألقى بنفسى تحت أقدامه وأغسل حذاءه بدموعى ، وأعترف له .. وأتوسل اليه ألا يصدقنى ، وألا يصدق الخطاب الذى قرأه ، وأن يعود

كما كان ... أن يطلق شفثيه المزمومتين ، وأن يريح عينيه
التائهتين وحاجبيه المعقودين .. أن يعود هادئا طيبا جميلا ..
ولكن كانت كل هذه الأحاسيس تطوف بي وأنا في وقتي
ملتصقة بالحائط . وعيناي تطلان من خلف الزجاج ،
ولا أتحرك ..

لم تستطع كل هذه الأحاسيس التي كنت أحس بها
فعلا ، أن تنقذني من جريمتي ، أو تدفعني الى انقاذ أبي
وزوجة أبي ، وانقاذ البيت كله ..

كنت كأني أحمل في ذاتي شخصين .. شخصا يحس
ويتعذب تحت سياط الضمير .. وشخصا آخر لا يحس ..
ولا يتعذب ، انما هو مجرم عاق يقف باردا .. جامدا ..
ودماء الجريمة تسيل من بين أصابعه . وكان الشخص المجرم
هو الذى ينتصر على ، وهو الذى يتحكم فى ذاتي ..

ورأيت أبى يروح ويجيء فى الغرفة كأنه وحش غبى
وجد نفسه محصورا ، ولا يدرى أين المفر ..

.. ثم استدار متجها نحو باب الغرفة .. فأسرعت أنا
وخرجت من الشرفة عن طريق الحجرة المجاورة ، ودخلت
الحمام وأغلقت بابه على ، وفتحت الصنبور على آخره ..
حتى اذا ما حاول أبى أن يبحث عنى وجدنى فى الحمام وتأكد
أنى تركت الخطاب قبل أن يتم ريشما أعود اليه ..
ولكن أبى لم يبحث عنى ..

وانتظرت فترة قصيرة تأكدت بعدها ان أبى خرج من
فة المكتب ثم خرجت من الحمام ..
والتقيت به فى المر الذى يفصل بين الحجرات ..
التقيت بأبى ..

وحاولت أن أتفاداه .. ولكنه نادانى بصوت محشرج :
— نادية .. نادية !!

ورفعت اليه وجهى البرىء الجميل كوجه طفلة لم تتلوث
بعد بزحام الحياة ، وقلت فى صوت خافت وأنا لا أستطيع
أن ألقى عينى على وجهه المكفهر :

— نعم يا بابى !

وصمت أبى .. وخيل الى أنه صمت طويلا .. ثم اقترب
منى فى خطوات بطيئة ، ثم احتوانى بين ذراعيه وضمنى الى
صدره فى عنف لم أعوده ، وكأنه يستنجد بى من شىء فى
نفسه ، أو كأنه يعتذر لى عن الهم الذى تصور انى أحمله ،
ثم قال كأنه يبكى :

— ولا حاجة يا نادية .. تصبى على خير !!

وقبلته فوق وجنته المرتعشة قبله خجلة سريعة كأنى
أخاف أن ألوث وجهه الشريف بقلبتى ، ثم تمتت بكلمات
كأنى أقول :

— وأنت من أهل الخير ..

وتركنى ..

وخرج الى البهو ..

وأسرعت أنا الى غرفة المكتب والتقطت الورقة السوداء،
وأطفأت الأنوار التي كان أبي قد تعمد أن يتركها مضاءة كما
هي ، ثم عدت الى غرفتي ، وأخذت أمزق الورقة في حدة
وعنف ، مزقتها ألف قطعة ، كأنى أمزق نفسي ..



ولم أنم ..

كنت أفكر في أبي ، وكنت أراه في صورته المخيفة
الغريبة التي رأيته بها بعد أن قرأ الخطاب ، وكنت أتخيل
مدى العذاب الذي يحتمله وهو يعتقد أن زوجته تخونه مع
شقيقه .. عذاب الرجل المطعون في شرفه .. المطعون في
كبريائه .. المطعون في أعز عواطفه !!..

وأحسست انى أختنق .. أحسست ان أمعائى تزحف
صاعدة فى داخل جسمى حتى تلتف حول حلقى وتضغط
عليه ..

كنت أتفزز من نفسى ..

وكنت أتعذب ..

تعذبت كثيرا ..

وأحسست انى فى حاجة الى انسان يضربنى..يصفنى..

يؤلمنى .. يعاقبنى على جريمتى ..

لماذا لا يضربنى أبى ؟

ولكنى بدل أن أتخيل أبى يضربنى تخيلت مصطفى ..

تخيلته يرفع يده ويهوى بها على صدغى ، وتخيلته يشدنى

من شعرى ويوقعنى على الأرض ثم يسحب سوطا وينهال به

فوق جسدى حتى يمزق عنى الثوب ..

واسترحت لهذا الخيال .. وجدت فيه ما يلهيني عن
جريمتي . ورفعت يدي — بحركة تلقائية — وغطيت بهما
وجهي كأني أتقى بهما صفعات مصطفى .. وتقلب جسدي
فوق الفراش كأنه يتألم فعلا تحت ضربات السوط ..
ولكن هذا الخيال لم يدم طويلا ..

اكتشفت سريعا أنه مجرد خيال .. فمصطفى — كأبي —
لا يمكن أن يضربني .. انه دائما بسيط رقيق صريح
مهذب ..

وعاد الى عذابي ..

عذاب ضميري ..

وهو عذاب لا يمكن أن ينتهي الى شيء .. لا يمكن أن
يدفعني الى العدول عن جريمتي أو التكفير عنها ..

كنت أعلم انه يجب عليّ أن أستمّر في الجريمة .. وكنت
أعلم ان هذا الخطاب الذي كتبته وقرأه أبي ليس سوى
البداية ، وعليّ بعد ذلك أن أثبت صحته لأبي .. أن أثبت له
أن زوجته تخونه فعلا مع شقيقه ، والا اكتشف كذبي
وحاسبني عليه وخسرتة الى الأبد .. وكان يهون على أي
شيء الا أن يكتشف أبي أنني كاذبة أو أن أخسره ..

وطلع الصباح ..

وكنت لا أزال في فراشي عندما جاء أبي الى غرفتي وهو
لا يزال مرتديا البيجاما .. ودهشت .. فان أبي منذ تزوج لم
يدخل غرفتي في الصباح الباكر .. كان يقوم من نومه ويخرج

من غرفته الى الحمام ، ثم يعود ليرتدى ملابسه ، ولا أراه
الا على مائدة الافطار ..

وانحنى أبى يقبلنى وجلس على حافة الفراش وهو يقول
وبين شفثيه ابتسامة متكسرة :

— صباح الخير يا بنتى .. نمتى كويس امبارح ؟
قلت وأنا أحاول أن أمسح بابتسامتى آثار الأرق عن
وجهى :

— يسعد صباحك يا بابا ..

ثم قمت على ركبتى وألقيت نفسى فوق صدره ،
واحتضنته بذراعى .. وأسندت خدى على خده ، وقلت فى
سذاجة الأطفال :

— أنا باحبك قوى يا بابا ..

قلتها كأنى أعتذر له عن جريمتى ..

ورفع أبى ذراعيه وأحاطنى بهما وضغطني الى صدره ،
ثم أبعدنى عنه برفق ونظر الى وابتسامته الحزينة تطل من
تحت عينين مجهدتين ، وقال :

— تعرفى يا نادية أنا حاسس اننا بعدنا عن بعض ..
فاكره زمان لما كنا عايشين لوحدا .. كنا دايمًا فاهمين بعض ،
ودايمًا بنتكلم مع بعض .. و ..

ونكس رأسه كأنه لن يرفعه أبدا ، واستترد فى صوت
حزين :

— كانت أيام حلوة ينادية .. ماكنش لى الا اتنى ، وما
لك الا أنا ..

وأحسست بفرحة خبيثة ..

أحسست أن أبى عاد الى .. عاد الى وحدى .. ولكنه
عاد حزينا محطما ..

وقلت وأنا أدارى فرحتى الخبيثة :

— أنا طول عمرى حافظل ماليش الا أنت يا بابا ..
وقال وهو يرفع رأسه الى :

— وأنا كمان ينادية .. تأكدى ان ماليش الا أتنى ..
ومهما حصل حنفضل لبعض على طول .. حافظل لك علشان
أسعدك وأهنيكى .. وحاضى بكل حاجة علشان سعادتك
وهناك ..

قلت وأنا أقبله مرة ثانية :

— أنا ماليش الا سعادتك يا بابا ..

وربت أبى على كتفى ، قائلا :

— طيب قومى اغسلى وشك وتعالى نفطر .. لازم
تاكللى كويس أحسن اتنى اليومين دول خاسة ومش عاجبانى ..
قلت ضاحكة :

— أما تفسل وشك انت قبله !

وتحسس أبى وجهه بيده وقال مبتسما :

— صحيح .. ده أنا لسه مادخلتش الحمام .. يظهر
اتعديت منك وبقيت كسلان ..

وقام أبى ليدخل الحمام ..
وقمت وغسلت وجهى وارتديت ثياب الصباح ..
والتقينا جميعا على مائدة الافطار ..
كانت زوجة أبى على غير عادتها صامته حزينة ويبدو أنها
لم تهتم بزيتها نفس الاهتمام ..

وكان أبى وهو جالس بجانب زوجته صامتا هو الآخر ،
معقد الوجه كأنه يكتفم بركانا يكاد ينفجر .. وكان على
— غير عادته — يوليني من الاهتمام أكثر مما يولى زوجته ..
وجلست بينهما صامته أنا الأخرى أنقل عيني بينهما كأنى
أحاول أن أتنبأ من أين ستهب العاصفة ..

واتهيننا من الافطار الصامت ، كأننا شيعنا فقيدا ..

وقام أبى منصرفا الى النادي ..

وقامت طنط صفية وراءه فى تكاسل كأنها تؤدى واجبا

ثقيلا بتوديعه حتى الباب ..

وقمت أنا ، وجلست فى البهو .. وانتظرت طنط صفية

حتى عادت ، وسألتها فى براءة وأنا أحاول أن أعرف ما دار

بينها وبين أبى ليلة أمس :

— بابا مش عاجبنى النهارده .. ماله ؟

وقالت طنط صفيه وهى تسوى مفرشا موضوعا فوق

احدى الموائد :

— والله ما أنا عارفه يانادية .. امبارح بصيت لقيته مرة

واحدة اتغير .. كان قاعد معايا فى أمان الله ، وبعدين قام

دخل جوه ما أعرفش يعمل ايه ورجع مكشر وبوزه طوله
شبرين .. وفضل قاعد لوحده فى الصالة لنص الليل ..
وبعدين دخل الأوده ومانامش ؛ فضل يتقلب .. ويتنهد ..
ويزفر .. وكل ما أقول له مالك ما يردش .. أنا خايفه يكون
عيان بحاجة ومش راضى يقول لى ..

قلت فى براءة وأنا أدعى الجزع :

— طيب ما ننده للدكتور المفتى ..

قالت :

— قتلته ما رضيش .. واتتى عارفه باباكى لما يجب

يسكت ما حدش فى الدنيا يقدر يخليه يتكلم ..

وتهدت كأنها تسلم أمرها لله .. ثم دخلت الى المطبخ

لتحاسب الطباخ ..

وأخذت أنا التليفون ودخلت الى حجرتى وحادثت

مصطفى .

كان حديثا سخيفا لاطعم له .. كنت أحاول أن أفتح معه

بابا لحديث يلهينى عن أفكارى ، ولكنى لم أستطع .. كنت

أضع أذنا على السماعه وأذنى الأخرى تتسمع خطوات زوجة

أبى .. وكنت أحدثه بشفتى وعقلى كله يرسم ويتخيل مايمكن

أن يحدث فى الأيام القليلة القادمة ..

وكان مصطفى يحاول أن يجذبنى الى موضوع أتحمس

له فلا يستطيع .. كان ينكت فلا ألتقط نكته ، وكان يسألنى

فيجدنى بعيدة عن السؤال .. الى أن سألتنى :

— مالك النهارده .. سرحانه فى ايه? ..

قلت فى همس :

— ولا حاجة .. أصل طنط صافى واقفه جنب باب

بوده !

قال وهو يضحك :

— طيب سليملى عليها وفكريها بالعزومة .. والا لسه أمر

الحظر بأنى ما أدخلش بيتكم? ..

ولم أرد عليه ، انما كنت غيظى منه وقلت هامسة :

— أنا حاقتل السكة دلوقت .. وبعدين حاطلبك ..

قال :

— لأ .. أنا نازل دلوقت ..

قلت :

— طيب حاكلمك بعد الضهر .. أوريقوار !

ووضعت الساعة ، ثم التقطت مفرش « الكانافاه »

الذى أطرزه ، وذهبت به الى البهو ..

وكانت طنط صافى تشرف على الخدم ..

وبعد حوالى ساعة مرت من أمامى فى البهو ، وصعدت

الى الدور العلوى كعادتها كل صباح ..

وجلست وحيدة مع أفكارى ..

ولم تمر فترة طويلة واذا بالباب يفتح ويدخل أبى

كالزوبعة ..

ولم أكد أراه حتى عرفت ..

عرفت انه بدأ يراقب زوجته .. فلم تكن من عادته أن يعود
أبدا الى البيت في مثل هذه الساعة ..

ونسى أبى في ثورته أن يحيينى .. وسار في خطى سريعة
عسبية الى داخل البيت ، ثم عاد الى وقال كأنه يصيح :
— فين صفيه !?

وفتحت عيني في خوف ، وقلت ولسانى يتعثر ويتهته ،
كأنى أخفى سرا كبيرا :

— مش عارفه والله . هيه .. هيه .. هيه مش فى أودتها!?
قال فى عنف :

— لا مش فى أودتها . قوليلي راحت فين ؟

وتقدم منى وآمسك بذراعى بقسوة ، واستطرد :

— هيه فين .. قوليلي على كل حاجة ؟

قلت وأنا لا أزال أدعى التتهمة فى كلامى :

— لازم .. لازم خرجت !

قال وهو يهزنى :

— خرجت راحت فين !?

قلت وأنا لازلت أمثل دورى :

— ما أعرفش يا بابا ، أصلى كنت فى أودتى .. اسأل دادا

حليمة .. والا يسكن تكون طنط صافى .. ف .. ف .. فوق !

وترك أبى ذراعى ولم يسأل « حليمة » شيئا .. واندفعت

الزوبعة الى الدور العلوى ..

واندفعت وراءه كأنى جزعة عليه ..

وكان الدور العلوى ساكنا مظلما .. ودخل أبى وأنا وراءه .. فاذا بطنط صفية واقفة فى البهو ترتب الثياب التى عادت من عند الكواء ، وعبده السفرجى فى الحجرة المقابلة يكنسها ..

ووقف أبى ينظر اليها كأنه يحاول أن يسيطر على أعصابه ، وقال فى صوت أقل عنفا :
— فىن أخويا عزيز? ..

ونظرت اليه طنط صفية نظرة جامدة وقالت فى صوت يقطر رطوبة :
— لسه نايم ?

وعاد أبى يقول وهو لا يزال يقاوم ليسيّط على أعصابه :
— واتتى هنا بتعملى ايه ?

ونظرت اليه كأنها تتعجب ، وقالت فى برود :
— زى ما أنت شايف !!
وقال وقد بدأ صوته يرتفع :

— ولما اتتى ترتبى المكوى .. آمال الخدامين بيعملوا ايه?
قالت وهى تنقل عينيها بينى وبينه :

— من امتى الخدامين بيعدوا المكوى .. انت عارف ان عمرى ما أعتد على الخدامين ، وطول عمرى باشكى منهم ..
ثم سكتت قليلا واستطردت :

— انت مالك يا أحمد .. جرى ايه .. ايه اللى تاعبك ?

ورأيت أبى يضغط كفيه كأنه يحاول أن يخنق أعصابه ،
وقال فى هدوء مفتعل :

— ولا حاجة .. ولا حاجة ...

واستدار لينزل ، وقالت له زوجته :

— استنى .. أنا نازلة معاك !.

ونزلنا نحن الثلاثة !

وجلسنا فى البهو دون أن يتكلم أحدنا .. وفجأة قفز أبى

من فوق مقعده ، وقال فى صوت محشرج :

— أنا راجع النادى ..

وقالت طنط صفية وفى عينيها لوعة :

— ماتخليك معنا .. الساعة بقت اتناشر ومعاد الغدا

قرّب ..

وقال أبى وهو يتجه الى الباب :

— ورايا شغل .. أنا كنت جاى علشان أكلم عزيز فى

مسألة .. انما حضرته لسه نايم .. أنا عارف رجالة ايه دول !!

وخرج ..

ولم تقم طنط صفية لتودعه ، انما جلست مكانها

وأسندت رأسها على كفها كأنها تفكر .. ثم قامت الى حجرتها

فى خطوات عصيبة وأغلقت بابها وراءها .. ربما لتبكى ..

وتصورت دموعها .. الدموع التى لم أرها أبدا ..

وأشفقت عليها ساعتها ، ولكن جريمتى كانت أكبر من أن

تهدمها الشفقة ..

كانت الانساعة المجرمة التي تعيش فى صدرى تسيطر
على أعصابى وعلى ذهنى .. وتجعلنى متنبهة يقظة أرقب كل
ما يدور حولى صامته جامدة دون أن أتأثر أو أنهار ..

وعاد أبى بعد ساعات .. عاد متأخرا عن مواعده ..
وعندما قبلته شممت رائحة « البيرة » فى فمه ، ولكنه كان
متمالكا أعصابه ، وكان يبدو كأنه اتخذ قرارا حاسما ،
ووضع خطأ مرسوما يسير عليه ..

واجتمعنا على مائدة الغداء . ومعنا عمى عزيز .. وربما
لم يلحظ أحد مدى النفور الذى استقبله به أبى ، قدر
ملاحظته أنا .

وقال عمى وهو يتخذ مجلسه الى المائدة :

— خير يا أحمد .. صفة قالتلى انك كنت عايزنى ..

والنتف أبى الى زوجته لفته حادة ، كأنه يتهمها بأنها
أفشت سره لأخيه ، وقال فى تهكم :

— لحقت تقول لك !!

ونظرت اليه زوجته فى تعجب .

وقال عمى عزيز وهو يضحك :

— هيّه وراها ايه غير أنها تلحق تصحينى .. وتلحق

تقول لى .. وتلحق تغدينى .. خلاص صفة عملت البيت
قشلاق ، كل حاجة بالثانية والدقيقة .

نظر أبى الى أخيه كأنه يحاول أن يكتشف سره ، ثم

نقل عينيه الى زوجته ثم عاد وتشاغل بالطعام ، وقال دون
أن يرد على كلام أخيه أو على ضحكته :

— على كل حال .. مش عايزك في حاجة .. كنت ناوى
أكلمك عن العزبة انما افكرت ان الحاجات دي ماتهمكش.
وقال عمى :

البركة فيك يا أحمد ..

وقال أبى في مرارة :

— طبعا البركة فيه .. ما أنا بقيت زى حمار السباخ ..
كل حاجة على دماغى .. أنا اللي أشوف لك العزبة ، وأنا اللي
أمسلك حساباتك .. وأنا اللي أتجوزلك علشان تلاقى
واحدة تصحيك من النوم .. و ..

وألقت طنط صفية الشوكة والسكينة فوق الطبق في
صوت مسموع ، وقالت في حدة :

— انت اتجوزتنى يا أحمد علشان أصحى عزيز من
النوم ؟

وجذب أبى أنفاسه بعنف كأنه يستعيد بالله ويستغيث
به ، وقال وهو يحاول أن يخفى صوته :

— مش قصدى و ..

وقاطعته زوجته في حدة :

— ثم انى ما أسمحش لك تقول عنى « واحدة » ،
وتتكلم عنى باللهجة دي .

وقال أبى وهو يضغظ أعصابه :
 — أنا آسف .. معلش يا صفيه استحملينى كمان يومين،
 وكل حاجة حاتروح لحالها !!
 ثم قال هامسا كأنه يحدث نفسه :
 — باذن الله ..
 وسكتت طنط صفيه ..
 وقال عمى فى هدوء :
 — جرى ايه يا أحمد .. فيه ايه .. مالك !?
 وقال أبى وهو لا ينظر اليه :
 — ولا حاجة ..
 وعاد عمى يقول :
 — ما تقول يا أحمد .. يمكن فيه حاجة أقدر أعملها ..
 ورفع أبى عينيه اليه وقال :
 — انت عمرك ما تعرف تعمل حاجة .. غير الحاجات
 اللى بتعملها دلوقت !
 وقال عمى وهو يتمالك أعصابه :
 — فعلا .. انما انت اللى عايز كده .. انت اللى كنت دايما
 عايز تمسك كل حاجة بنفسك .. واذا كنت أنا ما باعملش
 حاجة فلانى عايز أريحك !!
 وعاد أبى يتشاغل بطعامه وهو يقول :
 — على كل حال سيبنا من الموضوع ده دلوقت .
 ومرت فترة صمت طويلة ..

كانت المرة الأولى التى يدور فيها مثل هذا النقاش بين
أبى وعمى . والمرة الأولى التى تتجمع فيها مثل هذه السحب
السوداء فوق مائدة الطعام .. وأحسست أن البيت كله
يهتز .. وانى أهتز معه .. أحسست أن أعدته ستسقط ،
وأنها ستسقط فوق رأسى . ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ..
ماذا أستطيع !?

وسمعت زوجة أبى تقول وقد كدنا فنتهى من الطعام :
— احنا معزومين النهارده على العشا فى بيت خالى ،
تجب نروح والا نعتذر لهم ؟

ونظرت إليها ، كانت تبسّم ابتسامة ضعيفة كأنها تحاول
أن تدافع بها عن سعادتها ، وكانت فى عينيها حيرة وتردد كأنها
لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول .. لقد بدأت الشخصية
القوية الجذابة تنهار .. وتنهار أمامى ، وأمام جريمتى !!
وقال أبى :

— نروح .. ما نروحش ليه .. حصل ايه علشان
ما نروحش !?

وقالت طنط صافية فى ضعف :

— ولا حاجة ، بس بأسأل ..

وعاد أبى بعد قليل يقول وهو يقطع تفاحة كأنه يذبها :

— وانت يا عزيز .. مش حاتيجى معانا !!?

وقال عمى وهو يحاول أن يستعيد مرجه :

— انت بتعزمنى ، والا بتطردنى ؟

وقال أبى وهو لا يزال يذبح التفاحة :
— لا أبدا .. بس أصلك زمان ما كنتش بتحب العزائم
دى ، انما شايفك اليومين دول بتحبها ..
وقال عمى فى براءة وهو ينظر الى زوجة أبى فى تقدير :
— البركة فى صفة .. هيه اللى خلتنى أحب كل حاجة
حتى العزائم السخيفة ..
ورفع أبى عينيه اليه بغتة ، كأنه يعجب لجرأته . ثم عاد
يذبح فى التفاحة !!

* * *

وذهبوا فى المساء الى بيت خال طنط صفة ..
واعترضت عن الذهاب معهم بحجة ان ليس هناك فتيات
فى مثل عمى .. والواقع انى كنت أريد أن أستريح من
نفسى .. أستريح من هذه الانسانة المجرمة التى تسيطر على
وتجعلنى دائما يقظة متنبهة لكل كلمة وكل لفتة تدور حولى.
ولكنى عندما أصبحت وحيدة لم أسترح .. عاد الى
عذابى .. وأخذت أدور بين الحجرات كأنى أفر من صور
مفزعة ترسم أمامى فوق الجدران ..
أن أقدم على مغامرة طائشة تنسينى نفسى ..
ولم يكن أمامى الا مصطفى لألجأ اليه .. الى المخدر
الذى تعودته .. ولكنى فى هذا المساء لم تكن تكفينى الجرعة
التي تعودتها ، لم يكن يكفينى أن أذهب اليه وأستمع الى
اسطواناته ، وآرائه الشاذة ، وأهب جسدى للمساته .. لم

يكن يكفينى حتى أن أبيت عنده — كما فعلت مرة — كنت
أريد جرعة أكبر .. مغامرة أشد عنفا وأكثر إثارة .
وكنت وحدى فى البيت ..

ورفعت سماعة التليفون واتصلت بمصطفى فلم أجده
فى بيته ، فأخذت أتصل به فى كل الأمكنة التى تعود أن يتردد
عليها حتى وجدته فى « بار » سميراميس .. وقلت له كأنى
أمره :

— أنا عايزه أشوفك دلوقت ..
قال كأنه يعتذر :

— بس أنا معايا ناس ..
قلت فى اصرار :

— ما ليش دعوة .. سيبهم وتعال ..
قال وهو لا يزال يحاول أن يعتذر :
— بس ده أنا اللى عازم ..
قلت فى حدة وكأنى أعنى ما أقول :

— اسمع يامصطفى .. اذا ما كنتش حاشوفك دلوقت
مش حاشوفك أبدا .
قال فى حيرة :

— ليه بس .. ايه اللى حصل ؟
قلت فى عصبية :

— مالكش دعوة .. لازم أشوفك ؟
قال فى استسلام :

— بس مش حاتاخر .. نصف ساعة وأرجع تانى ..

قلت وأنا أكذب عليه :

— حاضر ..

قال :

— بعد خمس دقائق حاكون هناك .. فى الشقة !

قلت وكأنى أفاجئه :

— لأ .. تيجى هنا !!

قال وهو لا يفهم :

— هنا فىن ؟

قلت فى ثبات :

— عندى فى البيت ..

قال كأنه يصرخ :

— اتى مجنونة .. أجيلك البيت ازاي !!?

قلت :

— ما فىش حد .. أنا لوحدى ..

قال :

— ولو .. افرضى حد جه !!?

قلت :

— ما فىش حد حايجى .. كلهم معزومين بره ومش

حايجوا قبل الساعة اتناشر ..

قال وكأنه لا يصدق أذنيه :

— افرضى ان بابا والا طنطك والا عمك .. واحد منهم
جاله مغص ورجع البيت بدرى نعمل ايه احنا !!!
قلت فى منتهى الهدوء :
— ما أفرضش .. كلهم صحتهم كويسة .. انت حتيجى
والا لأ !!!

قال وهو يحاول أن يقنعنى :
— واتتى ماتجيش ليه بس .. ما دام لوحدهك ، البسى
هدومك وخدى تاكسى ، وحتلاقينى مستنيكى فى الشقة !
قلت فى عناد :
— لأ .. ما أقدرش !!
قال :

— يا ست الستات .. يانادية .. ياحلوة .. ياروح قلبى ..
خليكى عاقلة .. أنا بقالى عشرين سنة من يوم ما كنت تلميذ
فى السعيدية وأنا مانطتش أسوار .. ومش مستعد النهارده
أنظ أى سور .. خلاص أنا كبرت على الحاجات دى ..
قلت كأنى أثير عواطفه :

— انت مش كنت بتقول عايز تشوف أودتى علشان
تتصورنى فى كل حته أكون فيها . أهو أنا حاوريك أودتى !!
قال وكأنه يبتسم :

— بلاش النهارده وحياتى عندك .. ابقى أوصنيلى
الأوده حته حته ، والا هاتى مصوراتى يصور كل ركن فيها ،
وهاتى الصور معاكى ..

قلت وأنا أكاد أياس :

— طيب خلاص .. على كيفك .. بس تانى مرة ماتطلبش

انك تشوفنى !

وسكت مصطنى قليلا كأن عدوى المغامرة قد انتقلت

منى اليه ، وبدأ يتصورها ويتلذذ بها .. ثم قال وكأنه يتحدث

بصوت خياله :

— واذا جيت حاخش ازاي !?

قلت بسرعة وأنا فرحة :

— حتلاقى باب الجنيئة مفتوح .. وحتلاقينى واقفة فى

الفراندة ؟

قال فى تردد :

— طيب بعد عشر دقائق حاكون عندك ..

قلت وأنا أتعجله :

— بعد عشر دقائق بالضبط .. بس اسمع ... ماتركنش

العريئة قدام الباب ، اركنها فى الشارع اللى جنب البيت .

قال وكأنه يتنهد :

— حاضر ..

كانت الساعة قد بلغت التاسعة .. وكان جميع الخدم قد

انصرفوا .. لم يكن فى البيت الا « دادا حليلة » وقد دخلت

الى غرفتها ونامت ، وعم ادريس البواب وهو راجل عجوز

مضى عليه فى خدمتنا أكثر من خمسة عشر عاما .

وبدأت أرتب كل شىء ..

أردت أولاً أن أتأكد من أن عم ادريس قد نام ، فخرجت الى الشرفة وناديته عدة مرات .. فاذا به يقظان يرد على ندائى .. وفكرت بسرعة ، وقلت له :

— اسمع يا عم ادريس .. أوصل لغاية المكوجى وقول له يجيب الفستان الأبيض بتاعى حالا ..

وكان الكواء فى ميدان الجلاء ، ولم يكن عم ادريس بخطاه البطيئة يستطيع أن يذهب اليه ويعود فى أقل من ساعة . وقال عم ادريس فى دهشة يخالطها رجاء :

— زمانه قفل دلوقت ياست هانم .

قلت فى لهجة آمرة لا ترحم :

— لأ .. احنا فوتنا عليه مرة الساعة حذاشر كان فاتح .. معلش يا عم ادريس . أصل عبده روح ، وأنا عايزه الفستان ضرورى دلوقت !

وتتمم عم ادريس ببعض كلمات لم أسمعها ، ثم ألقى كوفيته حول عنقه كأنه يصفعنى بها ..

ووقفت أراقبه حتى خرج من البيت وسار فى طريقه الى الكواء ..

ودخلت الى حجرتى ، وخلعت ثوبى وارترديت قميص نوم من الحرير الأبيض وارترديت فوقه « روب ديشامبر » من اللون الوردى الفاتح ، ثم حلت شعرى من فوق رأسى وأطلقت حرا خلف ظهرى كشلال من الذهب ، وتعطرت

بقطرات من عطر « فام » الذى يحبه مصطفى ، ثم هرعت الى
غرفة « دادا حليلة » وأدرت المفتاح فى القفل حتى أضمن
انها لن تخرج منها الا اذا فتحت لها ..

ثم خرجت الى الحديقة وفتحت بابها وهو باب يفتح فى
صوت مزعج ..

ثم عدت ووقفت فى أعلى السلم الذى يؤدى الى داخل
البيت ..

وبعد دقائق لمحت سيارة مصطفى تمر أمام البيت .. ونظر
الى مصطفى .. ثم قاد سيارته الى الشارع الجانبى ..

وعاد بعد لحظات يسير فى تردد وهو يتلفت حوله كأنه
لص ، ثم دخل من باب الحديقة ..

واشتد وجيب قلبى . أحسست كأنى طائرة فى الهواء فى
طريقي الى هاوية سحيقة ..

وأشرت اليه بيد مرتعشة ، فأخذ يصعد السلم على أطراف
أصابعه .. ثم وضع يده فى يدي وبين شفتيه ابتسامة خائفة ،
ووضعت أصبعى فوق شفتي أحذره من الكلام ، ودخلنا
البيت .

وأغلقت الباب وراءنا فى حذر ..

كان كل شىء فى مصطفى نائرا ، أصابعه باردة ، ووجهه
محتقنا ، وعيناه لا تستقران ، وضربات قلبه تكاد تسمعها من
على بعد ، وصوته يهمس كأنه حشر فى حلقه الى الأبد ..
ورغم ذلك فقد كان يحاول أن يبدو ثابتا جريئا .. كأنه ضابط

قديم أحيل على المعاش ، ثم وجد نفسه فجأة في ميدان القتال !!

وأخذ ينقل عينيه في أرجاء البهو ، وبين قطع الأثاث كأنه لا يبالي ، وكأنه تعود مثل هذه المغامرات ..
ثم التفت الى ، وقال هامسا كأن شجاعته بدأت تتخلى عنه وكأنه يشكو الى :

— تعرفى انى اضطريت أشرب اتنين ويسكى علشان أقدر آجى ..
قلت وأنا أنظر اليه مشجعة وأحاول أن أقرب منه أنفاسى :

— وأنا كمان .. قلبى فى رجليه !!

قال كأنه يريد أن ينتهى :

— فین أودتك اللى عايزه توربها لى ؟

قلت وأنا أحاول أن أثير غضبه :

— لا .. مش حاوريها لك ..

وهمس :

— ليه ؟

— كده ..

— ايه اللى كده ده .. مش عايزه توربها لى ليه .. قوليلى ؟

لقد غضب مصطفى .. ثار .. وكانت المرة الأولى التى

أراه فيها غاضبا ثائرا ، ولم تكن حجرتى هى السبب ، بل

كانت المغامرة هى التى أتلقت أعصابه ..

وأردت أن أرى مدى غضبه ، فقلت في دلال :

— لأ .. مش حاقول لك ..

وقبض على ذراعى فى قسوة حتى تألمت ، وقال وقد

ارتفع همسه :

— لازم أعرف ليه مش عايزانى أدخل أودتك .. لازم

مخبية فيها حاجة مش عايزانى أشوفها ..

وخفت أن يرتفع صوته ، وأن يشتد ضغطه على ذراعى

حتى أصرخ ، فقلت فى استسلام :

— أصلها مش متوضبة ، كل حاجة فيها منكشه .. ومش

عايزاك تشوفها وهيه بالشكل ده !!

وابتسم مصطفى ، وأرخى قبضته عن ذراعى ، وعاد

بهمس :

— أمال جبتنى هنا ليه ؟

قلت وأنا ألتصق به :

— أصلك كنت واحشنى . وما كنتش أقدر أنزل !

ونظر الى مصطفى كأنه ينظر الى من السماء ، وضمنى

اليه فى عنف وسقط فوق شفتى ..

وكانت قبلته من نوع آخر لم أعوده منه .. كانت شفتاه

ترتعشان بين شفتى كأنهما محمومتان .. وكانت وجنتاه

ملتهبتين ، وأنفاسه متلاحقة ، وكانت أصابعه تضغط على

جنبى فى جنون حتى تكاد تحفر فى لحمى ثقبوا .

وهمت في هذا العنف ..
ثم أفقت مرة واحدة على صوت طرقات على باب ..
وأفاق مصطفى أيضا وقال في وجل هامس :
— ايه ده !?
قلت وأنا أحاول أن أطمئنه :
— دى دادا حليلة ..
قال وعيناه لا تستقران :
— مالها .. عايزه ايه .. هيه فين !?
قلت في هدوء :
— ماتخافش .. دى فى أودتها .. ولازم عايزه تروح
الحمام ، أصلى قافله الباب عليها ..
قال وهو يحاول أن يتمالك نفسه :
— وأنا أعمل ايه ؟
قلت كأنى أقود معركة ، أو عصابة :
— تعال .. أقعد هنا ..
وأدخلته حجرة الطعام .. وانتظرت الى أن تكرر الطرقة
على الباب ، ثم ذهبت وفتحت لدادا حليلة وأنا أقول لها
وبين شفقتى ضحكة كبيرة :
— ايه اللي قتل الباب عليكى ؟
قالت وهى تنفخ فى عب ثوبها :
— بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

أنا عارفه ياست نادية .. انتهى لى ان العفاريت جسونى
جوه .. والا أنا مت ومش عارفه أخرج من تربتى ..
وضحكت قائلة :

— ولا عفاريت ولا حاجة .. لازم حد قفل الباب غلط !
وتركتها تدخل الحمام ..
ثم عدت لأطمئن على مصطفى وهو واقف فى ظلام حجرة
الطعام وأشرت اليه من بعيد بأن يصمت ويصبر ..
وخرجت ووقفت فى البهو بحيث ترانى « دادا حليلة »
بعد خروجها من الحمام .. وعندما خرجت قالت لى وهى فى
آخر المر :

— مش تنامى بأه ياست نادية !

قلت وأنا واقفه فى البهو :

— كمان شوية يادادا .. بعد ما أخلص المجلة اللى فى

ايدى !

ودخلت حجرتها وأوصدت بابها ..

ولم أحاول أن أقفله بالمفتاح مرة ثانية انما أقفلت الباب
الذى يفصل بين حجرات النوم وبين البهو والصالون وحجرة
الطعام ، ثم عدت لمصطفى ، وهمس بمجرد أن أصبحت
بجانبه :

— كويس كده .. افرضى كانت شافتنى ..

قلت بلا مبالاة :

— ولا حاجة .. ما تقدرش تقول حاجة ..

قال وكأنه ينتفض :

— وافرضى حدجه دلوقت ؟

قلت مبتسمة كأنى أهنىء نفسى بذكائى :

— أنزلك من باب المطبخ !!

ولم ينتظر مصطفى كلمة أخرى . وجذبنى اليه فى قسوة
ولهفة كأنه يريد أن ينتهى .. أن يخلص نفسه من هذا الموقف
ويخرج الى عالم الأمان ..

وعادت شفته المرتعشان الى شفتى .. ومد أصابعه يريد
أن يفك أزرار « الروب ديشامبر » فقاومته .. كنت أريد أن
أراه مرة ثانية غاضبا نائرا ..

ولم يحتمل مقاومتى .. ورفع شفتيه عن شفتى ، وبرقت
فى عينيه نظرة مخيفة ، ومد كلتا يديه ومزق عنى « الروب
ديشامبر » .. كأنه المجنون !!!

ثم قبض على شعرى بكفه وجذبنى بعنف وقسوة
وأوقعنى على الأرض
.....

وخرج مصطفى .. واختفى بسرعة من أمام البيت كأنه
يهرب من شيطان يلاحقه ..

وخرجت خلفه لأغلق باب الحديقة ذا الصوت المزعج ..

ثم عدت الى غرفتى وخلعت ثوبى الممزق ، وأخفيته فى
دولابى بين ثيابى كأنى أخفى آثار جريمتى ..

ثم جلست فوق سريري أستعيد كل ما حدث ، وأبتسم
ابتسامة مسكينة ، كأنى أتعجب من نفسى .. من هذه
الانسانة التى هى أنا ..

وسمعت جرس الباب الخارجى ..

وقمت أفتح .. وقال لى عم ادريس البواب وهو يلهث :

— المكوجى مش فاتح ياست هانم ، أنا قتلتك كده من

الأول . ماصدقتيش .

قلت وكأنى أبكى :

— معلش يا عم ادريس .. حقك علىّ .. متشكرة !

وأغلقت الباب ..



لم أدر ماذا حدث عندما ذهب أبى وزوجته وعمى الى
بيت خال طنط صافى ..

ربما اكتشف أبى هناك دليلا جديدا على ان زوجته
تخونه مع أخيه .. ربما ازداد اقتناعا بما قرأه فى الخطاب
الذى ادعيت انى كتبه لأمى .. ولكنى لم أعرف شيئا ..

واستقبلنى أبى فى الصباح التالى بوجه صامت .. ليس
عابسا ولا سعيدا .. انما وجه صامت عن كل تعبير ، كأن
روحه قد تعبت منه .. فانزوت فى ركن بعيد من جسده ،
وتركت بقية الجسد فراغا .. بلا روح !

ثم فوجئت به يعلن انه مسافر الى العزبة .. ثم دهشت
حتى كادت الدهشة تخلع قلبى عندما سمعته يطلب من
زوجته أن تستعد للسفر معه ! !

كانت المرة الأولى التى يطلب فيها من زوجته ان تسافر
معه الى العزبة ، بل انى أنا نفسى لم أسافر الى العزبة طول
حياتى الا مرتين أو ثلاثا ، رغم انها عزبة قريبة من مصر
لا تبعد عن محطة الجيزة كثيرا ..

كان أبى دائما حريصا على ألا يتردد أحد منا على
العزبة ، وكانت حجته ان البيت هناك ليس مستعدا ، وليس

في حالة لائقة لاستقبال السيدات أو الضيوف .. فلماذا يريد
من زوجته ان تصحبه اليوم ؟
لماذا ؟

هل يريد ان يناقشها هناك في أمر حياتها له ؟
وهل تستطيع ان تقنعه ببراءتها ، فيكتشف كذبي في
الخطاب الذي كتبه ؟

أم هل ينوى ان يبقى زوجته في العزبة لتعيش هناك
بعيدا عن أخيه ، وعن شبهة حياتها ؟

طافت برأسي عشرات الأسئلة ، وتخيلت عشرات الصور ..
ثم أحسست احساسا قويا بأني في حاجة للدفاع عن نفسي ..
الدفاع عن الجريمة الكبرى التي دبرتها .. الدفاع عنها قبل
أن يكتشفها أبي ويكتشف معها ان ابنته البريئة الظاهرة
ليست سوى مجرمة ..

وانتظرت منه أن يدعوني للسفر الى العزبة ، ولكنه لم
يفعل ، انما نظر الى نظرة فارغة ليس فيها شيء ، وقال في
صوت كسول كأنه لا يريد الكلام :

— احنا مش حنغيب يانادية .. يومين بالكثير !
ولم أرد عليه ، انما فتحت فمي كأنى أقول شيئا أو كأنى
أبتسم ثم عدت وأغلقتة ..

وتناول أبى افطارا سريعا وهو واقف على قدميه ..
وشغلت طنط صفة نفسها باعداد حقائبها في استسلام ..

وكانها قررت أن تترك أمرها لله يفعل به ما يشاء .. ثم تبعت
أبى دون أن تتناول افطارها ، وخرجا معا يحوطهما صمت
كثيف ثقيل كقطع الضباب الأسود .. خرجا وأنا ذاهلة حتى
انى لم أحس بأبى وهو يقبلنى قبلة باردة سريعة ، ولا بزوجة
أبى وهى تنظر الى فى يأس كأنها تستجير بى .. ثم تقول :
— أنا وصيت الطباخ يعمل كل حاجة ..

كنت ذاهلة أفكر فيما يجب أن أفعله !! ..
ماذا أفعل حتى أضمن أن هذا السفر المفاجيء لن يفسد

خطتى ؟

وبدأ ذهنى ينشط .. بدأت أشعر أن فى رأسى شيئا
أسود يتحرك ويزحف كالحية السامة عندما تشعر بالدفء !
واكتشفت أن الوسيلة الوحيدة أمامى هى أن ألاحق
أبى بالشك فى زوجته ، أن أقتل الوسواس المرة الى العزبة ..
ليعيش فيها هناك ، كما كان يعيش فيها هنا ..

وارتديت ثوبا للخروج وصعدت الى الدور العلوى
حيث يقيم عمى ، وأيقظته من النوم .. ألححت عليه كثيرا
حتى فتح عينيه ونظر الى ، فألقيت نفسى بين أحضاناه ،
وأخذت أقبله وأنا أقول له :

— أنا مش طنط صافى أنا نادية .. واذا كانت طنط

صافى ما تقدرش عليك أنا أقدر !

وقال عمى وهو يفرك عينيه بأصابعه :

— ايه .. جرى ايه .. هيه فين صافية !

قلت وبين شفتى ابتسامة كبيرة :

—سافرت .. سافرت هيّه وبابا العزبة ..

قال وهو يتشاءب :

— هيّه الساعة كام ؟

قلت :

— عشرة ونص !!

ومرة واحدة أغمض عمى عينيه وانقلب على جنبه وجذب

الملاءة فوق وجهه وهو يصيح :

— بتصحينى الساعة عشرة ونص .. اتى عايزانى

أموت !!

قلت وأنا أجدب الملاءة عن وجهه كأنى أنهه لأمر خطير :

— باقول لك طنط صافى سافرت !!

واعتدل جالسا فوق الفراش ، وقال كأنه تنبه فعلا

لأمر خطير :

— آه صحيح .. هيّه سافرت ليه .. ايه اللى يوديها

العزبة ؟ !!

قلت فى سذاجة :

— أنا عارفة يا أونكل ؟

وسكت قليلا كأنه يفكر ، ثم قال :

— ده أبوكى عمره ما خد حد معاه العزبة .. كان عاملها

زى المعبد المقدس .. ما حدش يدخلها الا الكاهن الأعظم
اللى هو حضرته !! ..

وكان يتكلم بمرارة .. مرارة لم أتعودها منه وهو
يتحدث عن أبى الا منذ الأمس ، وقلت وأنا أهز كتفى كأنى
لا أبالى :

— أهو النهارده خد معاه طنط صافى .. حتى ما قليش
تعالى معانا ..
قال وكأنه حائر :

— فيه حاجة فى دماغ أبوكى اليومين دول مش عارف
هيه ايه .. ربنا يستر .. أصل أبوكى ورث كل جنان الأتراك
اللى كان عند أمى الله يرحمها .. يفضل ساكت .. ساكت ..
ومرة واحدة تطلع فى دماغه حاجة تودى فى داهية !
قلت ضاحكة :

— ما أحسن من بابا الا أونكل !!

وضحك عمى ضحكة ليس لها معنى وعدت أقول له :
— والنبي يا أونكل أنا عايزاك تضرب تليفون فى العزبة
وتقول لطنط صافى توصى أم عطية تعملى فطير مشلتت ..
أحسن نفسى فيه موت .. ونسيت أقول لها قبل ماتسافر ..
قال وهو ساهم كأنه يبحث فى مشكلة :

— ومصحيانى علشان كده .. ماتضربى لها انت !?

قلت وأنا أقبله مرة ثانية :

— أصل زمانهم لسه ما وصلوش العزبة .. وأنا مضطرة

أنزل دلوقت علشان عندي ميعاد مع الخياطة .. والنبي
تضربلها أنت يا أونكل !

قال وهو لا يزال ساهما :

— حاضر ..

قلت وأنا أبتم له :

— ماتساش !!

وعاد يقول في استسلام :

— حاضر ..

وقبلته قبله أخرى ، وخرجت .. وذهبت الى شارع قصر
النيل وقضيت ساعة أتجول بين الحوانيت ، وأنا لا أرى
شيئا في نوافذها الا صوراً من خيالي المريض .. ثم قضيت
ساعة أخرى عند « ريمير » الحلاق ، ووضعت رأسي تحت
« السشوار » وخيل الى اني سأطلب منه — من الحلاق —
أن يرفع درجة حرارة مدفأة تجفيف الشعر حتى ينصهر
رأسي ويذوب ما فيه ويحترق معه خيالي ..
وعدت الى البيت ..

واتنظرت عمي حتى نزل ، وجلسنا على مائدة الغداء ،
وقلت له وأنا أنظر اليه :

— كلمت طنط صافي !؟

قال في مرارة :

— أيوه ياستي كلمتها ..

وسكت قليلا ، ثم استطرد ، وقد ارتفع صوته :

— أنا متأكد ان أبوكى جرى له حاجة .. لازم اتجنن ..
أقول له ادينى صفة أكلها .. يقوللى : عايزها ليه ؟ أقول له :
نادية كانت عايزاها علشان تقول لها تجيب معاها فطير
مشلتت .. يقول لى : بايخة ياسى عزيز .. انت فاكر انك انت
لوحدك اللى نبيه ..

وسكت عمى كأنه يتعجب ، ثم استطرد وهو يضرب
المائدة بيده :

— بأه ده مش مجنون .. ده مجنون ونص ..
قلت فى هدوء :

— وكلمتها ؟

قال وهو يهز رأسه :

— لا ياستى .. أبوكى مريضيش يخلينى أكلها .. قال
لى انها مشغولة فى الجنية .. بأه صفيه تفهم حاجة فى
الجناين .. والا لحقت تشوف الجنية .. باقول لك مجنون ..
مجنون جدا ..

قلت كأنى ألومه :

— حرام عليك يا أونكل .. ما تقولش على بابا كده ..
مين عارف ايه اللى شاغله ؟

قال فى حدة :

— وهو مش حرام عليه يعمل فينا كده ..؟

وسكت فترة متشاغلة بتناول طعامى ثم عدت أقول :

— أنا خايفة على بابا قوى اليومين دول يا أونكل ..

قال وهو يتهد :

— ربنا يستر ا

وسكت فترة أخرى ثم عدت أقول :

— ايه رأيك لو قمنا رحنا العزبة دلوقت ؟..

وصاح عمى :

— ايه .. انت مجنونة .. عايزه يضربنا بالرصاص ..

قلت فى حماس :

— مهما كان .. لازم تكون جنبه ..

قال :

— اتفضلى روحى اتنى لوحدك ..

قلت وكأنى استعطفه :

— انت أخوه يا أونكل .. ده مالوش حد غيرك .. لا أنا

ولا طنط صافى نعرف نفهمه ولا نكلمه .. انت اللى تعرف ..

وهدا عمى وقال بعد تردد :

— صحيح انه أخويا .. انما أنا عمرى ما شفته

بالشكل ده !

قلت :

— علشان كده لازم تكون جنبه .. مين عارف عنده

ايه ولا ييفكر فى ايه ، والا ناوى يعمل ايه ..

وسكت عمى ، واستطردت أقول مستعطفة :

— والنبي يا عمى .. علشان خاطرى أنا مش حايجبلى

نوم ولا حيهدا لى بال طول ما أنا مشغوله على بابا بالشكل

ده .. غلشان خاطرى يا عمى .. وحياتى عندك ورحمة ستى..
قوم نروح العزبه ..

ولم يرد عمى ، انما أطلت من عينيه نظرات مترددة ..
وارتعشت شفتاه كأنه يقاوم عاطفته نحو أخيه ..
وعدت أقول قبل أن ينتهى الى قرار :

— يعنى تسمح لى آخذ تاكسى وأسافر لوحدى
العزبة ؟ !

وألقى عمى النسيطة من يده فى عنف كأنه يضرب بها
المائدة ، ثم هب من على مقعده وهو يقول :
— قومى يا ستى نروح العزبة .. أما نشوف الراجل ده
جرى له ايه !!

وقمت فورا وأعددت حقيبة صغيرة وضعت فيها ملابس
النوم ولوازم التواليت ، وصعد عمى الى الدور العلوى
وعاد يحمل حقيبة أخرى صغيرة .. ثم ركبنا السيارة ، واتجهنا
الى العزبة ..

ولم يتحدث أحدنا طوال الطريق ..
كان كل منا مشغولا عن الآخر بأفكاره ..

كنت ساعتها أعانى صراعا عنيفا بين الشخصيتين اللتين
تعيشان بين جنبى .. شخصية الانسانة التى تحس الجريمة
وتتعذب لها حتى يكاد العذاب يمزقها .. وشخصية الانسانة
الأخرى التى ترتكب الجريمة فى هدوء وبرود ، وأعصاب

ثابتة دون أن ترحم ودون أن تتأثر أو يهتز لها رمش .. هذا الصراع الذى عانىته .. وكنت ضحيته طول حياتى ..

وكان عمى يقود السيارة ووجهه مكفهر وعيناه حائرتان تائهتان وكأنه لا ينظر بهما الى الطريق ، انما ينظر الى ظلام يزحف عليه ولا يتبين من خلاله شيئا وكأنه يسائل نفسه : لماذا يزحف الظلام والشمس مشرقة !
ووصلنا الى العزبة ..

والفتت أبناء الفلاحين حول السيارة حتى اضطر عمى أن يضغط على « الكلاكس » عدة مرات ليفسح الطريق ..
ودخلنا بالسيارة الى الحديقة ، ووقفنا أمام البيت الكبير القديم الذى سقط الطلاء عن معظم جدرانها ، فأصبحت واجهته كوجه الغربال الضخم الذى يغربل الأحداث ..
أحداث عائلتنا !

ولمحت أبى يخرج مهرولا على صوت الكلاكس ، الى الشرفة الكبيرة التى تتقدم البيت ، ثم لا يكاد يرى السيارة ومن فيها حتى تتسع عيناه كأنه يشهق ثم يقف مشدود القامة ويدها فى خاصرتيه ..
وخرجنا من السيارة ..

وتقدمنا أنا وعمى فصعدنا السلم ، وبين شفتى كل منا ابتسامة مزورة ، وواجهنا أبى بنظرات غاضبة ثابتة يكاد ينطلق منها شرار النار .. وظل مسلطا علينا هذه النظرات حتى وقفنا فى مواجهته ..

ولم يقبلنى كمادته ، انما حول نظراته الغاضبة كلها الى
عمى وخصه بها .. ولم يمد يده لمصافحته ، بل ظل واقفا
مشدود القامة ويداه في خاصرتيه ، وقال بصوت أجش كأنه
ينبعث من فوهة بركان :

— جيت ليه .. ايه اللى جابك !?

ونظر عمى الى ، وبين شفقيه ابتسامة ساخرة كأنه يقول
لى : « مش قلت لك » ثم عاد والتفت الى أبى وقال وهو
يحاول أن يكون هادئا :

— جيت أطمئن عليك !!

وقال أبى وهو لا يزال واقفا كالصخرة :

— متأكد انك جاي تظمن على أنا !!

ولم يلتقط عمى ما فى كلام أبى من معنى يشير اليه ،
وقال فى اخلاص :

— أنا عايز أتكلم معاك يا أخويا .. انت بالشكل ده

تاعبنا كلنا .. على الأقل عايز أعرف ايه اللى مضايقتك ..

وقال أبى وهو يبتسم فى مرارة صفراء :

— أنا آسف .. آسف جدا اللى تعبتكم .. ماياش حق ..

أتعبتكم ازاي .. ودى تيجى .. واحد حمار زيبى مش من حقه

يتعب حد .. من حق الناس كلها تركبه من غير ما يتكلم

ولا حتى ينهق !

وقال عمى وهو ينظر الى أبى كأنه يفحص مجنوننا :

— ايه الكلام اللى بتقوله ده يا أحمد !?

وارتفع صوت أبى قائلا :

— أنا عايز أعرف انت جاي ليه هنا دلوقت .. اشمعنى النهارده بس اللي فكرت تيجى العزبة .. بقالك عشرين سنة ماخطتهاش ..

وأحسست أن أبى وهو يتكلم يكاد يمد يديه ويخنق أخاه ، ورأيت وجهه كما رأيته عندما قرأ خطابى المزور .. وجهها غريبا مخيفا .. شفتاه مزمومتان كأنهما اختفتا من وجهه ، وطاقتا أنه منتوحتان كأنهما تنفثان لها ، وعيناه جاحظتان كأن يد الحقد والغل تضغط على عنقه ، وحاجباه معقودان مشعثان كأن لحم وجهه يكاد يسقط من فوق عظامه .. كان فى هذه اللحظة مجنونا خطيرا يستطيع أن يفعل أى شىء ..

ووجدت نفسى أقول كأنى أستغيث :

— احنا جينا يا بابا علشان كنا خايفين عليك .. طنط صافى قالت انك عيان ..

وصرخ أبى فى وجهى ، ربما لأول مرة فى حياته :

— اسكتى اتى .. مالكيش دعوة بالموضوع ده !

ثم استطرد بعد فترة صمت :

— صفية قالت انى عيان .. طبعا لازم أكون عيان ..

المغفل لما يفتح عينيه يبقى لازم يكون عيان ..

وقال عمى وهو فى حيرة :

— أنا مش فاهم حاجة يا أحمد .. ايه الكلام اللي بتقوله ده ؟

قال أبى وهو لا يزال يسخر سخرية صفراء :

— بكره تفهم .. بكره تفهم ان أخوك مش مغفل !!

وفى هذه اللحظة جاءت الى الشرفة أم عطية .. الفلاحة العجوز التى تركها جدى ضمن ارثه ، جاءت تهزول ووقفت تنظر الى فى دهشة ، ثم قالت فى فرحة ساذجة :

— ست نادية .. يا ألف نهار أبيض .. نورت العزبة وحواليها .

ثم وضعت يدها فوق أعلى فمها .. وأطلقت زغرودة ضعيفة على قدر ما تساعدها أنفاسها ، وعادت تقول :

— ده فرحنا وعيدنا ياست نادية .. يا ألف نهار أبيض .. وحاولت أن تحتضنى فابتعدت عنها خطوة ، وألقيت ييدى فى يدها الجافة المحرشفة ، ثم حاولت أن أسحبها منها بسرعة ، ولكنها قبضت عليها وانحنت قبلها ..

وصرخ فيها أبى :

— ياللا ياوليه من هنا .. مش ناقص الا دوشتك ا

— ماتسيينا يا أحمد بيه نفرح بعروستنا ، ماشاء الله .. دى صورة من الست الكبيرة الله يرحمها .. فين أيامك ياست « جلسن » ..

وقلت فى برود :

— ازيك يا أم عطية .. وحشتيني ..

وقالت وهي تقبلني بعينيها في اعجاب وتقديس :

— ما يوحشكيش غالى ياست الهوانم .. والنبي لأنا

فاتحة قزازة شربات أحمر !

وعاد أبي يقاطعها :

— كفايه بأه ياويله .. انجری من هنا ..

قالت كأنها تلومه :

— يوه .. انت مالك متغير كده ياسيدى أحمد ييه ..

ما تصلى على النبي وتروق نفسك ..

واستدارت تقبل يد عمى عزيز ثم همت لتتصرف ،

ولاحقها أبي قائلاً :

— الهانم فين ؟

قالت وهي في طريقها :

— باينها في أودة المرحومة !

وأمرها والدى :

— اندهى لها ..

وسار والدى الى داخل البيت وسرنا وراءه صامتين

كأننا في موكب حزين .. وما كدنا تتوسط الجهو الكبير

الذى تصطف على جوانبه الأرائك « الاستامبولى » المغطاة

بأغطية بيضاء قديمة كأنها أكفان تضم رفات أجدادى ، حتى

خرجت الينا طنط صافية ..

وخيل الى انها فقدت نصف وزنها في هذه الساعات
القليلة التي مضت منذ تركت البيت في الصباح وجاءت
الى العزبة ، خيل الى أنها باهتة اللون ، منكسرة النفس ،
ذاهلة العينين .. وخيل الى انها تقاوم .. تقاوم في عنف ..
حتى لاتنهار ، وحتى لاتفقد أعصابها ..

ووقفت قبالتنا ، ونظرت الى عمى عزيز وكأنها تنهدت
تنهيدة ارتياح ، ثم تمتمت بتحية خاطفة لم أتيينها ، وصحبت
تحيتها بهزة من رأسها ، ولمحت والدى ينقل عينيه بينها وبين
عمى عزيز ، وكأنه يحاول أن يلتقط كل لفظة وكل لمحة
تصل بينهما ..

واقتربت طنط صفية منى وأمسكت بكلتا يدي في
يديها ، وأخذت تنظر الى برهة نظرات مسكينة ذليلة كأنها
تشكرنى لأنى جئت اليها ، ثم جذبتنى اليها واحتضنتنى في
صدرها ..

وانخلع قلبى ..

أحسست أنى سأبكى ..

بل كدت أبكى فعلا ، وشعرت كأن الدموع تجمعت في
مآقى ، ثم احتبست وتجمدت حتى أصبحت كحبات الرمل
تلهب عيني ..

وفي هذه البرهة الخاطفة التي استرحت فيها بين أحضانها،
خيل الى انى لم أعد أحتمل .. خيل الى أن الخير في نفسى

سينتصر على الشر .. خيل الى أن الملاك سينتصر على
الشیطان ..

ولكن البرهة الخاطفة مرت دون أن أنهار .. دون أن
أصرخ معترفة بجريمتي وأغسل أقدامهم جميعا بدموعي ..
ولم أكن أريد لهذه البرهة أن تنتهى .. كنت أتمنى أن
أبقى طول عمري فوق صدرها .. أن أشعر بحنانها .. أن
أشعر بأهميتي فى حياتها وفى قلبها ، أن أشعر بأنى انسانية ..
ولكن هذه البرهة مضت ..

وأحسست بها تقبلنى فوق وجنتى ، ثم أبعادتنى عن
صدرها فى رفق ، وهى تقول ملتفتة الى عمى وظل ابتسامه
ضعيفة يطوف بشفتيها :

— ايه اللى جابكم يا جماعة .. دى مفاجأة جميلة !

ولم يرد عمى ..

وقال أبى وهو لا يزال متمسكا بسخريته :

— حضرته جاي يظمن على .. أصلى لما آجى العزبة
يبقى معناها انى اتجننت والا عيان ، ولازم أخويا يظمن
على .. مش كده ياعزيز ؟

وخبط عمى كفا بكف فى صوت مسموع ، وألقى بنفسه
على احدى الأرائك وهو يقول :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. الحق على أنا اللى جيت ..

وقال أبى ساخرا :

— ازای باه .. وکنت تسييني لوحدي ازای .. وتسيب
صفيه لوحدها ازای !!.

وسکتنا جميعا ..

وعاد أبي يقول وهو لا ينظر الى أحد منا وكأنه يخاطب
نفسه :

— النبي قال اتقوا غضب الحليم .. انما الحليم لسه
ماغضبش .. لسه .. لسه شويه كمان !

واعتدل عمي في جلسته وقال كأنه يحاول أن يكون
منطقيا :

— اسمع يا أخويا .. انت عارف اني عمري ما ادخلت
في شئونك .. وعارف ان طول عمري وأنا معجب بيبك وواثق
فيك ومطمئن عليك .. اذا كنت النهارده باحاول أقول لك
مالك فلأنك اتغيرت .. واذا ما كنتش مصدقني اسأل صافية
واسأل بنتك نادية ..

ولم تتكلم طنط صفيه ..

وقلت أنا في صوت خافت :

— صحيح يا بابا .. انت اتغيرت .. كان لازم تروح
للدكتور !

والتفت الى أبي لفته سريعة كأنه يقدر موقفي في التستر
على ما أعرفه ثم عاد ينظر الى عمي قائلا في حق :

— اذا كنت متأكد للدرجة دي اني تغيرت ، تبقي لازم
عارف السبب اللي يمكن يغيرني .

وقال عمى فى اخلاص :

— ما هو ده اللى محيرنى .. والله ورحمة أمى وأبويها
ما أنا عارف حاجة ولا فاهم حاجة .. لو كنت عارف كان
زمانى ساعدتك والا سبتك تندعق وتحط راسك مطرح
ما تحط رجليك .. انت حاتجنى معاك يا أخى !
وابتسم أبى ابتسامة مسمومة .. وقال :
— بكره حاتعرف ..

وسار أبى ودخل الى الغرفة المخصصة له والتي يقع بابها
على الجانب الأيسر من البهو الكبير .. وبسوة مجهولة
وجدت نفسى أتبعه الى داخل الغرفة ..

وجلس أبى على مقعد كبير ، ثم رفع رأسه ورأنى داخلة
وراءه ، فابتسم ابتسامة متعبة ، ثم قال فى صوت حنون
وكأنه يستجير بى من أحزانه :
— تعالى يانادية ..

وأغلقت الباب ورائى وتقدمت اليه ، فجذبنى من يدى
وأجلسنى على ركبتيه ، ثم أحاطنى بذراعه وأخذ ينظر الى
بعينين مترددتين وكأنه يفكر فى أن يبوح لى بأسراره ، ثم
كأنه عدل عن البوح لى فنكس رأسه ، وقال بصوت خفيض :
— أنا تعبان يانادية !! ..

وأحسست كأن شيئاً يتمزق فى صدرى ، وقلت وأنا
أسند رأسى على كتفه :
— انت اللى ما بترضاش تريح نفسك يا بابا .. شايل هم

العزبة وهم كل حاجة .. ومن يوم ما خدوا منا الستين فدان
فى الاصلاح الزراعى وأنت عصبى وتعبان ..

وكانت هذه كذبة كبرى ..

وقال أبى فى يأس :

— ياريتهم على الفدادين .. ياخدوهم كلهم ياستى ..

بس .. بس ..

ولم يتم ، وعدت أقول :

— أنا كمان تعبانة لتعبك يابابا ..

وقال أبى كأنه يشير الى شىء نعرفه نحن الاثنين :

— أنا عارف يانادية .. عارف كل حاجة .. انما كل حاجة

حتتصنى وتروح لحالها .. وربنا يقدرنى على الباقى ..

ثم حاول أن يبتسم ابتسامة كبيرة ، وقال وهو يمسح
بيده على ظهرى ويضمنى اليه :

— مادام اتنى فاضلة لى .. كل حاجة بعدك تهون ..

تروح فى ستين داهية !!

قلت وكأنى أعنى الفدادين :

— فداك يابابا ..

ثم قمت من على ركبته وأنا أقول :

— أما أروح أغسل وشى مطرح السفر ..

وفتحت الباب ، ونظرت من خلاله ثم عدت وأغلقتة

بسرعة .

كنت قد رأيت من خلال الباب طنط صفيه وعمى عزيز
جالسين متقاربين على الأريكة وقد أمسك عمى بيدها وأخذ
يحدثها كأنه يواسيها ..

كان شيئا طبيعيا أن يمسك عمى بيد زوجة أبى فى مثل
هذا الظرف وأن يواسيها فيه ، ولكنى لا أدرى ما الذى
دفعنى الى أن أغلق الباب بهذه السرعة التى تثير الريبة ،
وكأنى رأيت منظرا جارحا أردت أن أتستر عليه ..

كانت الروح الشريرة مسيطرة على وتتحكم فى كل
تصرفاتى . الروح التى تسكن جسدى ، وتعذبى وتعذب
كل من يقترب منى أو يلمسنى ..

وتنبه أبى الى الحركة التى أتيتها . وقال فى تحفز :

— ايه .. فى ايه !?

وتلعثت .. وكان تلعثا حقيقيا ، لأنى فعلا لم أكن
أدرى ماذا أقول .. لم يسعفنى عقلى الآثم بشيء .. ثم قلت
فى كلمات مترددة :

— أصلى .. أصلى .. نسيت أسألك حنركب خيل امتى!?

ولم يرد أبى ، واتجه نحو الباب فى عنف ، وأنا أقول له
كأنى أصرخ لأمنعه من ارتكاب جريمة :

— مش الحصان بتأى لسه موجود !?

ولم يرد أبى أيضا ، وفتح الباب كأنه يحطمه وخرج الى
الصالة ..

كان عمى قد ترك يد طنط صفيه ، ولكنهما كانا لا يزالان
جالسين متقاربين ..

ووقف أبى قبالتما ينظر اليه ثم اليها .. ثم قال :

— أظن تقوم نرجع مصر أحسن !!

وبانت الدهشة فى وجوهنا جميعا ، واستطرد أبى يقول
وهو ينظر الى أخيه :

— أصل البيت هنا صغير لدرجة انه مايسعناش كلنا مع

بعض !

وضحك ضحكة مرتفعة كأنه المجنون .

وقال عمى فى وقار وهدوء :

— مش نستنى للصبح أحسن .. الدنيا بقت ليل ..

والسواقة بالليل خطر !

وقال أبى وهو ينظر اليه كأنه يحتقره :

— والله أنا نازل مصر دلوقت .. ولو سمحت حضرتك ..

بعد اذنك يعنى .. حاخذ معايا مراتى وبتتى ..

ثم التفت الى طنط صفيه قائلا :

— والا ايه رأيك يا صفيه !?

وقامت طنط صفيه دون أن تتكلم ودخلت الى حجرتها

لتعد حقيبتها . وعاد أبى يقول :

— ما تخليك انت يا عزيز .. والا ما تقدرش تقعد لوحدهك

لا هنا ولا فى مصر !?

وقال عمى وهو لا يزال محتفظا بهدوئه ووقاره :

— المهم انى أقعد فى حته أقدر أكلمك فيها ..

وقال أبى فى حدة :

— لأ .. مش ضرورى كلام .. ما تتعش نفسك !!

ثم دخل هو الآخر الى الحجرة وعاد مرتديا سترته ،
وتبعته زوجته بعد قليل مرتدية ثيابها وفى يدها حقيبتها
الصغيرة .. واقتربت من أبى وقالت كأنها قررت ألا تستسلم
وأن تتحداه :

— خد شيل الشنطة من فضلك !

ونظر أبى إليها برهة ثم أخذ من يدها الحقيبة ..

وقبل أن تنصرف جاءت أم عطية تحمل صينية عليها
أكواب من شراب الورد الرخيص ، وتقدمت الى أبى قائلة
من خلال ابتسامة حلوة طيبة :

— خد ياسيدى أحمد ييه .. روق دمك .. حلاوة زيارة

ست فادية ..

وصرخ أبى فى وجهها وهو يشيح بذراعه :

— يا شيخة غورى .. احنا فى ايه والا فى ايه ..

واصطدمت ذراعه بالصينية فوقعت من بين يدي
أم عطية .. وقعت الكوبات محطمة على الأرض والشراب
الأحمر يسيل منها .. كأنها أشلاء ودم !!

ونزلنا الى الحديقة دون أن ندرى هل سيعود معنا عمى
أم لا .. فلم تتصافح ولم تتكلم .. وركبت أنا ووطنط صفية
في سيارة أبى .. جلست زوجته بجانبه وبين عينيها نظرة قوية
غاضبة كأنها نفضت عنها ضعفها واستلامها .. وركبت أنا
في المقعد الخلفى أنظر في مؤخرة رأسيهما كأنى أرى شريطا
سينمائيا واضحا .. كأنى أعلم كل ما يدور فى رأسها وفى
رأسه ..

وتحركت بنا السيارة ..

ولم تعد باب الحديقة ، حتى سمعنا صوت سيارة عمى
تتحرك وراءنا ..

وعدنا جميعا الى بيتنا فى الدقى ..



وامتلاء البيت كله بالشك الأسود ، والغيرة الصفراء ،
والحقد والكراهية ، والتوتر والأرق .. أصبحنا جميعا
نعيش على أعصابنا ، أعصاب تالفة منهكة .. كنا كالمجانين ..
كجماعة تاهت في صحراء مظلمة وأخذ بعضها يتخبط في
البعض بحثا عن النور .. عن الخلاص !

كانت زوجة أبي قد قررت أن تتحدى أبي .. لم تعد
تستسلم ، ولم تعد تسكت ، ولم تعد تحمل همه .. كانت
إذا لم يعجبها كلامه تصرخ في وجهه ، وإذا سكت تجاهلته ،
وإذا أصدر أمرا لم تطعه .. فاض بها الحال .. امتلأت
بالأبغرة التي كنتها طويلا فلم تملك الا الانفجار ، ثارت
على هذا العذاب الذي يصبه عليها أبي دون أن تدري له
سببا ، ودون أن يفصح لها عن السبب ..

وكان عمي قد خبت روحه المرحة .. كان صامتا يأسا
كأنه فقد كل شيء ، ولم يعد يحاول أن يعرف ماذا حل بأبي ..
بل لم يعد يتحدث إليه ، فاذا التقيا لم يتبادلا سوى تحية
خافتة ليس لها معنى ولا يكاد أحدهما يسمعهما من الآخر ..
وكان في أحيان كثيرة يعتذر عن تناول غدائه معنا كما كانت
عادته منذ تزوج أبي .. وأحيانا كثيرة لا نراه قبل أن يخرج ..
وكان يبدو أنه لا يبقيه معنا في بيت واحد الا عطفه على

طنط صفيه ، وجه لى ، وبقية من احساس بالمسئولية
نحو أخيه ..

وكان أبى أتعسنا جميعا .. ذبل وجف حتى أصبح كعود
الحطب .. كان يبدو دائما كأنه يريد أن يبكى .. كان أحيانا
يسيطر على أعصابه فيبدو باردا جامدا كأنه مصنوع من
حجر ، وأحيانا ينوء به حمله فيصخب ويقول كلاما لاذعلا
كالسياط ، ولكنه كان دائما يسير على خطة وضعها فى
رأسه .. خطة ساذجة كخطط الأطفال ، تنحصر فى مراقبة
زوجته ومفاجأتها بين حين وآخر كأنه سيراها بين ذراعى
أخيه .. كان يعود فى غير مواعيده ويدخل البيت على أطراف
أصابعه باحسا عن طنط صفية .. وكان يتحدث فى التلفون
ولا يقول شيئا .. وكانت عندما تخرج فى زيارة أو لتشتري
لوازمها يتبعها من بعيد .

خطة ساذجة .. لا يتبعها الا زوج ساذج عيب .

وكنت أنا كما أنا .. غير أن الجريمة بدأت تمرع الخطى
فى نفسى كحصان السباق فى نهاية الشوط . كنت أتعجل
النهاية . وكانت النهاية كلما قربت اشتد عذابى .. عذاب
ضميرى .. كنت أسمع أزيز العاصفة ، وكنت فى انتظار أن
تقتلع البيت ..

وارتكبت عشرات الجرائم الصغيرة ، لأبقى نار الشك
مشتعلة فى صدر أبى .. كنت فى كل يوم ألقى بقطعة من
الحطب فى هذه النار .. لم أرحمه يوما .. لم تستطع عيناه

الذليتان ولا عوده الذى يذبل ويجف ، ولا وجهه الذى امتنع ونحل .. لم يستطع شىء منه أن يوقف جرائمى ، أو ينقذنى من عذابي ..

وكنت أعلم أن أبى فى مراقبته لزوجته يبحث عن دليل ملموس يدينها به .. شىء يراه بعينه أو يلمسه بيده .. وكان كل همى أن أدبر له هذا الشىء ..
الى أن كان يوم ..

واتهينا من تناول غداء صامت ، كأنه الغداء الأخير قبل أن نودع الحياة .. وقامت طنط صافية ودخلت غرفتها ، وعادت بعد قليل مرتدية ثوب الخروج وفى يدها حقيبتها الصغيرة ، وقالت لأبى كأنها تلقى اليه ببلاغ رسمى :
— أنا رايحة للخياطة ..

ولم يرد عليها أبى ، ولم تنتظر منه ردا ..
وخرجت ..

وبعد دقائق قام أبى وخرج وراءها ليتبعها .. ليراقبها ..
اليتأكد أنها ذاهبة الى « الخياطة » !

وقمت وراءه أودعه حتى الباب الخارجى كما كانت عادة طنط صافية ، وقال وهو يضع قبلة باردة على خدى :

— أنا رايح أشرب القهوة فى النادى !

قالها كأنه ينفى عن نفسه تهمة لم يتهمه بها أحد ،
وابتمت كأنى أقول لنفسى : « يا له من رجل ساذج » !!

وبعد أن خرج ووقت في الحديقة أتلفت بين زهورها
كأنى أبحث بينها عن زهرة سامة .. وفجأة رأيت عمى عزيز
نازلا ولم يكن قد تناول غدائه معنا — وفجأة أيضا .. طرأت
على رأسى فكرة جديدة .. فكرة لو نجحت لتحققت النهاية ..
فكرة صغيرة ولكنها كالقشة التى تقصم ظهر الجمل .. كما
تقول الأمثال .. الجمل الذى ناء بحمله .. أبى !

وابتسمت ابتسامة كبيرة لعمى ، وجريت اليه في خفة
وتعلقت برقبته وأخذت أقبله في وجهه عشرات القبل ..
واحتضنى عمى وبادلنى القبل ..

كان فى الأيام الأخيرة يتمادى فى تدليله لى وعطفه على ،
كأنه يواسينى فيما ألم بأبى ..

وقال وهو لا يزال يحتضنى :
— أمال فىن بابا !?

قلت :

— خرج .. راح النادى .. وطنط صافى نزلت البلد ..
مافضلش فى البيت الا أنا ..

قال وهو يضحك ضحكة يحاول أن يخفى ألمه :
— أحسن !?

قلت :

— والله كنت عايزه أنزل البلد أنا كمان ، انما فيه واحدة
صاحبتى جايه تزورنى .. كنت عايزه أنزل البلد ضرورى ..
ضرورى جدا !

وقال عمى فى حنان :

— عايزه ايه من البلد وأنا أجيبه معايه ، والا أبعته لك؟
قلت :

— يا ريت يا أونكل .. ده انت تعمل فيّه معروف
كبير .. ربنا يخليك لى يا أونكل !
قال باسما :

— ايه بس .. عايزه ايه ؟
قلت :

— عايزاك تفوت على الخياطة تقولها تبعتلى الفستان
اللى يتصلح ..

قال مقاطعا وهو يبعدنى عنه برفق :

— لا .. كله الا الخياطة دى .. أنا عمري ما رح
للخياطات !!
قلت :

— والنبي ياعمى .. وحياة نادية عندك .. أصلى معزومة
النهارده وكل الفساتين اللى عندى لبستهم ميت مرة ..
عشان خاطرى ..

قال :

— طيب ماتضربيلها تليفون !
قلت :

— تليفونها خسران .. من الصبح بأضربها مافيش
فايده .. كلمت المصلحة وبرضه مافيش فايده !

قال :

— والسواق راح فين ؟

قلت :

— راح يوصل طنط صافي ..

قال :

— بس مش معقول انى أخش عند خياطة ..

قلت بسرعة :

— انت لاحاتخش ولا حاجة .. يدوبك تقول لها من
على الباب ، وهى لما تشوف انك جيت بنفسك حتهم زيادة
وزيادة ..

قال فى تمليل :

— اتتى دايمًا يانادية طلباتك كثير وكلها بايخه .. فين
هى الخياطة دى ياستى ؟

قلت :

— تعرف عمارة دوس اللى فوق الأمريكين .. أهى

فى العمارة دى !

قال وهو يهم بالخروج من باب الحديقة :

— طيب ما قلتيش ليه لصفية ولا لأبوكى يعملوك
الشغلانة دى وهم نازلين !?

قلت وأنا أقبله مودعة :

— كنت لسه فاكراه انى حاقدر أتصل بيها بالتليفون !

قال وهو يخرج ويهز رأسه فى استسلام :

— طيب ياستى ..

ولاحقته عند الباب وأنا أقول :

— الدور السادس .. واسمها مدام بروننا ..

وهز رأسه مرة ثانية ليقول انه قد سمع ، ثم ركب
سيارته وقادها .. وأخذت أتبعه بعينين مفتوحتين وقلب
مضطرب ، حتى اختفت السيارة من أمامي ..

كانت « الخياطة » في عمارة كبيرة كالعمارة التي تضم
الشقة التي ألتقى فيها بمصطفى .. عمارة يسكنها أطباء
ومحامون وخياطات ولا بد أن فيها أيضا « شققا » كشقة
مصطفى !!

وكنت أعلم أن أبى فى هذه اللحظة واقف أمام العمارة
يراقب زوجته وهى داخله ، وينتظرها مختبئا الى أن تخرج ..
وكنت أريده أن يرى عمى أيضا يدخل الى نفس العمارة ،
ليعتقد أنه يلاحق زوجته ..

هل هناك دليل أقوى من هذا أستطيع أن أقدمه لأبى !?

وهل هناك جريمة أبسط من هذه !?

ولكن هل يراه أبى وهو داخل الى العمارة ؟

ربما دخل عمى من ناحية أخرى غير الناحية التى ينتظر
فيها أبى ، فالعمارة لها ناحيتان تؤديان إليها ..

وربما اكفى أبى بأن يتأكد أن زوجته دخلت العمارة
التى تقيم فيها « الخياطة » ثم انصرف ، دون أن ينتظر
خروجها !?

وربما لا يذهب عمى اطلاقا الى « الخياطة » ويعدل عن
وعده لى !

وبدأ شعور المقامرة ينتابنى ، الشعور الذى تعودته كلما
أقدمت على تنفيذ جريمة .. الشعور الخبيث الذى تندلع
فيه لذة الخوف ، ولذة الترقب ، ولذة اختبار الذكاء ..
ومضت فترة طويلة .. طويلة جدا ، وأنا فى غمار هذا
الشعور الخبيث اللذيذ ..

فترة مضت وأنا مبجلقة العينين فى الفضاء ، كأنى أنظر
الى عجلة الحظ تدور فى السماء .. عجلة الحظ الأسود ..
وتبتهت على صوت سيارة تقف أمام الباب .
ورأيت أبى يدخل فى خطى واسعة عصبية حتى يكاد
ينكفىء على وجهه ..

ولم ينتبه الى وأنا جالسة فى البهو ، بل اتجه مباشرة
الى غرفته .
وتبعته ..

ورأيته كالمجنون ، يفتح دولاب ملابس زوجته ، ثم
يشد ثيابها منه الواحد بعد الآخر ، ويلقيها على الأرض ..
وعرفت أن خطتى نجحت ..

ولم أفرح ..

نعم .. لم أفرح !!

انما زيلنى شعور المقامر ، وحل محله شعور بالهلع ..

أحسست بخوف رهيب يكاد يقتلع قلبي ، وصرخت ، وأنا
أمد ذراعى فى الهواء كأنى أتحنس طريقى فى ظلام نفسى :
— بتعمل ايه يا بابا !!?

وأدار رأسه لى ونظر الى بعينين زائعتين كأنه لا يرانى ،
أو كأنه لا يعرفنى وقال فى صوت محشرج :
— مالكيش دعوة .. روحى اتى من هنا !

قلت كأنى أتوسل اليه وأنا أحاول أن أقترب منه :
— بس قوللى يا بابا .. حصل ايه .. بتعمل كده ليه !!?
ودفعنى بذراعه دفعة قوية حتى كدت أقع على الأرض
وصرخ صرخة مدوية :

— با أقولك امشى من هنا .. أخرجى من الأوده دى !!
وخرجت أتعثر فى خطاى مستندة على الجدران ..
وأحسست أن كل شىء فى يصرخ .. ويبيكى .. ويلطم خديه ..
ووجدت نفسى أفكر بصدق وإخلاص فى منع الجريمة قبل
أن تتم ..

ماذا أفعل ؟

ياربى .. ماذا أفعل !?

ارحمنى .. ارحمنى يارب .. ارحمنى من نفسى .. ارحم
أبى منى ..

ماذا أفعل يارب ؟

وأخذت أقلل عينى بين الجدران فى هلع كأنى أخاف أن

تنطبق على .. وأمد ذراعى فى الهواء كأنى أتقى ناراً تهب
على .. وتلسعنى .. وتعذبنى ..

وأخذت أفكر بسرعة .. بسرعة المجنون فى تفكيره ..
وصوت فى صدرى يكرر فى صوت متتال كصوت عجالات
القطار : « ماذا أفعل .. ماذا أفعل .. ماذا أفعل » !?
ولم أفعل شيئاً .

أصبت بالغباء فجأة ، كأن شيطان الشر عندما انطلق من
صدرى بعيداً عنى أخذ معه عقلى ..
ووقفت سيارة أخرى أمام الباب ..
ورأيت زوجة أبى تدخل هادئة ، ثابتة لا تدرى شيئاً
مما ينتظرها ، وسمعتها تقول :
— بونسوار ..

ولم أرد التحية ، إنما نظرت إليها فى شفقة وعيناي
مغرورتان بالدموع .. كأنها فرخة تذبح أمامى .. وأردت
ساعتها أن أركع تحت قدميها .. أن أقبل هاتين القدمين وأن
أستغفرها وأبتهل إليها أن تغفر لى ..
وسمعتها تقول فى لهفته :

— مالك .. مالك يانادية !?

وقبل أن أرد عليها ظهر والدى منتصباً أمامنا نحن الاثنين
كالمارد الغاضب الذى قرر أن يحطم الدنيا كلها ، وقال
وكان صوته صدى يأتى من عالم مجهول كئيب :

— اتفضلى لى هدومك .. وارجمى مطرح ماجيتى ..
وذهلت طنط صفيه وقالت فى تعجب وكأنها تخاطب
مجنونا :

— بتقول ايه!؟

وجذب والدى نفسا عميقا من صدره كأنه يستعين به
على ضبط أعصابه ، وقال بصوت مرتعش يحاول أن يجعله
هادئا :

— اسمعى يا صفيه .. أنا مش عايز أعمل « سكاندال » ..
مش عايز فضايح ، كفاية اللى حصل . واتفضلى أخرجى من
البيت .. البيت ده مابقاش بتاعك .. البيت عاش من أيام
جدى بيت نضيف وما يعيش فيه الا ناس نضاف !!?
وقالت طنط صفيه فى حدة :

— انت بتقول ايه.. بتقول ايه يا أحمد .. انت اتجننت!!?
ولم يعد أبى يحتمل وصرخ بكل ما فيه من صراخ :
— باقول انك طالقة .. طالقة .. طالقة .. باقول انك
خاينة ومجرمة ...!!

وتراجعت صفيه الى الوراء كأنها أصيبت بطعنة فى
القلب ، واستندت بذراعاها على المائدة الصغيرة ، وقالت كأنها
تهمس وفى عينيها نظرة هالعة :

— انت مجنون .. انت مجنون .. انت مجنون ..
وعاد أبى يصرخ :
— أنا كنت مجنون يوم ما تجوزتك ، اتفريت فيك

وفى عيلتك .. عيله أصلها طين .. انما دلوقت بس اللي
عرفتك .. دلوقت بس اللي عرفت انى سلمت شرفى واسمى
لواحد ما تستاهلش .. انت طالقة .. طالقة بالتلاتة ياست
هانم .. المأذون جاي دلوقت .. بعث أجبنيه علشان يطلقك ،
وتروحي فى ستين داهيه اتنى والكلب السافل اللي خان دمه
وخان خيرى وخير أبويا وأمى ..

وشدت طنط صفيه عودها ، ورفعت رأسها ، ونظرت
الى أبى فى احتقار ، وقالت كأنها تستجمع عمرها كله فى لحظة
تصون بها كرامتها :

— أنا مش حارد عليك .. أنا خارجه .. ومش حلم
هدومى حسيبها لك ، وتأكد ان أول ما رجلى حتخطى الباب
ده مش حادخل منه تانى .. كل اللي أحب أقوله لك انك لازم
تعرض نفسك على دكتور ..

وجذبت حقيبتها الصغيرة بعنف ، وخطت نحو الباب ..
ووجدت نفسى بلا وعى ، أنحدف عليها ، وأتعلق بها
وأنا أصرخ :

— لأ .. لأ .. مستحيل .. مش ممكن .. لأ ياطنط ..
ما تخرجيش ..

ونظرت الى أبى والدموع فى عيني ، وقلت وكلى أرتعش:
— طنط صفيه مش خاينة ياأبأ .. طنط صفيه بريئة ..

أنا ..

وقاطعنى أبى صارخا :

— اخرسى ..

قلت :

— بريئة يا بابا .. طنط صفيه بريئة .. و ..

وقاطعنى وهو لا يزال يصرخ :

— أنا عارف اتنى بتدافعى عنها ليه .. لحست عقل

البيت كله .. لحست عقل أخويا ، وعقل بنتى .. دى مجرمة

واتنى عارفه انها بتخوننى .. بتخونى مع أقرب الناس ليه ..

اتنى عارفه وأنا عارف انك عارفه .. النهارده شفتها بعينه ..

شفتهم هم الاتنين ..

وتركت طنط صفيه وألقيت نفسى على أبى ، وقلت بين

نشيجى وأنا أبلل صدره بدموعى :

— ما تصدقنيش يا بابا .. أنا كدابة .. أنا اللي مجرمة ..

بنتك هي المجرمة .. أنا ..

وعاد أبى يقاطعنى وهو يصرخ حتى ضاع صوتى فى

صراخه :

— اتنى ست ستها . اتنى ضفرك برقبته .. هيه

المجرمة .. هيه الخاينه .. وآدى مصير المجرمين الخاينين ..

بصى .. بصى لها وشوفى على وشها غضب ربنا .. حتتعذب ..

طول عمرها حتتعذب .. ربنا ما يسييش حد ..

ثم التفت الى طنط صفيه وصرخ صرخته الكبرى

والأخيرة :

— امشى اطلعى بره .. اطلعى بره بيتى ..

وأشاحت طنط صفيه برأسها في احتقار ، وخطت نحو
الباب صامته وهى لا تزال محتفظة بكبريائها .. وما كادت
تفتح الباب حتى أطل من ورائه المأذون ..

ونظرت اليه .. الى ذقنه السوداء ووجهه الأصفر وعباءته
الكالحة ، وكأنى أرى جريمتى حية تسعى على قدمين ..

وأحسست بظلام داكن يحيط بى ويقترب منى شيئاً
فشيئاً ، حتى لم أعد أرى شيئاً ..

وأحسست انى سقطت على الأرض .

ولا أدرى كم مضى على فى اغمائى .. ولكنى فتحت عيني
فوجدت نفسى ممددة فى فراشى ، وطنط صفية جالسة بجانبى
على حافة الفراش وفى يدها زجاجة كولونيا ..

وما كادت عيناي تلتقيان بعينيها ، حتى أحسست انى أهم
بالابتسام .. أحسست كأنى أفقت من كابوس مخيف ثقيل ..
واعتمدت جالسة ، وأحطت عنقها بذراعى وحاولت أن أتكلم ،
ولكنها وضعت أصبعها فوق شفتى ، ثم رفعت ذراعى من
حول عنقها ، وقالت وعلى شفثيها ابتسامة حزينة :

— الحمد لله على سلامتك ..

وأرقدتنى ثانية فى الفراش ، وانحنت على تقبلنى ، وكان
قبلاها مبللة بالدموع ثم قامت وخرجت من الغرفة قائلة :

— ابقى طمئنى عليكى يانا دية ..

وصرخت :

— طنط .. طنط .. ماتسيبيش ياطنط ..

ولم ترد على ..

وحاولت أن ألحق بها .. ولكن الظلام أحاط بى مرة
ثانية ورأيت جدران الغرفة تدور بى كأن دوامة قد ابتلعتى ..
وسقطت مرة ثانية مغشيا على ..

ومرت الحوادث بعد ذلك سريعة .. أسرع من أن
أستطيع ملاحظتها أو الوقوف فى طريقها ، وكان الشياطين
كلهم قد اجتمعوا فى بيتنا لينقلوه الى عالم آخر .. الى
الجحيم ..

وكان اغمائى حقيقيا ، لم يكن فيه افتعال ولا تمثيل ..
كانت جريمتى قد تجسمت بشاعتها فى نفسى ، حتى لم أعد
أطبق نفسى .. فتهاويت .. وكان شعورى بالجرم قد أصبح
أكبر مما تحتمله أعصابى الى حد انى فقدت الشعور ..

ولكن اغمائى لم يحل دون أن يسير أبى فى اجراءات
الطلاق دون وعى ، ودون مزيد من التساؤل والشك ..
فعندما سقطت على الأرض فى المرة الأولى — كما قالت لى
« دادا » حليلة بعد ذلك — لم يهتم أبى .. ولم يحاول أن
يسعبنى .. بل نظر الى فى شرود كأن الذى سقط كوب ماء ،
أو آنية من أوانى الزهر .. أو قطعة أثاث .. ثم تركنى لمقاة
على الأرض ، وقاد المأذون الى حجرة المكتب ليوقع الوثيقة
الكريهة ..

والتي حملتني هي طنط صفيه .. حملتني بين ذراعيها في
لوعة وحنان رغم كل ما كان يجري لها .. ووضعتني في
فراشي .. وجلست بجانبى حتى أفتت .. ثم قبلتني وخرجت ..
خرجت من البيت كله !

وانتهى أبى في ذلك الوقت من اجراءات الطلاق ، وأرسل
« الورقة » الى طنط صفيه في بيت أهلها مع السائق ..

ثم جاء الى غرفتى .. ووقف ذاهلا يبخلق من خلال
النافذة ، بينما كانت «دادا» حليلة تدلكنى بماء الكولونيا ..
الى أن فتحت عيني ، ولا بد أن وجهى كان ممتعا مريعا ،
فقد نظر الى أبى فى هلع واشفاق وجاء يجلس بجانبى وأخذ
يدى بين يديه وقال كأنه يبكى :

— حرام عليكى يانادية .. ما تعمليش فى نفسك كده ..
مافيش حاجة فى الدنيا تستاهل زعلك للدرجة دى .. حرام
عليكى أنا ما فضليش الا أنت ، كله يهون الا أنت !!
ونظرت اليه ..

كان كأنه شاخ .. وكأنه يريد أن يلقى برأسه على
صدرى ويبكى ..

وحاولت أن أقوم من رقدتى ولكنى لم أستطع ..
شعرت بضعف لم أشعر به من قبل ، فقلت بصوت خافت
ضعيف وأنا أعود وألقى برأسى فوق الوسادة :
— انت غلظت يابابا .. غلظة كبيرة .. صفيه ماخاتكش ..
وقاطعنى وكأنه يطرد شبحا من أمامه :

— خلاص يناديه .. الموضوع ده انتهى .. وتأكدى
انى ما غلظتش .. أنا ما كنتش مصدق فى الأول ، ولكن فضلت
شهور طويلة أراقبها لغاية ما تأكدت .. أنا عارف انك
بتحبها .. أنا كمان كنت باحبها .. وكان لازم أضحي بحبى
علشان أحفظ شرفى !!

وحاولت أن أتكلم ، ولكنه قام من جانبى ، وأحكم
الغطاء حولى ، وقبلنى وهو يقول فى حنان :
— استريحى يا حبيبتى .. حاولى تنامى شوية ..
وخرج .. ولا أدرى أين ذهب .
ولم أنم ..

بقيت فى فراشى .. متهافئة .. ضعيفة .. غاية فى الضعف ..
وكأنى فقدت السيطرة على جسدى ، أو كأن دمايى تتخلى
عنى وتنزف من مسامى .. وانهمرت دموعى صامتة حزينة
كأنها تفسح فوق وجنتى طريقا لموكب العذاب ..
ثم بدأ هذا الضعف يصحبه نوع من الألم ..
كان ألما خفيفا .. ثم بدأ يشتد شيئا فشيئا .. ألم يبدأ
فى جنبى ثم يطوف بجسدى الى أن ينطلق من بين أصابعى ..
ورحبت بالألم ..
وجدت فيه السلوى ..

وبقيت مستسلمة للضعف والألم ، حتى سمعت أبى يعود
فى المساء .. وربما كان سكران ، فقد كان يتنقل بين الحجرات
فى ضجة ، دون أن يفكر فى أن يدخل حجرتى ليطمئن على ..

ثم سمعت جرس الباب ..
وخيل الى انه عمى ..

وقد كان عمى فعلا .. فقد سمعت صوته يحدث أبى
فى البهو الخارجى ، واحتد بينهما الحديث حتى أصبح
صراخا .. ولكن لم أستطع أن أتبين سوى كلمات متفرقة ..
كلها كلمات عنيفة مقدعة ..

ثم سمعت صوت الباب وهو يصفق بعنف ..
وعرفت أن عمى قد خرج ..

وبعدها سمعت خطوات أبى متجهة الى غرفتى ..
خطوات بطيئة متعبة كأنه يجر قدميه .. ثم سمعت صوت
نهضة ضعيفة مكبوتة تنبعث فى الغرفة ..
كان أبى يبكى ..

وأحسست بدمائى تتجمد ، وتتحرك ثقيلة فى عروقى
كأنها حبات الرمل .. أحسست بأطرافى كلها تتلجج وكأنها
شلت .. ورغم ذلك حاولت أن أقوم من الفراش .. أن أذهب
الى أبى ..
أبى الذى يبكى ..

ولكنى فجأة صرخت صرخة حادة .. وانكفأت على
وجهى وقد تقلصت كل عضلة فى ، وتقلصت أصابعى فوق
الوسادة ..

وصرخت صرخة أخرى ..
ثم عضضت الوسادة بأسنانى حتى لا أصرخ ..

كنت قد شعرت كأن سيخا محمى فى النار قد انغرز
فى جنبى .

ألم .. لم أستطع أن أستسلم له .. لم أستطع أن أطيقه ..
فصرخت !

وجاء أبى على صوت صرختى ، ودموعه لا تزال فى
عينيه ، وقال فى لهفة :

— مالك .. مالك يانادية !?

قلت من بين أسناني المطبقة على الوسادة ، وأنا أقلب
فى الفراش كأنى أتفض فوق نار :

— ولا حاجة .. ولا حاجة .. ده ذنب طنط صفيه !

ورأى أبى تقلصات وجهى ، ومدى الألم الذى أعانيه
فاستدعى الطبيب .

وأعلن الطبيب انى أصبت بحالة « مغص كلوى » حاد ..
ثم حقننى بالمورفين !

وقمت فى الصباح ، ورأسى ثقيل ، متعب من أثر
المورفين ..

وكان لا يزال لدى أمل فى أن أجد وسيلة أكفر بها عن
جريمتى ، وأعيد زوجة أبى الى البيت .. ولكن عمى عزيز
قضى — دون أن يتعمد — على هذا الأمل فقد أعلن فى

اليوم التالي أنه سيتزوج طنط صفيه ، وذهب اليها فعلا في بيت أهلها ليخطبها لنفسه ..

ربما فعل ذلك لسخطه على تصرفات أبي ، واقتناعه بأن صفيه بريئة مظلومة .. وربما فعل ذلك كمظهر من مظاهر الشهامة بعد أن اتهمه أبي بأنه على علاقة آثمة معها ..

ولكن أبي اتخذ من هذا التصرف دليلا آخر على خيانة زوجته له .. أعتقد أن عمي ذهب ليخطب صفيه ليصلح غلطته ، أو لأنه كان يتمنى دائما أن يتزوجها ..

وطبعا رفضت طنط صافي أن تعده بالزواج بعد انتهاء العدة ..

رفضت رفضا باتا حاسما ..

وترك عمي البيت .. لم يعد يقيم معنا .. وذهب وأقام في أحد الفنادق .. وانقطعت صلته بأبي ، وبدأ في تصفية حسابات العزبة ليستقل كل منهما بإدارة نصيبه ..

واتنشرت القصة في المجتمع كله ..

قصة خيانة زوجة أبي مع عمي عزيز ..

وبدأت وفود الأهل والأصدقاء والمعارف تجيء الينا بحجة الاطمئنان على في مرضى .. وكل منهم يخفى وراء شفثيه الشماتة والرغبة في الاستماع الى مزيد من التفاصيل ..

وبقيت أنا مريضة .. يزيد في عذابي اعتقاد الجميع بأنى
مرضت حبا فى طنط صفية ، وحسرة على طلاقها من أبى ..
كان الجميع ينظرون الى كائى ملاك ساذج برىء لم يتحمل
رؤية الخطيئة .. فوق مريضا .. كنت أسمعهم بأذنى يقولون:
— دى حتموت نفسها عليها ..

أو :

— دى زى ما تكون صفيه سحرتها .. البنت مش قادرة
تقوم من السرير من يوم الطلاق ..
وكنت أهم أن أصرخ فيهم لأقول لهم انهم جميعا مغفلون.
انهم لا يعلمون .. لا يعلمون انى مجرمة .. وانى أنا القاتلة!!



الجزء الثاني

لا أَسَام

انى أتساءل مرة ثانية :

ما الذى يدفع الطفل الى تحطيم الدمية ، ثم ما الذى يدفعه الى البكاء بعد أن يحطمها !

ما الذى يدفع الصبى الى تسلق الشجرة لينبش عش العصفور ويعذب سكانه ، ثم ما الذى يدفعه الى البكاء والحسرة عندما يموت العصفور ؟

ما هو سر هذه القوة المجهولة التى تسيطر على تصرفات الانسان منذ يولد ؟

وما هو الانسان ؟

وأنا .. ما أنا ؟

لماذا ولدت لهذا الأب .. ولماذا وجدت فى هذا البيت .. ولماذا حطمت الدمية الجميلة .. ولماذا أبكى بعد أن حطمتها؟!

ليقل علماء النفس كل ما عندهم .. لייحثوا فى النفس البشرية ويكتبوا عشرات الكتب .. ولكن أنا .. ما ذنبى أنا ؟

ما ذنبى فى هذه النفس المعقدة التى وجدت بين جنبى ؟ واذا كنت قد ولدت مجرمة .. فلماذا يعذبنى جرمى ؟

واذا كنت أتعذب بجرمى فلماذا أجرم ؟

يارب ..

خذنى اليك ..

خذنى لأسألك : لماذا ؟

خذنى لأسألك عن حكمتك الكبرى في تعذيبى ؟
خذنى .. أو كف عنى العذاب .. لأستريح !
ولكنى أخافك .. أخشاك .. أرهبك .. أخاف قدرتك ..
وأخاف حكمتك .. وأخاف انتقامك !

نعم .. لا بد أن ينتقم منى الله .. فهذه عادته .. هذه
حكمته ..

حكمته أن يسلط القاتل على القاتيل ، ثم ينتقم من
القاتل .. أن يسلط بعض خلقه على بعض ثم يحاسب الجانى
والمجنى عليه .. وكلاهما من عبيده .. من خلقه ومن صنع
يديه !!

لقد كفرت !!

لا .. لا ياربى .. لم أكفر بك .. أنت ايمانى المكين ،
ولكن عقلى يضيق عن فهمك .. ويضعف عن سر حكمتك .
أستغفرك يا ربى ..

أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله
العظيم .. أستغفرك وأسألك اللطف بى .. أسألك أن ترأف
بى فى انتقامك ..

وتسلط على احساس قوى بأن الله سينتقم منى ..
أصبحت كلما أصبت بأزمة حادة أثناء مرضى اعتقدت
أنها من انتقام الله .. فأجز على أسنانى كأننى أمضغ الألم ،
وأردد بينى وبين نفسى « ده ذنب طنط صفيه » .. وحتى

الحوادث الصغيرة التي تحدث حولي ، كنت أعتقد انها من انتقام الله ر « ذنب طنط صفيه » .. عندما تنسكب زجاجة عطر .. أو ينكسر كوب .. أو يضع منى شيء .. أو يهبط ثمن القطن .. كل هذه الحوادث كانت في نظري انتقاما من الله لما فعلته في طنط صفية ..

وقضيت في فراشى شهرين الى أن استعدت قواى وخف عنى مرض كليتى .

شهران قضيتهما وأنا في نظر الناس الذين يعرفوننى ، ملاك برىء طاهر ضعيف ، لم يتحمل الصدمة ، ولم يتحمل أن يعيش مع الخطيئة في بيت واحد ، فسقط مريضا !!

وكانت طنط صفية تتصل بدادا حليلة في التليفون بين يوم وآخر وتسألها عن صحتى .. وتطيل في السؤال .. تسأل عن رأى الطبيب ، وعن طعامى ، وعن مواعيد تناولى الدواء .. تسأل عنى بحرارة وتدقيق وكأنها لاتزال تقيم معنا ولا تزال مسؤولة عنى ..

واتصلت بالتليفون مرة وكنت قد تماثلت للشفاء .. وسمعت دادا حليلة تحادثها .. وخيل الى انى أسمع صوتها هى أيضا .. أسمعها رائقا صافيا كرجع الصدى فى أناء من الباور . وأحسست برغبة ملحة فى أن أحادثها .. أن أحتضن صوتها الصافى بأذنى .. ولكنى ترددت .. أحسست كأن ليس من حق أذنى أن تحتضن صوتها .. وكنت حتى هذه الساعة لا أرد على التليفون لشدة ما كنت فيه من أعياء أنشاء

مرضى .. كنت أسمع صوتها بخيالي فقط ، وألتقط حديثها
من على لسان دادا حليلة ..

وألحت على الرغبة في سماع صوتها ..

كنت كالمجرمة التي تريد أن تسمع صوت ضحيتها ..
لتطمئن الى أنها لم تقتل !!

وضغطت على الجرس الموضوع بجانب فراشي ، وأنا
أنادى في نفس الوقت بصوتي الضعيف :

— دادا . دادا .. هاتي التليفون ..

وسمعت دادا حليلة تقول في التليفون :

— استنى ياستى .. أهى ست نادية حتكلمك !

ثم سمعت دادا حليلة بعد قليل تقول :

— حاضر ياستى .. الله يسلمك ويخليكى ويكتب لك

في كل خطوة السلامة !

ثم أقفلت السكة ..

وجاءت تقول لى وعلى شفيتها ابتسامة كأنها بكاء :

— ست صفيه هانم بتسلم عليكى وبتقول لك الحمد لله

على السلامة .. أصلها كانت مستعجلة ما قدرتش تكلمك ..

حتضرب لحضرتك بعدين !

وعرفت أنها لاتريد أن تحادثنى ..

لاتريد أن تضع صوتها فى أذنى ، ولا أن تضع صوتى

فى أذنها ..

ولم أغضب .. ولم أثر .. ولم أحسن أن كرامتي قد
أهينت .. بل لم أفكر في الدافع الذي يدفعها الى عدم
محادثتي .. وربما أرادت ألا تستمر بيني وبينها علاقة بعد
أن تم الطلاق .. ربما خافت أن أحمل حديثها على محمل
التودد لأبى ومحاولة عودتها الى البيت .. ربما أى شيء ..
ولكننى لم أستطرد في البحث عن هذه الدوافع انما أحسست
باحساس عميق بأن من حقها أن تهيننى .. وأن أستسلم
راضية صامتة لهذه الاهانة !!..

ولم تتحدث طنط صفية بعد ذلك في التليفون .. كأنها
اكتفت بأن اطمانت على صحتى ، ثم اختفت بعيدا .. بعيدا
جدا .. الى حيث لا يمكننى أن أجدها أو تقع عليها عيناي ..
ومرت أسابيع قبل أن أجد فى نفسى الجرأة لأحادثها
فى التليفون .. قبل أن أقنع نفسى بأنى يجب أن أشكرها على
اهتمامها بى ..

وسمعت صوتها الحنون فى التليفون .. الصوت الذى
فقدته الى الأبد .. وأحسست انى أضعف من هذا الصوت ..
أضعف من أن أواجهه أو التقطه أو أرد عليه .. أحسست
كأن الصوت الحنون يتلبنى ويذيينى فى طياته حتى لم أعد
أجد نفسى .. وبذلت جهدا كبيرا لأقول فى صوت مبهور :

— طنط .. ازيك ياطنط !

وقالت فى فرحة :

— ازيك يانادية . ازى صحتك دلوقت !؟

قلت وكأني طفلة خجلة :

— الله يسلمك .. وحشتيني ياطنظ ..
وخيل الى ان الفرحة زابلتها ، أو أنها تبذل مجهودا
لاخفائها . وسمعت صوتها وقد انقلب جامدا كأنه يصل
الى خلال أسلاك من الجليد :

— خدى بالك من نفسك يانادية .. خليكى ماشية على
كلام الدكتور ، أحسن « الكلا » دى متعبة قوى وعائزه
عناية ..

قلت وكأني أعتذر لها عن شيء تجهله :

— أنا مايهمنيش صحتي .. يهنى انك ترجعى البيت ..
البيت من غيرك ميسواش حاجة .. فاضى .. مافيهش حس ..
اعملى معروف ياطنظ ..

وقالت تقاطعنى وقد ازداد صوتها برودا وجمودا ..
قالت فى كبرياء تشوبها حدة :

— مرسى يا حبيبتى .. اورفوار باه ، أحسن أنا لابسة
وخارجة .

وخيل الى انها تكذب .. وقلت فى مسكنة :

— أورفوار ..

ولم أحاول أن أحادثها فى التليفون بعد هذه المرة ..
تأكدت انه لا أمل فى أن أكفر عن جريمتى بأن أعيده
الى البيت .. والى أبى !
وضاعت طنظ صافية ..

ضاعت الزوجة المثالية التي أضاعت النور في حياة أبي ،
الى أن أطفأته يدي ..

ضاعت ..

وأنا التي ضيعتها ..

أنا التي حطمت الدمية ، وجلست أبكى حسرة عليها ..

وفي خلال فترة مرضي كان عمي عزيز أيضا يطمئن علي
في التليفون .. كان اذا رد عليه أبي أعاد السماعه مكانها دون
أن يتكلم ، واذا ردت عليه دادا حليمة سألها عنى وأطال
السؤال . وعندما تماثلت للشفاء بدأت أجاده .. وكان يهرب
في حديثه دائما من ذكر ما حدث .. وكنت ألاحقه .. كنت
أريده يحدثني عن التفاصيل .. عن كل ما دار بينه وبين
أبي .. وعن كل ما دار بينه وبين طنط صفيه .. كنت أريده
أن يؤكد لى أنه سيتزوج طنط صفيه بعد أن طلقها أبي .
كأنى كنت أريد أن أقنع نفسى بأن ما فعلته ليس جرما ، وان
صفيه ستعوض أبى بعمى ..

كنت سأفرح لو أن عمى تزوج طنط صفيه كما حاول ،

كان ضميرى سيراتح ..

ولكن عمى كان يهرب من كل هذا الحديث .. وكان
يصر على الهرب .. وكان هربه يزيد في عذابي . كان يسد
في وجهى كل الأبواب التي أستطيع أن أنفس خلالها عن

حملى الثقيل ... الحمل الذى يضغط على صدرى ويشق
جنبى ..

ورجوته أن يأتى الى البيت لأراه .. توسلت اليه ..
ألححت .. عصرت دموعى فى سماعه التليفون .. ولكنه
رفض وأصر على الرفض . وكان يقول لى وهو يحاول أن
يبدو ضاحكا مرحا كعادته :

— بكره لما تشفى وتنزلى من السرير .. أبقى آخذ
منك « راندفوه » وأقابلك بره .. زى الجباب !
وكنت أضحك ضحكة مرة يائسة ..

وكانت أمى تجىء لزيارتى ..

كانت تجىء بصحبة زوجها كأنها فى زيارة رسمية أو فى
زيارة مجاملة .. وكانت تنبئنا بموعد حضورها ، فيخرج أبى
من البيت حتى لا يلتقى بها .. وكانت تجلس بجانبى فأحس
أنها بعيدة عنى .. تبسم فلا تنعكس ابتسامتها فى قلبى ..
وتتحدث فأشعر أنها تتحدث الى انسان غيرى .. لم تكن
تفهمنى .. ولم تحاول أن تعلم حقيقتى لتفهمنى .. كنت
بالنسبة لها صديقة عزيزة مريضة ، من واجبها أن تعودها
وأن تطمئن على صحتها .. كانت تأتى لتسلىنى .. لتروى أبناء
المجتمع ، وآخر قصص الأفلام السينمائية ..

هذه هى أمى دائما ..

هذه هى طبيعتها البسيطة التى لا تأخذ شيئا على محمل

الجد .. طبيعة الانسان السعيد الحالم المدلل الذى ينظر
الى كل الدنيا نظرة سطحية بلا مبالاة !
وأنا أحبها ..

ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف لها ؟

هل كنت أستطيع أن أروى لها جريمتى ، ثم ألقى بنفسى
فى أحضانها وأبكى .. أبكى الى أن أفرغ دموعى كلها فوق
صدرها الحنون ، ثم أسألها أن تدلنى على طريق الغفران ؟!
انها لن تفهمنى ..

لن تصدقنى ..

وانى أستطيع أن أتخيل النظرة المترددة الحائرة التى
ستطل من عينيها عندما تسمع قصتى .. وأكاد أتخيل صوتها
وهى تقول لى :

— مش معقول الكلام ده .. مش ممكن .. انتى
ماعملتيش كده .. ما تصدقيش .. انتى طول عمرك خيالية ..
زى الفيلىم بتاع انجريد برجمان اللى اسمه « جازلايت » ..
كانت فاكرة نفسها طول النيلم انها حرامية .. وهيه لا حرامية
ولا حاجة .. كان خيالها مأثر عليها ..

كان هذا ما يمكن أن تقوله أمى لو اعترفت لها ..
ولكنى لم أعترف ..

بل ان ذكر حادث الطلاق لم يأت بيننا فى حديث .. لم
تحاول أمى أن تسأل عن تفاصيل الحادث كما كانت تلح بقية
الزائرات .. انما تجاهلت الموضوع كله كأنه عار أن تلوكة

ألسنة السيدات الفضليات خصوصا أمام فتاة عذراء بريئة
مطاهرة .. مثلى !!

كانت أمى تجيء لزيارتى ..

ولكن ..

لاشئ ..

وكان مصطفى يحاول أن يتصل بى أيضا فى التليفون ..
كان يرد عليه أبى فيقفل السكة .. وكانت ترد عليه دادا
حليمة أو السفرجى فيقفل السكة أيضا .. ثم كان يعطى
إشارة متفقا عليها بيننا عندما أكون بعيدة عن التليفون ..
وهى أن يترك جرس تليفونى يدق دفعتين ، ثم يقفل السكة
قبل أن يرفع أحد السماعة ، فأفهم أنه منتظرنى فى البيت
لأحادثه !

ولكنى لم أحادثه ..

حتى بعد أن مضت أيام على تماثلى للشفاء واستطاعتى
أن أتحدث فى التليفون لم أحادثه ..

كنت أفكر فيه .. أفكر فيه كثيرا .. كان قطعة من
حياتى لا أستطيع أن أتناساها ما دام قلبى ينبض ورأسى
يفكر .. ولكن تفكيرى فيه اتخذ طابعا جديدا .. أصبح
تفكيراً هادئاً منطقياً كأنه تفكير باحث علامة يبحث مشكلة
قانونية معقدة .. لم أعد أنصرف إليه بعواطفى ونزواتى ..
لم يعد مصطفى مخدراً أدمنته وتماديت فى ادمانه .. بل
أصبح رجلاً يشغل حياتى .. رجلاً لا يستطيع أن يحرك

عواطفى دون أن يحرك عقلى .. وقد تبينت انى كنت أحب
مصطفى بلا عقل .. بلا وعى . وأحسست أنى أفقت ، وكان
الصدمة التى ألمت بى عقب ارتكاب جريمتى كالصدمة
الكهربائية التى يسلطونها على المجانين ليفيقوا من جنونهم ..
أفقت !.

وأخذت أسائل نفسى : « هل صحيح أنى انتقمتم من
طنظ صافية بدافع الغيرة على مصطفى » ؟!
ولم أجد جوابا ..

وخيل الى أنى أكذب على نفسى لو حاولت أن أقنعها
بأنى فعلت كل ذلك من أجل مصطفى ..
لماذا لا يكون أبى ؟!

نعم .. لماذا لا يكون الدافع الحقيقى هو حبنى لأبى
وغيرتى عليه ، أبى الذى كان كله لى ، ثم استولت عليه
امرأة أخرى ؟!
انى أحب أبى ..

ولكن ، هل أحبه الى حد الجريمة ؟
وهل الحب يدفع للجريمة ؟!
ولم أجد جوابا أيضا ..

وعدت أسائل نفسى : « لماذا لا يكون الدافع هو مجرد
روح شريرة تسيطر على .. مجرد الأنانية .. مجرد الحقد ..
مجرد احساسى بأنى أضعف شخصية من طنظ صافية .. ولو

لم تكن امرأة كاملة .. لو لم تكتسحني بشخصيتها لما انتقلت
منها «!؟

وكانت هذه الخواطر تدور بى وأنا أفكر فى مصطفى ..
وكنت أخرج منها بايمان مستتر بأن حبنى لمصطفى لم يكن
الدافع للجريمة ، انما كان مجرد حجة استعنت بها على اقناع
نفسى بالجريمة .

ولكن مصطفى كان له شأن آخر ..
كان الرجل الوحيد الذى سمحت له بأن يستولى على
جسدى .

لماذا سمحت له ؟ ..

لماذا أعطيته جسدى !؟

لأنى أحبه ..

لماذا لم أقاوم هذا الحب ، وأضع له حدودا تصون
جسدى .. لماذا لم أسلط ارادتى على تصرفاتى حتى لا أعطى
شيئا قبل أوانه .. حتى لا أقطف الزهر قبل أن يتفتح .. قبل
أن أتزوج !؟

واستعرضت فى مخيلتى الأيام العنيفة المثيرة التى قضيتها
مع مصطفى .. الأيام التى كنت أنصهر فيها بين ذراعيه ،
وأنسى خلالها نفسى فى مغامرات مجنونة .. ثم سألت نفسى :

هل هذا هو الحب ؟

هل كل الفتيات فعلمن ما فعلته ؟

لا .. لا يمكن !!

شيء آخر غير الحب ..
ربما كان « شقاوة » ، أو ربما كان مجرد الرغبة في
مباشرة انوثتى ، أو ربما كان تقليدا وتحديا لزوجة أبى ،
و ربما كان هروبا من شيء فى نفسى ..
نعم .. كنت أهرب من نفسى !!
كنت أهرب من جريمة الى جريمة ..

وأحسست بالخجل وأنا أستعرض هذه الأيام .. الخجل
من نفسى .. أحسست بالذلل وبالضعة .. أحسست كأنى أنفر
من نفسى ولا أطيقها .. وأحسست أيضا انى سأظل خاضعة
لمصطفى الى الأبد ..

لقد أعطيته كل أسلحتى فكيف أقاومه !?
لقد كشف عن سرى .. عن جسدى .. فكيف أتحداه !?
لقد أصبح هذا الجسد له .. من حقه .. فكيف أسجبه
منه !!

واعتقدت — فى هذه الأيام فقط — أن جسدى هو
كرامتى وهو كبريائى ، فاذا كنت قد أعطيت كرامتى وكبريائى
لمصطفى فيجب أن أبقى معهما .. أن أبقى مع كرامتى وكبريائى
ملكا لمصطفى ..

وأخيرا .. قررت أن أحادثه فى التليفون . وسمعت صوته
الذى غاب عنى شهرين .. سمعته كما تعودته .. كسولا بطيئا
كأن كلماته تنهدات رجل .. ثم انطلق عندما سمع صوتى :
— نادية .. اتى فىن .. كتنى فىن المدة دى كلها !!

قلت وعلى شفتى ابتسامة ضعيفة ، كأنى أستعيد ذكريان
مضت ، ذكريات بعيدة .. بعيدة .. لن تعود :

— كنت عيانه يامصطفى ..

قال وكأنه غاضب :

— عارف انك كنت عيانه .. سمعت من بره .. انما برضه

كنتى تقدرى تكلمينى فى التليفون ..

قلت كأنى أذافع عن نفسى :

— لا وحياتك يامصطفى .. كنت عيانه قوى .. والدكتور

كان محرج على ما أتكلمش فى التليفون .. ما كانش بابا

بيسمح ان التليفون يخش أودتى ..

قال وكأنه يريد أن ينتهى من هذا الموضوع .. موضوع

المرض :

— وازيك دلوقت !?

قلت :

— الحمد لله .. أحسن !

قال وهو لا يزال غاضبا :

— وحاشوفك امتى ؟

قلت كأنى أستعطفه أن يرحمنى :

— مش دلوقت يا مصطفى .. الدكتور لسه ماسمحليش

أنزل من السرير !!

وسكت قليلا ، ثم قال فى تردد :

— وايه الحكاية اللي حصلت دى !?

وكرهت سؤاله .. أحسست كأنه قفز من فوق جسدى
الملقى على الفراش .. كأنه تخطانى ليصل الى شىء آخر ..
الى امرأة أخرى .. كنت أريده أن يحدثنى عن شوقه الى ،
عن لهفته على ، عن أرقه وحيرته خلال فترة مرضى .. كنت
أريد أن أستعين بحنانه ووجهه على عذابى .. عذاب جسدى
المريض ، وعذاب نفسى المريضة .. ولكنه قدم لى الكأس
فارغة .. جافة .. ليس فيها حنان ولا حب ..

وتجاهلت سؤاله وقلت :

— وانت ازيك يامصطفى .. وحشتنى !

قال كأنه يؤدى واجبا :

— انشا الله ماتشوفى وحش .. شغلتنى عليكى .. وعلى
العيلة كلها .. الحقيقة ما كنش حد مصدق ان كلده يحصل ..
قلت وأنا أقاوم نفسى حتى لا أحتد :

— ايه اللى حصل ؟

قال وأنا أكاد أرى فى عينيه رغبة ملحة ليسمع كل

التفاصيل :

— قصدى حكاية الطلاق .. وباباكى وعمك وصفية

هانم .. الحكاية اللى بتقولها الناس كلها ..

قلت فى حدة وقد فقدت أعصابى :

— ما تصدقش الناس .. الناس كلهم كدايين .. مافيش

حد يبطلق الا ويعملوه ألف حكاية وألف اشاعة ..

قال كأنه يحاول أن يفهم :

— بس الطلاق لازم يكون له سبب !
قلت وأنا لازلت محتدة :

— ما فيش سبب .. ماحصلش وفق .. ما قدروش
يعيشوا مع بعض .. أدى كل اللي حصل !!
قال كأنه يعيظني :

— يعني حكاية عمك دي مش صحيحة ؟
قلت وكأني أصرخ :

— لأ .. لأ مش صحيحة .. كذب .. كذب .. كذب !!
قال في الحاح :

— طيب احلفي ..
قلت وكأني أحطم التليفون بصوتي :
— والله العظيم كذب !

قال في برود وغرور ، كأني طفلة يعلم مدى تعلقها به :
— لأ .. احلفي بحياتي !
قلت بلا وعي :

— وحياتك يا مصطفى كذب !
قال وكأنه يحقق معي :

— اتنى عمرك ما حلفتى بحياتي كذب !
قلت وأنا مستطردة في صراخي :
— عمري !

وسكت قليلا كأنه يتنهد ، ثم قال :
— أنا كمان كنت باقول كده !

وتنبهت .. وقلت في دهشة :

— كنت بتقول ايه ؟

قال :

— كنت باقول ان صنية مش ممكن تعمل كده ..

ماكانش باين عليها انها بتاعة حاجات من دى !

وازدادت دهشتى .. وأخذت أستعرض بسرعة حديث

مصطفى في ذهنى .. انه يلح في اقناع نفسه ببراءة صنية ..

يلح في التاكيد من أنها لم تكن على علاقة بمعنى .. لماذا ؟ لماذا

يهتم بها الى هذا الحد ؟ وما هي قيمتها عنده ؟ وماذا يهمه ان

كانت على علاقة بمعنى أو لم تكن !?

وانقلبت دهشتى .. الى دهشة من نفسى !

اننى لا أشعر بالغيرة ..

لا أغار على مصطفى ..

ان اهتمامه بصنية لايشيرنى ، ولا يحرك قوى الشر في

نفسى . ان نبضى لم يرتفع ، ودقات قلبى لم تشتد .. ودمايى

لم تسرع في عروقى ، وصدري لم يضق ..

ماذا حدث لى ؟

ماذا جرى لى ؟

وتنبهت على صوت مصطفى وهو يقول في اهمال وفي

صوت تنقصه الحرارة ، كأنه تذكر شيئاً صغيراً تافهاً كان

قد نسيه :

— والدكتور قال لك ايه ؟

قلت بلا حماس :

— خلاص .. الأزمة راحت الحمد لله .. كان عندي انقباضات عصبية في الكلى .. انما دلوقت أحسن .. بس لازم أفضل في السرير كمان يومين تلاته !
قال وهو يحاول أن يتودد لى كأنه يكفر عن خاطر في نفسه :

— انما تقدرى تضريلى تليفون .. مش كده ؟

قلت :

— أيوه ..

قال :

— كل يوم !?

قلت :

— كل يوم يا مصطفى ..

قال وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— وكل ساعة !?

قلت وأنا أحاول أن أضحك أيضا :

— لأ .. مش ممكن كل ساعة .. انما ممكن كل ساعتين !!

وفرقت بيننا برهة صمت ، كأن يدا مجهولة تحاول أن

تبعدننا عن بعض .. وكأننا خشينا هذا الفراق المبتور ..

خشينا أن يطول بيننا الصمت الى الأبد .. فأسرت أقول قبل

أن تتسع مسافة البعد بيننا :

— أورفوار بأه .. أحسن لازم آخذ الدوا دلوقت ..

وفى نفس الوقت كان مصطفى يقول :

— أوقفوا ..

وكأنى استرحت من تأدية واجب ..

وألقيت برأسى فوق الوسادة ، وعدت أغوص فى نفسى

أحاول أن أبحث فيها عن الحقيقة .. حقيقتى !

* * *

وهكذا انقضت فترة مرضى دون أن أجد أحدا يعيننى
على تبرير جريمتى ، أبى وأمى وعمى ومصطفى وطنط صفية
كلهم غرباء عنى .. كلهم لا يفهمونى .. كلهم يروننى الفتاة
البريئة الطاهرة الضعيفة .. يرون وجهى البرئ ولا يرون
نفسى المعقدة المظلمة المريضة .. النفس التى يختلط فيها عواء
الوحوش بتغريد العصافير ، والتى تهب فيها العواصف قبل
أن يمر بها النسيم .. لقد وجدت طبيبا يعالج كليتى المريضة
ولكننى لم أجد طبيبا يعالج نفسى .. لم أجد أحدا ..

أحسست انى وحدى التى ستحمل سر جريمتها الى
الأبد .. السر الفظيع .. السر الذى يأكلنى ، ويمتص دمنى ،
ويمزق أعصابى ، ويذيب شبابى ..

سر لن يعيننى عليه أحد الا الله ..

لو غفر لى الله ..

وقمت بعد أيام من فراشى ..

قمت لأجد البيت لى وحدى .. أنا سيدته .. أنا المتربعة

على عرشه .. ولأجد أبى قد أصبح لى وحدى .. أنا وحدى
التي تحمل اسمه .. وأنا وحدى التي يعود اليها ..
ولم أكد أدير عيني فيما حولى حتى رأيت الحقيقة التي
كنت أحاول أن أتجاهلها ..

رأيت البيت وقد استعدته محطما ..
ورأيت أبى وقد عاد الى محطما ..
ورأيت أنى عندما حطمت طنط صفة حطمت معها كل
شء .. حتى نفسى !
نعم .. لقد أصبحت محطمة ..

كنت على وشك أن أبلغ التاسعة عشرة من عمري ،
ولكنى أصبحت أشعر كأنى فى الأربعين .. مثقلة النفس
بالهم .. تعيسة دائما .. حائقة دائما .. أتحرك فى خطى بطيئة
كأنى أخاف فى كل خطوة أن تنشق الأرض تحت أقدامى
وتبتلعنى .. وأخاف أن أهتز فيتحرك عقلى ويرتكب خطيئة
أخرى .. وكنت أنظر الى المرأة فلا أرى « نادية » التي
عرفتها .. ليست هذه هى « نادية » .. ليس هذا الوجه
وجهها ، العينان الغائرتان يحوطهما سواد كالح كان يد
الشیطان قد مسحت فوقهما .. والوجنتان الذابلتان كان
دمائى تعجز دون الوصول اليهما .. والشفتان المزمومتان
كأنهما تكتمان الألم .. والحاجبان المعقدان .. والنظرات
الحادة .. لا .. ليس هذا وجهى ..

وكنت أسرع الى أصبأغى أأأول أن أصبغ شففى
ووجنى وأأفى السواد فى عىنى ببطبقات « الكرىم » ثم
لا ألبث أن ألقى بكل هذه الأصبأغ على الأرض كأنى أأأول
أن أأظمها كما أظمى نفسى ..

لىس العىب فى وجهى .. انه فى نفسى ..

وقد هرمى نفسى ..

هرمى وأنا لم أصل بعد الى النأسة عشرة من عمرى ..



كان أبى قد أصبح انسانا آخر ..
لم يعد وقورا ، ولا هادئا ، ولا مسئولا ، ولا حنونا ..
أصبح انسانا تعسا .. سكيلا لا يفيق .. عربيدا لا يشبع من
عربدته ..

ولم يحدث هذا التطور بالتدريج ، انما حدث مرة
واحدة .. وكان زوجته عندما تركت البيت أخذت معها عقل
أبى ، وضميره ، وارادته ، وتركته جسدا خاويا كالصندوق
الفارغ .. ليس فيه شيء ، ولا يمكن أن تعتمد على شيء
منه ..

ففى اليوم التالى للطلاق خرج أبى فى الصباح ، بعد أن
اطمأن على فى مرضى .. وعاد متأخرا جدا عن موعد الغداء ..
عاد مخمورا تتعثر أقدامه فى خطواته ، ويتعثر لسانه بين
شفتيه ، وتتعثر نظراته بين جفنيه .. وجاء الى غرفتى ، ووقف
على بابها ، وقال بلسان ملتو :
— ازيك دلوقت ؟ ..

ونظرت اليه فى دهشة ولوم ، ولم أرد عليه ..
وكانه خجل من نظرتى ومن دهشتى فلم يتكلم ، واستدار
ودخل غرفته ..
وتذكرت ساعتها أنى أصبحت سيدة البيت .. فضغطت

على الجرس الموضوع بجانب فراشى أنادى دادا حليلة ..
وقلت لها فى لهجة غابت عنها طويلا .. لهجة حاولت — رغم
ضعفى — أن تكون أمرا :

— روحى قولى لعبدى يقدم الغدا لبابا ..
وعادت دادا حليلة بعد قليل قائلة :
— سيدى البية يقول انه تغدا بره !

ومن يومها — وطوال فترة مرضى — وأبى يحرص على
أن يرانى فى الصباح ويحرص على أن ينتظر الطبيب فى موعد
عيادته . وفى غير هذا لم يكن يحرص على شىء .. لم أعد
أراه الا فى مواعيد متفاوتة .. ولدقائق معدودة .. وأراه
دائما سكران ، يبذل مجهودا كبيرا ليخفى التواء لسانه
واهتزاز خطواته ، مجهودا يستغرق كل تفكيره وكل ارادته
حتى لا يصبح فيه شىء يعطيه لى .. شىء من حنانه !

لم يعد يرعانى كما رعانى فى صغرى ..

ولم يعد ملهوبا على راحتى كما عودنى ..

ولم يعد يجلس الى ليحدثنى عن مشاكله ومشاكلى ..

أصبح انسانا غريبا .. غريبا عنى وعن البيت ..

وعندما قمت من مرضى وجدت نفسى وحيدة .. حتى أبى
فقدته .. كان احساسه بعربدته يجعله يخجل من مواجهتى
فيبتعد عنى ويتوارى منى .. وكان لا يعود الى البيت
الا بدافع من بقية شعور بأنه أب مسئول عن ابنته ، وربما
كان لا يعود الا بحكم العادة ..

واحترت ماذا أفعل لأعيدته الى ، لأعيدته الى حنانه ولهفته?
كنت أدخل الى حجرته في الصباح فأجد ثيابه مبعثرة
على الأرض ، وأجده نائما منتفخا وأنفاسه معبأة برائحة
الخمر .. فأجمع الثياب وأرتبها مكانها وأفتح النوافذ ، ثم
أقبل عليه أحاول أن أوقظه بقبلاتي . وتنقضى فترة طويلة
مملة يغالبنى فيها حتى يفتح عينيه .. ولا يكاد يرى وجهي
حتى يتسهم ابتسامة كبيرة .. ويهم بتقبيلي قبلة حنونة .. ثم
كأنه يتذكر حاله ومصيبته .. فيسحب ابتسامته وتقع قبلته
على خدي باردة سريعة ، ثم يدير عينيه عنى .. وهو يقول
كأنه يعتذر لى :

— يظهر انى سهرت كثير امبارح !!

وفى كل صباح كان يكرر نفس الكلمة دون أن يبدلها
أو يغيرها ، حتى أصبحت كلمة معادة ليس لها معنى ، لا فى
لسانه ولا فى أذنى ..

وكنت أنتظره حتى ينتهى من حمام الصباح .. حمام
صامت ليس فيه غناء كما اعتاد أن يفنى عندما كانت معنا
زوجته ..

ثم كنت أساعده فى ارتداء ثيابه ، وأجلس معه على مائدة
الافطار الذى كان يتناوله دائما وحده ، فقد كنت أسبقه فى
تناوله قبل أن يصحو من نومه قبيل الظهر .. ولم نكن خلال
ذلك نتبادل حديثا .. انما مجرد كلمات مبتورة .. أسئلة
قصيرة وأجوبة أقصر .. ثم كان ينتهى من افطاره سريعا

ويخرج مهرولا كأنه يفر من شيء .. كأنه يفر منى .. وأخرج وراءه لأودعه حتى الباب الخارجى فلا يلتفت الى ، كأنه يخشى أن يلتفت وراءه فيجد زوجته تتبعه ، كما كانت عاداتها ..

وفى وحدتى كنت أتعذب ..

عذاب يمزقنى ، ويمزق أعصابى .. كنت أحس انى أعيش فى حداد .. كأن ثوبى أسود ، وصدري أسود ، ورأسى أسود .. حدادا على نفسى .

وكنت أستسلم الى هذا العذاب . والى هذا الحداد .. كنت أرتاح اليه كأنى أكفر به عن جريمتى .. كأنى راهبة فى معبد النار تحرق نفسها لتتطهر من خطاياها .. ولكنى أحيانا كنت أحاول أن أخفى عذابى .. واحترت أين أخفيه ؟

كنت أحاول أن أخفيه فى الاشراف على أعمال الخدم .. واذا بى أتنبه الى انى — دون أن أشعر — أقلد طنط صفية .. أقلدها فى ابتسامتها ، وفى حيويتها ، وفى معالم شخصيتها ، بل انى كنت أكرر نفس كلماتها التى تعودت أن تلقىها الى الطباخ والسفرجى .

كنت أتنبه الى انى أقلدها ، وأتنبه الى أن الخدم يلبون أوامرى بلا حماس ، ويخيل الى أن على شفاههم ابتسامات ساخرة كأن كلا منهم يقول لى : « أين أنت منها » ؟ ..

كنت أنتبه الى كل ذلك فيزداد عذابي ويزداد شعوري
بالحداد ..

وأهرع الى غرفتي وأستلقى على فراشي.. وأدعو دموعي
فلا تلبى دعوتي .. كانت دموعي قد فرغت.. بكيت مايكفيني
العمر كله ..

وكنت أحيانا أحاول أن أخفي عذابي في طيات حديث
تليفوني مع بعض بنات العائلة ، أو بدعوتهن الى زيارتي ..
ولكن الحديث لا يلبث أن يفتر ، وزيارتهم لا تلبث أن تصبح
ملة تافهة . فأحس اني أسمع حديثهم من بعيد حتى لا أكاد
أتبين كلماته ، وأحسن كأنى أرى وجوههم من بعيد حتى
لا أكاد أعرفهم . ويشتد في صدري حديث عذابي وصور
جرائمي حتى لا أعود أرى ولا أسمع شيئا آخر .

وكنت أحادث مصطفى في التليفون كأنى أستعين به على
عذابي .. كأنى أستجير به .. ولكن مصطفى كان أيضا بعيدا
عنى .. كان حديثه يطوف بى دون أن يدخل الى قلبى والى
رأسى .. لم يكن يعلم ما بى .. فكيف يواسينى فيه !!?

وكنت أرفض أن ألقاه .. لا أدري لماذا ؟ .. ولكنى كنت
أصر وأقاوم كثيرا حتى أرفض دعواته المتكررة الى لقائه ..
ربما لأنى كنت أكفر عن ذنبى بحرمان نفسى منه .. وربما
لأنى أردت أن أثبت لنفسى أنى أستطيع أن أكون سيدة بيت
مسئولة .. مسئولة عن البيت وعن ثقة أيها بها .. وربما لأن
عذابي كان أقوى من حبى ومن نزواتى .. فاضطرت الى أن

أستسلم للعذاب .. وربما لأن الدوافع التى كانت تدفعنى
الى لقائه قد زالت ..
ما هى هذه الدوافع ؟
لا أدرى ..

ولكنى لم أعد أشعر بحاجتى الى لقائه .. هذه الحاجة
الملحة المجنونة التى كانت تدفعنى اليه ..

وكنت فى هذه الوحدة التى يتركنى فيها أبى .. لا أنام ..
انما يمر الليل بى وأنا أطوف بين غرف البيت كالشبح الباكى
الحزين أو كمقرب الساعة يطوف بين الدقائق والساعات ..
أطوف بين الغرف كأنى أهرب من غرفة الى غرفة ، وأحس
فى هربى بطنط صفيحة تلاحقنى .. أكاد أرى صورتها على
الجدران ، وأكاد أحس بأنفاسها خلف أذنى ، وأكاد أسمع
خطواتها تتبع خطواتى .. انها فى كل مكان من البيت .. كانت
تجلس هنا .. وكانت تأكل هنا .. وهنا كانت تقف لمراقبة
الخدم .. وهنا كانت تشتغل التريكو .. وهنا .. وهنا ..
وهنا .. وأحس بالخوف .. خوف يستبد بى الى حد الرعب ..
فأجرى الى غرفة دادا حليلة وأخبط على بابها بكلتا يدى ،
وأنا أصرخ : « دادا .. دادا .. دادا حليلة » !

وتهب المسكينة مفزوعة من نومها ، وترانى أمامها خائفة
مرتعدة ، وأقول لها كأنى أستعطفها :

— تعالى أقعدى معايا والنبي يادادا .. أحسن مش

جايلى نوم !!

وتذهب ورائى الى غرفتى ..

وأستلقى على فراشى مبجلقة العينين كائى اخاف أن
أغمضهما فتتهجم على جيوش الشياطين . وتجلس دادا حليلة
على الأرض بجانب الفراش تتحدث عن أى شىء .. ثم ينتهى
حديثها دائما الى طنط صفية ، فتأخذ فى التحسر عليها ، كأنها
«معددة» تعدد مناقب عزيز ذهب .. وأحس بهذا «التعديد»
كأنه سياط تلهب صدرى وظهرى ، وتستدر الدموع
والصراخ من قلبى ..

ثم تتعب دادا حليلة من الحديث ومن « التعديد »
فتسقط جفونها فوق عينيها ويسقط رأسها على الأرض
وتنام تحت أقدامى كالكلب الأمين .. وأظلم أنا مبجلقة العينين
أخاف أن أغمضهما حتى لاتتهجم على الشياطين ..
هكذا كنت أعيش بعد أن شفيت من مرضى ..
هكذا كان حالى ..

وحاولت أن أقاوم هذا الحال .. أن أبدله .. أن أنتقل
الى حال آخر .. أى حال غير هذا الذى أعيش فيه ..
واعتقدت اننا لو انتقلنا من هذا البيت لتبدل حالى ..
لأستطعت أن أبدأ حياة جديدة ليس فيها هذا العذاب
ولا هذه الشياطين التى تلاحقنى .. لاستطعت أن أنسى
جريمتى .. واستطاع أبى أن ينسى زوجته ..
وبدأت أفنع أبى بالانتقال الى بيت آخر .. واعتقدت
انه لن يقتنع أبدا .. فقد كان هذا البيت الكبير عزيزا عليه

دائما .. لقد ولد فيه .. وولدت أنا فيه .. وشهد عز العائلة
كلها منذ كان جدى على قيد الحياة ..
ولكن أبى أقتنع بسهولة .. كأنه لم يعد يهمه أين
يعيش .. ولا كيف يعيش ..

لم يقتنع بالحجج الكثيرة التى قدمتها اليه عن ضرورة
التوفير فى نفقات الخدم وفى مصروف البيت مما يكلفه لنا
الاتقال الى شقة صغيرة باحدى العمارات ، انما وافق على
الاتقال دون أن يناقش هذه الحجج ، وربما دون أن يلقى
بالا اليها ..

وبدأت أبحث عن شقة فى احدى العمارات الجديدة ..
تصحبنى دائما احدى سيدات العائلة .. ووجدت فى هذا
البحث ما يلهينى عن عذابى ، على الأقل خلال فترة النهار ..
ووجدنا أخيرا شقة فى عمارة بشارع مظهر بالزمالك ..
شقة من خمس غرف .. قسمتها فى مخيلتى الى غرفة
للسالون وأخرى للطعام ، وثالثة للمكتب ، ورابعة لأبى
والأخيرة لى ..

وحاولت أن أطبع هذه الشقة بطابعى الخاص ..
ولكنى فشلت .. فشلت فى أن يكون لى ذوق خاص ،
فقد كان يخيل لى دائما فى كل شىء أنتقيه أو أصممه ، انى
أستعير ذوق طنط صفية .. وأحيانا كان يخيل الى أنى
أتحداها .. ولكنى فى تحديها أجد نفسى أنزل كثيرا عن
مستواها !!

وأخذت من أثاث البيت القديم ، أثاث غرفة المكتب ..
وأثاث غرفتي ، وبعض المقاعد من الصالون .. وصممت على
أن يكون لغرفة نوم أبى أثاث جديد .. كل ما فيه جديد ..
كنت أريد أن أعينه على أن ينسى ، وأن أبعد عنه كل
ما يذكره بزوجته . الفراش الذى جمعهما .. والدولاب الذى
ضم حلتة الى ثوبها .. والمرآة التى انطبعت فوقها صورتها ..
لعله بعد ذلك ينسى ..

واقضت ثلاثة شهور قبل أن أنتهى من اعداد الشقة
الجديدة وننتقل اليها .

ووقفت أنظر الى البيت الكبير لآخر مرة قبل أن أتركه
الى الأبد ، وأترك فيه كل ذكرياتى .. ذكريات طفولتى وصباى
وشبابى .. ذكريات حفرت فوق جدرانها وخطت على أرضه ..
ذكريات رسمتها دموع فتاة معذبة لاتدرى لعذابها من سبب
الا أن خلقت فى هذه الدنيا .. ووجدت فى هذا البيت ..

خيل الى انى أرى يد البلى تمتد الى البيت وأنا لا أزال
واقفة أمامه .. خيل الى ان آلافا من العناكب قد قفزت فوقه
وأخذت تنسج خيوطها حوله بمجرد أن خطوت بعيدا عنه ..
وخيل الى أن عنكبوتا منها قد تسرب الى قلبى وأخذ يلف
خيوطه حوله ..

وأصبحت أحس أنى أحمل فى صدرى قلبا ملفوفا
بخيوط العنكبوت ..
قلبا مهتما ..

هل سعدنا فى الشقة الجديدة !?

لا شك أنى تخففت من كثير من العذاب .. أحسست
أنى أكثر نشاطا ، وأكثر اقبالا على مواجهة الواقع الذى
يحيط بى .. وربما أحسست أيضا أنى بدأت أنفض بعض
الذبول الذى دب فى شبابى وان دمائى بدأت ترتفع فى مشقة
الى وجنتى ..

ولكن أبى ساء حاله عما كان عليه ..

تمادى فى عربده ..

وأصبحت عندما أدخل غرفته فى الصباح ، وأجمع ثيابه
المبعثرة على الأرض ، أجد على قميصه آثار أحمر شفاه ..
من نوع رخيص !!

وحدث بعد ذلك أن كنت عائدة من عند الطيب فى سيارة
أجرة ، عندما رأيت سيارته واقفة أمام احدى العمارات قريبا
من ميدان الأزهار .. ورأيت السيارة مرة ثانية أمام نفس
الباب .. وتعمدت أن أمر أمام العمارة مرة ثالثة فوجدت
السيارة أمام نفس الباب أيضا ..

وتأكدت أن أبى أصبح له شقة خاصة ..

شقة كالتى يملكها مصطفى ..

وسكت .. لم أتكلم .. ولم أحاول أن أفكر فى شىء ..
لم أحاول أن أحاسب والدى أو أراقبه .. خيل الى أن من

حقه أن يكون له شقة خاصة ، وأن يلتقى فيها بمن يشاء من النساء .

ولكن هذا لم يكن أبى ..

ليس هو أبى الذى عرفته قبل أن يتزوج والذى كان يعيش لى ، ويهينى شبابه ليرعانى وينشئنى .. كان أبى دائما ضنفا آخر من الرجال غير مصطفى ..

وأحسست انى بدأت أكره مصطفى لأن أبى أصبح

مثله ..

الى أن كان يوم ..

ودق جرس الباب وكانت الساعة حوالى الواحدة بعد

الظهر . وجاء عبده السفرجى يقول لى ان بالباب سيدة تريد مقابلة أبى ، وانه عندما أخبرها بأن أبى ليس فى البيت ،

طلبت أن تنتظره حتى يعود ..

وخرجت اليها ..

ووقفت مشدوهة أمامها كالعبيطة ..

لم أدر كيف أخطبها ، وكيف انتقى أول كلمة يمكن أن

أوجهها لها ، ولم أستطع أن أتصور ماذا يمكن أن تريده

مثل هذه المرأة من أبى .. ثم انقلبت دهشتى الى نوع من

التعالى عليها ، والازدراء بها .. فشددت قامتى ، وقلبت

شفتى ، وأخذت أفحصها بعينى كأنى أقيس طولها وعرضها ..

كانت امرأة رخيصة .. أقرب الى المحترفات .. اختلطت

الأصباغ الفاقعة فوق وجهها .. أحمر فاقع ، وأبيض فاقع ،

واسود فاقع .. وانحدر شعرها المصبوغ فوق كنفها كأنه يكاد يسقط على الأرض تأففا من رأسها ، وارتدت ثوبا أصفر يكشف عن نصف دائرة نهديها رغم أننا في وضح النهار ، ومن فوقه معطف أحمر واسع مضى على طرازه عامان ..

هل وصل أبى الى هذا المستوى من النساء !?

هل فقد كل شيء حتى ذوقه .. وكرامته !?

هل هذا هو النوع الذى يتردد على شقته الخاصة !?

ولا أدري لماذا تذكرت فى هذه اللحظة شقة مصطفى ..
ولا أدري لماذا بدأت أقيس نفسى بهذه المرأة .. ان كلينا يتردد على الشقة الخاصة .. أنا أذهب الى مصطفى .. وهى تذهب الى أبى .. فهل أنا مثلها .. مثل هذه المرأة !?

وأحسست كأن أمعائى تكاد تخرج من بين شفتى ، وأنا أقارن نفسى بهذه المرأة ، وسمعت نفسى أصرخ فى صدرى :
« لا .. لست أنا مثلها .. لست مثلها ، لقد كنت أحب ..
كنت معذبة .. كانت قوى مجهولة تدفعنى الى شقة مصطفى ! »

ومرت بى كل هذه الخواطر خلال برهة من الزمن ، ثم سمعت نفسى أقول للمرأة وأنا لا أزال أشد قامتى تعاليا ، وأقلب شفتى ازدراء :

— حضرتك عايزه مين ؟

قالت وهى تنثنى فى وقتها وتنظر الى كأنها تعينى من
ثيابى :

— عايزه أحمد بيه لطفى .. هوه مش ساكن هنا ؟!
قلت فى برود :

— أيوه .. بس هوه مش موجود .. خرج !
قالت وهى تتقدم خطوة أخرى داخل البيت :
— ممكن أستناه لما يرجع ؟
قلت كأنى أصفعها :
— ليه .. فيه حاجة ؟

قالت وهى تبسم ساخرة دون أن تأبه بالبرود الذى
أخاطبها به :

— فيه حاجات كثير .. تسمى ؟!
ودخلت الى الشقة وجلست على المقعد الموضوع فى
« الأتريه » وهى تقول :

— على الله أحمد بيه ما يتأخرش !
وقفت أنظر إليها من بعيد وأتعجب لجرأتها ووقاحتها ،
ثم ضبطت أعصابى حتى لا أثور ، وقلت فى صوت خفيض
كأنى أدارى فضيحة :

— أنا بنته .. أقدر أعرف عايزه ايه .. يمكن أقدر
أساعدك ؟

قالت وهى ترفع حاجبا وتخفض حاجبا آخر :
— ما كنتش أعرف ..

قلت وأنا لا أفهمها :

— ما كنتيش تعرفى ايه !?

قالت :

— ماكنتش أعرف ان له بنت كبيرة وعروسة كده ..

تعرفى انك شبهه تمام .. أول ماشفتك افتكرتك أخته ..

قلت وأنا أضغط على كل أعصابى :

— آدى اتتى عرفتى .. تسمحنى تقوليلى بأه انتى عايزاه

ليه ?

قالت وهى تجول بعينيهما فى الصور المعلقة على الجدران:

— بلاش أحسن .. بلاش تعرفى !!

قلت وكأنى أتحداها :

— أنا أعرف كل حاجة عن بابا ..

قالت فى برود :

— ما أظنش !!

وانفجرت صارخة :

— وما أظنش ان حضرتك تقدرى تستنى هنا كثير ..

بابا مش جاى على الغدا .. وأنا نازلة دلوقت .. وما أقدرش

أنزل وسيبك فى البيت !

ونظرت الى فى برود كأنها تنظر الى طفلة ، ثم قالت فى

صوت هادىء وهى تتجاهل صراخى :

— معاكى خمسميت جنيه !!?

وتراجعت وقلت فى دهشة :

— خمسميت جنيه بتوع ايه ؟

قالت وهى تحول عينيهما عنى وتسوى أكام معظمها :

— كميالة .. كتبها لى أبوكى !

قلت كأنى أخاطب نفسى :

— كميالة .. بتاعة ايه .. خد منك ايه علشان يكتب لك

كميالة ؟

وضحكت ضحكة فاقعة ، وقالت وحاجباها يتحركان

فوق عينيهما :

— خد منى الغالى يا حبيبتى !!

ولم أجادلها .. وعدت أقول كأنى أخاطب نفسى :

— لازم كتب الكميالة دى وهو سكران !!

وكانها سمعتنى ، فردت بلا مبالاة :

— يبقى يقول كده فى المحكمة !!

ووقعت على مقعد آخر ، وأحسست كأن رأسى يدور ،
وتخيلت أبى فى المحكمة ، واقفا بجانب هذه المرأة أمام
القاضى . وتخيلت أن قاعة المحكمة مزدحمة بالألسنة .. ألسنة
الناس .. ألسنة فوق المقاعد .. وألسنة تطل من السقف ..
وألسنة مزروعة فى الأرض . وكلها ألسنة طويلة .. طويلة
جدا .. تتلوى كالأفاعى وتطرع كالكرابيج ، ثم تلتف حول
أبى ، وترفعه وتخفضه وتتقاذفه فيما بينها وسط ضحكات
مجنونة كالصراخ .. وأنا واقفة على الباب أرى كل ذلك ..
أرى عرض أبى ينتهك وسمعتة تلو كها الألسن .. فتنفتح

عيناي بالرعب ، وأصرخ : « بابا .. بابا .. يا حبيبي يا بابا »
فترد على السنة الناس بالضحكات المجنونة كأنها الصراخ ..
مر بي هذا الخيال في لحظة خاطفة ، ثم قلت بصوت
ذليل :

— أقدر أشوف الكميالة ؟

وقالت ساخرة :

— لما أشوف الخمسيت جنيه قبله !!

قلت كأني أفكر :

— واستحقاقها امتي الكميالة دي ؟!

قالت وكأنها بدأت تأخذني مأخذ الجد :

— فات عليها يومين .. وبادور على أحمد ييه في كل

حته مش لاقياه .. اضطريت آجي له البيت .. ده حقى ..

وما ضاع حق من مطالب !!

قلت في ذل :

— أقدر أطلب منك معروف ؟

قالت وهي تنظر الى في تعجب :

— خير .. معروف ايه ؟

قلت وأنا أنظر اليها في رجاء :

— تأجلى الكميالة أسبوع واحد .. واذا ما أخذتيش

الفلوس ابقى اعملى اللى اتنى عايزاه ..

ونظرت الى كأنها تفحصنى ، وسكتت فترة كأنها تفكر،

ثم قالت في تردد :

— وحاجيبي الفلوس منين .. من أبوكى !!?

قلت وكأنى أنفض الذل عن صدرى :

— حاجبهم وخلص . المهم ما تدوريش على بابا ،
ماتطليش منه حاجة .. أنا حاجبك الفلوس لغاية عندك ..
ادينى نمرة تليفونك ولا عنوانك ، وأنا أوصلك الفلوس
بنفسى !!

قالت وهى لا تزال مترددة :

— واذا ما جيتهمش !?

قلت فى سرعة

— مش حتخبرى حاجة .. الكميالة فى ايدك وتقدرى
تطالبى بيها فى أى وقت !
قالت وهى تقوم واقفة :

— طيب .. علشان خاطرک بس .. وربنا يصبرنى ..
أصل لو جيتى للحق أنا لا أحب المحاكم ولا الفضايح ..
قلت فى انكسار :

— مرسى ..

وخرجت بعد أن أعطتنى نمرة تليفونها ، دون أن أمد
يدى لمصافحتها ..

وصفقت الباب وراءها كأنى أكنسها من البيت .. كأنى
أتخلص من شىء كرهه يسمم الهواء من حولى ..
وجلست أفكر .. أفكر بعقل مخنوق لا يستطيع أن

يتنفس بالأفكار .. وخيل الى بعد مدة طويلة أنى وجدت
الطريق الذى أحصل منه على الخمسمائة جنيه ..

كنت قد قررت أن أخفى عن أبى خبر هذه الزيارة
الغريبة .. كنت أعلم انى سأقتله لو علم أن هذه المرأة قد
جاءت الى البيت ، وانى قابلتها ، وانى علمت منها خبر هذه
الكمبيالة المدنسة التى كتبها ..

قررت ألا ألجأ الى أبى ، وأن أدبر الخمسمائة جنيه
بنفسى ..

واتصلت بالتليفون بجرجس أفندى شنودة ناظر العزبة،
وطلبت منه أن يحضر الى مصر ويقابلنى فى نفس اليوم ..
وراعيت أن يكون وصوله فى موعده يكون فيه أبى خارج
البيت ...

وجاء جرجس أفندى دهشنا .. فقد كانت المرة الأولى
التى أخاطبه فى التليفون وأدعوه لمقابلتى .. جاء وعلى وجهه
المعروق رغبة عنيفة فى استطلاع الخبر .. رغبة تكاد تبدو
على وجهه ، كأنها لذة تعتمل فى نفسه ..

وقلت له وهو جالس قبالتى :

— أنا عايزاك يا جرجس أفندى تدبر لى خمسميت جنيه
بكره يا بعده ..

ورفع جرجس أفندى شففيه من فوق فنجان القهوة كأن
لسانه قد لسعته النار ، وقال فى دهشة وتلعثم :

— والله ياست هانم .. والله ..

قلت كأنى أطمئنه :

— أنا حاكبتلك وصل بيهم .. وآخر السنة لما تقدم

الحساب حتلقى اليه عنده خبر ..

قال وهو يخرج منديله المخطط ويمسح به شفتيه

الرفيعتين .. ثم يرفعه الى أنفه ويتمخط ، ثم يرفع نظارته

الفضية من فوق عينيه ويمسحها به :

— مش قصدى ياست هانم .. بس .. بس ..

قلت فى حدة كأن دماء الأتراك كلهم منذ عهد السلطان

سليمان قد تجمعت فى عروقى :

— بس ايه ؟

قال وهو يعيد نظارته فوق عينيه :

— أصل ما فيش فى العزبة ولا مليم .. الخزانة فاضية ..

والفلاحين دفعوا اللى عليهم من بدرى .. وبعضهم دفع

مقدما .. واللى ما دفعش ما معهش .. أصل اليه السنة دى

مستعجل على الفلوس قوى .. عمره ما كان كده .. ما بقناش

نشوفه الا من الحين للحين . بييجى يقعد نصف ساعة يلهم

الفلوس ويرجع ..

وسكت قليلا .. وتذكرت ان والدى كان بيت ليلتين

كل أسبوع خارج البيت بحجة انه فى العزبة .. وكنت أحب

دائما أن أصدق حجته حتى لا أتعذب بخيالى وأنا أتخيله

يقضى الليل فى شقته الخاصة ..

وقلت وأنا لا أستطيع أن أواجه جرجس بعيني ..

— يعني ما فيش ولا خمسميت جنيه ؟

قال وهو يهز رأسه وينش فوقها بمنشته العتيقة :

— ياريت والله ياست هانم ..

وانتظر قليلا كأنه يفكر ، ثم انطلق قائلا بصوت مرتفع

كأنه كان يخترن أنفاسه حتى يجد في نفسه الجرأة ليطلقها :

— ده حتى البيه الشهرين اللي فاتوا باع عشرين فدان

من العزبة لجارنا عبد الغفار باشا بتراب الفلوس .. وقبض

التمن نقدا ومن يومها ماشفناش سعادة البيه ..

ورفعت اليه عيني في دهشة ورعب ثم خفضتها بسرعة

كأنى أخفى عنه دهشتى ورعبى ..

وتجراً جرجس أفندى أكثر وقال بعد قليل :

— أنا عارف سيدي البيه يعمل بالفلوس دي كلها ايه ..

ده عمره ما كان كده !! ..

ونظرت اليه نظرة غاضبة كأنى اعتبرته يتهجم على أبى ،

وقلت وأنا أستجمع ارادتي كلها حتى احتفظ بعيني مسلطين

عليه :

— أصل البيه دخل في شركة جديدة ويعمل مصنع

جديد !

وهز جرجس أفندى رأسه كأنه لا يصدق ، وقال :

— ربنا يوفقه ياست هانم .. والله ما في بركة الا في

الأرض . شركات ايه ومصانع ايه !! ..

قلت كأنى أطرده :

— على كل حال متشكرة قوى يا جرجس أفندى .. أنا
حادير الفلوس من حته تانيه .. ماتساش تسلم على أم عطية ..
وتركنه وانصرفت الى حجرتى .. وسمعتنه ورائى يقول :
— البركة فيكى ياست هانم .. أم عطية توفاهها الله من
تلات أشهر !

وتوقفت خطاي كأنى طعنت بسكين ..

ثم خطوت الى حجرتى دون أن أرد عليه ، أو أترحم على
أم عطية ..

وأخذت أخطو جيئة وذهابا داخل غرفتى كأنى حبيسة
فى سجن أسود لا أرى فيه نورا أفر منه ..
ماذا حدث !?

ماذا حدث لنا ياربى !?

أم عطية تموت .. آخر الأحياء من أيام جدى والتي كنا
نكرمها جميعا كأننا نكرم ذكرى عزيزة علينا .. تموت فلا يعلم
أبى .. وربما علم ونسى أن يخبرنى كأن موتها ليس خبرا
يستحق أن تتناقله بيننا ..

وأبى يبيع أطيانه ..

أبى الذى كاد يجن عندما استولى الاصلاح الزراعى
على مائتى فدان من أراضيه .. يبيع الآن الأطيان ليعثر ثمنها
على نساء أشبه بالمحترفات ..
ماذا حدث !?

وكيف أحول دون كل هذه المصائب .. كيف أتقذ البقية
من أبى .. ومن أرضنا ..

لماذا لا أستطيع أن أفكر ؟

لماذا لا أجد حلا ؟

لماذا كان عقلى ينشط ويلمع ويبرق عندما كنت أفكر فى
جريمة .. فى شر .. ولماذا يتكاسل الآن ويصيبه الغباء .. وأنا
أحاول أن أبحث عن طريق الخير ، أحاول أن أكفر عن
جريمتى وأتقذ ضحيتى ..

وأحسست أنى فى حاجة الى انسان بجانبى ..

انسان يعيننى ..

انسان يأخذ ييدى فى طريق الخير ..

ووجدت مصطفى يقفز الى خيالى ..

لماذا مصطفى ؟

لماذا هو بالذات ، وقد اعتقدت انى ابتعدت عنه .. وانه
لم يعد فى حياتى سوى ذكرى لا أستطيع أن أنساها
ولا أستطيع أن أستعيدها ..

لا أدرى .. ربما لأنه انسان مجرب يستطيع أن يدلنى
على طريق التعامل مع مثل هذه المرأة التى تطالب بقيمة
الكميالة .. وربما لأنه فيلسوف يستطيع أن يدلنى على
الطريق الذى أستعيد به أبى ..

لست أدرى .. انما ذهبت اليه .. ذهبت واجفة القلب ..

كانت قد مضت ستة شهور لم أر فيها مصطفى .. شهور
تسعة مظلمة ، حزينة ، قضيتها في حداد على ضحايا جريمتي ..
وفي خلال هذه الشهور كان جسدي كله راكدا في
انكسار وحزن .. لم تتحرك فيه رغبة ، ولم تشتعل فيه
دماؤه ، ولم تهف عليه ذكرى قبلة أو لمسة .. بل كنت أحيانا
أتحسس مواضع قبلات مصطفى ولمساته فلا أجد لها أثرا ،
كأن أمواج الحوادث التي مرت بي مسحت كل آثار الحياة
من فوق الشاطئ .. من فوق جسدي ..!
غريب أمر هذا الجسد !!

انه يصوم أحيانا صياما طويلا ، حتى تعتقد أنه زهد في
الحياة ووهب نفسه للدير ..

وأحيانا يقبل على الحياة في نهم ويستسلم لرغباته في
عنف حتى يخيل اليك انه لن يشبع أبدا .. يخيل اليك ان
الرغبة ستدمره وتفجره ولا تبقى منه الا شظايا متماسكة ..
لماذا ؟ ..

ربما لأننا لانستطيع أن نفصل الجسد عن الروح .. ليس
هناك جسد خالص ولا روح خالصة .. كلاهما مرتبط
بالآخر .. وكلاهما خاضع للآخر .. عندما تنشط الروح
ينشط الجسد ، وعندما تركد الروح يركد الجسد ..

هذا الجسد الغالى ليس مجرد آلة .. ليس عربة ترام
تسير فى خطوط منتظمة .. يصعد اليها الناس وينزلون فى
محطات معينة .. ويقوم المجتمع بدور « المفتش » ليحسب
عدد الركاب ويعاقب المخالفين .. ويقوم الأب والأم بدور
« الكمسارى » يمنحان تذكرة ركوب لكل راغب فى الزواج ..
لا .. ليس الجسد عربة ترام .. انه أعلى من ذلك .. انه
روح .. ولن نستطيع أن نحكم أجسادنا الا اذا حكمنا
أرواحنا .. لن نستطيع أن نصون هذه الأجساد وننظمها مهما
اشتد نشاط « المفتشين » ومهما بذل « الكمسارية » من جهد
الا اذا استطعنا أن نصون الروح .. أن نجعل أرواحنا تتنفس
فى جو صالح ، وسط مجتمع صالح حتى لاتتعقد وتضطرب
فيضطرب معها الجسد ..

هل هذا صحيح ؟..

لست أدرى ..

ولكنى كنت أشعر وأنا ذاهبة الى مصطفى ، بأن جسدى
لا يزال فى صيامه الطويل ، وأن كل ما فيه راكد فى انكسار
وحزن ..

ورغم ذلك .. كنت واجفة القلب !

كنت أحس كأن يدا مجهولة تمسك بذيل ثوبى وتجرنى
الى الورا . الى الورا السحيق .. الى الأيام التى كنت
أتردد فيها على شقة مصطفى لأصهر جسدى وقلبى وعقلى
فوق صدره العارى الأسمر ، فى لون شريحة البفتيك المشوى

نصف شواء .. وخيل الى ان هذه الايام بعيدة جدا .. كأنها
ذكرى طفولة في خيال امرأة عجوز !!

ودخلت من باب العمارة وأنا أتلفت حولي كأنى أرى
ذكرياتى مرسومة فوق الباب وفوق الجدران .. وحدق
البواب فى وجهى كأنه يحاول أن يتذكرنى ، ثم كأنه تذكرنى
فهب واقفا وبين شفثيه ابتسامة كبيرة .. ولكنى تجاهلته
وسرت نحو المصعد ، فجرى ورائى وفتح لى باب المصعد
وهو يقول :

— ازاي الصحة ياست هانم ؟

ولم أتلفت اليه .. لم أرفع عينى الى وجهه .. ولم أرد
عليه ، انما اكتفيت بأن حركة شفثى فى تنمة ليس لها صوت
ولا معنى .. ودخلت المصعد ، وأغلق بابه ورائى ، وصعدت
كأنى أهبط !..

انه نفس البواب الذى كنت أمنحه تقودا ليراقب مصطفى
ويبلغنى أخباره .. ونفس المصعد الذى أوقفته مرة بين دورين
لأبدل ثيابى وأفاجىء مصطفى فى ثوب أشبه بثوب العروس
فى الليلة التى قضيتها معه ..

ومر شريط ذكرياتى فى مخيلتى بسرعة عجيبة ، كأنى
رأيت عمرى كله تجمع فى لحظة واحدة . ثم تنبعت لأسائل
نفسى مرة ثانية : لماذا أنا هنا !?

انى هنا لأعرض على مصطفى مشاكلى ..
انى مريضة .. ومصطفى الطبيب ..

مصطفى بكل تجاربه ، وبكل فلسفته يستطيع أن يكون
طبيبي ..

واسترحت الى هذا الرأي .. استرحت الى مصطفى
كطبيب !

ولكن مصطفى لم يستقبلني كطبيب .. لقد فتح لي
الباب وفي عينيه نفس النظرة التي تعود أن يستقبلني بها ،
وبين شفثيه نفس الابتسامة ، وهو مرتد — كماداته —
قيصا مشمر الأكمام مفتوح الصدر ، وسروالا ..
عجيب أمره ..

انه لا يتغير .. لا يكبر .. ولا يصغر وليس أبدا أقل
سعادة ولا أكثر سعادة ..

يمر بي الزمن فأسعد وأشقى ، وأمراض وأشفى ،
وأخطىء وأندم .. ويمر الزمن بأبي فيتزوج ويطلق ، ويكسب
ويخسر ، ويؤمن ويكفر .. ويمر بعمى فينقله كل يوم من
حال الى حال .. ولكن الزمن يمر بمصطفى ، فيتركه كما
هو .. بل ربما لا يمر به أبدا .. ينسأه .. يتخطاه ويعفيه من
آثار خطواته ..

ووقفت مترددة أمام الباب ..

لا أستطيع أن أعود ، ولا أستطيع أن أدخل ..

وكنت مرتبكة .. لا أدري كيف أتسم ولا ماذا أقول ..

بل لم أكن أدري هل أفرح بلقاء مصطفى أم آسف على
عودتي اليه .

وربما طال ترددي ، فقد رأيت نظرة مصطفى تضطرب
بين عينيه كأنه يسألني لماذا التردد؟.. ورأيت ابتسامته تضيق
كأنه احتار من أمري .. ثم قال في صوت متقطع كأنه يأتي
من مجرى ملء بالصخور :

— أهلا ..

ثم سكت ..

وخطوت الى الداخل .. واستدار مصطفى الى وهو يمد
ذراعه ويدفع ضلفة الباب ليغلقها .. وأدرت رأسي الى الباب
وهو يغلق ، كأنني أتأكد من أنني أستطيع أن أفتحه عندما
أريد !!

وأمسك مصطفى بكلتا يدي ، وأدارهما في يده ، وانحنى
يقبل باطن كفي .. كعادته ..

ولم تسر قبلته في أعصابي .. لم أحس بها في قلبي وفي
رأسي ، كما تعودت .. أخذتها كامرأة مجربة لم يعد يجدي
معها تقبيل باطن كفيها !!

ووقف أحدنا في مواجهة الآخر .. وقلت وأنا أحاول أن
أمزق الصمت من حولنا :

— ازيك يا مصطفى ؟

قال وهو يطوف بعينه فوق وجهي :

— ازيك اتنى .. يظهر ان مرض الكلا يبجلى الناس ..
اتنى احلويتى قوى ينادية .. انما كفاية حلاوة ، وكفاية عيا..
قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— خلاص .. بعد كده مش حايعا الا باذلك !!

وسكت مصطفى كأنه يفكر فى شىء يجب أن يقوم به ..
ثم مد ذراعيه وأحاط بهما خصرى وجذبنى اليه .. لم يضمنى
بعنف .. بل ضمنى برقة وحذر كأنه يخاف أن يلقي ثقله على
مرة واحدة ..

واستسلمت .. شعرت ان ليس من حقى أن أقاومه .. بل
شعرت أكثر من ذلك .. شعرت انى يجب أن أغمض عيني
وأن أهيم فى أحضانه .. أن أعطيه من روحى ومن جسدى
ما تعود أن يأخذه .. انه صاحب حق مكتسب ليس من حقى
أن أحرمه منه .. ولكنى لم أستطع . لم أستطع أن أعطيه
شيئا من روحى ، ولم أستطع أن أنفخ فى جسدى ليتجاوب
مع جسده .. وخيل الى أن دقات قلبى ليست متفقة مع دقات
قلبه .. كل قلب يدق نغما يختلف عن الآخر .. كل ما شعرت
به وأنا بين أحضانه انى أضم ثوب طفولتى .. أضم ذكرى
من ذكرياتى .. ولم أستطع أن أهيم فى هذه الذكرى .. لم
أستطع أن أفقد رأسى وأنسى وجودى .. كان عقلى واعيا
نشطا يرقب كل حركة من حركاته .. وكنت أحس بوجودى ..
كنت أرى ذراعيه اللتين تحيطان بخصرى .. وأرى صدره
وأرى لون قميصه .. وأرى المقاعد .. وقطع الأثاث من
حولى .. وأرى الصور المعلقة على الجدران .. كنت واعية
تماما .. وعيا يحول دون استسلام جسدى وروحى !
وأحسست بشفتى مصطفى تلمسان خدى .. ولم أنفر

من قبلته .. ولكنها لم تثر في نفسى الاحساس القديم ..
سقطت على خدى وبقيت هناك ، فلم ينتشر تأثيرها في بقية
أعضائى .. كانت أقرب الى قبرة أخ لى ، أو قبرة أبى ،
أو قبرة احدى سيدات العائلة .. مجرد لمسة من شفقتين ..
أى شفقتين . فوق خد .. أى خد !!
وأطلقنى مصطفى من بين ذراعيه ..

ورأيت فى عينيه حسرة .. كأنه يتحسر على شىء جميل
فقدته .. ثم أمسك بيدي وقادنى الى غرفة المكتبة — كما
تعودت أن أسميها — ووقفت على بابها كأنى أرى أمامى
أعنف أيام حياتى ، وركزت عينى فوق الأريكة العريضة
التي كثيرا ما ضمت جسدى عاريا .. وابتسمت فى نفسى ..
ابتسمت لجسدى العارى الذى أراه بخيالى ممددا فوق
الأريكة .. وخيل الى انى أراه جسدا جميلا .. جميلا جدا ..
كجسد طفلة تلهو فى « البانيو » ساعة الاستحمام !!
غريبة .. انى أشعر وسط كل هذه الذكريات بأنى ..
عجوزة !

وسبقنى مصطفى داخل الغرفة ، وقال وهو يفتح
« البيك آب » :

— تحبى تسمى اسطوانات ايه ؟

وابتسمت ابتسامة كبيرة ..

انه مصطفى .. لم يتغير !!

وقلت من خلال ابتسامتى :

— اللى يعجبك !!

ووضع مصطفى فى « البيك آب » نفس المجموعة الغريبة المتناقضة من الاسطوانات .. اسطوانة لشوبان ، واسطوانة لسيد درويش ، واسطوانة لعبد الوهاب ، واسطوانة لاسماعيل يس . وعلى صوت الاسطوانة الأولى تنبته الى انى جئت اليه لأعرض عليه مشكلتى .. لأقول له كل شيء ، حتى يدلنى على طريق الخير ..

ولكنى فجأة أحسست انى لا أستطيع أن أقول له كل شيء .. لا أستطيع أن أروى له مثلاً قصة الكميالة التى كتبها والدى لهذه المرأة الرخيصة .. أحسست أن مصطفى غريب ليس من حقه أن يعلم أسرار والدى وأسرار حياتنا .. بل انى سأشعر بالخجل ، والذل ، لو علم بحال والدى الآن ، والدرك الذى وصل اليه ..

ورغم ذلك .. فقد كان هناك جزء من المشكلة أستطيع أن أرويه له وأسأله رأيه فيه ..
وقلت فى تردد :

— فيه حاجة يامصطفى عايزه أسألك فيها ..

قال وهو لا يزال مشغولاً بضبط صوت « البيك آب » :
— خير .

قلت بسرعة ، كأنى خفت ألا أقول شيئاً :
— بابا ..

والتفت الى فى حدة كأنى فاجأته ، وقال كأنه يتعجلنى :

— ماله ..!!

قلت وأنا أجلس على الأريكة :

— اتغير خالص .. من يوم ما طلق طنط صفيه بأه واحد
تاني .. ومش عارفه أعمل ايه .. مش عارفه أسعده ازاي ..
ورجعه زي ما كان ..

قال في صوت خفيض وهو ينظر الى قدميه :

— باباكي غلط غلطة كبيرة ..

قلت في مسكنة :

— أنا عارفة .. انما غلطة ممكن تتصلح .. نصلح
الغلطة دي ازاي !?

قال كأنه غاضب على أبي :

— الغلطة دي مش ممكن تتصلح .. مش ممكن !!

قلت كأنى أعاتبه :

— يعنى أسيب بابا يعمل في نفسه العمائل دي كلها ؟ ..
قال في برود :

— سيبه .. كلها يومين .. وبعديهم ينسى ، ويفوق
لنفسه ويرجع زي ما كان ..

وتجاهلت كلامه وقلت كأنى أحادث نفسي :

— أنا كنت بافكر انه يرجع لطنط صفيه .. بس مش
عارفه أرجعهم لبعض ازاي ؟

وارتفع صوت مصطفى .. وقال في حدة أدهشتني ،
وكأنه يصد شرا عن نفسه :

— مش ممكن .. مش ممكن يرجعوا لبعض تانى ..
الطبق اللى ينكسر عمره ما يتصلح !!
قلت والدهشة لحدته تسرى فى كلامى :

— بالعكس .. الطبق اللى ينكسر يتصلح ، وفيه مثل
يقول : « الطبق المشروخ يعيش أكثر » !!
قال وهو لا يزال محتدا :

— يمكن يعيش أكثر صحيح .. انما يفضل طول عمره
مشروخ .. مرسوم عليه خط اسود . الخط الأسود ده
حيفضل دايمًا فى حياة أبوكى ومراته لو رجعوا لبعض ..
حيفضلوا دايمًا شايفينه واقف بينهم . حيفضل أبوكى مذلول
دايمًا لمراته لأنه مش حيقدر ينسى غلظته .. وحيفضل دايمًا
يشك فيها .. ويدور فى حياتها على عذر لغلظته القديمة ،
وحتفضل مرأة أبوكى خايفة منه دايمًا ، خايفة يتجنن ويطلقها
تانى .. وحتفضل فاكراه له الغلظة .. عمرهم ما حيرجعوا
لبعض زى ما كانوا .. عمرهم ما حيقبوا سعدا زى ما كانوا
سعدا . الطبق لما ينشرخ يفضل مشروخ على طول ..

ولم أتكلم .. خيل الى أن مصطفى هدم كل آمالى حتى
لم أعد أستطيع أن أرفع رأسى من بين أنقاضها ، لأحرك
لسانى ..

وهذا مصطفى قليلا وعاد يقول فى صوت أقل حدة :
— الأديان اللى حرمت الطلاق كانت عارفة انها مش
ممكن تتصلح .. والنبي لما قال « ان أبغض الحلال عند الله

الطلاق» كان عارف انه ييعالج مر بمر .. لو كان الطلاق
ممکن يتصلح ما كاتتش الأديان حرمة ، ولا كان ربنا
كرهه .. كانوا سابوا الناس تتطلق وترجع في طلاقها زى
ما هى عايزة .. وزى ما قلتك .. الطباق اللى ينشرح يفضل
مشروخ على طول ..

قلت فى صوت خفيض منكسر :

— يعنى من رأيك ان ما فيش فائدة !!

وجلس مصطفى بجانبى ، وأخذ يدي بين يديه ، وقال
كأنه يواسينى :

— سيبى كل حاجة تاخذ حدها .. أنا عارف ان باباكنى
حالته اتغيرت .. بقالى مدة باشوفه فى البارات .. وباشوفه
ييشرب كثير ، وباسمع عنه حاجات كثير .. انما كل حاجة
بتاخذ حدها وتفوت . وبكره بابا يرجع زى ما كان .. بس
اتنى اصبرى ..

ونكست رأسى ولم أرد .. وتمنيت أن أبكى ..

ووضع مصطفى يده تحت ذقنى ورفع وجهى ، وقال
وهو ينظر فى عيني بحنان :

— فين ابتسامة شفايفك !!?

وابتسمت .. أو حاولت أن أبتسم ..

وقرب مصطفى وجهه من وجهى .. ووضع خده على
خدى .. ثم زحف بشفتيه واستقر بهما فوق زاوية شفتى ..
ولم أتنفض .. ولم أغمض عيني .. ولم أحس بقبلته

تتعدى موضعها . ولم أفقد رأسى ولا سيطرتى على أعصابى ،
كنت واعية ، أرى الصور المعلقة على الجدران والأثاث من
حولى ، وأسمع أنغام الاسطوانات صادرة من «اليك آب»
لا من السماء .

وقال وشفته ترتطمان بخدى :

— أنا ما وحشتكيش ياناوية !?

قلت فى مسكنة كأنى أحرص على ارضائه :

— وحشتنى يا مصطفى ..

وربما كانت الدموع المحبوسة فى عينى قد ألهمت وجنتى ،
فاتقلت سخوتها الى وجنتى مصطفى .. فقد شعرت بأنفاسه
تسرع وتتهدج .. وأحسست بذراعيه يرتفعان الى خصرى
وتزحف كفاه فوق ظهرى .. ويضمنى برفق .. ثم بعنف ..
ثم تنفج شفته وتلتقطان شفتى فى قبلة .. لا .. لم تكن
قبلة .. رغم كل فن مصطفى فى القبل .. لم أشعر بها كقبلة ..
كمخدر .. انما مجرد شفيتين فوق شفتى .. قبلة استسلمت
لها وأنا أفكر متى تنتهى !!

وربما أحس مصطفى ببرودى .. أحس انى لا أتجاوب

معه .. ولكنه استمر ..

رأيت يده ترتفع الى رأسى وتمسح فوق شعرى .. ثم
تسلل أصابعه لتتزع مشابك شعرى وتتركه ينسدل فوق
ظهرى كما كانت عادته عندما يريدنى ..

وفى هذه اللحظة أحسست — ولأول مرة — ان أنفاس

مصطفى قد هبت في غير موسمها ، وان لمساته تقع في غير
موضعها ، وقبلاته تأتي في غير موعدها .. فانقلت منه قبل أن
يحل شعري ، وقمت واقفة على قدمي ..
ولم أتكلم .. لم أجد ما أقوله ..

وخفض مصطفى رأسه وأخذ ينظر الى قدميه ، ثم هز
كتفيه كأنه يقول لي : « لقد حاولت أن أقوم بالواجب »
ثم رفع رأسه وقام واقفا دون أن يلتفت الى بعينه ، واتجه
الى « البيك آب » ، وهو يقول .. كأنه يريد أن يقول لي
أى شيء :

— تحبى أسمعك اسطوانة جديدة لسه جاية
امبارح .. و ..

وقاطعته في صوت رقيق كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— أنا لازم أنزل دلوقت يامصطفى .. لسه عندي مشاوير
كثير .

واستدار الى ..

ووقف قبالتى صامتا ، وهو ينظر الى بكل عينيه كأنه
يحاول أن يفوس في أعماقي ، ثم قال في صوت خجول :

— أنا آسف ..

وفهمت ماذا يعنى .. وابتسمت كأنى صفحت عنه ..

وسار معى حتى الباب .. وأمسك ييدي بكلتا يديه ،
وقال في رنة صدق واخلاص :

— مهما حصل يانادية .. كل اللى باطلبه منك انك

تعتبريني دايمًا جنبك .. صديقك .. أبوكى .. عمك ..
أخوكى .. أى حاجة .. انما دايمًا جنبك !!
قلت وأنا أعنى ما أقول :

— انت دايمًا جنبى يا مصطفى .. دايمًا بافكر فيك كل
ما احتاج لحد جنبى ..

وابتسم فى وداعة ، كأنه قنع بمكانه بجانبى ..
وفتح الباب ..

وأطلق يديّ من بين يديه ..

وهمت أن أخطو خارجة ، ولكنى استدرت إليه ،
وقبلته قبله سريعة فوق خده .. ثم خرجت دون أن أنظر إليه ..
وأقفلت الباب ورائى بنفسى ..

ولم أندم على زيارتى لمصطفى .. بالعكس .. شعرت
والمصعد يهبط بى انى أرتفع .. أرتفع من الماضى الى الحاضر ،
والى المستقبل ، أحسست أنى أزحت عن صدرى عبئًا ثقيلًا ..
كأنى شفيت من المخدر الذى كنت أدمنته .. كأن ما كان
بينى وبين مصطفى ليس سوى حلم ومضى .. والأحلام
ليست خطيئة .. ان الله لا يعاقبنا على الأحلام .. حتى لو
كانت جميلة !!

ما أعجب الانسان !!

ما أعجبنى !!

لو جاءنى الانسان والجن منذ عام واحد وقالوا لى ان

كل ما بينى وبين مصطفى ليس سوى حلم .. حلم سينتهى
بكل بساطة وبلا ضجة وبلا حادث ، انما يذبل فى رقة كما
تذبل الزهرة الجميلة الضعيفة .. لكذبتهم .. ولأقسمت لهم
على حبى .. حبا أبديا لا ينتهى ، ولا يذبل ، ولا يمكن أن
أفيع منه !!

ولكن هكذا الانسان .. سيعيش عمره لا يعرف نفسه ،
ولا يرى غده ، ولا يمسك بأمسه .. انه لا يستطيع أن يرسم
لنفسه صورة أبدية يضعها داخل اطار ويعلقها أمامه ، ويقول:
« هذا هو أنا » .. أبدا .. ان « أنا » هذه ليس لها صورة ..
انها معنى .. مجرد هواء .. « أنا » اليوم غير « أنا » غدا ،
وغير « أنا » أمس .. أنا اليوم سعيدة . وأنا غدا تعسة ..
أنا اليوم أحب .. وأنا غدا لا أحب .. أنا اليوم أحلم ، وأنا
غدا لا أحلم ..

كيف يرسم الانسان هذه « الأنا » .. كيف يرسم نفسه
وهو لا يعرفها .. ولا يعرف لها حالا مستقرا فى يوم واحد ،
ولا فى دقيقة واحدة .. ولا فى لحظة واحدة .. ان كل شىء
يمكن أن يحدث لهذه النفس فى كل وقت ..

بل ليس هناك ما نستطيع أن نسميه « اليوم » .. كل
الأيام أمس .. وكل الأيام غدا .. لا تكاد تمسك بيومك حتى
تجده أمس أو غدا ..

كيف نستطيع أن نستقر فى هذه الدنيا ؟

كيف نستطيع أن نضع لعواطفنا « معنى » محدودا
والنفس التي تتأجج بهذه العواطف ، ليس لها معنى !!?
كيف تستطيع أن ترسم الحب ، اذا كانت النفس التي
تحب ليس لها صورة !!?
كيف تستطيع أن تعرف شعورك اذا كنت لا تعرف
نفسك ?

لا .. ليس هناك حب .. ولا كراهية ولا حقد ..
ولا شهامة ولا أى معنى من هذه المعانى .. لو كان هناك
حب لاكتشفنا صورته وشكله ومركباته ، ولاستطعنا أن
نحقن أنفسنا به عندما نريد ، وننفضه عن نفوسنا عندما
نريد .. ولكن لا .. ان كل ارادتك لا تساوى شيئا لأنك
مخلوق ضعيف لا تستطيع شيئا . انك تحب رغم أنك ،
وتكره رغم أنك ، وتحقد رغم أنك ، وتكون
شهما رغم أنك .. لا أسباب .. ولا حيثيات .. هكذا
خلقت .. وهكذا قدر عليك .. فاخضع أيها الانسان ..
اخضعى يانادية فهذا نصيبك من الحياة .. هذه هى نفسك
التي رزئت بها !!

دارت كل هذه الخواطر فى نفسى ، والمصعد يهبط بى
وأنا أبتسم فى راحة واستسلام ..
الاستسلام لنفسى ..

كنت أتعجب .. ولكنى لم أكن نائرة .. ولم أكن متحيرة
على نصيبى من الحياة .. كنت أترك مصطفى كأنى أودعت

عنده ماضى معه .. تخلصت من هذا الماضى .. وارتحت ..
كل ما بقى لى هو ظل من مصطفى يرسب فى أعماقى .. ظل
عزيز .. وسيبقى مصطفى دائما عزيزا .. انه الانسان الوحيد
الذى لم أحتد عليه ، ولم يصبه شئ من شرى .. ولم يكن
ضحية لى تعذبنى وتصرخ فى صدرى لتوقف ضميرى ..
وخرجت الى الشارع ..

وتذكرت ان المشكلة لم تحل .. انى لازلت أبحث عن
وسيلة أَدفع بها لهذه المرأة الرخيصة قيمة الكميالة التى
كتبها لها أبى وهو مخمور .

من أين أحصل على خمسمائة جنيه دون أن أثير فضيحة ..
ودون أن يدرى أبى !!?

وناديت سيارة أجرة ، وضعت نفسى فيها وأمرت
السائق أن يحملنى الى فندق الكوتنتنتال ..

كان عمى عزيز يقيم هناك منذ افترق عن أبى . ولم أكن
قد رأيتَه منذ وقع الطلاق ومنذ مرضت .. كان يحادثنى كثيرا
فى التليفون ، وكان يعدنى بأن يلقانى يوما خارج البيت ..
ولكنه لم يدعنى أبدا الى لقائه .. ولم أكن ألومه .. فقد
كانت طبيعة حبه لى ألا يحمل نفسه مسئوليتى .. كان يدللتى
ويعطف على ويوجب كل ما أطلبه منه .. ولكنه لم يكن يتعمد
أن يرانى مادام يستطيع أن يفعل شيئا آخر .. كان طيب
القلب ولكنه لا يضع لطيفة قلبه مظهرا معينا ، ولا تقاليد
يحرص عليها ..

ودخلت فندق الكوتستنتال دون أن أتلفت حولي ..
كنت أشعر وأنا أخترق أبهاء الفندق انى أقتحم دنيا للرجال
فقط ..

وقلت لعامل المصعد فى خجل كأنى أهرب من العيون
التي تلاحقنى :

— أودة ميتين واتنين من فضلك !!

ونظر الى العامل كأنه يفحصنى .. وقال فى أدب بارد :

— حضرتك عايزة مين ؟

قلت وأنا لازلت أستحبه :

— عزيز بك لطفى !!

قال دون أن يتحرك :

— تسمى تفضلنى فى الهول لغاية مانديله خبر !!

قلت فى حدة :

— أنا بنت أخوه .. و ..

وقاطعنى :

— والله ممنوع زيارة الستات فى أود النزلاء !!

ورفع رأسه الى السقف .. وأخذ يصفر بشفتيه نعمًا ،
خافتا فى وقاحة .. دون أن يتحرك من وقفته ، وفكرت قليلا ،
ثم فتحت حقيبتى ، وخيل الى أن العامل خفض رأسه
واحتوى كل ما فى الحقيبة فى نظرة واحدة ..

وأخرجت ورقة مالية من ذات الخمسة وعشرين قرشا ،

وكورتها في يدي ثم دستها في يده الملقاة الى جانبه ..
وأصابها تتحرك كأنها تبحث عن أى شيء تلتهمه ..
وعدت أقول :

— أودة ميتين واتنين من فضلك .

وقال وهو ينحنى فى أدب ويفسح لى الطريق داخل
المصعد :

— حضرتك بنت أخو عزيز ييه .. اتفضلى يا أفندم ..
عزيز ييه زبون قديم .. اتفضلى !!
وأشحت عنه بوجهى فى غيظ واحتقار ..
وعندما وصلنا فتح لى الباب وهو يقول فى أدب يقطر
سما :

— رابع أوده على الايد اليمين ..

وقرت على الباب دون أن أسمع ردا !!
وأدرت الأكرة ودخلت ..

كان عمى — كمادته — لا يزال نائما والغرفة مظلمة ..
رغم أن الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر ..
وجلست على حافة الفراش ، وملت عليه وقبلته فى
جبينه .. ثم قبلته فوق وجنته .. ثم قبلته فوق وجنته
الأخرى .. ثم عدت أقبله فوق جبينه . كما كانت عادتى
عندما كان يقيم معنا فى الدور العلوى من البيت الكبير فى
حى الدقى . كنت قد عودته أن أوقفه بقبلاتى ..

ومد عمى ذراعاه وأحاطنى بها وهو لا يزال مغمض
العينين كأنه يحلم ..

ورقدت فوق صدره وعدت أقبله من جديد ..
وفتح عينيه ..

ثم عاد وأغمضهما ، وعاد وفتحهما ثم صاح :
— نادية ..

وضحكت ، وأسلمته وجهى ينهال عليه تقييلا ، ثم قال
وهو يحتضننى فى قوة كأنه يريد أن يدخلنى فى قلبه :
— نادية .. يا حبيبتى يا نادية ..

وحاولت أن أبتعد عنه وأنا أقول :

— ازيك يا أونكل .. وحشتنى ..!?

وجذبنى الى صدره وهو يقول فى حنان ضاحك :

— لسه .. لسه على الأقل ألف بوسة !!

وعاد يقبلنى ..

ثم قال :

— دى مفاجأة عجيبة .. كان متهيا لى انى باحلم .. مش

كنت تضربى تليفون قبل ما تيجى ..

قلت :

— حيث آجى أصحيك بنفسى ..

وأبعدنى عنه وهو يضع على وجهى مزيدا من القبلات ،

ثم قفز من فراشه واتجه الى النوافذ يفتحها وهو يقول :

— وازای صحتك . . وازای دادا حلیمة وازای الواد
عبده السفرجی ..?

ثم عاد الی وقال ولهفته أكثر جدیة وحنانا :
— اتی كنت وحشانی یانادیة .. ماتتصوریش كنتی
وحشانی قد ایه .

قلت ضاحكة حتی أخفف من حدة عواطفه :
— أتاریك كنت بتسأل عنی كل یوم .. ده حتی وعدتنی
انك تحدد لی « راندفوه » ولغایة دلوقت ما سألتش عنی ..
قال وهو یضحك :

— أنا أصلى متعود أتقل على الستات .. أفضل أتقل
لغایة ما ییجو لحد عندی ..
قلت وأنا أفتعل الغضب :
— أنا مش ستات ..
قال :

— والبنات كمان باتقل علیهم ..
وضحكنا ..

ثم فجأة انقطعت ضحكتنا كأنها قطعت بمقص حاد ..
وأدار رأسه عنی وقال فی تردد وبصوت خافت :
— وازای أخویا أحمد ؟
وتنهدت وقلت فی حسرة :
— الحمد لله ..

والتفت الی وأمسك بكتفی وقال ، وهو ینظر فی عینی :

— فيه ايه يانادية .. أخويا عمل ايه كمان .. قوليلي ..
قلت وأنا أهرب من عينيه :
— ما فيش حاجة ..
قال :

— مش ممكن .. مش ممكن ما فيش حاجة . مش ممكن
تيجيلي هنا في اللوكاندة وما يكونش حصل حاجة ..
قلت في انكسار :
— بابا ما عملش حاجة .. انما ..
قال في حدة :
— انما ايه .. حصل لك ايه !?
قلت :

— أنا ما حصليش حاجة .. انما هو حصل له حاجات
كثير !

قال كأنه يقاوم عواطفه : — المهم اتى ..
قلت كأنى أدافع عن أبى :
— المهم هو .. أنا مش ممكن جبقي سعيدة ولا حاستريح،
الا ما أشوفه سعيد ومستريح ..
قال وكأنه يتنهد :
— أنا عارف انه اتغير .. عارف انه داير زى المجنون
ما حدش عارف يلمه ويحطه في مستشفى المجاذيب ..
قلت :
— بابا مش مجنون .. فيه حاجات انت مش عارفها ..

ماحدث عارفها ، انما لازم نثقده قبل ما يخرّب نفسه ..
تعرف انه ابتداء يبيع فى الأرض بتاعته ؟
قال وهو يتنهّد تنهدة أخرى :
— عارف ..

قلت كأنى قدرت أن عواطفه قد لانت ليقبل مساعدتى :
— تعرف انه كتب كميالة لواحدة ست ومش قادر
يدفعها ..
قال فى دهشة :

— كميالة لواحدة ست . مين دى ؟
قلت كأنى أهم بالبكاء :
— ما اعرفش .. واحدة جت البيت وقالتلى ان معاها
كميالة من بابا بخسميت جنيه ، اذا ما دفعهاش حتروح
المحكمة ..

وسكت عمى ولم يتكلم ..
وعدت أقول وأنا أخرج منديلا صغيرا من حقيبتى :
— تصور يا أونكل . تصور لما بابا يقف قدام واحدة
ست زى دى فى المحكمة ، تصور الفضيحة اللى تحصل ،
حودى وشى فين .. وحتودى وشك فين ..
قال كأنه ييخلق فى عالم بعيد .. يرى فيه أخاه وراء
القضبان :

— وجايه لى علشان الموضوع ده ؟
قلت كأنى ألومه :

— أمال كنت عايزنى أروح لمين ؟
قال فى يأس كأنه لا يستطيع أن يقاوم عواطفه :

— وعايزانى أعمل ايه ؟

قلت :

— ما أعرفش .. أنا نفسى مش عارفه أعمل ايه ..
ماقدرتش أسأل حد .. مافيش حد لى أسأله الا أنت .. حتى
بابا ما يعرفش انى عارفه بالحكاية دى ..

قال وهو يضرب ركبته بقبضة يده :

— يعنى عايزانى أدفع أنا الخمسميت جنيه !!?

قلت :

— اعمل اللى أنت عايزه يا أونكل !!

قال وهو لا يزال يضرب بقبضته :

— والله عال ، أخويا يطلق مراته أباه أنا السبب .. يمشى
مع واحدة ويكتب لها كميالة تقوم تيجى على دماغى
برضه .. لا ياستى .. يفتح الله .. أنا خلاص اتبريت من
أخويا . ما ليش دعوه بيه .. يعمل اللى هوه عايزه بس بعيد
عنى ..

قلت فى ذلة وانكسار :

— انما أنا ماقدرش أتبرأ من بابا .. كل اللى حيحصل

له ، حيحصل لى أنا كمان ..

ولم يرد عمى .. وقام وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة
بخطوات عصبية ..

وحاولت أن أبكى لعل بكائي يذيب ما بقى من مقاومته..
ولكننى لم أستطع .. لم أجد دموعا أبكى بها ، فاكتفيت بأن
رفعت منديلى على عيني فوق وجنتين جافتين ..
وطالت فترة صمته ..

ثم سمعته يقول فى صوت محشرج كأنه ينطلق رغما عنه:
— والست دى ماتعرفيهاش .. ماتعرفيش هيه فين ؟
قلت وقد بدأت الفرحة تسرى فى قلبى :

— ادتنى نمره تليفونها .. وقاللتلى اذا ما كاتتش تستلم
الفلوس يوم السبت الجاى .. يوم الحد حتكون فى المحكمة..
قال وهو ينظر الى :

— طيب حظى نمره التليفون عندك ، جنب السرير !!
قلت وأنا أخرج الورقة الصغيرة التى تحمل رقم التليفون:
— مرسى ياعمى ..

قال فى حدة وهو يستدير الى :

— بس اسمعى .. تانى مرة تأكدى انى مش ممكن حا..
وقبل أن يتم قفزت اليه وتعلقت برقبته ، وأنا أقول :
— ربنا يخليك لنا يا أونكل .. يخليك لى ويخليك لبابا..
وقال وهو يترك وجهه لى لأملأه بقبلاى :
— ربنا يكون فى عونك يا بنتى ..

ثم قبلنى وهو يقول :

— انزلى اتنى بأه خلىنى أدخل الحمام ..
قلت فى دلال :

— مش حانزل الا لما تدينى « راندفوه » ..

قال مبتسما :

— بعدين ..

قلت :

— لأ دلوقت .. كفاية تقل يا أونكل .. حرام عليك ..

قال ضاحكا :

— طيب ياستى .. بكره ناخذ الشاى سوا فى جروبى

الساعة خامسة ..

قلت وأنا أقبله :

— ألف مرسى .. أرفوار ..

وانطلقت الى الباب وقبل أن أخرج نادانى فى صوت

عال .. كأنه ينادينى من آخر الدنيا :

— تعالى هنا ..

وعدت اليه فى دهشة ، قائلة :

— نعم يا أونكل ..

قال فى رقة وحب وهو يحتوينى بين ذراعيه :

— بوسينى كمان !!

وقبلته عشرات القبل ..

وخرجت ..

وكنت سعيدة .. خيل الى أن الله قد صفح عنى وانه بدأ

يعيننى على حل مشاكلى .. بسهولة وبساطة ..

ولكن المشكلة الكبرى لم تحل بعد .

أبى ..

كيف أعيده هادئا حنونا وقورا كما كان ؟

كيف أتشله من الهاوية التى تردى فيها ، ومن العذاب
الذى يتقلب على ناره ؟

وسرت بين ممرات الفندق وأنا لا أدرى بما حولى ..
ووضعت نفسى فى المصعد يهبط بى .. وخرجت وأنا أفكر ..
وأفكر .. وخيل الى أنى أسير فى ضباب كثيف أسود باحثة
عن النور ..

وعندما وصلت الى الشارع لمع فى ذهنى بريق خيل الى
انه نور ..

لقد وجدت الحل للمشكلة الكبرى :

ان أبى يجب أن يتزوج !!

لم لا .. انه لم يتم بعد الثانية والأربعين من عمره ..
عنفوان الرجولة .. وان لم يستطع أن يعود الى زوجته
السابقة ، فليبحث عن زوجة أخرى .
أنا التى سأبحث عنها .

لقد فشلت فى اسعاده .. فشلت أن أكون ملكة على
عرش بيته ، أهبه الهدوء والاستقرار والسعادة ، فلا تنازل
عن العرش لأخرى ربما استطاعت أن تسعده ..
وربما ارتاح ضميرى ..

وربما عوضت أبى عن جريمتى فى حقه ..

أصبحت أنظر الى أبى وهو فى عربدته كما ينظر الطبيب
الى مريضه المجنون ريشا يعد له دواء مسكنا .. أو حقنة
مورفين !!

وكان الدواء الذى أعده له هو أن أزوجه ، أن أبحث له
عن زوجة تعوضه عن تلك التى فقدتها .. وتعيد اليه سعادته
ووقاره واحساسه بالمسئولية ، وتعيده الى البيت !
وألهتنى هذه الفكرة عن عذابى برؤية أبى فى حاله ..
عذابى بأكاذيبه .. وعذابى باهماله لى .. وعذابى برؤيته
مخمورا دائما .. وعذابى بغيرتى عليه وخوفى من الطريق
المجهول الذى يسير فيه ويسحبني اليه وراءه ..

وأصبحت أفضى يومى أستعرض النساء اللاتى أعرفهن
لأنتقى من بينهن زوجة لأبى .. وكنت أتعمد أن أصل مايبنى
وبين المجتمعات ليتسع أمامى مجال الاختيار ..

أصبحت كأنى طفلة فى سوق العرائس أنتقى عروسة
لنفسى ألهو بها وأضمها فى فراشى بين ذراعى لعلى بعد
ذلك .. أنام !

ولم يكن فى خيالى أوصاف معينة للزوجة التى أختارها
لأبى ، الا شرط واحد ، هو أن تكون سمراء .. فكل النساء
اللاتى رأيتهن فى حياة أبى كن سمراوات .. أمى سمراء ،

طنظ صفة سمراء .. حتى هذه المرأة الرخيصة التي كتب لها
أبى كميالة ، كانت سمراء .. ويبدو أن النظرية التي تقول
ان الرجل الأشقر يفضل المرأة السمراء ، والمرأة السمراء
تفضل الرجل الأشقر .. نظرية صحيحة !!

واستعرضت عشرات السمرات .. وكنت أتفحص كل
واحدة منهن وأضعها تحت اختبارى لمدة أسابيع كأبى أم
تبحث عن عروس لابنها ..

ثم أذعت بين صديقتى ان أبى يبحث عن زوجة لنفسه ..
واتتشر الخبر .. وبدأت كثيرات من السيدات يتوددن الى
ويزرننى فى البيت .. ويدعيننى أنا وأبى الى بيوتهن .. وكان
أبى يرفض كل هذه الدعوات ، ويرفض أن يجالس الزائرات ..
كان سادرا فى حياته العريضة ، وكان يبدو عليه أنه يحقد
على كل نساء الأسر الكريمة منذ حقد على زوجته السابقة ..

ولم تحد الشائعات التي كانت تحيط بأبى ، وبحياته
التي يحيها ، وبقصة طلاقه ، من طمع الأسر الكريمة فى
اصطياده .. فقد كان وهو فى سن الثانية والأربعين جميلا
رشيقا ، وان كان قد أصابه بعض الترهل نتيجة اسرافه فى
تعاطى الخمر .. ثم انه كان غنيا .. وكان العرش الذى أقامه
لطنظ صفة يجعل كل فتاة تطمع فى مثله .

ورأيت العجب من نفاق الأسر الكريمة فى توددها الى
والى أبى .. ولكن رغم كل هذا النفاق لم تعجبني واحدة من
كل السمرات اللاتي رأيتهن .. هذه تخينة .. وهذه

قصيرة .. وهذه ثقيلة الدم ، وهذه متعجرفة ، وهذه عابثة ..
كل واحدة منهن كنت أجد فيها عيبا .. حتى بدأت أتهم نفسي
بأنى لأريد أن أزوج أبى ، وإنى أتخيل هذه العيوب لأعلل بها نفسي ..

الى أن انتقلنا الى الاسكندرية فى الصيف ..
وبدأت أتعرف بأسر المصيفين وأجالسهم فى الكباشن
وتحت الشماسى باحثه بينها عن سمراء تصلح لأبى ..

كانت الفكرة تلح على الحاحا شديدا ، الحاحا تغلب
على انطوائى ، وعلى صمتى الدائم ، فأصبحت جريئة فى
مخالطة الناس كثيرة الكلام .. حتى عرفنى الشاطيء كله ..
عرفنى كفتاة مهذبة مترفعة لا تختلط الا بالأسر ولا تجالس
الا النساء .. فلم يكن لى حب ، ولم يكن لى رجل ..
الى أن قابلت صديقتى كوثر ..

انى لازلت أذكرها كما تركتها عندما كانت زميلة لى فى
مدرسة « مدام أورلى » بالمعادى .. كانت تكبرنى .. وكانت
سمراء رقيقة طيبة ، تمشى كأنها تسبح فى الفضاء ، وتتكلم
كأنها تترنم بنغم جميل وتبتسم وكأنها تشرق ، وتسدل
شعرها الأسود الطويل خلف ظهرها كأنها ملاك يحتمى بالليل
من النهار ..

وكانت أيامها تحب مدحت ، حبا راقيا عفا ، وكان يمكن
أن ينتهى جهما الى زواج ، لولا أن تدخلت بينهما وسلطت
عليهما خططى السوداء الشريرة حتى فرقت بينهما ..
ونظرت الى كوثر كأنى أنظر الى عمر ضاع منى ..

ولكنها لم تعد ضعيفة ولا رقيقة ..
ليس فيها شيء يسبح في الهواء ..
ان كل شيء فيها قد تغير ..

ابتسامتها الجريئة تقفز فوق وجنتيها كما تقفز حبات
الذرة الساخنة فوق النار الملتهبة وتفتح « كالفشار » ..
ولفتات عينيها سريعة عصبية كأنها تريد أن تجمع كل ما حولها
في لفتة واحدة وتشبع منه ، وشفتاها مثيرتان وتتعمد أن
تركب بينهما فرجة ضيقة حتى تكونا أكثر إثارة .. وجسدها
قد نضج حتى تكاد كل قطعة منه تسقط عن عودها ..

لقد تزوجت كوثر وطلقت بعد عام من زواجها ، وعاشت
من يومها مطلقة ، وقد رأيتها لأول مرة على الشاطئء جالسة
في كابين يجمع بضع سيدات مطلقات ، وبضع سيدات على
وشك الطلاق !!

ولا أدري لماذا تتجمع المطلقات بعضهن مع بعض دائما .
ولماذا لا تقع بينهن صديقة متزوجة حتى يلحقها الطلاق ؟!
يخيل الى أن المطلقات يعشن في عالم آخر غير الذي
تعيش فيه الزوجات .. عالم له تقاليد خاصة ، وأخلاق خاصة ،
وأحاديث خاصة .. عالم تتجمع فيه شلال المطلقات ويقضين
النهار والليل بعضهن مع بعض ، وكل ما في رءوسهن اختطاف
الرجال أو تدبير خطة لخراب بيت !!
وقد رأيت هذا العالم عندما التقيت بكوثر ..

كنت أمر أمام هذا « الكاين » عندما سمعتها تنادينى
صارخة :

— نادية .. نادية ..

والتفت اليها ورأيتها وصحت فرحة :

— كوثر .. ازيك ياكوثر !?

وقفزت من الكاين ، وجاءت الى واحتضنتنى وهى
تقول :

— نادية لطفى .. والله زمان .. لسه طويلة زى ما اتتى ..

أطول منى بأربع قراريط . انما اتتى خسيتى قوى يانادية ..

لازم اتجوزتى .. اتجوزتى مين .. مدحت ..!?

كانت تتكلم بسرعة ومرح ، حتى لم أستطع أن ألاحقها،
الى أن سكنت برهة قلت فيها :

— أبدا .. ماتجوزتش ولا حاجة !

قالت بسرعة :

— يبقى لازم بتجبنى .. أنا عارفاكى من يوم ما كنا فى

المدرسة واتنى غاوية حب !

قلت فى ابتسام :

— ولا باحب ..

قالت فى تخايب :

— علىّ أنا الكلام ده .. أمال خسيتى ليه ؟

قلت وأنا لا أستطيع أن أحرم نفسى من فرحتى بها :

— كنت عيانة ..

وسحبتى من يدى ، وقالت وهى تدخل بى الى الكابين:
— تعالى أما أعرفك بصاحباتى ..

ثم التفتت الى صديقاتها قائلة فى لهجة خطابية مضحكة :
— أقدم لكم نادية لطفى .. أحلى واحدة كانت معايا فى
المدرسة !

قلت كأنى أتودد لها :

— لأ .. اتنى طول عمرك كنتى أحلى منى ياكوثر ..
قالت ضاحكة :

— وعلى ايه تتخاتق .. اتنى كنتى أحلى « بلوند » وأنا
كنت أحلى « برينت » ..

وضحكنا جميعا .. وبدأت تقدمنى الى صديقاتها .
وجلست بينهن وبدأنا نتحدث .. وقد بدأنا الحديث متحفظات
ثم انطلقن فيه .. وكان الحديث كله عن الرجال ..
والتفتت واحدة منهن قائلة :

— أنا سمعت ان باباكى لطفى بيه ناوى يتجوز ..

قلت كأنى أقتلع آمالها من قلبها ..

— أبدا .. هوه ماشبعش جواز !!

وقالت أخرى :

— الحقيقة كان حظه وحش قوى فى المرتين اللى اتجوز

فيهم ..

وقالت ثالثة :

— مع ان الناس كلها بتشكر فيه ، طيب .. وراجل ..
وشكله وجيه ..

وقالت كوثر :

— اتم ما حلتكمش كلام الاعلى الرجالة .. ياللا نبتدى
نقطع فى فروة الستات شوية !!

وضحك .. وبدأن فعلا يتحدثن عن النساء ..
وبعد قليل قمت واقفة مستأذنة فى الانصراف ، وقامت
معى كوثر قائلة :

— استنى لما آجى أمشى معاكى .. أصلى لسه ما عملتش
استعراض الصباح !!

وسرنا على الشاطىء .. كانت كوثر تسير بجانبى كأنها
مظاهرة تهتف بالانوثة والجمال .. وكانت العيون تلتف
حولنا ونظرات الاعجاب تفرش الطريق تحت أقدامنا ، كنا
نحن الاثنتين ، أجمل سمراء وأجمل شقراء على الشاطىء ..
وأحسست بالزهو وأنا أسير بجانبها .. أحسست كأنى أرتدى
ثوبا جديدا رائعا يلفت الأنظار .. أحسست كأنى وحدى
نصف الجمال ، وكأنى معها كل الجمال ..

وكانت كوثر تتحدث كثيرا .. لاتكف عن الكلام ولا عن
الضحك ، ثم تقطع كلامها لتحبى أسرة جالسة فى كابين ،
أو لتصافح صديقة تمر بنا ، أو تقطع الموضوع الذى تتحدث
فيه ، لتقول كأنها تهمس :

— شايه اللى فات ده .. ده ماشى مع انجى شريف ،

وناوى يسب مراته ويتجوزها .. هو صحيح شكله كويس
انما دمه ثقيل ..

كانت تعرف كل الناس وكل أخبار الناس ، كانت شغلة
متوهجة تضىء بالحياة .. وقد أحسست وأنا بجانبها بهذه
الحياة .. أحسست بالمرح والنشاط ، وتفتحت الدنيا أمام
عيني ..

ووصلنا فى سيرنا الى شمسيتنا ولمحت أبى قد جاء
وجلس تحتها يتلفت حوله فى ملل ومرارة — كما كانت
عادته — كأنه يتعجل الليل حتى يخفى عذابه فى ظلامه ..
وجذبت كوثر من يدها ، وأنا أقول فى مرح :
— تعالى لما أعرفك بابا ..

والتفت اليها أبى ، ثم قفز واقفا كأنه ينفض الملل عن
كتفيه ويتلع مرارته .. وقلت وأنا أنظر فى عينيه كأنى أحاول
أن أرى فيهما صورة كوثر :
— كوثر زميلتى فى المدرسة .

ومدت له يدها فى رقة وفى دلال متزن .. ومد لها يده
فى تردد كأنه يقاوم شيئاً يبهره ..
وقال فى ارتباك :

— اتفضلى .. اتفضلى يا كوثر هانم ..
وهمست كوثر فى أذنى وهى تجلس قائلة :
— ده بابا كى صغير قوى .. ماكتش فاكراه كده ..

ودار بيننا حديث طويل حاول أبى خلاله أن يحتفظ
بشخصيته كأب ، أن يبدو عاقلا رزينا ناصحا .. ولكن وجهه
الطيب وعيناه البريئتان كاتنا تكشفان فى صراحة عن اعجابه
بكوثر .. اعجابه بجمالها الأسمر ، واعجابه بالحياة النشطة
المرحة التى تضح حولها . .

وقال أبى ملتفتا الى وهو يتلغ ريقه ويتلثم فى كلامه :
— انما لازم كوثر هانم تكون صغيرة قوى ما دام كانت
زميلتك فى المدرسة ..

وقالت كوثر بسرعة :

— لو كنت صغيرة قوى ، ما كنتش قلت لى : هانم ..
كان زمانى كوثر بس !!

وقلت وكأنى أنسى عن صديقتى تهمة :

— وهو أنا صغيرة يابابا . ما تنساش انى حاتم تستعاشر
سنة كمان شهرين !!

وعادت كوثر تقول :

— على كل حال .. أنا معترفة بأنى أكبر من نادية ..
يعنى عندى دلوقت خمسة وعشرين !!

وقال أبى مبتسما :

— مش معقول !!

وقالت كوثر فى دلال :

— طيب ثلاثة وعشرين علشان خاطر ك !

ورفع أبى عينيه واتجه بهما نحو السماء كأنه يفكر فى
عملية حسابية يحسب بها عمرى وعمر كوثر .. وعمره !
واتهزت فرصة مرور احدى صديقاتى وتعمدت أن أقوم
من تحت الشمسية لأصافحها .. تعمدت أن أتركهما
وحدهما .. أبى وكوثر .. وعندما عدت وجدت الحديث
متصلا بينهما .. ووجدت وجه أبى زاخرا بالسعادة .. سعادة
تضىء عينيه وترسم فوق شفتيه .. وسمعتة يضحك كأن
قلبه يرفرف فى صدره .. يضحك كما لم أسمعها ضاحكا منذ
طلق طنط صفية ..

ودعوت كوثر يومها الى تناول الشاى عندى ..

ويومها تلتكأ أبى فى الخروج .. وظل يتلكأ حتى جاءت
كوثر وكنت أرقبه فى تلكئه وقلبي يبتسم ، كأنى أرقب طفلا
عزيزا تدعه أمه يخدعها !!

وسارت الحوادث بعد ذلك بأسرع مما قدرت لها ..
أصبحت كوثر معى دائما .. وأصبح أبى معنا دائما .. وعرفت
العائلتان كل منهما الأخرى .. أصبحوا يزوروننا ونزورهم ..
وأصبح أبى يدعونا - كوثر وأنا - الى السينما والى
الحفلات العامة ، والى الغداء والعشاء .. بدأ يعود كما كان ،
هادئا طيبا مستقرا ، واستطاعت ابتسامات كوثر أن تمسح
عن قلبه العذاب وأن تنسيه الصدمة التى هدته ، وأن تغنيه
عن التردد على الحانات ، وعلى شفته الخاصة التى استأجرها
ليلتقى فيها بالنساء .. أصبح أبى كما أريده .. سعيدا هذه

السعادة الهادئة المنظمة .. سعادة يستمدّها من مرح كوثر
وحيويتها وشخصيتها النشطة الزاخرة بالحياة والجمال
والدلال ..

وأحسست انى استرددت أبى .. عاد الى حنونا كريما
كما كان قبل أن يتزوج طنط صافى ، وعندما كان يعيش لى
وأعيش له .. أصبح يجلس الى طويلا ، وبدأ يحكى لى طرفا
من مشاكله ، ثم اعترف لى انه أهمل الاشراف على العزبة
طويلا ، بل اعترف بأنه باع منها عشرين فدانا ووعدنى بأن
يعمل على استردادها ..
وكنت سعيدة ..

كنت من فرط السعادة .. لا أنام كنت أقضى ليلى قلقة
على هذه السعادة .. أخاف أن تفلت من يدي مرة ثانية ..
ان أفقدها .. أن أعود الى عذابى .. وكنت أعلم دائما انى لن
أستطيع أن أضمن أبى الى جانبى الا اذا تزوج كوثر ..
لم يعد عندى شك فى أن أبى يحبها ، ويريدها .. جبا
مترددا متحفظا كأنه لا يستطيع أن ينسى فارق السن بينهما،
ولا يستطيع أن ينسى انها صديقتى وانه مسئول عنها
مسئولته عن ابنته .. ورغم ذلك كان يتقدم فى حبه بخطى
ضيقة ضعيفة .. كان فى حديثه معها يلتقى بتلميحات بعيدة
كأنه يتكلم بلغة القرن الثامن عشر ، وكان عندما يراقصها
يزدرد وجهه وتجف شفاهه ، ويحتفظ بينه وبينها بمسافة

تفصلهما كأنه يخشى ان ضمه الى صدره أن يذوب بين ذراعيه ، أو يفقد وعيه ..

و كنت أثور عليه بينى وبين نفسى . كنت أتمناه قويا جريئا يفرض ارادته على كوثر ويخضعها لشخصيته ، كنت أريده كمصطفى ، يستطيع عندما يراقصها أن يلصقها بصدره لتحس بقوة ذراعيه وسخونة أنفاسه ، وأن يحملها فوق الأنغام الى عالم خال الا منها .. الا من قلبه وقلبها .. وجسده وجسدها .. يهمس فى أذنها ويكوى خدها بخده ، و كنت أريده عندما يتحدث أن يبهرها بأرائه ، وأن يجعلها تفضل الاستماع على الحديث .. أن تنسى كل آرائها ، وكل كيانها ، وأن تستمد منه الحياة أكثر مما يستمدتها منها ..

ولكن أبى لم يكن من هذا النوع من الرجال ..

كان من النوع المتحفظ المتردد المخلص الطيب ..

وقد تعبت من كثرة ما مهدت له الطريق ، وأعطيته من الفرص التى تجمعها بكوثر فى خلوة .. بل انى جعلته يفهم انى أتعمد أن أتركهما وحدهما كلما جاءت الى زيارتى ، وانى أتعمد أن أجلسها بجانبه فى السيارة كلما خرجنا سويا .. وانى أتعمد أن ألمح الى فكرة زواجه بها ..
كنت أقول له أحيانا :

— تعرف يا بابا ان كوثر معجبة بىك جدا .. امبارح شوفنا فيلم يمثّل فيه فان جونسون ، وأول ما شافته قالت عليه انه شبّهك تمام ..

وكان يقول في حياء كأنه يدارى تواضعه :
— يا شيخه حرام عليكى . فان جونسون ده لسه شاب
صغير !!

فأقول كأنى أترافع :

— أبدا ولا شاب ولا حاجة .. ده أكبر منك .. عنده
تسعة وأربعين سنة .. وتفكر كلارك جابل عنده كام سنة ..
عنده خمسة وخمسين ومتجوز واحدة عندها ثلاثين سنة !
فيقول :

— دكه اسمه كلارك جابل ..

فأقول :

— انت أحسن منه .. وكوثر هيه كمان بنقول كده !

فيقول وهو يضحك :

— اتتو الاتنين لسه صغيرين !

فأقول محتدة :

— كوثر مش صغيرة .. الست أول ما تتجوز وتطلق
ما تبقاش صغيرة حتى لو عندها ستاشر سنة ، بتكبر مرة
واحدة ويبقى عندها ثلاثين .. عقلها بيكبر وقلبها بيكبر
وروحها بتكبر .

وكان أبى يبتسم ، ثم يسكت كأنه يفكر ..

وأجن أنا غيظا لتردده ..

وكان يخيل الى أن كوثر نفسها تحاول أن تمهد له
الطريق ، وتشجعه على التقرب اليها .. كان اعتناؤها بشابها

وزينتها كلما التقينا ، لا يمكن أن يكون عفوا .. وكانت دائما
تشغله بنفسها عما حوله ، وتهتم به أكثر من اهتمامها بغيره ..
حتى بدأت أتأكد أنها تسعى الى زواجه ..

ولم أحاول خلال هذه الفترة أن أبحث وراء تصرفات
كوثر ، لم أحاول أن أبحث عنها ، كنت أعلم ان هذه الحيوية
الدافقة ، وهذا القلب النشط ، وهذا الذهن اليقظ ، لا يمكن
أن ترمز الى حياة هادئة ، ورغم ذلك لم أحاول أن أنظر
وراءها ولا أن أبحث في أيامها .. كنت محتاجة اليها .. وكانت
حاجتي اليها تغفر لها كل شيء ولم أكن محتاجة لها لأحتفظ
بأبي فحسب ، بل كنت محتاجة لها للحياة التي نقلتني اليها ،
لأنها تستطيع بروحها الالهية أن تلهيني عن عذابي .. أن
تلهيني عن مرض نفسيتي .. عن شروري .. وعن جرائمى ..

وقررت أن أحتفظ بها بأي ثمن !!

وسألتها يوما وكنا وحدنا :

— ايه رأيك في بابا ياكوثر ؟

قالت ضاحكة :

— أبوكي ده باين عليه راجل خطر .. بيتسحب زى القبط
من غير ما حد يسمع رجليه ، لغاية الواحدة ما تلاقيه جوه
قلبها .

وضحكت .. كنت أعلم أنها تناقنى فان أبى أعجز من
أن يتسلل كالقبط ، ورغم ذلك تجاهلت نفاقها ، وقلت في
براءة :

— أبدا والله ياكوثر .. ده بابا راجل طيب خالص ،
ياريته يتجوزك !!

وبهتت كوثر عندما فاجأتها بهذه الكلمة ، ولكنها لم
ترفض الفكرة .. انما قالت وهي تفتعل الابتسام :
— يا اختى .. ده مش باين عليه بتاع جواز !
قلت :

— بالعكس .. ده بابا من الصنف اللي ما ينفعش الا في
الجواز .
قالت :

— اللي يسمعك بتقولى الكلام ده ياناديه يتيهاله انك
أمه وبتخطيله ..
قلت ضاحكة :

— ما هو أنا لغاية دلوقت بنته وأمّه ومراته .. عايزاكي
تشيلي عنى حاجة .. عايزاكي تساعدينى فيه .. اختارى لك
حاجة ، ياتبقى بنته يا أمه يا مراته !!
قالت كأنها لاتعنى ما تقول :

— أنا ما أنفعش بنته ، ولا أمه !!

قلت وأنا احتضنها بعينى كأنى أحاول اغراءها :

— تصورى ياكوثر لما نعيش احنا الاتنين مع بعض على
طول .. متيهياً لى اننا مش حانشبع من بعض أبدا !!
— قالت :

— ليه .. هو اتنى مش حاتتجوزى .. بكرة تتجوزى
وما حدش يشوفك ، ولا تسألنى فى حد !!
قلت فى لهجة جدية :

— أنا مش ممكن أتجوز الا لما يتجوز بابا !!
وعادت تضحك فى دلال قائلة :
— يبقى لازم يتجوز حالا .. أحسن أنا نفسى أشوف
عريسك شكله ايه !

وتكررت هذه الأحاديث بيننا .. وكنا نضنى عليها دائما
طابع الهزار والمرح ، كأننا لا نعنيها ولا نعبر بها عن أمل
مرتقب ..

انها تسعى الى زواجه ..
انها تريد الزواج بأبى ..
هذا لاشك فيه ..
ولكن هل تحبه !!?

لم أحاول أن أسأل نفسى هذا السؤال .. ربما لم تكن
تحبه ، ربما تريد زواجه لغناه وللحياة الباذخة التى يستطيع
أن يوفرها لها .. ربما أى شىء .. ولكن ماذا يهم ، ما دام
أبى سيكون سعيدا .. ما دمت بهذا الزواج أستطيع أن أكفر
عن جريمتى .. أن أعوضه عما فعلته به !!
وفى هذه الأثناء عرفت محمود ..

عرفتنى به كوثر ونحن نسير على الشاطيء . شاب فى
الثلاثين من عمره .. ليس طويلا ولا قصيرا .. انما متوسط

القامة .. وليس جميلا .. ليس فيه هذا الجمال الذى يشرك
أو يدير رأسك ، انما تمر به كما تمر بعشرات الشبان غيره ..
وليس أسمر ولا أشقر ، ان لونه ضارب الى الصفرة ..
كأنه مريض أو على وشك أن يقع مريضا .. وعيناه مهمومتان
كأنه رفعهما توا عن كتاب معقد وراح يحاول أن يتفهم
ما قرأه .. وشفته رقيقتان تخفيان ما فى نفسه فلا تعرفه ان
كان غاضبا ولا تعرفه ان كان فرحا ..

ويوم عرفته لم أجد نفسى أتكلف شيئا .. لم أحاول
أن أطيل فى وقتى ولم أحاول أن أختار ابتسامتى ، ولم
أحاول أن أتقى كلماتى ، كما تعودت كلما عرفت انسانا
لأول مرة .. بالعكس وجدت نفسى على طبيعتى ، كأنه أخى
أو أبى .. أحسست انى لست فى حاجة الى اغرائه ولا هو
يحاول اغرائى .. شعرت بالاطمئنان اليه حتى اتصل الحديث
بيننا مباشرة .. حديث ليس فيه تكلف ، وليس فيه غزل ..
مجرد حديث كان يبدو من خلاله جادا كأن كل شيء فى الحياة
مشكلة تستحق دراسة عميقة وبحثا علميا .. حتى لون ثوبى !!
واتصلت بيننا الأحاديث ..

كنت ألقيه دائما بصحبة كوثر فى الكبائن وتحت شماسى
الأصدقاء ، ثم أصبحت ألقيه وحدى كلما تمدت أن أترك
كوثر لأبى ..

ومرت أسابيع قبل أن أعرف مكانه فى قلبى .. أسابيع
عرفت خلالها أمه وشقيقته .. وقضيناها نتحدث عن آماله

بآمالى .. وعرفت خلالها انه معيد فى كلية العلوم بجامعة القاهرة ، وانه مرشح لبعثة دراسية قصيرة لمدة عام .. وكان يحدثنى كثيرا عن الجامعة وعن البعثة التى سيذهب فيها .. ولم يكن فى حديثه أبدا ذكر لمغامرات نسائية ، ولا تلميح لعاطفة تتجاوب فى صدره ..

أبدا .. انما كنا نتحدث عن باريس — مثلا — فيستطرد فى الحديث كأنه قرأ عن باريس ألف كتاب .. وكنا نتحدث عن الثياب .. فيستطرد كأنه عاش حياته فى « آتليه » جاك فات ، أو كريستيان ديور .. كانت كل أحاديثه معلومات قرأها فى الكتب ، أو ملاحظات استوعبها من الحياة بعقل واع ونظر ثاقب .. وكنت أحس وأنا أستمع اليه انى أكبر .. عقلى يكبر .. ووجدانى يكبر والعالم من حولى يكبر .. كل شىء يكبر ويتسع ، وكلما كبر واتسع اكتشفت مزيدا من الجمال .. جمال يبهرنى حتى أنسى فيه نفسى .. أنسى الماضى .. وأنسى الحاضر .. ولا أرى الا المستقبل ، مستقبلا سعيدا هادئا ، فيه حب وطيبة وسلام .. الى أن قال لى يوما خلال الحديث :

— تفكرى الراجل اللى يقدر يسعدك ويحقق آمانك ، تكون أوصافه ايه .. من أى نوع ؟

وفكرت كأنى أستعرض فى مخيلتى جميع الرجال الذين رأيتهم وجميع الشخصيات التى عرفتها .. حتى شخصيات القصص والأفلام السينمائية .. ثم لم أجد الا هو .. محمود ..

وكأني اكتشفت حقيقة كنت أحاول أن أنكرها .. نورا كنت
أحاول أن أداريه وأن أغمض عيني عنه .. حلما كنت أحتفظ
به في أعماقي وأقاوم حتى لا يرتسم على قلبي وعقلي ..

محمود الطيب الهاديء الرزين الفاهم .. وأمه التي
تذوب رقة وحنانا ، وتكاد يد الله ترسم حول وجهها الصبيح
الخالى من الأصباغ هالة من نور .. وأخته التي تصغرني ..
الحلوة المهذبة كأنها ملاك كريم يطوف على الشاطيء ليهدى
الناس الى الفضيلة ، والى جمال الروح والى الخفر والعفة ..

أى رجل آخر غير محمود يستطيع أن يوفر لى السعادة
والهناء .. أن يفهمنى بعقله ، وأن يحتلمنى بهدوئه وأن ينقذنى
بوعيه من نفسيتى التي تعذبني لأكفر عن جرمى ..

وقلت أرد عليه وأنا أدير عيني عنه كأني أخاف أن يفهمنى:

— الرجل اللى يعجبني .. لازم تكون له شخصية ..
يكون عقله كبير .. راجل أحس قدامه انى لسه تلميذه ،
وانه دايمأ أستاذ .. ما يهمنيش يكون جميل .. ولا غنى ..
انما يهمنى انه يكون له شخصية .. يكون متعلم ، ومخلص
وقلبه على ..

وسكت ، وأدار هو الآخر عينيه عنى كأنه فهمنى .. فهم
ما أعنيه ، ثم قال بعد قليل :

— تعرفى ان ذوق البنات فى الرجاله تطور تطور كبير
جدا .. كانوا البنات الأول يحبوا الرجل القوى .. الرجل

اللى عنده عضلات ويقدر يموت خصمه بضربة واحدة ..
وبعدين بقوا البنات يحبوا الرجل الجميل .. القوة بقت قوة
الجمال .. جمال الشكل .. وبعديها بقوا دلوقت يحبوا
الرجل اللى عنده عقل .. المفكر المتعلم .. بقى الجمال جمال
الفكرة مش جمال الشكل .. والعالم كله تطور نفس التطور
.. ده

قلت كانى تلميذة صغيرة تتلقى درسا من أستاذها :
— ده صحيح انما مش كل الرجاله اليومين دول عندهم
شخصية .. لسه معظمهم يهتموا بعضلاتهم وجمال شكلهم ..
قال وهو يضحك :

— أصل احنا دلوقت فى فترة انتقال !!
وعندما افترقنا يومها ، أحسست وهو يصافحني بيده
تضغط على يدي ..
وودت لو أعطيته يدي الى الأبد ..



هل الحياة تتسع لأكثر من حب واحد ؟
انى أحب محمود ..

وقد كنت منذ عام واحد أحب مصطفى !
فهل قلبى صادق فى حب محمود .. وهل كان صادقا فى
حب مصطفى أم هل يضللنى الحب . وقلبى يخدعنى ويكذب
على ؟!
لست أدرى !

ولكنى أستطيع اليوم أن أقسم على حب محمود ، كما
كنت منذ عام أقسم على حب مصطفى .. رغم الاختلاف
الكبير بين حبنى لكل منهما .. الاختلاف فى نوع الحب ، وفى
مظاهره ، وفى الخيال الذى يثيره ..

كان حبنى لمحمود حبا هادئا ، صافيا ، شفافا .. يسرى
فى قلبى وأعصابى كالغدير العذب ، ليست فيه أمواج
ولا تخطر عليه عواصف .. ولم يكن هذا الحب يثيرنى انما
كان يرقد فى قلبى كالملاك البريء ، ولم يكن ينطلق فى جسدى
كالصواريخ ، انما كان يملأ صدرى كنسيم الصباح .. حتى
عندما كنت أتخيله يقبلنى ، وأكاد أحس بشفتيه فوق شفتى ،
لم يكن هذا الخيال يطلق فى رغبة جامحة أو يدفعنى الى
مغامرة كمغامراتى مع مصطفى ، انما كنت أحس بشفتيه

كأنهما لمسة حب يفرح بها قلبي ويبتسم لها جسدي .. في هدوء ووقار !?

لم أكن أتخيل محمود أبدا في مغامرة عنيفة .. انما كنت دائما أتخيله بجانبى كزوج .. وأتخيله جالسا يقرأ وأنا بجانبه أطرز أو أشتغل « تريكو » .. وأتخيله عائدا من الجامعة وأنا أستقبله عند الباب ، وأحمل عنه حقيبته التى يضع فيها مذكراته الدراسية ، ثم أقبله فوق وجنتيه ، وأقوده من يده الى غرفة الطعام .. وأتخيله يسير بجانبى فى شارع قصر النيل ندخل سويا الحوانيت .. وأتخيله أبا لأولادى ..

كنت أفكر فيه كزوج ..

كانت كل آمالى أن أتزوجه ..

الرجل الأول الذى أردته زوجا ..

ولم يكن محمود قد فاتحنى فى الزواج ، ورغم ذلك فقد كان الزواج بيننا فكرة تجمعنا .. فكرة يجب أن تتحقق .. بل خيل الى أن زواجنا أصبح أملا لأمه وأخته .. كنت أستطيع أن أرى فى عيونهما وفى لمحاتهما أن هناك مشروعا يعد لنا ..

هل يتحقق هذا المشروع !?

هل يرضى عنى الله ويعفينى من انتقامه الذى أخافه ؟

ان الله غفور رحيم .. لعله يرحمنى ويغفر لى !

وكنت فى اقبالى على محمود ، قد تركت كوثر لأبى بعد أن تحققت انها تسعى الى الزواج به .. وكان كل شىء يسير

كما أريد ، وكما أتمنى .. وكان الله قد وضع القدر بين يدي
أصنع به ما أشاء .

الى أن عدنا من المصيف ..

ولم ينقض يومان على عودتنا حتى دخل أبى الى غرفتى
فى الصباح الباكر وأيقظنى من نومى بقبلاته ، ثم جلس على
حافة الفراش ، وقال فى تردد يمزق ابتسامته :

— اتى بقيتى أكسل منى .. ايه النوم ده كله !!

وفتحت عيني ، وأنا أسأله :

— الساعة كام ؟

قال كأنه يغالى :

— الساعة بقيت تمانية ونص !

قلت وأنا أقبله :

— أصلك لسه ما عودتنيش على انك تصحى بدرى ..

وسكت والدى ..

وبدأ يعبث بأصابعه فى غطاء السرير كأنه يبحث تحته عن

كلام يقوله ثم قال كأنه اتخذ قرارا بالتأجيل :

— قومى اغسلى وشك يانادية .. علشان تقعد تتكلم

شويه !!

قلت وأنا أبحث بعيني فى وجهه :

— طيب ما تتكلم دلوقت ..

قال وهو يهم بالوقوف :

— لأ .. بعد ما تغسلى وشك .. أصله كلام مهم !

قلت :

— أنا كل الكلام المهم متعودة اسمعه وانا فى السرير ..
والنبى عايز تقول ايه يا بابا ؟

قال :

— بعدين .. بعد ما تغسلى وشك !

قلت وأنا أمسك بيده حتى لا يقوم :

— لأ دلوقت .. وحياتى عندك .. ما تشغلينش !

قال وقد زاد ارتبأكه ، واحمر وجهه وخيل الى أن
قطرات من العرق كندى الصبح بدأت تنبثق فوق جبهته :

— لأ ما فيش حاجة .. أصل اتنى عارفه ان عيشتنا
لوحدنا برضه عيشة ناقصة .. طول النهار والليل وأنا خايف
عليكى .. مش عارف أعمل لك ايه .. مش عارف ..

وقاطعته فرحة مهللة :

— عارفه ..

قال فى دهشة :

— عارفه ايه ؟!

قلت وأنا ألقى بنفسى فوق صدره :

— حنتجوز ..

قال وقد استبدت به الدهشة :

— ايه عرفك ؟!

قلت ضاحكة :

— وتحب أقول لك حنتجوز مين كمان .. كوثر !!

وفغر فاه كأنه روع بذكائي .. وقال :
— لازم حد قال لك !

قلت وأنا أحتضنه وأضعفه الى صدرى :

— أبدا وحياتك .. انما ماتساش انى بقيت كبيرة
وبافهم .. وبقالى ثلاث أشهر وأنا مستنية اليوم ده .. يوم
ما تيجى تقول لى انك حتتجوز كوثر ..
قال وكأنه يعتذر :

— أنا ما كنتش ناوى أفكر فى الجواز الا لما تتجوزى

اتى و ..

قلت أقاطعه :

— وأنا ماكنتش ناوية أتجوز الا لما تتجوز أنت .. انما
خلاص .. ما دام انت اتجوزت ، حابتدى أفكر فى الجواز
من بكره ..

وقمت من الفراش فى مرح وجريت الى التليفون واتصلت
بكوثر ، وصحت فيها :

— اخص عليكى ياخاينة .. تعملى العملة من غير

ما تقولىلى !

أقسمت لى كوثر ان أبى لم يفاتحها فى الزواج الا أمس،
وانه لم يتقدم لخطبتها رسميا بعد ..

وتمت الاجراءات بعد ذلك بسرعة .. وكانت كوثر
وعائلتها يختصرون من هذه الاجراءات بشكل ظاهر ، كأنهم
يخافون أن يعدل أبى عن رأيه ..

وذهبت مع أبى واشترينا « دبل » الخطوبة .. وذهبت معه واشترينا « الشبكة » بعد أن اتفقت عليها مع كوثر .. ثم أخذت أذهب مع كوثر كل يوم لنطوف بمحال الأزياء ، ومحال الأثاث .. و .. و ..

كنت أشعر ان نصف آمالى قد تحققت .. كنت سعيدة ، وكان أبى سعيدا ، كريما ، لم ييخل بشيء على كوثر ، بل ربما تمادى فى كرمه الى حد خيل الى أنه عاد يبيع من أطيانه ، أو أنه اقترض عليها مبلغا جسيما من المال ..

وتم الاتفاق على أن يعقد القران بسرعة ، وقبل مضى أربعة أسابيع على اعلان الخطبة ، واتفقوا على أن تنتقل كوثر الى بيتنا ، فلا نبحث عن بيت جديد الا بعد الزفاف .. وأن لا نغير من الأثاث الا غرفة النوم ، وأن يقتصر الحفل على تقديم الشاى ، وألا يدعى الا عدد قليل من المدعويين من بين أفراد الأسترتين .. وكان أبى يريد أن يصحب كوثر الى أوروبا لقضاء شهر العسل ، ولكن كوثر رفضت بحجة توفير النفقات ، وألح أبى عليها كثيرا ولكن كوثر أصرت على الرفض ، وقالت بدلالها وخفتها :

— ياسيدى هو العسل الللى فى أوروبا مش زى العسل الللى هنا .

قال أبى وكأنه يتهالك عليها :

— بس أنا عايز أفسحك ياكوثر .. نبعد شوية عن مصر ودوشة مصر ..

قالت ضاحكة :

— من هنا ورايح مش حاتسمع دوشة فى مصر
الا دوشتى .. ودوشتى حاتخذها معاك أوروبا .. يبقى أحسن
نوفر المصاريف علشان البيت الجديد ..
قال وهو لا يزال يلح فى تهالك :

— ياستى مالكيش دعوة بالمصاريف .. نساfer ، وبرضه
البيت الجديد يتعمل زى ما اتنى عايزة ، وأكثر شويه !
وقالت كوثر وهى لا تزال تتدلل :

— ما دام عايز تصرف فلوس والسلام .. يبقى بدال
ما نساfer هاتلى البروش اللى شفته أنا ونادية عند الياكيم ..
أحسن ما نصرف الفلوس فى شهر ، نصرفهم فى حاجة تفضل
معانا طول العمر ..

ولا أدري لماذا وجدت نفسى أقف بجانب كوثر وأدافع
عن رأيها .. لم أفكر ساعتها فيما يمكن أن يدفعها الى الغاء
رحلة شهر العسل .. ولم أسائل نفسى كيف ترفض عروس
شابة أن تسافر مع زوجها الذى تحبه الى أوروبا !!
لم أفكر فى شىء من هذا ، انما انطلقت فى حماس :

— صحيح يا بابا .. كوثر لها حق .. أنا كمان ما أقدرش
انك تسيبنى شهر بحاله .. وأنا اتفقت مع كوثر ان لها فيك
النص ، وأنا ليه النص التانى .. ومش عايزه النص بتاعى
يسافر !!

وألغيت رحلة شهر العسل ..

واشترى أبى « البروش » لكوثر ..
وأقيم الحفل الصغير .. وبدت كوثر فى الثوب الأبيض
والطرحة القصيرة كملاك جميل لفتحته الشمس وهو فى طريقه
الى الأرض .. فاسمر لونه !

وكنت قد صممت على دعوة محمود وعائلته الى الحفل
بحجة ان شقيقته من أعز أصدقائى .. وربما كانت كوثر تعلم
ما بينى وبين محمود ، فلم تمنع فى دعوته .. وقد جاء مع
شقيقته واعتذرت والدته بمرضها ..
وكنت فرحة به ..

كنت أتخيل نفسى فى ثوب كوثر .. ثوب العروس ..
وكنت أتخيله فى مكان أبى .. مكان العريس ..
وهمس محمود فى أذنى ونحن تناول الشاي وصوت
زغرودة ضعيفة تطلقها من بعيد احدى الخاديات ، ولا يصل
الىنا منها الا صداها :

— أنا لازم أشوفك النهارده .. أشوفك لوحدك !
واستجبت لدعوته بلا تفكير .. واتفقت معه على أن
يوصل شقيقته الى البيت بعد انتهاء الحفل .. ويعود ليجدنى
فى انتظاره أمام البيت ..
واتهى الحفل فى الساعة الثامنة مساء ..

وذهب أبى وعروسه الى فندق مينا هاوس ليقضيا هناك
ثلاثة أيام .. وبقيت فى البيت وحدى مع دادا حليلة .

وفي الساعة التاسعة كنت في انتظار محمود أمام باب
العمارة .. لم أكن أحس بأنى مقدمة على مغامرة ، ولم ير
الليل في نفسى شيئا أنهيه أو شيئا يثيرنى .. كانت ثقتى
بمحمود أقوى من الليل . وكان كل ما أتتظره هو أن يخطبنى
محمود الى نفسه في هذه الليلة بالذات ، وكل ما كنت أحس
به رعشة خفيفة فى قلبى كأنه طير صغير يستيقظ على نور
الصباح وينفض عن ريشه ندى ..

وجاء محمود فى سيارته ، وقفزت الى جانبه .. والتفت
الى وابتمس .. ثم قاد سيارته دون أن يتكلم ..
واشدت رعشة قلبى . كأن ندى الفجر أثقل من أن
تنفضه رعشة خفيفة .. أحسست أن الموقف أخطر مما قدرته ..
وطال صمت محمود ..

وحاولت أن أقطع صمته .. أن أحدثه عن الحفل وما جرى
فيه ، وما قيل عنه .. ولكن محمود كان يستمع ولا يتكلم
وربما لم يكن يستمع أيضا !!

واتهينا من طريق الهرم ، وانحرف فى طريق النازلية ..
ثم وقف تحت شجرة ضخمة فى شارع هادى .. نفس الشارع
ونفس الشجرة التى أوقف مصطفى سيارته عندها عندما
التقينا لأول مرة ..

وتشاءمت ..

خفت أن يكون محمود كمصطفى ..

والتفت الى محمود ، ثم عاد ونظر أمامه ، وقال في صوت عميق :

— أنا مسافر ينادية ..

وكأنه صفعنى .. وقلت ملتاعة :

— مسافر !!

قال وهو لا يزال ينظر أمامه :

— مسافر بعد بكرة .. كنت فاكرا ان اجراءات البعثة

حتاخذ أكثر من كده .. وكنت ناوى أكلمك فى حاجات

كثير .. انما جانى أمر لازم أسافر بعد يومين !!

وسكتنا نحن الاثنين ..

ثم عدت أقول وكان كلامى بكاء ، وكان صوتى شلال من الدموع :

— وحاطيب كثير !!?

قال وهو لا يزال ينظر أمامه :

— مدة البعثة سنة .. انما أنا خارج بعد ست أشهر ..

ثم التفت الى وفى عينيه توسل واعتذار :

— كل اللى أقدر أقوله ينادية دلوقت .. انى أتمنى انك

تستينى ..

ولم أتكلم .. انما تعلقت عيناي بعينيه فى صمت حزين ..

واقترب منى ، وأحسست بأنفاسه هادئة دافئة تطوف

بوجهى كأنها أجنحة فراشات ترقص فى الهواء ..

— حاتستينى ينادية !?

ولم أجب .. انما وجدت رأسى يسقط على كتفه ، ووجهى
يختبئ فى صدره ، ويدى تتشبثان بحافة سترته كأنى
لا أريده أن يذهب ..

وارتفعت ذراعه ثم هبطت فى رفق على كنفى .. وضمنى
اليه ، كأنه يسمعنى دقات قلبه ..

ثم رفع رأسى اليه بيده الأخرى .. وعاد يطوف بعينيه
فوق وجهى كأنه يرانى لأول مرة .. وأغمضت عينى حتى
لا أرى شفثيه .. حتى أقاوم نفسى فلا أقبله قبل أن يقبلنى !!
وجاءت شفثاه ..

رقيقة حانية كأنها تحمل رسالة الله وتودعها شفثى ..
ولم أستطع أن أفتح عينى .. خيل الى أنى أريد أن أنام
بين شفثيه ملتفة بأنفاسه .. أنام بعد العمر الطويل الذى
قضيته .. لا أنام !!

كم مضينا فى قبلات ؟

لست أدرى .. فلم أرفع رأسى عن كتفه ، الا لأضع
نفسى بين شفثيه .. وربما تكلم .. ربما قال لى شيئا .. ولكنى
لم أسمع .. ولم أرد بشىء .. كان خيالى كله فى البيت الذى
يضمننا .. فى ثوب العروس .. فى حياة هادئة مستقرة .. لم
أكن أدرى بما حولى .. لم أحس بأنى فى سيارة تقف تحت
شجرة فى شارع هادىء من شوارع النازلية .. كان يخيل الى
أنى فى بيت .. بيتى .. وأن محمود زوجى .. وهذه السيارة

فراشنا .. وكان يستطيع أن يأخذ كل شيء .. وكنت سأعطيه
كل شيء .. انه زوجي !!

وحملنى حبه وحنانه الى عالم بعيد جميل .. هادى ..
لم أعد منه الا وهو يرفع ذراعه عن كنفى ، كأنه يتخلى عنى
ويتركنى أسقط فى الفضاء الواسع .. والهواء الرطيب يملأ
ثيابى .. ثم مد يده وأدار مفتاح السيارة ، وهو يقول :
— ياه .. الساعة بقت حداشر !
وأحببته أكثر فى هذه اللحظة ..

أحببته وهو يصوننى من نفسى ومن نفسه .. أحببته
وهو يعوضنى عن ضعفى بقوته .. ويكمل ارادتى بارادته ..
ويحد خيالى المنطلق بحقيقته القوية الرائعة ..

وقلت له وأنا أنزل من السيارة عند باب البيت .. قلت
كأنى أقسم : — حاستناك يا محمود !!

عدت كأنى أطير .. ورقدت فى فراشى كأنى أحتضن
السعادة .. وخيل الى أنى سأنام .. ولكنى لم أنم .. بدأت
قطع صغيرة من السحاب الأسود تزحف على خيالى وتنتشر
فى سماء سعادتى .. بدأت أقول لنفسى : « لماذا لا يتقدم
محمود لخطبى الآن .. قبل أن يسافر ؟ لماذا لا يتزوجنى
ويأخذنى معه ؟ انه سيغيب ستة شهور .. ما أدرانى ما يمكن
أن يحدث لى وله خلال هذه الشهور ؟ ربما التقى هناك
بواحدة أخرى ؟ ربما عدل عن رأيه ونسى حبه ؟ وربما ... » .
وبدأ ذكائى يتحرك .. الذكاء الشرير .. خيل الى أنى

فى حاجة الى خطة لأمنع بها محمود من السفر .. محمود
زوجى .. وأحسست بقوى دافقة من الحقد والكراهية تنبثق
فى صدرى .. كرهت لندن التى يسافر لها محمود ، حتى
تمنيت أن تعود الحرب وتدكها قنابل الألمان .. وكرهت
الانجليز .. وكرهت الحكومة التى أرسلت محمود فى بعثة ..
لماذا يأخذون منى حيبى .. وخطيبى .. وزوجى !?

وخيل الى انى سأهب من فراشى وأذهب الى محمود
وأصرخ فيه حتى لا يتركنى .. خيل الى أن أذهب الى رئيس
الحكومة وأتوسل اليه أن يترك حيبى .. خيل الى أن أجمع
ثيابى وألحق بمحمود فى لندن وأسلمه نفسى هناك.. كزوجة!!
وقلت فى نفسى فى خلال زوابع الثورة : « لماذا وعدته
بأن أنتظره .. لماذا لم أسلط عليه انوثتى ، حتى أفقده
مقاومته .. وأفقده عقله .. فيتزوجنى قبل أن يسافر .. لماذا
لم أدع — كما تدعى كل البنات — بأن هناك آخر تقدم
لخطبتى وأخشى أن يقبله أبى ؟ لماذا لم أستعمل ذكائى ؟ انى
أعلم انى قررت بينى وبين نفسى أن أكون خيرة ، أن أقاوم
ذكائى الذى يدفع بى الى جرائم تعذبنى . ولكن ما دخل
الخير فى الذكاء .. وهل يشترط فى كل فتاة طيبة أن تكون
غبية ؟ ثم انى محتاجة لذكائى لأحقق سعادتى .. هدفا شريفا
هو الزواج من حيبى .. فلماذا لم أستعمله .. لماذا لم ألجأ
اليه .. لماذا يتخلى عنى ذكائى كلما احتجت اليه ، ويسعبنى
كلما أردت شرا بالناس ?? »

كنت أقول لنفسي هذا الكلام ، ثم أعود وأقول لنفسي :
« لا .. لا يمكن أن يدوم زواج يقوم على خدعة .. يجب أن
أثق بمحمود .. انه أقوى من الشك .. انه ليس أى رجل ..
وليس أى زوج .. انه حبيبي !
ولم أخف من ذكائى قدر ما خفته هذه الليلة ..

كنت أهز رأسى فوق الوسادة فى حركات متتالية عنيفة ،
كانى أطرده منها ذكائى ، وأطرده منها كل خطة يوحى بها الى
هذا الذكاء الشرير .. وكنت أتشبث بغطاء السرير وأقبض
عليه بعنف كأن أصابعى تشنجت فوقه ، كانى أقاوم قوة
جبارة تحاول أن تدفعنى الى طريق لا أريده ، وكنت أحز
بأسنانى على شفتى حتى خيل الى أنى أدميتهما ، كانى أكرم
صرخة شيطان تكاد تنطلق من بينهما ..

كنت أقاوم حتى لا أتدخل فى قدرى ..
كنت أريد أن أترك كل شىء لله .. يفعل بى ما يشاء ..
ولم أنم ..

قضيت الليل لا أستطيع أن أغمض عينى ولا أن أفتحهما ..
أخاف أن أغمضهما فيدهمنى الشر فى أحلامى ، وأخاف أن
أفتحهما فأرى الشر فى رأسى ..
ولم أكن أخاف الا على محمود ..

وقمت فى الصباح على جرس التليفون .. وكان محمود
يواعدنى على اللقاء فى الساعة السادسة مساء .. وقلت :
— حاضر ..

قلتها في ضعف وخفوت .. كأنى أخاف ان اطلقت نفسى
أن يصيبه منها أذى ..

وقضيت اليوم مع « دادا حليمه » .. ولأول مرة وجدت
أنى لا أستطيع ان أكف عن ذكره حتى فى احاديثى مع دادا
حليمه ..

ولكن دادا حليمه كانت بعيدة عنى وعن عواطفى .. فلم
تفهم ما ألمح اليه .. ولم تلحظ محمود فى الحفل حتى تشاركنى
فى اهتمامى به .. ان محمود صنف من الرجال لا تلحظه
ولا تهتم به الا اذا عرفته ..

وكان حديث دادا حليمه كله عن الحفل .. وكانت تتعمد
أن تعرج فى حديثها عن كوثر .. وخيل الى أنها تتحدث عنها
بفتور يوحى بأنها لا تستريح لها ، ولا تعجبها ، وليست
فرحة بها ..

وقالت وهى تتنهد وتريح رأسها فوق راحة كفيها :

— الحقيقة سيدى اليه مش حيلاقى زى صفيه .. ماحدث
حيقدر يملا مطرحها أبدا !

ووجدتنى أصرخ فيها كأنى أهم بضعها :

— السيرة دى خلصنا منها .. احنا حنفضل نعدد طول
عمرنا . ستك كوثر صاحبتى وأنا عارفها .. اذا ماكنتش زى
صفيه تبقى أحسن منها .

وسكتت حليمه على مضض ..

وأمسكت أعصابى ، وقلت فى هدوء مفتعل :

— روى شوفى الطباخ حيعمل ايه النهارده ..
وقامت دادا حليمه تجرجر أقدامها كأنها تسير فى جنازة
ميت ! ولم أهدأ الا بعد فترة طويلة ..

ومنذ الساعة الرابعة بدأت استعد للقاء محمود ..
وعندما أصبحت الساعة السادسة الا خمسا ، ألقيت
نظرة اخيرة الى المرأة ، وخيل الى أنى لم أكن جميلة أبدا قدر
ما أنا جميلة اليوم ..
ونزلت ..

ورأيت الحب بين عيني محمود وهو يفتح لى باب
السيارة ..

وحملنى الى مينا هاوس .. ولم نجلس هناك .. انما عاد
يحملنى الى مصر الجديدة .. وكنا نتحدث .. تحدثنا عن كل
شئ ولكنه لم يحاول أن يتحدث عن الزواج ..
الى أن قلت وأنا أدير رأسى وأطل من خلال نافذة
السيارة :

— أنا متهايا لى زى ما تكون مسافر فى ميدان الحرب
وأنا باودعك ..
قال فى هدوء :

— حرام عليكى .. حرب ايه .. ما فيش فى سفرى حرب
الا مع نفسى .. باحارب نفسى علشان أقدر أسبيك وأسافر ..
قلت وأنا لا زلت أنظر خلال الطريق :

— أنا قرّيت قصص كثير عن الحرب .. كان العسكري
ياخذ أجازة أربعة وعشرين ساعة علشان يتجوز البنت اللي
يحبها ، ويرجع يحارب تانى ..

قال كأنه يشرح نظرية فلسفية لاتحتمل الشك :

— كانت كلها قصص مآسى .. كان الجواز اللي من
النوع ده جواز من غير عقل .. جواز كله أنانية .. قبل
ما أموت ألحق آخذ لى حاجة .. وكان العسكري يرجع
يحارب ويموت ، ويسيب وراه أرملة كان يقدر يعفيها من
الترمل ، ويسيب يتيم كان يقدر يستغنى عنه ويغنيه عن عذابه
بيتمه . طفل مسكين يتولد بعد ما أبوه يموت .. ذنبه ايه ..
ذنبه ايه غير ان أبوه ما قدرش يستنى لغاية حياته ما تستقر ..
انما أبوه كان راجل أنانى ، نسى ابنه اللي حيتولد فى الليلة
القصيرة اللي حيقضيها مع حبيته !

قلت كأنى أدافع عن كل الجنود المحاربين :

— انما ما كانوش كلهم ييموتوا .. كانوا يرجعوا
ويعيشوا فى التبات والنبات ..
قال مستطردا وكأنى لم أقاطعه :

— اللي ما ييموتش بيتغير .. واللى ما بيتغيرش يرجع
يلاقى فى مراته حاجات ماكانش عارفها من الأول .. بيكتشف
فيها نواحي ما قدرش يشوفها وهو مستعجل قبل ما يرجع
الميدان ، وهو خاضع لعواطفه وناسى عقله ..
قلت وأنا لازلت أدافع عن رأى :

— انما ساعات الظروف هيه اللى تتغير .. ظروف البنت اللى يسببها حببها من غير جواز ويسافر .. أنا فاكره فى رواية « جسر واترلو » الراجل اللى سافر يحارب ، وساب حببته لوحدها تقاوم الظروف اللى حوالها لغاية ما تعبت وسقطت ضحية الظروف .. ولما رجع من الحرب .. كان خلاص .. ماكنش ممكن يتجوزها .. انما لو كان اتجوزها قبل ما يسافر كان الجواز حماها من الظروف الوحشة اللى اتلمت فوق دماغها .. وكان رجع لقاها مستنياه .

قال :

— أنا باعتقد ان الفترة دى .. الفترة اللى يسافر فيها الراجل ويسبب البنت بتاعته ، تعتبر فترة اختبار .. على أد ما هم الاتنين يقدروا يقاوموا ، ويقدروا يستنوا ، ويقدروا يحتفظوا بعواطفهم يكون الجواز أمتن ويتمتعوا بيه أكثر ..

قلت :

— انما فيه حاجات الواحدة ما تقدرش تحسب حسابها،
مثلا ..

قال يقاطعنى فى حدة :

— الجواز مش قصة ينادية .. مش رواية .. الجواز حاجة كبيرة قوى ينادية .. الجواز يعنى العمر كله ، يعنى استقرار .. ومش ممكن الواحد يتجوز الا لما يستقر ..

قلت :

— ليه .. ما يمكن واحد متشرد يتجوز واحدة ،
ويتشردوا هم الاتنين سوا .. مش أحسن ما يتشرد لوحده ؟
قال فى اختصار :

— والولاد !؟

وسكت برهة ، ثم قلت كأنى اقتنعت :

— لك حق ..

وضحكت ضحكة خافتة ، كأنى أحاول بها أن أزداد
اقتناعا برأيه ، واستطردت أقول :

— الحمد لله انك مش رايح تحارب ، والا كنت خفت

عليك تتغير !!

وابتسم ابتسامة كبيرة ، ومد ذراعه وجذبني اليه ،
وأراح رأسى على صدره ، وهو يقود السيارة بيده الأخرى .

وسافر محمود فى الفجر .. بعد أن وقع بامضائه فوق
قلبي ، وفوق خيالى ، وبين شفتى .. وتركنى فى مخزن أمانات
القدر ..

ولم نفترق على وعد محدد الا أن يكتب لى ، وأكتب
له ..

وكان آخر ما قاله لى وهو يسحب شفتيه من بين شفتى:
— استنينى يا نادية ..

وآخر ما قلته له ودمعته حائرة بين رموش عيني :

— حاستناك يا محمود ..

وعشت بعدها وأنا أعتبر نفسي مخطوبة له ..

وكنت خائفة على هذا الأمل .. كنت حريصة في كل
خطوة أخطوها ، وفي كل فكرة تخطر على بالي ، وفي كل
كلمة أقولها .. كنت كمن يسير على قشر البيض وأخشى أن
أفنته تحت أقدامى .. كنت أخاف أن أفسد شيئاً مما حولي
فلا يتحقق لى أملى ..



انى أذكر اليوم حادثا صغيرا مر بي ، ولم ألق اليه بالا ..
كان ذلك خلال الحفل الذى أقيم احتفالا بزواج أبى
وكوثر . فقد دق جرس التليفون ، ورفعت السماعه وقلت
« آلو » عدة مرات ، فلم يرد أحد ، وانما سمعت «تكتكة»
السماعه وهى تلقى فى وجهى .. وبعد قليل دق التليفون مرة
ثانية ورفعت السماعه فلم يرد أحد أيضا .. ثم دق التليفون
مرة ثالثة ، ورأيت كوثر وهى فى ثوب العرس تهرع الى
التليفون وتسبق يدي الى السماعه ثم تتكلم بصوت خفيض ،
فترة قصيرة ، ثم تضع السماعه وتعود الى المدعوين ، وتقف
بجوار أبى وبين شفيتها ابتسامتها الحلوة الواسعة المليئة
بالنشاط والحياة ، دون أن تذكر شيئا عن المتحدث فى
التليفون !!

لم ألق بالا الى هذا الحادث فى يومه ، فقد كنت سعيدة ،
وكنت صافية القلب والعقل ، فرحة بزواج أبى ، وفرحة
بوجود محمود بجانبى .. فلم أكن على استعداد لأن أسئ
الظن بأحد ، ولم أكن أستطيع — على الأخص — أن أسئ
الظن بعروس فى حفل زفافها !

ومرت أسابيع وأنا لا ألقى بالا الى شيء ..
كان تفكيرى فى محمود يشغل كيانى كله ، وكنت أحس

به في كل ثانية تمر بي .. كنت أحيانا أدخل الى نفسي فأحادثه،
وأعاتبه ، وأناجيّه ، وأحيانا أتصوره وهو في شوارع لندن
ينتقى لى هدية الزواج .. وأحيانا أراه بعين خيالى فى صحبة
فتاة أخرى ، فأثور بينى وبين نفسي ، وأغضب ، ولا أنام ..
وكنت دائما فى انتظار خطاباتّه ، كأنى فى انتظار موعد لقاء ..
وكان أبى يكاد يطير من السعادة .. عاد يمشى فى خيلاء
ووقار كأن الأرض كلها ملكه ، وعاد يغنى فى الحمام كل
صباح ويمأ البيت ضجيجا مرحا ، وعاد يحتضننى بعنف
ويحاول أن يرفعنى عن الأرض كأنه يحاول أن يثبت لى قوته
ويتباهى أمامى برجولته ، وعاد منتظما كما كان .. يخرج
فى ميعاد ، ويدخل فى ميعاد ، ولا يتأخر أبدا عن موعد
الغداء أو العشاء .. وعاد يقبل الدعوات العائلية ويتردد على
السهرات بصحبتنا ، كوثر وأنا ..

وكانت كوثر تبدو دائما سعيدة .. تشرح القلب .. كانت
ابتسامتها الواسعة تضم البيت كله وتشيع فيه الخفة والمرح ..
ولكنها لم تكن « ست بيت » .. أبدا .. كانت مدللة
« شخلوعة » ، أو كما يقول الفرنسيون : « كوكت » . لم
تكن تطيق الاشراف على البيت .. أو محاسبة الخدم ..
أو الدخول الى المطبخ ، أو « مسك » مصروف البيت ..
تركت كل هذه المواضيع لى ولدادا حليلة ، وقد أقبلت على
مهام البيت فى لهفة وانهماك ، فقد وجدت فيها تسليتى خلال
فترة انتظار محمود ، ولأقول الحق .. فقد وجدت فى

اختفاظى بالاشراف على البيت احتفاظا بمكاتى وأهميتى
فيه . أما دادا حليمة فقد كانت دائما متبرمة ، ودائما «تبرطم»
فلم يكن يعجبها من كوثر أن تهمل بيتها الى هذا الحد ،
حتى لو حلت أنا مكانها ..

ومضت هذه الأسابيع الزاهية ..

وبدأت ألاحظ أشياء ..

كان أبى لا يكاد يخرج من البيت حتى تأخذ كوثر
التليفون وتختفى به فى حجرتها ، ويطول اختفاؤها ، ثم
تخرج مهوشة الشعر ، وقد احتقنت الدماء فى أذنيها الصغيرتين
من أثر ضغط سماعه التليفون عليها .. كأنها كانت تحتضن
صوت محدثها بأذنيها ، أو كأن محدثها كان يشد هذين
الأذنين فى عنف يحاول أن يرفعها من بيتها اليه ..

وكانت أحيانا تخرج من البيت وحدها بعد خروج أبى ،
ودون أن تدعونى للخروج معها ، محتجة بزيارة والدتها
أو احدى صديقاتها ، ثم تعود قبل موعد عودة والدى ،
مرتبكة متعبة ، وتسألنى فى لهفة من خلال ابتسامة منهوكة
تكاد تسقط من فوق شفثتها :

— ما حدث سأل عليه .. أحمد ما سألت عليه !?

وعندما أجيبها بالنفى ، تبدو كأنها ارتاحت وتدخل
حجرتها لتبديل ثوبها وتسوى نفسها ، ثم تبدو مرحة نشطة
كأنها لم تخرج من البيت ..

ولم تكن كل هذه « الحركات » تغيب على ..

ولم أكن غبية غريرة ، حتى لا أستطيع أن أدرك ما وراء
هذه الحركات ..

وبدأت العواصف تجتاح نفسى .. بدأت أتساءل :
هل هى على علاقة برجل آخر؟!
هل تخون أبى?!

ولم أكن فى حاجة الى التساؤل .. كانت الحقيقة أوضح
من أن تدع مجالاً للتساؤل ..

نعم .. أنها تخون أبى .. تسلبه شرفه .. تسفك كرامته
تحت أقدام رجل آخر!

لقد طردت من حياته الزوجة المخلصة لأضع مكانها
زوجة خائنة ..

بعث البريئة .. واشترت المجرمة ..
يا ربى ..

هل بدأ انتقامك!!!

يا ربى ..

ألا تستطيع أن تنسى!!?

يا ربى ..

أيها المنتقم الجبار .. متى تكون غفورا رحيمًا?!

وبدأت جفونى تطرد الليل عن عيونى .. بدأت أحس
كأن فى ثيابى ثعبانا يزحف فوق جسدى ويقشعرنى .. بدأت
أحس كأنى أعيش فى صندوق قمامة .. كل شىء حولى قذر ..
كل شىء حولى رياء .. نفاق .. كذب .. خديعة ..

لماذا تخونه ؟

ماذا ينقصه دون الرجال !!

أى شىء لا يعطيه ، يعطيه رجل آخر ؟

ربما كانت لا تحبه .

... لماذا تزوجته ؟

ربما لأن حبيبها من هذا الصنف من الرجال الذى لا يتزوج .. صنف كمصطفى .. وربما تزوجت أبى ليوفر لها المظهر الذى يتطلبه المجتمع ، ويوفر لها الحياة الرغدة التى تحياها .. تزوجته بنية خيائه ، وباتفاق مع حبيبها .. وخائته مع سبق الاصرار والترصد .. كما يقول القانون ..

كانت كل هذه الخواطر تطوف برأسى ثم أتساءل ماذا

أفعل ؟

انى أستطيع أن أسحقها .. أستطيع أن أطردها من البيت كالكلبة .. ان عقلى لا يعجز أبدا عن الهدم .. واذا كان لا يعجز عن هدم الخير والاطاحة بالأبرياء ، فهو لن يعجز عن هدم الشر والاطاحة بالمجرمين ..

ولكن أبى ..

أبى المسكين ..

هل يتحمل صدمة أخرى ؟

هل يتحمل أن يفقد زوجتين كلتاها بتهمة الخيانة !؟

هل تتحمل كرامة رجل ، كل هذا العبء ، وكل هذا

الألم وكل هذا العذاب ؟

وتذكرت حال أبي عقب أن طلق صفية .. تذكرته مشردا ،
مخمورا ، مسرفا ، تعبت به النساء الرخيصات .. وأحسست
بقلبي ينقبض في لوعة كأنه يضم شيئا صغيرا .. صغيرا جدا ..
هو أبي .. يضمه ليحميه من العواصف .. ومن البرد .. ومن
الناس ..

لا .. يجب أن لا يعلم أبي ..

يجب أن تبقى كوثر في حياته .. بأى ثمن .. ومهما
تكلفت وكلفتني من رياء ، وثفاق ، وخديعة ..
ثم ما هي الخيانة الزوجية ؟

ان الخيانة الزوجية جريمة لاتتم الا بعلم الزوج ..
والزوج عادة آخر من يعلم ، والى أن يعلم فالجريمة لم تقع
بعد .. انها كجريمة النصب ، فما دمت لم تعلم بأن هناك
من نصب عليك ، فليس هناك جريمة نصب .. ما دمت لم
تعلم أن هناك شيئا سرق منك ، فالسرقة — في نظرك —
لم تقع ..

والقانون في الخيانة الزوجية يعترف بأنها جريمة لاتتم
الا بعلم الزوج .. واذا كان هذا القانون قد أعطى الزوج
حق التنازل عن اتهام زوجته بالخيانة ، فهو بالأولى يعتبر
الزوج الذى لا يعلم في حالة تنازل مستمر عن حقه ..

والمجتمع أيضا .. انه لا يعاقب الزوجة الخائنة الا اذا
علم الزوج بخيانتها .. قد يهمس المجتمع ، وقد يشير من بعيد
اشارات خفية ، ولكن هذا المجتمع لا يصرخ ، ولا يهتم ،

ولا يعاقب الا اذا علم الزوج .. ويوم يعلم .. يوم يتم الطلاق
وتقع الكارثة ، يفتح المجتمع فمه الى آخره لتخرج منه آلاف
الألسن تطرقع كالكرابيح !

هل هذا صحيح ؟

لست أدري .. فلم يكن يهمنى فى هذه الأيام الا أن
أبحث عن منطق أشد به أزرى .. منطق يقنعنى بالتستر على
زوجة أبى .. ابقاء على سعادة أبى !

وقد تماديت فى اقناع نفسى الى حد انى بدأت أتهم
نفسى بأنى أنا السبب فيما وصلت اليه كوثر ..
لم لا ؟!

لقد كانت كوثر وهى تلميذة معى فى المدرسة ، فتاة
هادئة صافية تقية كالبلور ، ثم أحببت مدحت ابن خالى جبا
عفا طاهرا ، كان يمكن أن ينتهى الى زواج ، لولا انى تدخلت
بينهما ومزقت جبهما ، كما رويت فى بداية قصتى .. وكادت
كوثر أيامها أن تجن .. جفت كأن لم يعد فيها دماء .. ثم
زوجوها من رجل بعيد عن قلبها ، بعيد عن مزاجها ، بعيد
عن أحلامها .. وطلقت منه بعد عام أو عامين .. وتركت نفسها
بعد الطلاق للدنيا .. للمجتمع الفاسد .. لم يعد لها أمل
تحمى نفسها به ، لم يترك لها القدر فضيلة تدافع عنها .. انها
تخطئ اليوم .. وربما أخطأت كثيرا قبل اليوم .. ولكن
لماذا ؟ لأنها لم تجد سعادتها فى الفضيلة .. لم تجد فيها
الا العذاب والهوان .. وحية مع رجل لا تحبه !!

ترى لو أنها تزوجت مدحت ، هل كان يحدث لها كل ذلك .. هل كانت تخونه كما تخون أبي اليوم .. هل كانت تكون عابثة طامعة كما هي اليوم !?

لا أظن .. فالزوجة اما أن تكون زوجة تحب زوجها ، واما أن تكون زوجة خائنة .. ليس هناك زوجة تحب زوجها وتخونه ، وليس هناك زوجة لا تحب زوجها ولا تخونه ، حتى لو خاتمه مع نفسها .. هكذا كان يقول مصطفى .. ويبدو أنه على حق فيما يقول !
وأنا المجرمة في كلتا الحالتين ..

أجرت يوم فرقت بين كوثر وحبيها وتركتها لتكون زوجة خائنة لرجل آخر !
وأجرت يوم اخترتها زوجة لأبي ليكون هو الزوج
المخدوع !

هكذا كنت أقول لنفسي لأزداد اقتناعا بالتستر على خيانة كوثر ، حرصا على سعادة أبي ..
وقد كانت كوثر تحرص معي على سعادة أبي ..
لا أستطيع أن أتهمها بالتفريط في سعادة أبي ، كما كانت تفرط في عرضه ..

وبالعكس .. كانت تعود من لقاء حبيها ، فتمنح أبي ضعف ما تعودت أن تمنحه من دلال وحنو واستسلام ..
كأنها تحاول أن تعوضه عن حقه المنهوب ، أو تحاول أن تخفف من العبء الذي يزرع تحته ضميرها ..

وكان أبى الساذج الطيب يسعد فى هذه الأوقات ..
وتبدو عليه السعادة كما لم أرها على وجهه الجميل من قبل .
وكنت أنا وحدى التى أتعذب ..
أنا وحدى التى لا أطيق ثيابى ..
أنا وحدى التى أشم رائحة الخيانة ، تزكم أنفى وتضغط
على رئتى .. كأنها طعام ثقيل حامض لا تستطيع رئتاى أن
تهضمه !

ومع مرور الأيام عرفت كوثر انى عليمه بسرها ..
وعرفت أيضا انى أتستر عليها ..

لم يكن ممكنا أن نعيش نحن الاثنتين فى بيت واحد ،
دون أن تكشف احدانا أسرار الأخرى .. ولم تكن كوثر من
الغباء بحيث يخيل اليها انها تستطيع أن تختبئ هى والتليفون
فى غرفتها كل هذه الفترات الطويلة ، وتخرج من البيت فى
هذه المواعيد المريبة ، وتعود بهذه الحالة الأشد ريبة ، دون
أن يثير كل ذلك فى نفسى الشك فى تصرفاتها .

ورغم ذلك لم تتكلم فى هذا الموضوع ..

وربما بدا فى شعورى نحوها بعض الجفاء .. ولكننا كنا
نحن الاثنتين نتجاهل هذا الجفاء .. وكنا نحن الاثنتين نتعمد
أن تتغلب على ما بيننا من جفاء ، ونبدو كصديقتين حميمتين
كلما جلس أبى بيننا ..

لم أفاتحها ولم تفاتحنى ..

الى أن كان يوم ..

وقالت كوثر ونحن على مائدة الافطار انها ذاهبة
لزيارة أمها .

وابتلعت الألم مع اللقمة التي أمضغها ..
ووافق أبى ، قائلاً فى حب وطيبة :

— ما تقوليلها تيجى تتعشى معنا النهارده .. بقالنا
يومين ماشفناهاش .. أنا عمرى ما شفت حما بالشكل ده ..
وخرج أبى
وخرجت كوثر بعده بقليل ..

وجلست أشرف على البيت ، ثم أخذت أقرأ خطابات
محمود للمرة الألف .. وقد كانت هذه الخطابات هى كل
سلوتى .. وكل أملى .. كل ما أعيش لأجله .. كنت أرى
بين سطورها محمود وهو عائد من لندن ليتزوجنى ..
ليحملنى بعيداً عن هذا البيت .. بعيداً عن كوثر .. بعيداً
عن أبى الذى أنهكنى حبه .. الحب الذى أفسد حياتى ..
وأفسدت به حياته ..

كنت أريد أن أرتاح .. ولم يكن لى أمل فى الراحة
الا : محمود ..

وكانت خطابات محمود دائماً رقيقة .. أرق مما يبدو
عليه .. أرق من حديثه الهادىء ونظراته الحانية ، وخلقته
الرفيع ، وقبالاته التى ترقد بين شفتى كأنفاس الملائكة ،
وأرق من أنفاسه التى تطوف حولى كأجنحة فراشات صغيرة
هائمة ..

كتب لى مرة فى احدى خطاباتة :

« .. عجيبة ، لم أكن أعتقد ان نساء لندن بلا رؤوس ..
فانى لا أرى هنا رأسا لامرأة .. بل لم أر الا رأسا حملته
معى من القاهرة فى خيالى .. رأس فتاة ذهبية الشعر فى عينيها
ألوان ، وبين شفيتها غدیر عذب ، وفوق وجنتيها ورد ..
وبشرتها نسجتها الطيبة ، ولفتاتها ساذجة ، وابتسامتها
طفلة .. » .

وكتب لى :

« لقد رأيت اليوم فى — ريجنت ستريت — صالون
أيسون ، ورأيت غرفة للمكتب .. ان المكتب كبير أستطيع
عندما أجلس اليه أن أضع فوقه صورة الفتاة التى أحبها ..
ورأيت حجرة نوم .. سرير واحد .. والستائر ذهبية .. ولكنى
أفضل أن تكون الستائر فى لون العقيق أو زرقاء فى لون
المحيط ، حتى تبرز الشعر الذهبى الذى ستكون اطاراله » .

وكتب لى :

« انى أتساءل أحيانا ما الذى يجمعنا .. هل نحن
متشابهان أم نحن متناقضان .. لا .. ان أحدنا يكمل الآخر ..
أنت شقراء وأنا أسمر .. أنت أطول قليلا مما يجب ، وأنا
أقصر قليلا مما يجب .. وأنت عاطفية وأنا منطقي .. أنت قلب
وأنا عقل .. أنت تنظرين الى السطح وأنا أنظر الى الأعماق ..
أنت ملاك وأنا انسان .. وأنت وأنا نكون الانسان الكامل ..

كل منا نصف الآخر .. وانى أحس وأنا هنا بعيدا عنك بأنى
« نص » .. أريد أن أعود الى نصفى الآخر !

وكنت هائمة فى قراءة هذه الخطابات .. هائمة وراء
الصور الجميلة الحلوة الطيبة .. صورتى كما ترسم فى
عينى محمود عندما دق جرس التليفون .. وكان المتحدث
أبى ..

وقال أبى وصوته يعلو وينخفض كأن فيه مطبات :
— هيه كوثر راحت فىن .. أنا سألت عليها عند والدتها
مالقيتهاش .. ماتعرفيش راحت فىن !?

وارتبكت ، وبذلت مجهودا كبيرا لأخفى ارتباكى ، ثم
قلت كأنى ألقى نفسى فى البحر لانتقاذ غريق :
— أظن ياأبأ انها راحت عند الدكتور !!
وقال أبى بتعجب :

— دكتور .. دكتور ايه .. ما أنا سبتها كويسه الصبح ..
أنا جاى حالا ..
قلت بسرعة :

— ما تشغلىش ياأبأ .. دى زمانها جايه .. ما أظن ان
فيه حاجة كبيرة .. هيه بقالها يومين بتشكى ومش راضية
تقول لك علشان ما تشغلىش ..
وقال أبى فى لهجة باترة :
— أنا جاى حالا ..
ووضع الساعة بعنف ..

ودرت في البيت كالمجنونة ، أطل من النوافذ بحثاً عن
كوثر حتى اطمئن الى عودتها قبل عودة أبي ..
ولكن كوثر لم تعد ..
وعاد أبي .. وعندما لم يجدها قال يسألني في حدة :
— ما قالتش لك راحت عند أي دكتور ؟
قلت :

— أبدا .. أصلى كنت بساوى أودتى ما فكرتشف
أسألها .

وأخذت أهديء والدى وأصبره ، وأنا في أشد الحاجة
لمن يهدئني ويصبرني .. الى أن اعتقدت ان موعد عودة كوثر
قد حان ، فاستأذنت أبي في الذهاب الى شقة الجيران لآخذ
من ابنتهم رسم « الكانافاه » .. ولم أنتظر حتى يأذن لى أبي،
بل خرجت مسرعة ونزلت الى الشارع ، ووقفت في انتظار
كوثر ، وأنا أتلقت يمينا ويسارا حتى أقنع البواب بأني في
انتظار سيارة أركبها .

وجاءت كوثر بعد قليل في سيارة أجرة ..
وقبل أن تضع قدمها على الأرض كنت بجانبها أهمس
في أذنها بما جرى ، وأوصيها بأن تقول لأبي انها كانت عند
الدكتور .. وانها لم تذهب عند والدتها ..
ثم تركتها تصعد قبلى ..

وصعدت بعدها بقليل ، لأسمع والدى وهو يقول لها
في لهفة :

— بس مش تقوليلي عندك ايه .. ورحتى للدكتور ليه؟!

وقالت كوثر فى دلال عجيب :

— لا .. ما أقولكش !

واقتمحت الحديث بينهما قائلة :

— اتى جيتى .. شغلتينا عليكى !

وعاد أبى يقول فى توسل :

— وحياتى عندك ، طمينى !

وقالت كوثر وهى أكثر دلالة ومرحاً ، حتى حسدتها على

قوة أعصابها :

— يا أخى انت مالك ومال حاجات الستات .. بعدين

أقول لك .. لوحدنا !

واقتربت منه وقبلته فى جبينه ، ونظرت اليه فى حنان

مفتعل ، وأضاء وجه أبى ولمعت عيناه وفغر فاه كأنه فهم

شيئاً ..

وكان ما فهمه أبى ، أدهشه حتى أعجزه عن الكلام ،

فظل فاغراً فمه ، ينظر الى كوثر بعينين مدهوشتين ، فيهما

بجانب الدهشة عبادة ..

وقلت لأحبك الكذبة الكبرى :

— صحيح والنبي يا كوثر؟!

وقالت كوثر وهى تمثل حياء الأمومة :

— الدكتور لسه مش متأكد !!

ومن يومها تمادى أبى فى تدليل زوجته ، وتمادى فى

الحرص عليها ، وفي تتبعها في كل ما تأكله وفي كل خطوة
تخطوها ، وتمادى في شراء كتب تربية الأطفال ، والعناية
بالحوامل ، حتى اضطرت كوثر الى أن تصحبه معها يوما الى
الطبيب .. ولا بد أنها كذبت على الطبيب كذبة أخرى ،
وخرجت تقول لأبى أنها ليست حاملا ، وانما ألم بها ضعف ..

ومن يومها أصبح الأمر صريحا بينى وبين كوثر ..

أصبحت صريحة أمامى فى خيانة أبى ..

وأصبحت صريحة فى التستر عليها ..

ولم تعد السماعة تلقى فى وجهى عندما أرد على التلفزيون،
ويبدو أن كوثر قد قالت لصاحبها انى أصبحت موضع
سرها ، وأنى أتستر عليها ، فقد وجد فى نفسه الجرأة
ليحدثنى :

— آلو .. نادية هانم .. والله أقدر أكلّم كوثر !

وكنت أعلم انه هو .. صاحبها .. ولكنى تجاهلته لعله
يتجاهل الحقيقة هو الآخر ، ويدعى انه شقيق احدى
صديقاتها — مثلا — فسألته فى برود :

— حضرتك مين ؟

قال فى صوت مهذب ولكنه وقح :

— أنا سمير ..

ولم أستطع الا أن أحمل اليها التلفزيون ..

وهكذا عرفت اسمه .. سمير !

ورغم ذلك فلم أترك لكوثر الفرصة لتحدثنى عنه ..

كنت أريد أن أنأى بنفسى عنهما .. أن أبتعد بقدر ما أستطيع
عن هذه الرائحة الثقيلة التى لانهضها رئتائى .. رائحة
الخيانة !

وفى مرات كثيرة كنت أصدھا عن الحديث عن نفسها
وعن صاحبھا .. وكنت جافة حازمة فى صدها .. ولكنها لم
تكن تأبه .. كانت تبتسم فى سخرية كأنھا تهزأ منى .. كانت
تعلم أنھا تمسك بى من عنقى ، وانى لن أستطيع أن أفعل
شيئا حيال خيانتھا .. كانت تعلم انى أشرب المرصامته ، وانى
أضع كرامتى تحت قدمھا صاغرة .. وانھا تستطيع أن تمزقنى
بالسياط فلا أتأوه ولا أشكو . كانت تعلم انى أتستر عليها
لا حبا فيها ، ولكن حبا فى أبى وإبقاء على سعادته .. وكانت
تعلم انى أضحى بكل شىء .. بكرامتى وراحتى وحياتى كلها
فى سبيل هذا الحب .. حب أبى .. وفى سبيل هذه السعادة ..
سعادة أبى !

وقد استعلت حبى لأبى .. أمسكتنى من أرق وأضعف
قطعة منى ، وبدأت تعذبنى ..
وتعذبت كثيرا ..
منتهى العذاب ..

تعذبت بجرحى الذى تنزف منه كرامتى .. وتعذبت
بخديعة أبى .. وتعذبت بغيظى من كوثر .. غيظ يكوينى ،
ويحرق قلبى ، ويفتت كبدى .
وقد سكت على هذا العذاب طويلا ..

كنت أخاف من عذابي .. أخاف أن ينفجر بى ويحرك
قوى الشر فى نفسى فأهدم البيت فوق رأس أبى ، كما هدمته
مرة من قبل ..

وكنت أحاول أن أهرب من هذا العذاب الى محمود..
فكنت أكتب له طويلا .. أحدثه عن كل شىء .. عن كوثر
وعن خيانتها وعن أبى المخدوع .. وأشكو .. وأستجير به ،
وأستحلفه أن يعود لينقذنى ..
ثم أمزق كل ما كتبه ..
لا يجب أن يعلم ..

يجب أن يبقى دائما نظيفا من كل هذه المشاكل التى
انغمس فيها .. نظيفا طاهرا لأعيش معه نظيفة طاهرة .

وأنهكتنى مقاومة العذاب .. ذوى عودى وأصبح كل
شىء فى منكسرا ذليلا .. عيناي ذليلتان .. وشفثاي ذليلتان..
ووجنتاي مصفرتان كأن دماءهما تخجل من مواجهة أبى
ومواجهة الناس .. أصبحت كتمثال من الشمع صنعته يد
فنان بائس فطبعته بالبؤس ..

وطال صمتى .. ولكنى كنت أحاول أن أبدو مرحة أمام
أبى حتى لا أشغله بنفسى ، وكنت أتعمد أن أخرج معه ومع
كوثر حتى لا أزعجه باعتكافى ، وحتى لا أترك لكوثر فرصة
تشمتم بى .. وتزيد فى تعذيبى ..

وذهبت مرة معهما الى الأوبرج .. وفى طريقنا الى مائدتنا
رأيت مصطفى .. !

مع من ؟

مع صفة !!

وكان معهما شقيق صفية ، وبعض الأصدقاء والصدقات..
رأيتهما وقد انشغل كل منهما بالآخر عن الآخرين ..
كان كل منهما ذائبا في حديث مع الآخر ، كأنهما يتمان نفس
الحديث الذى دار بينهما عندما التقيا لأول مرة منذ سنوات ..
ورأى أبى صفية وتجاهلها ..

ونظرت اليها كوثر في تعال رخيص ، ثم وضعت ذراعها
في ذراع أبى وضحكت ضحكة عالية ، كأنها تريد أن تغتصب
كل الأنظار من حول صفية ..

أما أنا فقد نظرت اليهما في مسكنة وذل ، وأطلت النظر..

ونظر الى مصطفى كأنه يتذكر أنه رآنى من قبل !

ونظرت الى صفية نظرة حلوة ، وابتسمت ابتسامة كبيرة
كأنها فرحت بلقائى ، ثم هزت رأسها محيية من بعيد ..

وفي هذه البرهة القصيرة لم أهتم بمصطفى .. لم أشعر
بوجوده ، انما كنت متجهة الى صفية بكل عواطفى .. بكل
عذابى .. أحسست كأنى أريد أن ألقى بنفسى فوق صدرها
وأبكى .. أريد أن أحكى لها ما جرى لى .. أريد أن تأخذ
بى معها الى بيتها بعيدا عن كوثر .. بعيدا عن الخيانة .. بعيدا
عن الخداع والنفاق والكذب .. وعن الرائحة الثقيلة التى
لا تهضمها رئتائى !

وقضيت السهرة ذاهلة ..

ولم كن أفكر في صفيه ومصطفى وما يمكن أن يجمع
بينهما .. ولكنى كنت أفكر في نفسى .. فى حياتى .. فى
جرائمى .. فى قدرى .. فى عذابى .. فى خيبتى ..

وطال ذهولى ، حتى اقترح أبى أن نعود الى البيت ،
ظنا منه أنى متعبة ، ولكن كوثر رفضت ، لأنها لا تريد أن
ترحل قبل رحيل صفيه ، حتى لا تبدو أقل سعادة منها ..

وبقيت أنظر الى مصطفى .. وهو يراقص صفيه كأنه يضم
بين ذراعيه ملاكا يخاف عليه من نفسه .. أنظر اليهما وكأنى
أنظر من بين قضبان سوداء الى عالم جميل طردت منه ..
وعندما أصبحت فى فراشى ، كانت كل خلجة منى تهتف :
محمود ..

كان كل ما بقى لى من أمل فى النجاة ..



وكان يوم ..

وكنا مدعوين الى زفاف احدي صديقاتنا ، وذهبت أنا
وكوثر في الصباح الى الحلاق ، واتهينا من تصنيف شعري
وشعرها في وقت واحد ، وكانت الساعة قد بلغت حوالى
الثانية عشرة ظهرا .

وبعد خروجنا من عند الحلاق ، اقترحت كوثر أن تذهب
الى جروبي لتتناول قدحا من عصير البرتقال ..
ورفضت ..

وألحت كوثر .. وقالت كأنها تستجديني :

— والنبي ينادية .. ده أنا حاسة انى طالعة من فرن ..
الششوار داوش دماغى ، وزى ما أكون دايخة .. تقعد فى
جروبي خمس دقائق بس نشرب كباية عصير ، ونروح ..
قلت فى جناء :

— بعد خمس دقائق حنكون فى البيت وهناك تقدرى
تشربنى الفريجدير كله .

وقالت وفى عينها توسل وبين شفيتها ابتسامة نفاق :

— اخص عليكى ينادية .. علشان خاطرى !

قلت وكأنى ألقى عليها درسا فى الأخلاق :

— وكم ان ما يصحش ان اتنين ستات يقعدوا فى جروبى
لوحدهم ..

قالت وهى تبسم ابتسامة خبيثة :

— لا .. ده اتنى اتغيرتى خالص ينادية .. بقيتى زى
ستى الحاجة .. تعالى بس يا شيخه ، الرجالة كلهم فى شغلهم
وجروبى فى الساعة دى يبقى فاضى ، مافيهش حد الا الستات ..
وجذبتنى من يدى ونحن فى الطريق .. وهى تضحك
ضحكة كبيرة خليعة ..

واقعدت لها كانى أتجنب فضيحة يمكن أن تثيرها كوثر
وسط الشارع ..

وكان محل جروبى على بعد خطوات من الحلاق ..
ودخلنا ، وهى لا تزال قابضة على يدى كأنها تخشى أن
أهرب منها ..

ولم يكن هناك كثير من الرجال فعلا .. مائدة أو مائدتان
يحتلها بعض الرجال العجائز يقرأون الصحف .. وموائد
أخرى تحتلها بعض الشخصيات الأجنبية .. والمكان كله
يسوده هدوء أقرب الى الصمت ، وتلفه ريح رطبة ، وينتشر
فيه ضوء خافت كأنه ظلام ..

وانقبض صدرى .. أحسست احساسا خفيا بأنى منساقه
الى مؤامرة ..

وانتقت كوثر مائدة منزوية ، جلسنا إليها ، وطلبت من
الجرسون كويين من عصير البرتقال ..

وأخذت أتلفت حولي في ضيق كأني أبحث عن طاقة من
النور ، تبدد هذا الضوء الكالح الذي يعمر جروبي ..
وقبل أن يعود الجرسون بكوبي العصير ، انتصب أمامنا
فجأة شاب .. كأن الأرض قد انشقت ولفظته من جوفها ثم
عادت وانطبقت بعد أن استراحت منه .. لم أدر من أين
جاء ، ولا أية ريح قذفت به إلينا ، انما وجدته أمامنا منتصباً
كلوح الخشب !

شاب ، كل خط فيه مرسوم بالبرجل والمسطرة ، كأن
الذي صنع حلته مهندس لا ترزى .. وكأنه صنعها من حجر
لا من قماش . وكأن الذي لف رباط عنقه كان يحاول أن
يخنقه .. وكأن الذي حلق ذقنه نحات لا حلاق ، فترك وجهه
لامعاً فيه بياض كثير كأنه « الجير » .

عيناه منتفختان كأنه جمع تحت جفونهما ليالي عمره ..
وشفتاه غليظتان منفرتان ترسم فوقهما الشراهة والجوع ..
وشعره أسود لامع طويل ، كل شعرة قد التصقت بالأخرى
بالبرياتين ، حتى يبدو كأنه شعر مستعار . وحركاته كلها
مسرحة كأنه يستعرض في كل حركة عضلاته واناقة وخفة
دمه !!

ومدت كوتر يدها له في دلال وابتسامتها تعربد فوق
وجهها .. وانحنى يقبل يدها في رشاقة مفتعلة سمجة ، ثم
التفت الى ونظر نظرة وقحة كأنه يعريني من ثيابي ..
وأحسست بابتسامته كأنها سائل لزج يسيل على وجهي !

واتسعت ابتسامة كوثر وهى تقدمه لى قائلة :
— طبعا اتم تعرفوا بعض بالصوت بالتليفون .. أهو
ده ياستى سمير .. سمير حسام الدين !!
والتفتت اليه واستطردت :
— طبعا عارف دى تبقى مين . نادية !
وشهقت شهقة خافتة ..

ومد يده .. فمددت يدى فى تردد كأنى أضن بها عليه ..
وانحنى يحاول أن يقبلها ، فسحبها منه بسرعة كأنى أخاف
أن يلوثها ..

وسحب مقعدا وجلس معنا دون أن يستأذن ، وكأنه كان
معنا على موعد .

ونظرت الى كوثر فى حدة كأنى أطلق عليها الرصاص ..
ولكنها تجاهلت نظرتى ، وأقبلت على سمير تحادثه .. وكأنه
من الطبيعى أن تلتقى معه على موعد فى محل عام .. ومن
الطبيعى أن أكون معهما .. أنا . أنا ابنة الزوج المخدوع !!
الى هذا الحد بلغت وقاحتها ..

والى هذا الحد كان يجب على أن أحتمل ..

وأخذت أفحص سمير من طرف خفى .. سماجته ..
وتفاهته .. وافتعال حركاته .. وميوعته .. وحديثه الفارغ ..
ماذا فيه .. ماذا تحب كوثر منه .. أى شىء يفضل به أبى !?
ووجدتني أقارن بينه وبين أبى .. ثم ثرت على هذه

المقارنة .. لأنه لا يقارن به .. انه لا يصل الى كعب حذاء
أبى .. انه تافه .. سافل .. حقير !

انى أعرف هذا النوع من الشبان .. أعرفه جيدا .. هذا
النوع الذى ينحدر من عائلات قديمة معروفة منحلة ، فقدت
تراثها الأخلاقى ، وفقدت ثروتها المادية ، فنشأ فيها جيل
يحتفظ بالاسم الكبير وبالأرستقراطية الزائفة ، ثم لا يجد
شيئا يعيش عليه ، الا أن يحتال على النساء .. يخدعن ..
ويبتز شرفهن وكل شىء حولهن .. نوع تخصص فى ملاحقة
النساء والايقاع بهن ..

نعم .. انى أعرف هذا النوع ..

حتى لو لم يكن سفير من هذا النوع فهذا ما يبدو عليه ..
وأحسست بأعصابى تلتهب .. أحسست انى لم أعد
أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، والا انفجرت .. كان كل
شىء فى مجروحاً ينزف الدم .. كرامتى .. شرفى .. حبنى لأبى ..
وخبطت على المائدة بيدي ، وقلت فى صوت مبجوح
تخنقه النار المندلعة فى أعصابى :

— أظن تقوم بأه يا كوثر ؟

وقالت كوثر بلا مبالاة :

— مش لما نشرب البرتقال ؟

وقال سفير كأنه يطيب خاطرى :

— يظهر ان نادية هانم مستعجلة قوى ..

ولم أرد عليه ..

وقالت كوثر كأنها تهون أمرى عليه :
— ولا مستعجلة ولا حاجة .. هيه بس اليومين دول اللي
عصية شوية ..
وددت لو صفتها ..
أحسست بيدي تكاد تتحرك رغما منى وتهوى على
خدها ..

ونظر سبير الى ، هذه النظرة الوقحة التى تطل من تحت
حاجبيه الكشيفين ، وقال كأنه يلقى جملة تمثيلية محفوظة :
— كوثر كانت دايمًا تقوللى عنك انك جميلة .. انما
ماكنتش فاكر انك جميلة للدرجة دى .
وقالت كوثر كأنها تشده ناحيتها :
— وبعدين ياسبير .. انت عينك حتروغ والا ايه .
وعدت أقول فى حدة وأنا أهم بالقيام :
— أظن احنا تأخرنا قوى ..

ولم أكد أقف على قدمى حتى جاء الجرسون يحمل
أكواب العصير ، وقالت كوثر وهى تنظر الى بغيظ وحنق :
— أظن تسمحيلنا نشرب البرتقال والا بلاش !?
وألقيت نفسى مرة ثانية على المقعد كأنى أسلم أمرى لله ..
ونظرت الى عصير البرتقال كأنه قبيح السم ، ولم أمد
يذى الىه .. وأدرت رأسى ناحية الباب كأنى أبحث عن طريق
النجاة .. ثم صرخت صرخة مكتومة اقتلعت قلبى ..
لقد رأيت أبى ..

رأيته يدخل من الباب متجها الى قسم المشتريات ..
وتعلقت نظرتي به كأنى أحاول أن أدفعه عنا برموش

عيني ..

وفي برهة خاطفة ، تخيلته يقف قبالتنا ، ثم يخرج المسدس
من جيبيه .. ويطلق رصاصتين يقتل بهما كوثر .. ورصاصتين
يقتل بهما صاحبها .. ورصاصتين يقتلني بهما .. ويبقى
الرصاصة الأخيرة ليقتل بها نفسه ..
والتفت الى كوثر في هلع وأنا أهمس :

— بابا .. بابا ..

ورفعت كوثر رأسها ورأته .. فامتقع لونها كأن دماءها
كلها قد تسربت من أصبع قدمها .. وارتعشت شفتاها ،
وقفزت الى عينيها نظرات حائرة خائفة ، وأدرات رأسها الى
سمير كأنها تحتمى به من طلقات المسدس ، ثم التفت الى
كأنها تتوسل وتستجد .

والتفت سмир ناحية أبى ، ثم مد يده وأخذ يعبث برباط
عنقه ، وأخذ يمد رقبته خارج ياقة القميص ، ويجز على
شفتيه بأسنانه ، ثم يضغط على أنفه بأصبعه ، ويرطم بكلمات
لم أسمعها ولم أفهمها الا كصوت فحيح ..
وقبل أن يتحرك أحدنا ، كان أبى بجانبنا ..

والتفت عيوننا نحن الثلاثة في نظرة خاطفة ، وكأن عيوننا
قد نسجت في هذه النظرة ، شبكة للايقاع بأبى المسكين .
وسمعت صوت أبى يقول في تساؤل كأنه حساب :

— الله .. ايه اللي جابكم هنا .. اتم مش قلمت رايحين
عند الكوافير ..

ولم أدرك كم مضى من الوقت قبل أن أسمع صوت كوثر ..
ربما مضت ساعة أو ساعتان ، وربما مضت دقيقة ، أو ثانية ،
الى أن سمعتها :

— جينا نشرب عصير برتقان .. أصل .. أصل .. أصل
الواحدة بتخرج من عند الكوافير داخه .. و ..

وكان سмир قد وقف على قدميه ، بجانب أبي .. وهو
لا يزال يعبث برباط عنقه ويمد رقبته خارج ياقة قميصه ،
ويضغط بأصابعه على أنفه ..

والتفت والدى اليه .. ورأيت في عينيه نظرة جامدة بلا
معنى ، كأنه ينتظر أن تقدمه اليه واحدة منا نحن الاثنتين ،
قبل أن يحدد معنى نظره ..

ولا أدري ماذا حدث لى فى هذه اللحظة ..

ولا أدري ماذا جرى لعقلى .. وأين فر منى ذكائى ..

لقد خيل الىّ لحظتها أن كوثر لن تتكلم أبدا .. ان
لسانها قد شل من هول الموقف .. ثم خيل الى أنها لو تكلمت
فستعترف .. ستقول ان هذا هو صاحبها .. وانها تخون أبى
معه منذ زواجها .. وانها تحبه .. وانها له .. و .. وخيل الى
أن أبى سمع هذا الاعتراف .. وانه نطق بكلمة الطلاق ..
ثم اهتز من ثقل الصدمة ثم وقع على الأرض .. ومات ..
مات بالسكتة القلبية .. وخيل الى انى صرخت !!

مر كل هذا بخيالي فى لحظة خاطفة .. واعتقدت انى يجب
أن أفعل شيئاً .. أن أقول شيئاً .. أن أتخذ الموقف .. أن أتخذ
أبى من الموت .. كما أتخذت جان دارك وطنها فرنسا .. ثم
احترقت بالنار !

وسمعت نفسى أقول لأبى :

— حضرته سمير بيه .. سمير بيه حسام الدين !

ومد سمير يده لأبى ، وتصافحا ..

ثم نظر أبى الى كأنه يسألنى مزيدا من التفاصيل ، فقلت
— بلا وعى — وأنا أرخى عينى فى خفر مفتعل ، كأنى عروس
فى ليلة زفافها :

— بعدين حاتعرف كل حاجة يا بابا ..

والنتفت سمير الى فى دهشة ..

وتعلقت عيننا كوثر بى ، كأنها تبحث بهما عما فى رأسى ..

وقال أبى وقد بدأ يفتعل الهدوء :

— حاعرف ايه !?

قلت وأنا لازلت أدعى الحياء والخفر :

— بعدين يا بابا . كوثر حاتقولك على كل حاجة !!

ولمحت بطرف عينى ابتسامة كبيرة قد قفزت الى شفتى

كوثر وخيل الى أن الدماء قد عادت تتدفق فى وجنتيها ..

لقد فهمت ما أرمى اليه ..

وفهم سمير أيضا . وأراد المجرم أن يحبك الكذبة الكبرى،

فقال لأبى فى وقاحة وجرأة ، لا يقدر عليهما الا نصاب عالمي:

— والله يا أفندم أنا كنت عايز أتشرف بمقابلتك من زمان .. انما سبت لنادية انها تختار الميعاد اللي يناسبها ..

وردد أبى كأنه يستعين بكل ذكائه :

— اللي يناسبها !!

ثم كأنه فهم أخيرا ، فقال وقد بدأت ابتسامه صغيرة تقفز الى شفثيه :

— آه .. طيب .. بس .. و ..

وقاطعته كوثر ، وهى تقفز واقفة وقد استردت كل دلالتها وخلاعتها ، وقالت وهى تضع ذراعها فى ذراع أبى :

— الكلام دلوقت ماينفعش .. بعدين تتكلم على مهلنا ..
ياللا بينا يا أحمد ..

ومدت يدها فى حركة رسمية الى سمير ، وهى تقول :
— تشرفنا قوى ياسمير بيه .. اطمئن كل حاجة متسهلة
باذن الله !!

ثم التفتت الى قائلة كأنها أم حنون فرحة بابتها :

— يا لالا يا نادية يا حبيبتى !!

وصفعتها بعينى ..

ووددت لو مددت يدى وخنقتها ..

ومد سمير يده والتقط يدى ، ونظر الى نظرة تمثيلية كأنه يتنهد حبا وغراما .. ثم انحنى على يدى يقبلها ويضغط عليها بشفثيه الشرهتين الجائعتين ..

واضطرت أن أترك له يدي .. كأنى أضعها في النار ..
وخرجنا ، بعد أن اشترى أبى بعض الحلوى والقطاير ..
وجلسنا نحن الثلاثة في المقعد الأمامى من السيارة .. أبى
في مكان القيادة وكوثر ، وأنا .. وصفقت الباب ورائى بقوة
بعد أن ركبت ، كأنى أضرب به الدنيا كلها ..
وقال أبى وهو ينظر أمامه :

— أنا مش فاهم حاجة .. ايه الحكاية بالضبط .. ؟

وقالت كوثر وهى تلف ثوبها حول ساقها :

— بعدين يا أحمد .. صبرك بس أما نوصل البيت ..

وقال أبى كأنه يلح :

— أيوه .. انما مهما كان الأمر .. ايه اللى يخليكم

تقعدوا فى جروبي مع واحد ما أعرفوش ولا شفتوش !

وقالت كوثر دون أن يهتز منها رمش :

— بصراحة .. الموضوع خاص بنادية !!

وقال أبى وهو لا يزال ينظر أمامه :

— وعرفتيه منين ينادية .. اتقابلتم كثير قبل كده !?

قلت وأنا أكاد أبكى غيظا وحنقا من الموقف الذى وضعت

نفسى فيه :

— أبدا يا بابا .. شففته فى اسكندرية الصيف اللى فات ..

وبعدين كلمنى فى التليفون كام مرة .. وطبعما ما كنتش باديله

وش .. لغاية ما طلب يقابلك ، فافتكرت انى أعرفه بكوثر

الأول .. علشان هيه اللى تكلمك ..

وقال أبى وهو يتنحج كأنه يبحث فى موضوع خطير :

— هو يقرب ايه لفتحى باشا حسام الدين ؟

وقالت كوثر بسرعة كأنها تسعبنى :

— يبقى ابن أخوه ..

وعاد أبى يقول :

— هيه عيلة كبيرة .. انما فقرا !!

وقالت كوثر كأنها تدافع عنه :

— هو برضه مش غنى قوى .. انما موظف كبير فى شركة التأمين ..

وكنا قد وصلنا الى البيت ..

ونزلنا أنا وكوثر أمام الباب ، بينما اتجه أبى بالسيارة نحو الجراج .. كانت أعصابى قد بدأت تنهار ، وكان الحق والغیظ قد حرقا قلبى حتى خيل الى انى أشم رائحة شياط ، وأن دخانا تجمع فى صدرى ويكاد ينفجر بى ..

وملت على كوثر أهمس همسا كالصراخ ، وأنا أكاد أمزقها بعينى :

— اتفضلى بأه حضرتك خلصينى من الورطة بتاعتك ..

وحياة بابا .. وحياة ماما .. والله العظيم .. والله العظيم ، ان دى آخر مرة يكون ليه دعوة بيكى ولا أدخلك فى موضوع .. وبعد كده يحصل اللى يحصل .. أنا خلاص شبت ذل ، وشبت قرف ..

وقالت كوثر وهى تبسم ابتسامة خبيثة ، كأنها واثقة
من أنها قابضة على عنقى ، تستطيع أن تفعل بى ما تشاء :
— بس ما تزعليش نفسك يانادية .. كل حاجة حتصلح
وتروح لحالها ..
وجاء أبى ..

وابتسمنا له نحن الاثنتين .. كأننا كنا فى حديث عن
الأزياء !!

ووضع أبى ذراعه فوق كتفى ، ونحن فى المصعد ، وقال
فى حنان وطيبة :

— أنا ما كنتش فاكر انك بتخبى عليه حاجة يانادية .
ولم أتكلم ..

خيل الى انى لو فتحت فمى ستنهمر دموعى !
واعتقد أبى انى لا أتكلم .. حياء !

وتناولنا غداء سريعا صامتا ، كأن كلا منا مشغول عن
الآخر بنفسه ..
وكنت ساهمة ..

كنت أفكر فى هذا المأزق الذى وضعت نفسى فيه ..
لماذا تطوعت بهذه الكذبة الكبرى !?
لماذا أثق دائما بذكائى الى هذا الحد ، رغم ان ذكائى
لا يجبر على الا الندم ؟
لماذا لم أتنظر .. فربما كانت كوثر تجد مخرجا آخر
لنفسها !

انى مغرورة بنفسى .. وغرورى هذا هو الذى يدفعنى
الى الاعتقاد بأنى أستطيع أن أجد حلا لكل معضلة ، ومخرجا
لكل أزمة !!

ربما لم يكن الغرور .. ربما كانت لهفتى على سعادة
أبى ، وحرصى على التستر على زوجته الخائنة ، هما اللذان
دفعانى الى هذا الادعاء !?

ولم أتماد كثيرا فى تقدير نتائج هذا الادعاء ، وما يمكن
أن يجره على من مصائب .. فقد وجدت نفسى أفكر فى
محمود ..

وخيل الى انى خنته بهذه الكذبة ..
انى جرحت كرامته عندما ادعيت انى لرجل آخر ..
خيل الى انى أجز محمود معى الى الطين .. الى عالم كرهه
لا تعيش فيه الا الزوجات الخائئات !

وانتفضت واقفة ، وجريت الى غرفتى دون ان اعتذر
لأبى بكلمة ، وأخرجت خطابات محمود وصورته ، وأخذت
أقبلها .. كأنى اعتذر له .. وكأنى أتوسل اليه ان يغفر لى ..
وكانى أعده بأن ارتفع اليه فى عالمه التنظيف ، ولا أشده معى
الى عالمى الأسود .

ولم أخرج من غرفتى الا فى المساء عندما حان موعد
ذهابنا الى حفلة الزفاف دون ان ادرى شيئا مما دار بين أبى
وكوثر من حديث ..

وقد حاولت ليلتها ان أبدو جميلة أنيقة .. ولكنى فشلت.

كان قلبي منقبضا .. كان شيء في نفسى يهمس همسات تخيفنى .. كنت أحس انى ضعيفة ، مسكينة ، مكسورة الجناح .. ولم يكن لى جناح أطير به فى عالم سعيد الا : محمود ..

وجلست بين المدعوين فى حفلة الزفاف صامتة ، مكتئبة ، لا كلمات عابرة أرد بها تحية أو أجامل بها انسانا .. وكنت طول الوقت أفكر فى محمود .. وكان تفكيرى فيه حزيننا بانسا ، كأنى فقدته .. وكأنه لن يعود الى ..

وفى ساعة « الزفة » أخذت أبطلق فى العروسين ، وأحاول أن أضع محمود مكان « العريس » وأضع نفسى مكان « العروس » ، وأن أفرح بهذا الخيال .. ولكنى لم أستطع .. كانت الصورة الحلوة كلما ارتسمت فى خيالى اهتزت بعنف ثم تلاشت .. وكلما حاولت ان أستعيدها بعدت عنى ، ، كأنى لا أستطيع أن اقنع نفسى بأنى سأكون يوما زوجة لمحمود .. وأحسست برغبة فى البكاء ..

وارتفعت من حولى دفوف العوالم تدق فى عنف كأنها صرخات شياطين تطوف فوق رأسى .. وتلوى جسد الراقصة أمام عينى كأنه ثعبان ضخم يقترب منى ليلتلعنى ..

وتجمعت دموعى تحت جفونى ، وبذلت مجهودا كبيرا حتى لا أطلقها .. حتى لا أبكى وأصرخ حصرة على نفسى .. لماذا يا ربى ، لا يكون لى مثل هذا الفرحة؟! لماذا ليس محمود بجانبى الآن ؟

لماذا هذا الانتفاض .. وهذا اليأس .. وهذا السواد الذى
يحيط بى ؟

وخرجنا بعد الزفة مباشرة .. وانا اترنح فى مشيتى كأنى
أكاد أسقط !!

وقال لى أبى ونحن على الباب ، وهو يتسم لى ابتسامة
ذات معنى ، وينظر لى كأنه يعنى ما يقول :
— عقبال فرحك يا نادية ..

وتمتت :

— مرسى ..

ولم أكد أجد نفسى وحدى فى حجرتى حتى بكيت ..
بكيت حتى خيل الى انى سأموت غرقا فى دموعى !
ولم اخرج من حجرتى الا فى ساعة متأخرة من صباح
اليوم التالى ..

كان أبى قد خرج ..

وكانت كوثر جالسة فى « الاتريه » ولم نكد نلتقى ،
وقبل ان تتبادل تحية الصباح ، حتى دق جرس التليفون ..
وأسرعت كوثر اليه ، وسمعتها تقول :

— صباح النور .. ازيك يا سمير .. و ..

وأخذت تتكلم وهى تحمل آلة التليفون فى يدها وتتجه
الى غرفتها الى ان دخلتها وأغلقت بابها عليها ..
ولم أهتم ..

كنت متعبة ، منهكة الى حد لا أقوى معه على الاهتمام
بشيء .. وناديت على « دادا حليلة » وطلبت منها ان تعد لى
كوبا من اللبن الساخن ، لعله يهدى أعصابى .. لعل بياضه
يفسل عن صدرى السواد ، ولعل سخوته تنشط أعصابى .
وبعد ان شربت اللبن ، عدت الى غرفتى وأخذت أكتب
لمحمود .. أكتب له كعادتى خطابين : خطابا اروى فيه كل
شئ وكل ما حدث لى كأنى اسجل مذكراتى واعترافاتى ،
وخطابا أحدثه فيه عن حبى ولهفتى اليه وأكرر وعدى بأنى
سأبقى فى انتظاره ..

وأمزق الخطاب الأول ..

وأرسل له الثانى ..

وكنت اجد راحة فى اعترافاتى لمحمود ، كنت أسعد
يكتابتها اليه أكثر من سعادتى بكتابة الخطاب الثانى .. ولكن
هل كان يمكننى أن أرسل بها اليه .. وبهذه الاعترافات ؟
وهل كان يرضى بى زوجة بعد أن يقرأها ؟ لا أظن !

وبينما انا اكتب ، دخلت كوثر وقالت فى دلال وهى
تحاول ان تتودد الى :

— سمير يسلم عليكى ..

ولم أرد وبقيت أكتب ..

وعادت تقول وهى تقترب منى :

— تعرفى انه معجب بيكى جدا .. و

ولم أرد ..

وقالت وهى تضع يدها فوق كتفى :

— ده طول الوقت كان بيتكلم عليكى !!

والتفت اليها بحدة وصرخت فى وجهها :

— من فضلك ماتجيبش سيرته .. مش عايزه اسمع

الاسم ده أبدا .. انتى مابتكسفيش .. مش كفايه اللى بتعملية ..

وابتعدت عنى كوثر ، ونظرت الى نظرة قاسية مليئة بالحقد والكراهية ، ثم استعادت هدوءها سريعا ، ومسحت النظرة القاسية من عينيها ، وقالت فى عتاب ضاحك :

— من فضلك ماتزعقيش فيه كده .. انا عارفة ايه اللى

مخسر أعصابك . مافيش حاجة مخسرة اعصابك الا الجوابات اللى بتكتيبيها دى .. اعقلى بأه يا شيخخة .. البعيد عن العين بعيد عن القلب !!

وصرخت كأنى أحمى حبى .. وأملى :

— مالكيش دعوه بيه .. ما تكلمينيش .. ماتدخليش

أودتى .. من فضلك سيبينى .. سيبينى لوحدى !

وهزت كنفها فى استخفاف ، وقالت وهى تخرج :

— بلاش .. الحق عليه ..

وقمت وصفقت الباب وراءها ..

وبقيت فى حجرتى كالمجنونة .. مزقت الخطابات التى

كتبتها . ونثرت الوسائد على الأرض .. وحطمت « الفاز » ..

وشددت شعرى ..

ثم هدأت .

وخرجت لأجلس مع أبي على مائدة الغداء . صامتة
حزينة مكتئبة ، لا أرفع عيني الى كوثر كأنى أقسمت ألا تقع
عيناي على وجهها .. الى أن سمعت أبي يقول لى :

— الأستاذ سمير ما ضربش تليفون النهارده .. ولا ايه ؟
ورفعت رأسى متعجبة ..

كنت معتقدة ان كوثر قد أنهت موضوع سمير مع أبى ..
قالت له أى شىء .. كذبت أى كذبة .. ولم أكن أنتظر أبدا
أن يعود أبى ويسألنى عنه ..

وتمالكت أعصابى ، وقلت كأنى أنجاهل أهمية السؤال :
— لا ..

وقال أبى وهو يتسهم ابتسامة كبيرة :

— كده !! وعلشان كده زعلانه .. لا ياستى ما تزعليش!
ونظرت الى كوثر فى تساؤل ..

وحولت كوثر عينيها عنى وهى تبسهم ابتسامة خبيثة ،
كأنها لا تريد أن تجيبنى ..

وعدت أنظر الى أبى ، وابتسامته الكبيرة لا تزال تغطى
وجهه كله ..

ثم قذفت « الفوطه » فوق المائدة ، وقمت فى عصبية الى
غرفتى .. وضحك أبى ضحكة صاحبة لاحقتنى حتى ألقيت
نفسى فوق فراشى ..

ماذا يعنى أبى ؟
هل يسخر منى ؟
ولماذا لم تتكلم كوثر ؟
وما معنى هذه الابتسامة الخبيثة التى ارتسمت على
شفتيها ؟

والى متى سأسكت على هذا الحال ياربى !!..
ولم أطق البقاء فى البيت .. وخرجت فى الساعة الرابعة
بعد الظهر وذهبت لزيارة احدى صديقاتى ، ولكنى لم أطق
البقاء أيضا عند صديقتى .. فخرجت من عندها وذهبت الى
زيارة أمى ..

وساءلت نفسى مرة ثانية وأنا جالسة معها : « هل أستطيع
أن أشركها معى فى مشاكلى ؟ .. هل أستطيع أن أروى لها
ما تفعله بى كوثر ، وقصة حياتها لأبى ؟ .. هل أستطيع أن
أحدثها عن حبى لمحمود ، وانتظارى له ولهفتى عليه ؟ .. هل
أستطيع أن أفتح لها كل قلبى لتتدفق منه كل عواطفى وكل
خواطرى .. ثم أسألها النصيحة والرأى ؟ »

ووجدتنى أجب على نفسى فى يأس : « كلا .. انها لن
تفهمنى .. انها بعيدة عنى .. بعيدة جدا .. فى عالم غير عالمى ..
عالم ساذج برىء لا تدخله مشاكلى ولا حياتى المعقدة ! »

وجلست معها أستمع منها الى أحاديث الأزياء وأفلام
السينما . وكنت شاردة .. كنت طول الوقت أحس أن هناك
مصيبة تنتظرنى .. حفرة ساقع فيها .. ريحا ستهب على ،

ولا أدري متى ومن أين تهب .. وكنت خائفة .. خائفة أن
أعود الى بيتنا .. وخائفة أن أفكر .. وخائفة من شبح
أسود ضخم يقترب منى ..

وكان يجب أن أعود الى البيت .. ففقت كأنى أتزع
نفسى انتزاعا . واحتضنت أُمى كأنى أحتمى بها ، أو كأنى
سأفارقها الى الأبد ، وعدت فى الساعة السابعة مساء ،
وما كدت أدخل البيت حتى وجدت حجرة الصالون مضاءة ،
وسمعت منها صوت أبى ، وصوت زوجته كوثر وصوت
رجل غريب ..

ودخلت حجرة الصالون ..

ووقفت على بابها مبهوتة .. كأنى سمعت فى الأرض ..
وأخذت أنقل عينى بين كوثر وأبى .. فى دهشة وارتباك ..
ثم فى ثورة مكبوتة تكاد تمزقنى ..

لقد كان الرجل الغريب هو سمير !!

سمير حسام الدين !!

عشيق كوثر !!

ماذا جاء به ؟ .. ماذا يفعل هنا ؟

ولم أنتظر حتى أجيب نفسى .. بل استدرت دون أن
أحى أحدا .. حتى ولا أبى .. ثم دخلت حجرتى وأنا لا أدري
هل أسير على قدمى .. أم على ركبتى !!?
الوقحة .. المجرمة .. لم يبق الا أن تأتى بعشيقتها الى
البيت وتجمع بينه وبين أبى فى حجرة واحدة !!

ولكن لماذا ؟

ما حاجتها الى دعوته الى البيت ؟

وسمعت صوت الباب الخارجى يفتح .. وأصوات
توديع .. ثم يعلق الباب .. ثم جاء أبى ودخل غرفتى وعلى
وجهه ابتسامة كبيرة ترقص لها وجنتاه ، وقال فى فرح وحنان:

— مالك جريتى كده زى البنات الصغيرين .. تعالى ..

تعالى تتكلم سوا فى أودة المكتب ..

وقمت معه وأنا مذهولة !!

ونادى على كوثر لتنضم الينا ..

ثم أقفل الباب علينا بحرص كأنه يعد اجتماعا خطيرا ..
واستدار الى ووضع يديه فوق كنفى ، وأخذ ينظر الى من
بعيد كأنه لم يرنى من قبل .. ثم ضمنى الى صدره وضغطنى
فى رفق وحنو ، وقبلنى فوق جبينى ، وقال كأن قلبه يتهدج :

— مبروك يانادية .. ألف مبروك يا حبيبتى !!

وسمعت صوت كوثر فى هذه اللحظة تقول هى الأخرى

فى فرحة مفتعلة :

— مبروك يانادية ..

ثم قامت تقبلنى وأنا لا زلت بين أحضان أبى ..

وابتعدت عنها ، وقلت وأنا لا أفهم شيئا :

— مبروك على ايه ؟

وقال أبى كأنه يعاتبنى على حياىى :

— أنا خلاص وافقت ..

قلت وقد بدأت أحس من أين تهب الريح ، ومن أين
تأتى المصيبة :

— وافقت على ايه ???!!!

وقال أبى كأنه يكلف نفسه الصبر :

— وافقت على سمير ..

صرخت فى حدة :

— ماله ..!?

وقالت كوثر فى برود :

— لأ . اتى زودتها قوى ينادية ..

قلت ، وقد بدأت أفقد أعصابى :

— زودتها يعنى ايه !!?

وقال أبى كأنه يهدئنى :

— اسكتى أنت ياكوثر ..

ثم التفت الى قائلا :

— ياستى سمير جه خطبك النهارده وأنا وافقت ..

الجدع كان مكسوف قوى ، انما بينى وبينك ، أنا كنت

مكسوف أكثر كان متهياً لى انه يخطبنى أنا .. وانفقت انه

يجى بكره يتعشى معنا وتقعده كلنا سوا ..

واتسعت عيناي فى ذعر .. رأيت الهوة السحيقة المظلمة

فاغرة فاها تحت قدمى .. وقلت وأنا أكبت غيظى ، وأحس

بأعصابى كأنها أوتار كمان تتمزق ، وتطلق فى تمزقها رنيناً

أجوف متتاليا :

— مين قال انى عايزة أتجوزه .. مين !!?

وقال أبى فى دهشة :

— مين قال !!.. كوثر قالت لى على كل حاجة !!

ووضحت خيوط المؤامرة ، ولكنى تماكنت نفسى وقلت

بعد أن حدجت كوثر بنظرة كأنها السكين :

— انما أنا مش عايزة أتجوزه ..

وارتفع صوت أبى كأنه لم يعد يطيقنى :

— مش عايزه تتجوزيه .. ازاي الكلام ده .. أمال كنتى

عايزه تعرفيه من غير جواز .. وكنتى بتروحي تقابليه ،

وتاخدى كوثر تقابله معاكى ، واتنى مش ناوية تتجوزيه ..

أمال كنتى بتقابليه ليه ؟ .. فهمينى !!?

ونظرت الى أبى صامته ، وقد خيل الى أن دمائى قد

غلت حتى تبخرت ولم يعد فى دم .. وفكرت ساعتها أن

أعترف له .. أن أقول ان هذا الرجل هو عشيق زوجته ..

وأنا — هو وأنا — سنروح ضحية مؤامرة خسيصة دنيئة

تنسج حولنا ..

ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف .. أن أقضى على

سعادته بضربة واحدة ؟ لا ، انى أحب أبى أكثر من ذلك

بكثير .. وقد جربت مرة كيف يكون حاله عندما يطلق زوجته

بتهمة خيافته ..

جربت وتبت !!

وقلت وأنا أحاول أن أكون هادئة :

— كوثر كانت معايا علشان ترجع تطلب منك انك تسأل
عن أخلاقه .. وحالته .. و ..

وقاطعنى كأنه يتسرع انهاء الموضوع :

— سألت ياستى .. يعنى كنت حا أقبله من غير ما أسأل
عليه .. النهارده كل أصحابى فى النادي شكروا فيه ، وفى
عيلته ، وسألت عليه مدير شركة التأمين مدح فيه جدا ، وقال
عليه انه شاب ذكى وله مستقبل .. و ..

وقاطعته بدورى قائلة ، وأنا لازلت أحاول الاحتفاظ
بهدونى :

— انما برضه نستنى شوية لغاية ما تتأكد !!

والتفت الى كوثر قائلة وأنا أمزق وجهها بعينى :

— مش كده ياكوثر !!?

وقالت كوثر فى برود عجيب :

— أنا مش شايفة داعى أبدا اننا نستنى .. اتنى الى
طول عمرك مترددة وخصوصا فى مسألة الجواز ..
وقال أبى كأنه يكمل كلامها :

— اسمعى يانادية .. انت بتنخطبى من يوم ما كان عندك
ستاشر سنة ، وكل واحد بيعجى كنتى بترفضيه .. دلوقت باه
عندك عشرين سنة ولازم تتجوزى .. ما قدرش أسيبك على
كيفك لغاية ما تضيعى مستقبلك ..

قلت كأنى أحزن قلبه :

— أنت اتضايقت من عيشتى معاك يا بابا !!?

وقال أبى فى صوت خفيض وهو يقترب منى ويحيطنى
بذراعيه :

— أنا مش عارف حاقد ر أعيش من غيرك ازاي يابنتى ..
انتى طول عمرك حتة منى .. حتة من صباحى ومن ليلى .. ده
أنا كان متهياً لى وسمير بيخطبك انى أشترط عليه انكم
تقعدوا معنا .

وقاطعته كوثر قائلة :

— ياريت والنبي يا أحمد !!

ولم يأبه أبى بها واستمر فى كلامه وهو يمسح بيده على
شعرى :

— ده باين عليه جدع كويس ينادية من عيلة .. ومتعلم ..
وحالته مش بطالة .. وانتى بتحبيه .. ويبقى ناقص ايه .. اذا
كان مش غنى فاتتى والله الحمد مش محتاجة .. عندك اللى
يكفيكوا أتم الاتنين وزيادة ..

وألقت رأسى على صدر أبى .. ولم أتمالك نفسى ..
وبكيت !

وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها أمام كوثر ..
وخيل الى انى أقبل قدميها بدموعى لترحنى ..
ولكنها لم ترحم ، وسمعتها تقول فى دلال وكان قلبها

حجر :

— لأ .. حقه ما بقاش الا العياط .. ده انتى زى ما يكون
عندك اتناشر سنة وجالك عريس ..

وضمنى أبى ، وأخذ يرت على ظهري ويقول كأنه حائر:
— ليه بس ينادية .. العياط دلوقت لزمته ايه ؟

وقلت من بين دموعى :

— ما بحبوش يابابا .. ما بحبوش !!

وقال أبى كأنه لا يصدقنى ، وكأنه يحاول أن يخفف عنى:

— ازاي بأه .. هوه أنا اللي اخترته والا اتنى اللي

اخترته ، وخذتى كوثر علشان تنقيه معاكى !!

وضحك أبى كأنه قال نكتة ..

وترددت ضحكته فى صدرى نشيجا ، وقلت ونشيجى

يقطع كلماتى :

— أعمل معروف يابابا .. ما تتسررش .. ما تفصبنيش

على حاجة .. على الأقل خلينا تفكر شوية ..

وقال أبى وهو لا يزال يرت على ظهري :

— أنا عمرى ما غضبتك على حاجة ينادية .. الأمر دايمًا

أمرك .. اللي اتنى عايزاه بيتعمل .. انما ما تنسيش انك قربت

على العشرين ولازم تتجوزى اذا ما كنش النهارده يبقى

بكره .. وأحب أقول لك كمان ان سمير ده باين عليه جدع

كويس ..

قلت وأنا أحرق دموعى بأنفاسى :

— طيب سيبنى أفكر يابابا .. سيبنى أفكر !!

وتخلصت من ذراعيه ، وخرجت من الحجرة متعثرة فى

خطاى !

وحاول أبى أن يلحق بى ، فسمعت كواثر تقول له دون
أن تتحرك من مقعدها :

— سييها يا أحمد .. دلوقتى تهذا ، كلنا لما اتجوزنا أول
مرة عملنا كده !!

وصفقت الباب ورائى بعنف ..

وارتميت فى فراشى .. وأفرغت ما بقى من دموعى ..

ثم هدأت .. ارتخى كل شىء فى ، كأن كل شىء قد تعب
منى . وتخلى عنى ، ونام .. وظلت عيناي مفتوحتين أبطلق
بهما فى السقف ، وأرى خيوط المؤامرة التى تحاك حولى ..

انها خيوط واضحة لا تحتاج الى ذكاء كبير لتبينها ..
لقد أراد سمير وكواثر أن يستغلا تسترى على خيائتهما ،
وأن يستغلا خدعتى لأبى عندما أقنعته بأن سمير هو صديقى
لا صديق كواثر ، حتى أخلصها من الحرج عندما فاجأنا أبى
ونحن جلوس فى جروبى ..

أرادا أن يستغلا هذا الموقف .. فاتفق سمير مع كواثر على
أن يتزوجنى .. فأنا عروس دسمة غنية .. والدى يملك ثلثماية
فدان ، غير البيوت ، وحصّة فى وقف كبير لم يصف بعد ..
وعمى غنى وليس له وريث .. وأمى غنية .. والأهم من
ذلك .. ان أبى أمن على حياته لصالحى بمبلغ عشرين ألف
جنيه تستحق يوم زواجى .. وقد دفع أقساط بوليصة التأمين
كلها قبل أن أتم السادسة عشرة من عمرى ..
وكل ذلك سيذهب الى سمير وكواثر !!

سيبتز سبير العشرين ألف جنيه ويضمن حياة فاخرة
هنية بجانبى .. ويضمن فى الوقت نفسه أن يكون دائما
قريبا من كوثر .. أن تنتقل حياتها الى داخل البيت .. بدل
« الشحطة » فى « الجرسونيرات » .. الزوج يخرج من
هنا ، والعشيق يدخل من هنا .. دون أن يشتبه أحد ،
أو يتحرك لسان ..

يا فرحة سمير فى أبى المسكين .. سيأخذ ابنته ، وزوجته ،

وماله !!

ولكن .. كيف ترضى كوثر بأن تتنازل لى عن عشيقها ؟
من قال انها ستتنازل عنه .. أبدا سيبقى لها بعد زواجه ،
كما بقيت له بعد زواجها .. ألم تتزوج رجلا غنيا وظلت على
علاقتها به ، فلماذا لا يتزوج هو الآخر فتاة غنية ويبقى على
علاقته بها ..

وابتسمت فى مرارة وأنا أرى هذه الخيوط السوداء
ترسم أمام عيني فى سقف الحجرة ..
ولكن هل ينجحان فى تنفيذ هذه المؤامرة .. هل تتحقق
لهما آمالهما الدنيئة ؟

لقد اعتقدت يومها أنى شريرة ..
فوعدنى الله بأشرمنى ..

وحاولت ليلتها أن أحادث كوثر على انفراد .. خرجت
من غرفتى وأنا أحمل فوق وجهى عيني المقرحتين من أثر
البكاء ، وهمست فى أذنها :

— أنا عايزه أكلّمك لوحده !!

فردت فى براءة مفتعلة :

— بس موش دلوقت ينادية .. ما أقدرش أسيب أبوكى
لوحده .. بعدين الراجل يقول ايه ؟

وفهمت أنها تنهرب منى ..

فهمت أنها تعد شيئاً .. خيطا آخر من المؤامرة تحاول أن
تخفيه عنى ..

وعدت الى غرفتى ذليلة منكسرة ، كأنها صفعتنى على
وجهى بفردة حدائها ..

ولم أنم ..

كنت أفكر .. كنت أشحد كل شىء لأجد خطة أحسى بها
نفسى من هذا الزواج .. ولأنتقم .. لأذل كوثر كما أذلتى ..
أعذبها كما عذبتنى . ولكن ذكائى خاننى .. لم أجد خطة ..
ولم أجد انتقاما .. كنت أحس كأنى قطة محبوسة فى قفص
وتدور على نفسها بينما النار مشتعلة فى ذيلها ..

وكنت مصممة على ألا أتزوج هذا المخلوق .. سمير !!

كنت مصممة على المقاومة حتى النهاية ..

انى لا أستطيع أن أضحى بنفسى الى هذا الحد .. أن
أضحى بكل آمالى .. وأضحى بمحمود .. وأضحى بحبى ..
وأستسلم لجماعة من المحتالين .. لا .. أبدا .. مستحيل !
وأخذت أناجى محمود ..

لو كان بجانبى لما حدث كل ذلك .. لاحتميت به وبجبهه ..
لتقدم ليتزوجنى .. وينقذنى !!

وشعرت بخوف .. وانقلب الخوف فى نفسى الى ثورة ..
شعرت ان فى يدى سكيننا أظعن به كوثر .. وأظل أظعنها حتى
تقع على الأرض وأغسل قدمى بدمهما .. ثم أنحنى وأقطع
جسدها قطعة قطعة وألقى بها الى الكلاب ..

وأفقت من هذا الخيال لأجد قبضة يدى ترتفع وتهوى
على الوسادة فى ضربات عصبية عنيفة .. كأنى فعلا ، أظعن
كوثر ! .. وفى الصباح جاء أبى الى غرفتى ، وجلس بجانبى
على حافة الفراش .. ونظر الى وجهى المنتقع ، وقال بعد
أن قبلنى :

— اتنى يظهر عليكى ما نمتيش ؟

قلت وأنا أرسم ابتسامة ضعيفة فوق شفتى :

— نمت بس قلقت شوية !!

قال وهو ينظر الى فى حنان كأنه يحملنى برموش عينيه :

— اسمعى يانا دية .. أنا ما عرفتش أكلمك امبارح ..

كنتى عصبية أكثر من اللازم .. وكنت عايز أقول لك انى مهما
كنت سعيد مش ممكن تتم سعادتى الا بسعادتك .. بالعكس
كل ما سعادتى تزيد كل ما أفكر فى سعادتك أكثر .. يعنى أنا
باحب كوثر .. باحبها ما تتصوريش أد ايه .. عمرى ما كنت
أعتقد انى أقدر أحب للدرجة دى .. لكن كل ما بحبها أكثر
بافكر فيكى أكثر .. أفكر فى اليوم اللى الأيكيكى فيه بتحبى

جوزك زى أنا ما باحب كوثر .. وتكونى سعيدة زى ما أنا
سعيد معاها .. علشان كده عايزك تتجوزى سمير .. علشان
تسعدى .. مش علشان تتجوزى والسلام .. وأنا واثق انك
تحتبى سعيدة معاها ..

ونظرت اليه فى اشفاق ..

خيل الى انه طفل كبير مغمض العينين لايدرى شيئا مما
حوله .. طفل أحبه .. طفلى !!

هل أفتح عينيه ليرى الدنيا على حقيقتها .. ليرى زوجته
تخونه .. ويرى عشيق زوجته يتقدم للزواج من ابنته ??
هل أوقفه من الحلم الجميل ??
لا ..

لقد أشفقت عليه فى هذه اللحظة كما لم أشفق عليه من
قبل .. أحسست بحبه يعصر قلبى ، وكأن هذا القلب قطعة
من الأسفنج أعصرها بيدي لأقطر منها رحيق السعادة فى
فم أبى ..

سيبقى سعيدا ..

سيعيش فى حلمه الجميل .. لن يفيق منه أبدا ، كما أفاق
مرة ورأى سعادته وهما ..

بأى ثمن ، ومهما حدث ..

وقلت له وأنا أبتسم ، وكأنى أصنع من ابتسامتى مهذا
ناعما أضع فيه طفلى الكبير :

— أنا عارفه يا بابا .. عارفه ان احنا الاتنين لبعض ..

وحاكون سعيدة ان شاء الله ، علشان تكمل سعادتك ..
النهارده بالليل حاتعرف كل حاجة !!
وخرج طفلى الكبير ..

وقمت بعد مدة ، لأجد كوثر جالسة فى «الأترية» تقلب
فى احدى المجلات .. وشدت عودى ، وجذبت أنفاسا من
أعماقى ، كأنى أستعد لمعركة .. وقلت فى لهجة حاسمة ، دون
أن أحيبها تحية الصباح :

— اسمعى ياكوثر .. كلمة واحدة .. حكاية الجواز دى
مش ممكن تتم .. فاهمه يعنى ايه .. مش ممكن تتم ..?
ورفعت رأسها من فوق صفحات المجلة ونظرت الى نظرة
باردة ، وقالت فى فتور :

— ليه .. ده سمير جدع كويس !!

قلت وقد صدمتنى ببرودتها :

— عجائب .. قصدك ايه ، فهمينى ؟

قالت وهى تبتسم كأنها تتلذذ بتعديبى :

— ولا قصدى ولا حاجة .. راجل معجب بيكى وجاى

يخطبك .. فيها ايه دى !!?

قلت وأنا أحاول أن أطفىء نارى بالسخرية منها :

— ما كان معجب بيكى اتنى !!

قالت وهى ترد سخريتى بسخرية الأذع منها :

— ده اعجاب برىء .. صدقيني !!

قلت وقد بدأت أعصابى تفلت منى :

— برىء مش برىء .. أنا مش حتجوز .. اتفضلى
قوليله أنى مش حتجوزه ولو دبجوني .. ويعمل طيب
لو ماجاش الليلة على العشا ..
ونظرت الى نظرة قاسية ، ثم هزت كتفيها ، وقالت فى
هدوء :

— يبقى أتجوزه أنا ..

قلت كأنى أشهق :

— ايه .. بتقولى ايه !!?

قالت وهى تخفى وجهها فى صفحات المجلة :

— أصله صعبان على .. مسكين عايش لوحده ..
وما دام مش لاقى حد يتجوزه .. أتجوزه أنا ..

قلت وأنا أصرخ :

— انتى مجرمة .. سافلة .. أنا عمرى ما شفت ستات

بالشكل ده !!

قالت دون أن تهتز :

— وفرى على نفسك الشتية .. وأحسن لك تتجوزيه!!

قلت وأنا أكاد أنفجر غيظا :

— واذا ما اتجوزتوش .. حيحصل ايه ؟

قالت وهى تقلب صفحات المجلة :

— أبوكى حيعرف انى باجه .. وانى ماشية معاه ، وانى

ياخونه معاه ، وبعد كده الباقي معروف !!

وارتميت على مقعد كائى أصبت بطلقة مسدس ، وقلت
كائى أنتهد :

— وأبويا ذنبه ايه ؟

قالت دون أن تنظر الى :

— ما لوش ذنب .. انما ده اللي جيحصل !! ..

قلت كائى أتوسل اليها :

— انما انت عارفه انى باحب واحد .. وانه حيرجع من

أوروبا علشان يتجوزنى .. حرام عليكى .. حرام عليكى

ياكوثر ..

قالت وقد ألفت المجلة من يدها :

— بتحبى .. وماله .. أنا حبيت مدحت وأنا تلميذة

معاكى وما اتجوزتوش .. اتجوزت واحد تانى لا كنت باحبه

ولا باعرفه ، وحييت سمير وما اتجوزتوش اتجوزت أبوكى

من غير ما أحبه .. الحب حاجة والزواج حاجة تانية ..

قلت فى صوت ضعيف كأنه السم البطيء :

— اتنى عمرك ماحييتى .. لو كنتى بتحبى سمير ماكنتيش

سمحتى له انه يتجوزنى !!

قالت وهى تبتم فى خلاعة :

— برضه أقول لك .. الحب حاجة والجواز حاجة تانية!!

قلت وأنا أتثبت بمقعدي حتى لا أهب وأصفعها :

— كويس خالص .. يعنى يتجوزنى أنا ، ويحبك انت ..

وأنا أتجوزه .. وأحب محمود !! ..

قالت في فتور :

— ياستى سيبى الحاجات دى لظروفها !!

وصرخت :

— ماسيهاش . دى قذارة .. سفالة .. اجرام .. اتنى
وهوه نصاين .. طمعانين فى فلوسى .. وفلوس أبويا .. مش
حاتجوزه .. ويحصل اللى يحصل !!

وهبت واقفة وألقت المجلة على الأريكة وقالت فى حدة :
— لا .. اتنى زودتها قوى .. أنا نازلة علشان ما عكرش
دمى بكلامك الباىخ .. ولما ييجى أحمد قولى له انى باتعدى
مع سمير .. مع حبيبى سمير .. عاجبه على كده ، عاجبه ..
مش عاجبه يطلقنى !!

وخرجت وشفقت الباب وراءها ..

وتركتنى فى دوامة سوداء تلف بى .. وتمزق عقلى ..
وقلبى .. وتنزع ضلوعى من صدرى ..
وفى وسط هذه الدوامة كنت أبحث عن طرف الخيط ..
عن الحل ..



كان علىّ أن أختار :

أنا .. أو أبي !!

سعادتي .. أو سعادته !!

حبي .. أو حبه !!

حياتي .. أو حياته !!

ولم يكن هناك طريق آخر .. لم أجد حلا أجمع به بين
سعادته وسعادتي .. كانت كوثر وسمير قد دبرا مؤامرتهما
بذكاء حاد شرير ، فلم يتركا بابا أهرب منه ..

وربما كان الذنب ذنبي منذ تسترت على خيانة كوثر ،
فقد علمت كوثر انى لأتستر عليها حبا فيها أو تأييدا لحياتها،
انما تسترت عليها حبا فى أبى وحرصا على هنائه ، فاتخذت
من هذا الحب وهذا الحرص سلاحا تطعننى به وتشهره فى
وجهى لتبتز مالى وحياتى ..

ولكن هل كنت أستطيع غير ذلك ؟

هل كنت أستطيع أن أفضحها .. وأهدم البيت على رأسها
ورأس أبى ورأسى ؟

اذن .. لماذا ينتقم منى الله !!؟

هل مجرد التستر على الخطيئة .. جريمة تستحق
عقاب الله ؟

ولكن هل هذه هى جريمتى الوحيدة ؟

ومرت أيام حياتى فى مخيلتى كأنها شريط سينمائى سريع ، وشاهدت الضحايا الذين صرعتهم .. الصبى الذى استدرجته حتى البيت ليضربه البواب .. وكوثر نفسها التى حطمت حبهامدحت .. حبهامالأول العف .. ثم صديقتى مرفت التى وشيت بها الى أهلها . ثم طنط صافية .. ثم عمى الذى قطعت ما بينه وبين أبى بوقية خسيصة .. والليالى التى حررت فيها نفسى من كل القيود وقضيتها بين أحضان مصطفى .. بل انى رأيت عروستى التى حطمتها فى طفولتى كأنها ضحية من ضحاياى .. والخادم الذى طردته .. ودادا حليلة التى صددت حبهاملى وقسوت عليها .. و .. و .. وخيل الى ان شيئا فى نفسى يصرخ مرتاعا كلما مرت بخيالى صورة احدى ضحاياى ..

ولكنى حاولت أن أكفر عن كل هذه الخطايا ..

حاولت كثيرا ياربى .. فلماذا لا تغفر لى ؟

ماذنبى فى جرائمى ؟

وما ذنبى فى عقابك ؟

ربما كان لى ذنب .. ربما كان ذنبى انى اعتمدت طول

حياتى على ذكائى .. كنت واثقة من ذكائى .. الى حد بعيد ..

وكان ذكاء بلا مبادئ .. لم تكن لى مبادئ أصونها

وتصوننى ، وأحرص عليها وتحرص على ، وترسم دائرة

محددة يدور فيها ذكائى ولا يخرج عنها ..

نعم .. لم تكن لى مبادئ !!

لم يحاول أحد أن يعلمنى هذه المبادئ ، فانطلق ذكائى
بلا وعى .. وبلا هدف .. انطلق وحده تقوده شطحات
نفسى .. يقوده الحقد أحيانا .. والأناية أحيانا .. والغرور
أحيانا .. والغيرة أحيانا .. وكان لابد لهذا الذكاء أن يخطئ
مرة ، أن يتخلى عنى ، أن يتركنى أسقط .. وقد سقطت ..
سقطه لا أستطيع أن أقوم منها ..

وربما كان هذا هو حال كل من يعيش بلا مبادئ معتمدا
على ذكائه .. تكفى غلطة واحدة ليسقط .. فليس له شئ
آخر يحميه من أخطاء الذكاء .. ليس له مبادئ !!
وقد أخطأ ذكائى عندما اخترت كوثر زوجة لأبى ..
خطأ قصم ظهري ..

ولن ينفعنى الندم .. ولكن هل أستسلم لهذا الخطأ ..
هل أتحمل كل تبعاته بلا مقاومة ؟

وعدت أسائل نفسى .. وأنا لا زلت فى جلستى لم أتحرك
منها : « هل كوثر جادة فى تهديدها .. هل حقيقة ستطلق
أبى ان لم أتزوج سمير .. هل تضحى بكل هذا الهناء الذى
يوفره لها أبى .. ولكن لماذا ؟ ربما لتتزوج سمير ان لم
أتزوجه .. ولكنها لو كانت تريد أن تتزوجه فلماذا تتركه
يتزوجنى ؟ »

وكدت أعتقد أن كوثر لا يمكن أن تكون جادة فى
تهديدها ولكنى عدت أقول لنفسى : « اذا لم أتزوج سمير
فهو لن يترك كوثر تهدأ .. سيظل وراءها حتى تطلق أبى ..

وماذا يهمة اذا طلقته .. لاشيء .. سواء تزوجها أو لم يتزوجها
فلن يهمة شيء .. وحتى ان لم يطلقها أبى فستنقص حياته ..
ستقلب حياته الى جحيم .. انى أعرفها .. انها تستطيع أى
شيء !!

وأحسست بضربات قلبى تشتد .. كأن كابوسا مخيفا
يجثم فوق صدرى .. وأخفيت عيني براحة يدي كأنى لا أريد
أن أرى السكين التى تذبحنى .. لا أريد أن أرى نفسى ضحية
ملقاة تحت قدمى كوثر وسهير ، يتلذذان بسلخ جلدتها
وتقطيع لحمها ..

وكانت الدوامة التى تلف فى رأسى تشتد ، ويخيل الى
أنها فى لفها تتر فى صوت كالصفير .. صفير حاد يمزق رأسى
ويفتتها ويحيلها الى كتلة من الألم ..

كان فى رأسى صداد قاس يعذبنى .. وفى وسط هذا
الصداع كنت أفكر . وكنت أحاول أن أحدد موقفى ..

لماذا لا أترك أبى وشأنه .. ما حيلتى فيه اذا كان هذا
هو نصيبه من الدنيا .. لماذا لا أطلعه على الحقيقة وأنتهى ..
وأستريح . وليحدث بعد ذلك ما يحدث .. ولكنه أبى ..
ليس أبى فحسب .. انه أبى وأمى .. أبى الذى حرم نفسه
من شبابه حتى بلغت السادسة عشرة من عمرى .. وعاش لى ..
وهدى ..

وتذكرته عندما كان يحملنى ليضعنى فى فراشى وأنا
طفلة .. وتذكرته وهو يقرأ لى فى كتب الأطفال .. وتذكرته

وهو واقف بجانب دادا حليلة وهي تبدل ثيابي .. وتذكرته لهوفا على في مرضي .. وتذكرت لياليه التي قضاها بجانب فراشي حتى أنام .. وتذكرته وهو يحيطني بحبه وحنانه وأنا صبية ثم وأنا شابة .. ان كل يوم من أيامي قطعة منه .. نفس من أنفاسه ..

وخيل الى انه يطل على بوجهه الطيب الجميل ، ويتسم لي ابتسامته الحلوة البريئة ، وينظر الى بعينه الحنونين ، نظرة كأن فيها عتابا . كأنه يعاتبني لأنني فكرت في لحظة ما أن أتخلي عنه .. ثم سمعت صوته وهو يقول لي في هذا الصباح : « .. أنا باحب كوثر .. باحبها ما تتصوريش أد ايه .. عمري ما كنت أعتقد اني أقدر أحب للدرجة دي » !!

هل أتخلي عنه ؟

هل أفتح عينيه على الوهم الكاذب الذي يعيش فيه ؟ لا .. لا أستطيع .. مستحيل .. ان حبي له أقوى من

أنانيتي ..

اذن ..

أتخلي عن محمود ..

حبيبي محمود ..

أتخلي عن حبي .. عن هنائي .. أهدم بيدي كل أحلامي ..

أترك الجنة وألقى بنفسي في الجحيم ..

وأحسست كأن قلبي يتمزق ، كأنني أسمع صوت ضلوعي

وهي تتحطم كأعواد الحطب اليابس ..

محمود الطيب الكريم الرجل .. الحصن الذى أعدده
لأحتمى به من نفسى ومن الدنيا .. هل أضحى به بعد أن
انتظرت هذا العمر الطويل لأجده .. لأجد الرجل الوحيد
الذى تمنيته زوجا ..

لماذا ياربى ؟

ياربى .. هل أنت موجود ؟

أين أنت لترحمنى .. لتنقذنى !!

وأحسست انى أريد أن أبكى .. لعلى البكاء يريحنى
ويعيدنى الى حظيرة الله ، ولكنى لم أجد دموعى .. كان
الصداع الذى ينهك رأسى قد امتصها كلها .. فمددت أصابعى
وقد خيل الى أنها تشنجت حتى أصبحت كالمسامير ودستها
فى شعرى وأخذت أشده بها كأنى جنت .. وكأنى أحاول
أن أقتلع شعرى لأنزع من تحته الصداع الذى يمزق رأسى ..
ولا أدرى كم مضى على فى هذه الحال .. ولكنى أفقت
على صوت الباب يفتح وأبى يدخل ..

ونظر الى أبى دهشا .. وقال وهو يحاول أن يتسم :

— مالك عاملة فى نفسك كده .. اتنى لسه ماغسلتيش

وشك .. ولا ايه ؟

قلت وأنا أفتش بين همومى عن ابتسامة :

— الحقيقة لسه .. أصلى صحيت تعبانه .. قمت من

السرير جيت قعدت على الكرسى ده .. ومن ساعتها ماتنقلتش !!

قال وهو يمسح بيده على شعري ، كأنه يسوى خصلاته
المتناثرة :

— طيب قومي اغسلي وشك وتعالى .. أنا جايلك معايا
مفاجأة مدهشة .. ثم التفت حوله واستطرد قائلاً :
— فين كوثر .. كوثر .. ياكوثر ..

واتجه الى داخل البيت .. فانتفضت من مقعدى ، وجريت
وراءه ، وقلت وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعياً هادئاً :
— كوثر حستغدى النهارده عند خالتها .. أمها ضربت لها
تليفون وقالت لها ان خالتها عيانه .. فانت عليها وراحوا لها
سوا ..

وكنت أعلم انه ليس فى بيت خالة كوثر تليفون ..
وقال أبى وقد اضطربت عيناه كأنه يعز عليه أن يحرم من
كوثر ساعة الغداء :

— عيانه قوى !!?

قلت وأنا أتفادى أن ألتقى بعينه :

— ما أظننش !!

قال فى لهفة :

— طيب ماتيجى نزل عليهم علشان نظمن ؟

قلت كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— على ايه .. مافيش لزوم .. انت عارف عيلة كوثر ..

لما واحد فيهم يجيله شوية زكام يتلموا كلهم ويقعدوا حواليه ..

قال وهو لا يزال آسفاً :

— ما قالتش حاترج امتى ؟

قلت :

— أظن حترجع بعد الغدا على طول ..

قال وكأنه يلح على نفسه ليقنعها :

— طيب ما نروح نجيبها دلوقت .. علشان نبتدى نشوف

حنعمل ايه للعشا .. ده سمير بيه جاى النهارده ..

وخيل الى انه صفعنى وهو ينطق اسم سمير ، ولكنى

تمالكت وقلت وكأنى أدفع عنه خواطره :

— لو رحنا دلوقت حيمسكوا فينا على الغدا ..

وما يصحش !

وزفر أبى كأنه أطلق كل أنفاسه ، وقال فى استسلام :

— طيب !!

واتجه الى غرفته ، وتعلقت به وقلت وقد استطعت أن

أضع على فمى ابتسامة كبيرة تخفف عنه :

— ايه هيه المفاجأة اللي جبتها لى ؟

قال فى فتور :

— لما تيجى كوثر !!

قلت فى دلال كأنى أعاتبه :

— علشان خاطرى يا بابا ..

قال وتحت أسنانه ابتسامة باردة :

— أصل المفاجأة ما تكلمش الا وكوثر موجودة !!

ودخل غرفته وغاب فيها دقائق ثم عاد وجلس فى الاتريه ..

ودخلت الى غرفتي وغسلت وجهي بالكريم ثم عدت اليه ..
وجلسنا على مائدة الغداء ..

ولم تتكلم كثيرا .. ولم أرفع اليه عيني .. كنت ساهمة
أسقط الطعام في فمي دون أن أحس بطعمه .. ولم أكن أفكر
في محمود ، ولا في سمير ، ولا في أبي .. كنت أفكر في كوثر
وحدها ، وكنت أغالب نفسي حتى أتغلب على ضعفى أمامها ..
كنت أستجمع كل طاقتى وأحاول أن أحولها الى شر ..

كنت أريد أن أعود شريرة ..

أشر وأدهى مما كنت ..

لم تعد هناك جريمة أندم عليها ، وأحاول أن أكفر عنها ..
ولكن كانت هناك جريمة تواجهنى ، وكان من المحال أن
أقبلها بالصفح والغفران والاستسلام .. كان يجب أن أقاومها
بالشر .. أن أنتقم من المجرمين .. أن أسقط وأنا مالكة لزام
نفسى .. وكنت فى حاجة الى كل قواى ، وكل شرى وكل
ذكائى ..

وقال أبى وقد كدنا ننتهى من الغداء وكأنه كان هائما
وراء زوجته ، وكأنه صمت طويلا لأنه لا يجد لسانه الا اذا
أخرجته له كوثر :

— ياترى قررت ايه يانادية بخصوص الموضوع بتاع
النهارده !

ولم أحاول أن أتجاهل ما يقصده ، بل قلت فى صوت
خفيض كأنى خجلة :

— احنا اتفقنا انك حتعرف النهارده بالليل !!
وابتسم أبى فى ثقة كأنه يعرف مقدما كل شىء ..
وقمت بعد الغداء .. وجلست فى الاتريه فى انتظار
كوثر ..

كان يجب أن أراها قبل أن يراها أبى ..
ولم أكد ألمح خيالها وراء زجاج الباب — وقد جاءت
حوالى الساعة الرابعة — حتى قمت بنفسى وفتحت لها
الباب ..

ونظرت الى نظرة تحد وهى تبسم ابتسامه خليعة
ساخرة .. وقبل أن تنطق ، قلت لها بصوت خفيض :
— أنا قلت انك اتعديتى عند خالتك ..

ونظرت الى كأنها تطالبنى بضمن اقرارها لهذه الكذبة ..
واستطردت وأنا أعلق على شفتى ابتسامه مرحة :
— هوه سبير حايجى الساعة كام .. ماقالكيش !!?
وابتسمت كوثر ابتسامه كبيرة ..
فهمت انى خضعت لها ..

ودخلت ، وأعطت وجنتيها الى أبى ليقبلها فى لهفة كأنها
غابت عنه سنين .. وقالت كأنها متعبة :

— أنا آسفة يا أحمد .. كان لازم أروح عند خالتى !!
وقال أبى كأنه استرد روجه :
— وازيها دلوقت ؟

— الحمد لله .. ما عندهاش حاجة .. انما انت عارف
خالتي .. يوم ماتكح يتهاى لها انها حتموت ..
وقال الرجل الطيب :
— بعد الشر ..

ودخلت كوثر لتخلع جاكيت التايير وعادت الينا بعد أن
ساوت نفسها .. وجلست وهي تنظر الى في تساؤل ، كأنها
لا تصدق اني رضخت لها .. وبهذه السهولة ..
وقال أبى وقد اتسعت ابتسامته :

— أنا كنت محضر مفاجأة لنادية .. انما ما حبتش أوربها
لها الا لما تيجي ..

ووضع يده في جيبه وأخرج علبة صغيرة من القטיפه
الزرقاء وهو يقول :

— وآدى المفاجأة ياستى ..

وفتح العلبة فلمع منها بريق خاتم ماسى سولتير ، وقدمها
الى وبريق ابتسامته يكاد يطفى على بريق الماس ..
وقبل أن أمد يدي لآخذ العلبة كانت كوثر قد اختطفتها
من يده ، وقالت وهي تبحلق في الماس بعينين اتسعنا حتى
ابتلعتا نصف وجهها :

— الله .. ايه ده كله .. شوفى يانادية شوفى .. يا بختك ..
ده أنا عمرى ماشفت فص جميل بالشكل ده ..
وناولتنى العلبة بيد ضئينة مترددة .. وأخذت أنظر الى
قطعة الماس في برود .. حاولت أن أفرح بها فلم أستطع ،

وحاولت أن أفتعل الدهشة فأخفقت ، وقلت في استسلام
كأني ساحرة أنظر الى مستقبل مظلم في كرة من البلور :
— مرسى .. ياترى مناسبتها ايه المفاجأة دي ؟!
وقال والدى وقد أسند ظهره الى مقعده ومد قدميه أمامه
كأنه يتباهى بعبقريته :

— الفص ده كان بتاع أمى الله يرحمها ، وأهدته لك يوم
ما توالدتى .. خدته وركبته على الخاتم ده ، وبعدين حطيته
فى البنك وقررت ان ما حدش يشوفه ، ولا أديه لك الا يوم
ما تتجوزى .

قلت كأني أهزأ من تفكيره :
— لكن أنا لسه ما تجوزتش ا
قال وهو ينظر الى فى حنان :
— أنا حاسس انك خلاص اتجوزتى !!
ثم صمت برهة واستطرد :
— ياريتك تلبسيه النهارده على العشا ..
وقالت كوثر بسرعة :

— صحيح .. والله فكره .. دى كمان تبقى مفاجأة
لسمير بيه !

قلت وأنا أقف على قدمي :
— أما أشوف ..
واتجهت اليه وانحنيت عليه لأقبله فجذبني وضمنى بين
ذراعيه فى حنان ، وهو يقول :

— ربنا يسعدك يا بنتى ..

قلت فى صوت خفيض :

— مرسى يا بابا .. ألف مرسى !!

وتركتهما ودخلت غرفتى وأنا قابضة على اللعبة الصغيرة

الزرقاء كأنى قابضة على جمرة من نار ..

وفتحت اللعبة قبل أن ألقى بها فى دولابى ، ونظرت

الى الفص الماسى الكبير مرة ثانية .. ومرة ثانية حاولت أن

أفرح به .. أن أحس بجماله .. ولكنى لم أستطع !

لم أفرح .. ولم أحزن ..

وخيل الى انى لن أفرح أبدا ولن أحزن أبدا ..

اكتشفت فى هذه اللحظة أنى فقدت قلبى ..

وفقدت احساسى ..

بل انى حاولت ساعتها أن أفكر فى محمود .. أن أناجيه

كعادتى .. أن أستلهم صورته المعلقة فى خيالى .. أن أستعيد

آراءه ومبادئه .. ولكنى لم أستطع .. وجدت محمود بعيدا

عنى جدا .. بعيدا .. بعيدا .. وصورته تهتز فى خيالى كأنه

يجرى الى بعيد هربا منى ..

ووجدت نفسى باردة ..

باردة كالثلج ..

وخيل الى أنى سأبقى باردة كالثلج طول عمري ..

بلا قلب ، وبلا احساس .. لا أحب ولا أكره .. ولا أرضى

ولا أغضب .. ولا أهدأ ولا أثور .. ولا أفرح لجمال

ولا أمتعض لقبح .. باردة .. جافة .. قاسية ، كتمثال جميل
من حجر ..

وجاءت كوثر الى غرفتي ، ووقفت على بابها ، وقد
أسندت ذراعها على الباب ومالت بخصرها في حركة خليعة
رشيقة .. وقالت وهي تنظر الى الخاتم ، وعلى شفيتها
ابتسامة خبيثة :

— تعرفى انه خاتم ثمين قوى .. ده مافيش منه دلوقت !

قلت ووجهى البرىء جامد لا يتحرك :

— فعلا ..

قالت وهي تقترب منى :

— أنا ماكتشش مصدقة انك تواقفى على سمير بالسرعة

دى !

قلت وأنا أفتعل ابتسامة :

— ليه .. ده جدع كويس وعاجبنى !

قالت فى دهشة :

— لكن اتنى النهارده الصبح ماكتشش راضية بيه !

قلت وأنا أفتعل .. لهجة ساذجة بريئة :

— اتنى عايزه الحق .. كنت خايفه لتزعلى ..

قالت وكأنها اقتنعت :

— أنا !! بالعكس ..

قلت وكأنى أتودد لها :

— الحقيقة هو عاجبى .. انما ما اقدرش أقول انى
باحبه !

قلت متسائلة فى جزع كأنها تخاف أن أحب سمير :
— اتنى مش بتحبى واحد تانى !?
قلت وأنا أرفع اليها عينى ثم أخفضهما كأنى خجلة منها :
— أيوه !!
قلت ضاحكة :
— خلاص ..

قلت وأنا أردد ضحكتها وكأنى تحررت من خجلى :
— وعلى رأى المثل .. الجواز حاجة ، والحب حاجة
تانية !

واقتربت منى وضمتنى بين ذراعيها ، وأخذت تتأرجح
بى ، كأنها طفلة تلهو مع طفلة ، وقالت فى لهجة مرحة صاخبة:
— ده احنا حنعمل عماليل يابنتى .. حانهيص !!
وضحكنا نحن الاثنتين ..

كانت ضحكتها منطلقة صافية كأنها وجدت كل أحلامها ..
وكانت ضحكتى مرتفعة فارغة كأنها أجراس تصرخ ..
ثم تركنتى قائلة :

— أما اروح أشوف الطباخ جيعمل ايه للعشا .. أنا
عارفه كل الحاجات اللى سمير يبجها ..
وخرجت ..

ونظرت وراءها كأنى أحاول أن أطلق من عيني سياما
تمزق ظهرها ..

وألقيت بنفسى فوق فراشى .. وأحسست بأبخرة الحقد
تتجمع فى صدرى ثم تتصاعد فى رأسى .. وبدأ شئ فى رأسى
يتحرك كأنه يزحف ويتلوى .. وبدأت أحس انى فى ظلام
أرى فيه شياطين الانتقام ترقص أمامى ، ثم يتقدم زعيمها
ويحملنى بين ذراعيه وهو يقهقه ثم يقذفنى الى أتباعه .. ثم
يتقاذفوننى فيما بينهم . وأحسست بنشوة وأنا أطيرو وأقع
بين أذرع الشياطين .. نشوة الخوف .. ونشوة الظلام ..
ونشوة الذكاء .. ونشوة القامر .. وهو يقتحم المجهول مقامرا
بكل ماله طامعا فى الربح ..

كنت أضع خطة .. وكنت أنسج خيوطها فى دقة ومهارة
كأنها خيوط عنكبوت عتيق مجرب .. وخيل الى أن الذباب
قد وقع بين هذه الخيوط .. وأنى امتصت دمه !!

وكانت الساعة السابعة مساء عندما أزحت ستر الظلام
من حولى ، وقمت وجلست أمام مرآتى ، لأستعد للعشاء .
ونظرت الى وجهى ..
انه لا يزال كما هو ..

الوجه البرىء كوجه طفلة لم يمتد بها العمر بعد حتى
تقف على الأرض وتسير فى زحام الناس ويتعكر تقاؤها
بضجيجهم .. وعيناي فى لون الزرع الأخضر وقد بلله الندى ،
لا تلمح فيهما أبدا شيئا مما فى نفسى ، حتى عندما أبكى

لا تعبران عن البكاء انما تنسكب فوقهما الدموع كأن يدا
غريبة تطوعت بغسلهما .. وفى الصغير ترسمه شفقتان
مكتنزان ، يخيل اليك انك لا تكاد تلمسهما حتى يتفجر
منهما الدم ..

وابتسمت ساخرة ..

ساخرة من وجهى ..

وفتحت درجا بجانبى لألتقط علبه الكريم ، فالتقت
عيناي بصورة محمود ملقاة فيه ، فعدت أغلقه بسرعة كأنى
أهرب منه كما هرب منى .. وفى انغلاقه انطبق الدرج على
أصبعى .. وخيل الى أنه انطبق على عنقى .. وأنى ألفظ
أنفاسى الأخيرة .. ولكنى لم أتألم ..

لم يعد فى شىء يستطيع أن يتألم ..



.. وبعد أسبوع أعلنت خطبتي الى سمير في حفل صغير
هادىء كأننا نحتفل بذكرى راحل عزيز ..

وقام كل منا بدوره خير قيام !!
كان سمير سعيدا كأنه عقد صفقة العمر ..

وكانت كوثر سعيدة كأنها هى التى تتزوج سمير .. ألم
يعد يعيش معها فى بيت واحد !?

وكان أبى سعيدا ، معتقدا أنه حقق سعادتي !

كان أهلى وأهله ، والمدعوون كلهم سعداء .. ما عداى
أنا .. أنا وحدى كان الغيظ والحقد يمزقان أحشائي ، وكان
الشر وشهوة الانتقام يسدلان حجابا أسود كالحا أمام عيني ..
ورغم ذلك لم يبد على شىء .. كنت مسيطرة على أعصابى
تماما .. وكنت أرقب كل شىء حولى كأنى أشهد مسرحية
ليس لى فيها الا دور المتفرجة ..

ودفعنى المجهود الذى أبدله للسيطرة على أعصابى الى
أن أبدو متعالية ، متكبرة ، باردة .. وكنت فى دخيلة نفسى
أشعر بنوع من « القرف » وكانت الرائحة الكريهة الحادة
— رائحة الجريمة — تنخر فى رئتى .. وكنت أنظر الى سمير
فى لفتات سريعة فأحسده على صفاقته .. لم يكن يبدو عليه

أثر للجريمة وكان جلده المشدود اللامع قد صنع خصيصا
لمثل هذه المناسبة ..

وأودعت نظرتى اليه نوعا من الرثاء والاحتقار .. الرثاء
للمستقبل الأسود الذى أعده له ، والاحتقار لشأنه ولطامعه
فى الحياة .. ولذالكه !

ووضع سفير دبلة الخطوبة فى اصبعى وانحنى يقبل
يدى .. ولم يكن حتى هذه اللحظة قد لمسنى أو وطأت شفتاه
قطعة منى .. وأحسست بقلته كقطرة من الزيت البارد تنزلق
فوق يدي .. وأحسست كأن كل خلجة فى جسدى قد
اقشعرت وتلملت ثم ثارت .. حتى كدت أمسح بقلته من
فوق يدي ، بيدي الأخرى ..

ونظرت اليه دون أن أتسم أو تبدو على فرحة ..
لم أستطع أن أتسم أو أفرح ..

انما نظرت اليه بعينين تأهتتين ، وأنا أسائل نفسى : « هل
أستطيع أن أكون زوجة لهذا الرجل .. هل أطيقه بجانبى ..
هل أطيق شفتيه فوق شفتى .. هل أطيق ذراعيه فوق
جسدى .. لا .. مستحيل .. مهما فعلت .. ومهما قسوت على
نفسى .. لن أطيقه .. ولن أستطيعه » !

ورفعت عينى التأهتتين الى أبى كأنى ألومه .. كأنى أحمله
مسئولية عذابى .. كأنى قديسة صلبوها على باب سعادته ولم
تملك الا الاستسلام ..

ورأيت ابتسامة أبى الكبيرة ، وسعادته التى تضج فى

عينيه ، فابتسمت له في مرارة .. ابتسمت لطفلى الكبير الذى
لا يدرى مدى العذاب الذى يحمله لأمه !

ثم التفت الى أمى .. انها المرة الأولى التى تدخل بيتنا
منذ طلاقها من أبى .. أى منذ ثمانية عشر عاما .. وهى جالسة
بجانب زوجها كأنها تحتمى به من ذكرياتها البعيدة .. جالسة
كالغريبة كأنها مدعوة الى حفلة خطوبة بنت الجيران .. انها
لا تحس بى .. لا بفرحى ، ولا بحزنى .. وربما كانت هى
وزوجها يعدان الدقائق على انتهاء الحفل ليتخلصا من حرج
وجودهما فى بيت أبى ..

ونظرت الى كوثر.. كانت سعيدة لأن خطتها قد نجحت..
لأنها حققت ما أرادته .. ورغم ذلك ، فعندما نظرت فى عينيها
خيل الى أن سعادتها مهزوزة .. سعادة فيها خوف وفيها شك،
كأنها تخشى أن تضل الطريق .. كأنها تخشى أن يرتد الخنجر
الى صدرها .. أن تقع فى البئر التى حفرتها بأظافرها .. كانت
تنظر الى نظرات سريعة أضبطها بالصدفة وأفتش فيها فأجد
الحقد والغيرة .. وأحيانا تطيل النظر الى كأنها تسبر غورى،
كأنها ليست مطمئنة الى سذاجتى .. ليست مطمئنة تماما الى
أن الضحية قد استسلمت للذبح .. ثم كانت تنظر الى سمير
كأن هناك سؤالا يحيرها .. كأنها نسيت معه شيئا قبل أن
تتركة يركب القطار !!

وتلفت حولى كأنى أبحث عن شخص غائب ..

عن عمى ..

عمى عزيز ..

لو كان هنا .. هل كان ينقذنى ؟ هل كان يرشدنى الى
النور ؟ الى الفضيلة .. الى طريق الهروب .. الى الهواء النقى ؟
ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف له .. هل كنت
أستطيع أن أقول له ان كوثر تخون أبى .. وتخونه مع
الانسان الذى قضى على أن أتزوجه ؟
لم يكن ليصدقنى !!

كان سيعتقد ان القصة ليست سوى وهم آخر ، كالوهم
الذى ثار فى رأس أبى عندما اتهمه بأنه يخونه مع زوجته
صفية !!

ورغم ذلك فقد أحسست لغيبة عمى بفراغ كبير .. كأنى
فقدت سدى !

وعندما خرج آخر المدعوين فى الساعة العاشرة مساء ،
ولم يبق سوى نحن الأربعة .. أبى ، وكوثر ، وسهير ، وأنا ..
قلت لأبى وأنا أحايله بابتسامتى :

— تعرف مين كان ناقص النهارده ؟

قال فى حنان :

— مين ينادية ؟

قلت بسرعة كأنى أتجاهل كل شىء :

— عمى عزيز !

واكفهر وجهه كأن سحابة سوداء قد اكتسخته .. ولم

يتكلم ..

وعدت أقول كأنى ألح :

— أنا النهارده ضربت له تليفون علشان أعزمه كنت
عازيه أعملك مفاجأة ..

قال باهتمام كأنه يزيح السحابة السوداء من أمام عينيه:
— وقال لك ايه ؟

قلت فى حسرة :

— ما لقيتوش .. وضربت له امبارح برضه مالمقيتوش..
يظهر انه مسافر !

وصمت أبى كأنه أصيب بخيبة أمل ، وقالت كوثر كأنها
تحشر نفسها فى الموضوع حشرا :

— صحيح يا أحمد .. كان حقك عزمته .. مهما كان بينك
وبينه .. انما فى يوم زى ده كان لازم أخوك يتعزم ..
ونظرت اليها كأنى أقول لها : « واتنى مالك يابارده » ؟
وقال أبى كأنه يتنهد :

— يتعزم فى الفرح باذن الله !

وابتسم قلبى .. خيل الى انى أزحت عبئا ثقيلا من على
قلبى .. انى أصلحت ما أفسدته جريمتى ..

وتعلقت برقبة أبى وقبلته قائلة :

— ربنا يخليك ليه يا بابا ..

وفهم أبى سر فرحتى ، وأخفى فرحته تحت قناع الوقار..
فرحته باحساسه انه قد صفح عن أخيه .. ثم قال :

— ياللا بينا كلنا نروح نتعشى فى سميراميس !

وجفلت ..

كان معنى ذلك أن أبقى مدة أطول مع سمير .. وأن أراقصه .. وأن أركب بجانبه في سيارته وحدنا .. وقلت بسرعة :

— بلاش النهارده يا بابا .. أنا تعبانه .. من امبارح وأنا واقفه على رجليه ..

وقال سمير في لهجة رسمية مهذبة :

— والله يا أفندم .. أنا باقول نروح تقعد في حته هادية ، أصل ..

وقاطعته في لهجة حازمة عودته عليها :

— أنا تعبانه .. نوبة ثانية باذن الله .

وسكت سمير ، كأنه تلقى أمرا بالسكوت ..

وقالت كوثر وهي تنظر الى أبي :

— ياسيدي الأيام قدامنا كثير ..

وقال أبي مبتسما في سداجة :

— كده .. طيب ياللا بينا يا كوثر ..

ووضع يده في يد زوجته ، وسار بها نحو حجرتهما .. وترددت كوثر قليلا .. ولكن أبي غمز لها باحدى عينيه ، كأنه يذكرها بأن أصول الاتيكيت تقتضى أن يتركانا أنا وسمير وحدنا ..

وما كادا يتركان الصالون ، وقبل أن يصلا الى حجرتهما ، مدت يدي الى سمير قائلة :

— بونسوار ياسمير بيه .. أنا آسفة قوى .. تعبانه !
ونظر الى سمير فى دهشة ، ثم ابتسم ابتسامة الخير
بأمور النساء ، وانحنى يقبل يدي .. وضع عليها قطرة أخرى
من الزيت البارد ، وقال :
— بونسوار يا أفندم !

ثم خرج يخطو فى رشاقة مفتعلة كأنه يسير بالزمالك ..
وتعمدت أن ترانى كوثر قبل أن تدخل الى غرفتها ..
ورأيت على وجهها مسحة من الارتفاع .. ارتاحت لأنى
لم أبق مع سمير وحدنا ..

ودخلت حجرتى .. ونظرت الى نفسى فى المرآة .. الى
ثوبى الغالى الذى خاطته لى مدام سافيدس خصيصا لحفل
اعلان خطبتى .. وكان ثوبا من « التل » المشغول « بريتون »
فى لون شراب الورد المخفف .. كان من أعلى ثيابى وربما
أجملها .. ولكنى لم أحس بجماله .. أحسست كأنه مصنوع
من صفيح ينطبق على صدرى وكان لونه الوردى ، دم باهت
انسكب عليه .. دم أعصابى !

وخلعت الثوب وتركته ملقى تحت أقدامى على الأرض ..
كأنه بقية من أشلائى !

وأخذت أدور فى أنحاء الغرفة وأنا « بالكومبينزون »
أحاول أن أجد شيئا ألهمى نفسى به .. أن أسكت الضجيج
الذى بدأ يصحو فى رأسى .. ثم جلست أحاول مرة أخرى —
ربما للمرة العاشرة — أن أكتب خطابا الى محمود ..

ومنذ اقتحم سمير حياتى ورضيت باعلان خطبتى اليه
وأنا أحاول أن أكتب الى محمود .. كتبت اليه خطابات كثيرة
اعترفت له فيها بكل الحقيقة وبكل التفاصيل ، ثم مزقتها ..
وخطابات أخرى حاولت أن أكذب فيها عليه .. أن ألفت
وأدور وأروى له خيالات أعلل بها خطبتى الى رجل آخر ..
ولكنى مزقت هذه الخطابات أيضا ..
وأمسكت القلم وكتبت :

« حبيبى محمود .. »

« لا تسألنى .. ولكن ثق أنى أحبك .. وسأحبك دائما.. »

« .. و »

وحاولت أن أتم الخطاب .. ولكنى لم أجد شيئا آخر
أكتبه ، وقبل أن أمزقه ، طويته بسرعة ، قبل أن أوقعه ؛
ووضعتة فى ظرف كتبت عليه اسم محمود وعنوانه .. كأنى
أرسل له نعى ، وأخاف أن يلحقنى الموت قبل أن أتم كتابته ..
وتركت الخطاب فوق المائدة الصغيرة ، ثم قمت وألقيت
نفسى فوق فراشى ..

وبدأت أستعيد فى ذهنى الخطة التى وضعتها ..

وكانت الخطة التى وضعتها بسيطة سهلة .. فى منتهى

السذاجة !

كان على أن أدع سمير يقع فى حبى .. أن يحبنى حقا ..
حتى أسيطر عليه ، وأبعده عن كوثر تماما .. وعندما ترى
كوثر أنها فقدت سمير ، وانه تخلى عنها ، ستعيبها الغيرة عن

خطتها ، وتثور عليه ، وتقلب ضده ، وتعمل على فسخ
زواجه بي ..

وكان يجب لتنفيذ هذه الخطة أن أمثل دورين :
دورا أمثله أمام سمير حتى يقتنع بأني أحبه ، وبأنه
ملكني ، وانه يستطيع أن يستغنى بي عن كوثر ، ويستطيع
أن يسيطر على بحبي له ، بدل أن يسيطر على بالتهديد ..
التهديد باعلان خيانة كوثر لأبي ..

ودورا آخر أمثله أمام كوثر حتى لاتلاحظ خطتي .. حتى
تطمئن على فتقف بجانبى وتتجه بكل ثورتها الى سمير ..
هذه كانت خطتي ..

لم أجد غيرها ..
وكان يجب أن يتم تنفيذها قبل أن يعقد قرانى ..
هل أستطيع ؟

لقد سألت نفسى آلاف المرات :

« هل سمير من السذاجة بحيث يصدقنى الى حد أن
يتنازل عن سلاحه الذى يهددنى به .. يتنازل عن كوثر » !!
وسألت نفسى آلاف المرات : « هل كوثر من البساطة
بحيث لاتفطن الى خطتى !! ثم انها عندما قبلت أن تزوجنى
لسمير قد روضت نفسها على أن تحتل نوعا من الغيرة ..
أن تحتل بقائى معه كزوجة وزوج .. فهل أستطيع أن أنفخ
في نار هذه الغيرة حتى تثور على سمير وتتخلى عنه » !!
لا أدرى ..

كنت دائما في شك من نجاح خطتي .. ولكنى أقدمت
على تنفيذها كأني أقامر بحياتي !!

وبقيت أياما بعد اعلان الخطبة وأنا أتحاشى أن أنفرد
بسمير ، كنت لا أجلس ولا أخرج معه الا ومعنا كوثر وأبى ..
واطمأنت كوثر .. عرفت أنني قبلت أن أكون زوجة لسмир
ولكن في حدود ضيقة لا أريد أن أتعداها ، ولا أشجعه على
أن يتعداها ...

وقلت لها يوما بيني وبينها :

— الحقيقة انه ينفع جوز .. انما مش معقول أنى أحبه ..
التيب بتاعى غير كده خالص !

وابتسمت كوثر ابتسامة واسعة ، وقالت :

— ما انتى عندك اللى بتجيبه !

وتنهدت قائلة :

— ادعى معايا ياكوثر ، انه يرجع بالسلامة !

وهكذا كنت أحاول أن أكتسب ثقة كوثر .. وأحاول
أن أقنعها بأنى أسير سيرها .. وانى مؤمنة معها بأن الزواج
شئ والحب شئ آخر .. وأنى سأترك لها سмир .. لها
وحدها !

وذهبنا الى السينما نحن الأربعة .. وكنت أتعمد دائما
كلما ذهبنا الى السينما أن أدع سмир يجلس بيني وبين كوثر ،
وكنت أظهر لها تعمدى حتى تزداد اقتناعا بأنى أتركه لها ..

ثم خرجنا من السينما ، واتجهنا الى موقف السيارات،
ووقف أبى يقول لى :

— أظن تركبى اتتى فى عربة سمير ينادية ..
ولم أتكلم ..

ونظرت الى كوثر كأنى أستغيث بها .
وابتسمت كوثر فى استخفاف كأنها لا تأبه بهذه الصغائر،
وركبت فى سيارة أبى .. وركبت أنا فى سيارة سمير .. وقال
وهو يقود سيارته :

— تحبى تنفسح شوية .. ؟
ولم أرد ..

وقاد سيارته الى طريق مصر الجديدة ، وسمعته يقول
وأنا متعمدة أن أدير رأسى عنه ملتفتة الى الطريق :

— أنا حاسس ينادية اننا بعاد عن بعض قوى .. لابنعد
مع بعض ، ولا بنخرج مع بعض .. ولا كأننا مخطوبين !
قلت بصوت حزين وأنا ألتفت اليه نصف لفتة :

— انت اللي عايز كده ..
قال :

— أنا !! ازاي !?

قلت كأنى غاضبة :

— انت عارف !

قال كأنه يتجاهل :

— عارف ايه ؟

قلت :

— عارف انك ما بتحبنيش .. بتحب واحدة تانية !

قال كأنه يلقي فقره من مسرحية :

— أنا ما بجبكيش !! كل ده وما بجبكيش .. ده أنا أول
ما شفتك في جروبي وكل حاجة في اتغيرت .. مبادئى اتغيرت..
أخلاقى اتغيرت .. ماكنش ممكن أفكر في الزواج الا بعد
ماشفتك ..

قلت وأنا أسرف في غضبي :

— أنا كمان كنت فاكره كده .. انما للأسف ..

قال :

— ما تصدقيش أى حاجة ينادية .. صدقيني أنا ..

قلت في حدة مفتعلة :

— يعنى قصدك ما صدقش عنيه ، وما صدقش ودانى..

وأصدقك انت !

قال :

— أنا عارف اتنى بتقصدى مين .. كوثر .. مش كده?..

أحلفلك ان كل حاجة راحت لحالها .. دى كانت شقاوة

شباب ..

واستدرت اليه كلى ، وقلت وأنفاسى مبهوره كانى

صدقته :

— صحيح .. صحيح ياسمير !!?

وأوقف سيارته في جانب مظلم من شارع البارون ،

واقترب منى ووضع ذراعه فوق مسند المقعد ، وقال :
— أحلفك بآيه ؟

وتركنه ينزل بذراعه الى أن يضعه فوق كتفى ، ثم اقترب
منى بوجهه ، وتحملت أنفاسه كموجة مؤذية من رياح
الخماسين ، ولفت وجهى اليه وأنا مغمضة العينين ، كأنى فى
انتظار أن يقبلنى ..

وقبل أن تلمس شفاه شفتى ، فتحت عيني ، وأدرت
رأسى عنه .. ودفعته عنى برفق وأنا أقول :

— لا .. مستحيل .. انت ما بتحبينش !

قال وهو يلاحقنى بوجهه وقد استبدت به لهفته :

— باحبك .. باحبك يانا دية !

قلت وأنا أزداد ابتعادا عنه :

— اثبت لى .. اثبت لى انك بتحبينى !

قال وأنفاسه تفح من صدره كأنها تخرج من منفاخ

مخروق :

— أثبت لك ازاي بس !?

قلت :

— ما أعرفش .. أهو اقنعنى بحبك والسلام .. ومن

فضلك تروحنى دلوقت أحسن كوثر تزعل !

قال :

— طيب علشان أثبت لك ان كوثر ماتهنينش ، حافظ

معاكى للصبح ..

قلت في برود وفي لهجة حازمة :

— أنا يهمنى أن كوثر ما تزعلش .. ما تنساش انها قاعدة
معايا في البيت .. وانها مرأة أبويا ..

واعتدل في جلسته وقال :

— يعنى نرجع ..؟

قلت في اصرار :

— أيوه ..

ومكثنا صامتين خلال العودة ، الى أن قلت وأنا أتهد ،
كأنى أحادث نفسى :

— أنا كنت فاكراه انك ضحكت على كوثر علشان
تتجوزنى .. أتاريك ضحكت على ولسه بتحب كوثر ..
وقال كأنه اتخذ قرارا هاما في حياته :

— بكره حتعرفى كل حاجة .. حتعرفى أد ايه باحبك ..
ووصلنا الى البيت ..

ولم أسمح له وهو يودعنى ، الا بأن يقطر من شفثيه
قطرة أخرى من الزيت البارد ويضعها فوق يدي ..

ودخلت البيت لأجد كوثر في انتظارى جالسة في الأتريه
وبين يديها مجلة ، وقالت بمجرد أن رأتنى وهى تفتعل ابتسامة
كبيرة وفي عينيها اضطراب :

— أهلا .. تصورى انى ما أقدرتش أنام .. وقاعدة أقرأ ،
وكل دقيقة أتمنى انك ترجعنى علشان تقعد ندردش سوا ..

وقلت فى حدة وأنا ألقى حقيبتى فوق المائدة ، وأنزع
قفازى بحركات عصبية :

— اسمعى ياكوثر .. الحركات بتاعة سمير دى أنا
ما أستحملهاش .. ازاي يصم يطلع بى مصر الجديدة ..
غصب عنى .. احنا اتخطبنا واحنا فاهمين بعض كويس ..
يبقى لزومه ايه الحركات دى ؟ ..

ورحبت كوثر بثورتى ، وقالت فى اهتمام كبير :
— وعمل ايه ؟

قلت وأنا لازلت محتدة :

— عمل .. مابقاش ناقص كمان .. طبعا ما عملش حاجة ..
قعد يكلمنى عن نفسه وعن تاريخ حياته ..
قالت مبتسمة فى فرح وهى تهدئنى :
— أصل سمير يحب الكلام عن نفسه كثير ..

قلت وأنا ألتقط حقيبتى وأهم بالدخول الى حجرتى :
— وحياتك ياكوثر ، أول حاجة تعملها الصبح انك
تضربى له تليفون ، وتقولى له يبطل الحركات دى .. الأيام
قدامنا كثير علشان يحكى لى عن تاريخ حياته ..
قالت :

— طيب مش تقعدى معايا شوية ..

قلت وأنا أتركها :

— لآ .. أنا متترفة !

ودخلت غرفتى والشعور الخيىث يملأ صدرى .. شعور

المقامر وهو يرقب عجلة الحظ تدور أمام عينيه الجاحظتين ،
بينما قلبه يضج ويدق كأنه مسكن الشياطين .. الشعور الذى
كان يجتاحنى دائما كلما دبرت خطة وعشت فى انتظار
نتائجها ..

وفى اليوم التالى أبلغت كوثر رسالتى الى سمير .. قالت
له انى غاضبة لأنه صحبنى رغما عنى الى مصر الجديدة ..
وطبعا أنكر سمير .. واتصل بى بعدها ، وقال لى وهو
يبدو غاضبا :

— اتنى قلتى لكوثر انى طلعت بيكى مصر الجديدة
غضب عنك ؟ ..

وصرخت فيه :

— أمال كنت عايز أقول لها ايه .. كنت عايز أقول لها
انى باحبك علشان تشعل نار فى البيت .. علشان تبعدك عنى ..
علشان تموتى ..

قال فى دهشة :

— أنا ماكتش فاكر كده ..

وقاطعته وقد خفضت من صوتى كأنى أبكى :

— انت مش عارف حاجات كثير ياسمير .. مش عارف
العذاب اللى أنا متعذباه .. مش عارف انى ما بقدرش أجيب
سيرتك فى البيت خايفه من كوثر .. مش عارف انى لازم
أفضل أقول انى ما بحبكش ومش طايقاك .. علشان أريحها ..
وعلشان ما تهدش البيت على دماغى .. ودماغ أبويا .. وأكثر

وكان سمير أسهل مما كنت أعتقد ، كان غروره بنفسه
وبجماله وبذكائه قد أعماه عن كل شيء .. صدق أنى أحبه ..
وصدق انى ساذجة بريئة .. ثم بدأ يقتنع أن كوثر عقبة فى
طريقه .. فى طريق سيطرته على وعلى ثروتى .. وبدأ يتعمد
أن يولبنى اهتمامه ، ويفصح عن حبه لى بعينه وبعبارات
ملتوية كلما كانت كوثر معنا ..

وبدأ يتعمد ألا يجلس بينى وبينها عندما نذهب الى
السينما .. بل يجلس بجانبى بعيدا عنها .. ثم بدأ يختصر
أحاديثه معها فى التليفون بعد أن عرف — عن طريقى —
انها تظلعنى على كل ما يقول لها ..

وكنت خلال ذلك أسلط عليه كل حيلى وكل أنواع
العواطف .. كنت أخاصمه وأصالحه ، وأقبل عليه وأبتعد
عنه ، وأمنيه بنفسى ثم أحرمه منها .. كنت دائما أثير أطماعه
فى ثروتى ..

قلت له يوما :

— أنا مش عارفه أعمل ايه بالعشرين ألف جنيه قيمة
التأمين . أشترى أرض ولا فيلا .. ولا أقول لك .. انت مش
بتعرف فى الأسهم والسندات .. تاخذهم وتشتري لى بيهم
أسهم .. دى أحسن طريقة اليومين دول .. الأرض خلاص
ما بقتش تنفع ..

وقال كأنه شعر بالعشرين ألف جنيه فى جيبه :

— الحقيقة .. أنا مافيش حاجة غاويها وأفهم فيها

الا الأسهم والسندات .. امبارح أسهم بنك القاهرة ارتفعت
عن أول امبارح .. و ..
قلت أقاطعه ضاحكة :

— ماتقوليليش .. مش حافهم حاجة ، أنا متهيأ لى انك
تقدر تعمل من العشرين ألف .. مليون ..
وسكت قليلا .. ثم قلت فى حزن :
— بس ياترى الفلوس هى كل حاجة .. ياترى مليون
جنيه تغنينى عن الحب !!?

قال وهو يضغط على يدى :

— حيبقى عندك المليون جنيه ومعاهم الحب !!

قلت وأنا أبادله الضغط على يده :

— ونسافر أوروبا كل سنة تقعد ستة أشهر .. و ..

وقاطعنى وهو يضحك ضحكته السمجة :

— أنا كمان نفسى أسافر أمريكا ..

قلت وأنا أفتعل نظرة حب ووله :

— وما نرجعش ..

قال وقد فاضت به أحلامه :

— نروح تقعد فى هوليوود على طول ..

وما كدت أتركه بعد هذا الحديث حتى هرعت الى كوثر

وقلت لها وأنا أمثل دور من ضاقت به الحياة :

— سمعتى ياستى المشروع الجديد .. بتاع سى سمير..

عايز يسافر أمريكا بعد الجواز على طول !!

قالت فى جزع :

— أمريكا .. يعمل ايه فى أمريكا ؟

قلت فى حدة :

— يهاجر .. ياخذنى ونعيش هناك على طول .. أنا مش

عارفه الراجل ده قصده ايه ؟

وقالت كوثر كأنها تحدث نفسها :

— سمير اتغير .. اتغير قوى .. لكن على مين !!؟

ثم التفتت الى قائلة :

— واتى وافقت على حكاية أمريكا دى ؟

قلت صارخة كأنى ألومها :

— طبعا لا .. وده معقول !!

وطبعا .. قلت بعد ذلك لسمير أن كوثر غضبت عندما

سمعت بمشروع سفره الى أمريكا .. حتى يعتقد أنها ستقف

حائلا دون كل مشروعاته !!

وكانت كوثر خلال كل ذلك قد بدأت تعتقد أن حب

سمير لها قد بدأ يتغير .. كنت ألمح نظراتها وهى ترقبه فى

غيظ وحق كلما تودد الى وتجاهلها ووجه كل اهتمامه

نحوى .. وكنت ألمح على وجهها حيرتها واضطرابها ومقاومتها

لنفسها .. كان تعلقها بسمير قد بدأ يتغلب على أطماعها ..

وعلى الخطة الشريرة التى وضعتها لتزويجى به ..

كنت ألمح كل ذلك .. فأتبادى فى خطتى .. وأضرب على

أعصابها ضربات متتالية ، ولكن فى حرص وتأذ حتى لا أفقد

ثقتها بى .. وكان أهم ما اعتمد عليه فى الاحتفاظ بثقتها هو
علمها بأنى أحب رجلا آخر .. أحب محمود .. وكنت دائما
أحدثها عنه وعن حبى له ، بل كنت أكتب اليه خطابات وهمية
أطلعها عليها .. ثم أمزقها ..

وشيئا فشيئا بدأت كوثر تصرح لى بمخاوفها .. بشكها
فى نيات سمير ، وشكها فى حبه لها ، وكانت تصريحاتها فى
بادىء الأمر عاتمة كالفقايع التى تطفو على السطح .. ثم
أفاضت حتى كشفت لى عن أعماقها ..

كانت تقول لى :

— الرجالة دول مش ممكن الواحدة تظمن لهم !

فكنت أقول لها كانى لا أفهم ماتعنيه :

— يعنى اتى مش عارفه الرجالة ؟

ثم أصبحت تقول لى :

— سمير ده باين عليه راجل مش كويس .. يظهر انى

كنت مغشوشة فيه !!

— اتى تعرفيه أكثر منى .. واتى المسئولة .. الحقيقة

انى مش مستريحه للجوازه دى !!

الى أن كان يوم .. وكان قد مضى ثلاثة شهور على يوم

اعلان خطبتى لسمير ..

وعرفت ان كوثر ذاهبة للقاء سمير ، عرفت من طريقة

استعدادها للخروج .. من لهفتها ومن نظرات عينها .. ومن

الكلمات المنقطعة الحائرة التى كانت تلقيها هنا وهناك ..

وما كادت تخرج من البيت .. حتى اتصلت بسمير في
التليفون وقلت له في برود :

— أنا كنت عايزاك تنزل معايا عند باروخ الجواهرجى ..
لكن طبعا مش حقتدر .. كوثر زمانها عندك ..
واضطرب سمير وقال وكأنه لا يدري أين يهرب :

— كوثر .. مين قال الكلام ده ؟

قلت في حدة :

— ما تحاولش تكذب .. هيه اللي قالتلى .. وكل اللي
كنت باطلبه منك انك تقوللى علشان ما أنكسفش قدامها ..
علشان ما أحسش بالذل اللي حسيت به .. أنا عملت فيك ايه
يا سمير بس .. ده ذنبى انى حبيتك .. ذنبى ان كل ما أفكر
في حياتنا مع بعض تهدم كل تفكيرى ؟

وقال سمير كأنه يعترف أمام راهبة :

— الحقيقة ياناادية ان كوثر بتتحايل على انها تشوفنى
بقالها شهر .. ورضيت أقابلها علشان أصفى اللي بينى وبينها ..
انما ما دام قالت لك .. يبقى نيتها سيئة .. تبقى عايزة تخرب
بيتى وبيتك .. حاطردها .. حا ..

قلت أقاطعه كأننى فى رعب :

— لا .. لو عرفت انى كلمتك وقلت لك على حاجة ،
حترجع تنتقم منى وتحط همها على دماغى .. بلاش أعمل
معروف ..

قال كأنه شهيم :

— مش حتعرف انك كلمتيني .. انما برضه حاطردها ..
وحتكون عندك تانى مسافة السكة ..
— اعمل اللي انت عايزه ياسمير ..
ووضعت الساعة ..

ولم تنقض ساعة حتى عادت كوثر .. عادت وكل شىء فيها
ينتفض .. عيناها تنتفضان .. وشفاتها تنتفضان .. ووجنتها
تنتفضان .. وأصابعها تنتفض .. وكل شعرة في رأسها
تنتفض ..

وكانت قد دخلت توالى غرفتى .. وأخذت تروح وتغدو
أمامى فى خطوات عصيبة ، وأسنانها يسطك بعضها ببعض
كأنها تمزق بها ماضيها كله .. ثم أخذت تضغط على ذراعيها
بيديها كأنها تحول دون سقوطهما عن جسدها ، وهى تصيح:
« السافل ، الكلب ، المجرم » !!

وقلت كأنى دهشة :

— ايه ياكوثر .. مالك !

ولم ترد على .. انما ظلت تروح وتغدو أمامى .. ثم
التفتت الى فجأة وصاحت :

— اتى مصمة على الجوازه دى ؟

قلت وأنا أدعى منتهى الدهشة :

— ايه المناسبة للسؤال ده دلوقت ؟

قالت فى حدة :

— جاويينى .. اتى مصمة تتجوزى سمير ؟

قلت وأنا أهز كنفى :

— آهى جوازه .. مش اتى اللى جاياه .. واتى اللى
كنت عايزانى أتجوزه ؟

قالت كأنها تصرخ :

— خلاص ما بقتش عاوزاكي تتجوزيه .. ده
مايستهلكيش .. ده مجرم .. سافل .. منحط ..

ثم فجأة ألتقت نفسها على فراشى منكفئة على وجهها
وأجهشت بالبكاء ، بينما أخذ جسدها كله يرتعش .. كأن كل
مسامه تعصر دموعها ..

ولم أهتز لرؤية دموعها ..

لم يلب قلبى .. ولم أحس بعطف عليها ..

وقفت أنظر إليها فى شماتة وتشف .. كأنى أنظر الى
فرخة تذبج أمامى .. وكأنى أتمنى أن تختنق بدموعها ..
وكانى أغسل بهذه الدموع لمسات سميح التى لوث بها يدي
وشفتى .. وأغسل بها الأحزان التى سودت قلبى .. وأغسل
بها الأيام والليالى التى قضيتها .. لا أنام ..

ولكن كان يجب أن أستمع فى خطتى حتى النهاية ..
فأقبلت عليها ، وجلست بجانب جسدها الممدد على فراشى
وأخذت أربت على ظهرها ، وأنا أقول فى صوت محشرج
كأنى أشاركها البكاء :

— ايه اللى حصل بس ياكوثر .. قوليلى يا حبيبتى ..

حصل ايه !

وهذا بكأؤها قليلا ، ثم قالت من بين دموعها ، دون أن
ترفع وجهها الى :

— أنا ضحكت عليكى يانادية .. خدعتك .. بعد كل
اللى عملتية ليه .. خدعتك وضحكت عليكى . سبير هو اللى
خلانى أعمل كده .. كان طمعان فى فلوسك .. وطمعنى معاه ..
طاوعته لأنى كنت باحبه .. لكن عرفت دلوقت انه زى ما كان
عايز يضحك عليكى ، كان يضحك على أنا كمان .. سامحيني
يانادية .. سامحيني .. أنا حاموت نفسى .. حاتحتر ..

وانحيت أقبّل رأسها قبلة باردة .. دون أن يهتز قلبى ..
ثم قلت فى حرارة مفتعلة :

— بعد الشر عليكى .. كلنا بنغلط ياكوثر .. الواحدة
منا لما بتحب ما بتقاس عارفه هيه بتعمل ايه ، والحمد لله اللى
جت على كده ..

وارتفع نشيج كوثر .. وعادت دموعها تنهمر فى سيول ..
وقلت بعد قليل كأنى آسفة حزينة :

— اتنى عارفه انى رضيت بيه علشان خاطر ك .. عمري
ماحيته ..

وارتفع نشيجها كأنها تصرخ وقالت :

— كنت غلطانه .. غلطانه .. غلطانه ..

قلت بعد فترة صمت كأنى أفكر :

— ودلوقت العمل ايه ؟

ورفعت رأسها الى وقالت وعيناها تبرقان ببريق مخيف..
كانها تودع خنجرا في صدر سمير لتنتقم منه :
— نفسخ الخطبة .. تسييه .. لازم يفهم انه اذا قدر
يضحك على واحدة منا مش حايقدر يضحك علينا احنا
الاثنتين !

قلت وأنا أمثل دور المستسلمة البريئة :

— وبابا !؟

قالت وعيناها لا تزالان تبرقان هذا البريق المخيف :

— أنا حاقنعه !!

وجلسنا نحن الاثنتين في انتظار أبي نرتب ما تقوله له ..



لم يكن من السهل علينا - كوثر وأنا - اقناع أبى
بفسخ الخطبة ، رغم التمثيلية الرائعة المحبوبة الأطراف التى
مثلناها أمامه ..

فلم نكد نسمع الباب الخارجى يفتح ، وخطوات أبى
تتجه نحونا ، حتى انكفأت على وجهى فوق الفراش وادعيت
البكاء .. ومالت كوثر على تربت على ظهرى كأنها تخفف
عنى .. ووقف أبى عند باب غرفتى مبهوتا ، وقال كأنه فقد
صوته :

- ايه .. جرى ايه .. نادية بتعيط ليه ؟
وقامت كوثر بعد أن ملكت أعصابها تماما ، وقالت وهى
تتجه اليه :

- تعال يا أحمد .. عايزاك فى كلمة ؟
وجذبتة من يده ، ودخلت معه الى غرفة المكتب ، وقالت
له انى قد صممت على فسح خطبتى من سمير ، وانى لم أعد
أطيعه .. وانى فى خلال الشهور الثلاثة التى قضيناها مخطوبين
لم أسمح له بتقيلى قبلة واحدة لأننى لم أستطع أن أحبه ..
واننا - هى وأنا - قد اكتشفنا ان له صديقة ايطالية لم
يقطع علاقته بها .. وانه سبق أن خطب فتاة فى الاسكندرية ،
ثم فسخت الخطبة بعد أن سرق سوارا من خطيبته ، وفضلت
عائلة الفتاة ألا تبلغ البوليس هربا من الفضيحة .. و .. و ..

وسردت له تاريخ سميم وكل ما يثار حوله من أقاويل ، مما
تعرفه أكثر منى ..

ورغم ذلك لم يقر أبى فسخ الخطبة .
كان الأمر أخطر فى نظره من أن يسلم به ..
وكان يخشى كلام الناس .. ويخشى أن تخدش الألسن
اسمى .

وجاء الى غرفتى ووراءه كوثر ، وكنت قد جلست أمام
مرآتى ، ادعى انى أمسح دموعى .. وقال وهو واقف ورائى
ووجهه المكفهر يرتسم أمامى فى المرآة :

— أنا مش مصدق الكلام ده كله ينادية ..
وقررت أن أتبع « تاكنيك » جديدا ، فبدل أن أعاود
البكاء وأحاول أن أثير حبه وعطفه ، التفت اليه كأنى أنتفض
وصرخت فى وجهه المكروب :

— انت السبب يا بابا .. انت اللى رمتنى الرمية السوداء
دى .. انت اللى بعتنى لانسان مجرم سافل .. ماكنتش فاكراه
انك عايز تتخلص منى للدرجة دى .. كنت موتنى أحسن ،
بدل العذاب اللى أنا شافاه ..

وقال أبى مبهوتا كأنه لا يصدق أذنيه :

— أنا .. أنا ينادية !?

وقاطعته وأنا لازلت أصرخ :

— أيوه حضرتك .. كان لازم تسأل عليه قبل ماتشكنى

الشبكة دى ..

قال فى وجود :

— سألت ..

قلت فى حدة :

— ده سؤال ده .. رح غبت ساعتين فى النادي وجيت

تقوللى انه كويس ..

قال وهو يحاول أن يهدئنى ، ويحاول أن ينفى عن نفسه

المسئولية :

— مش اتنى اللى وافقتى يانادية !

قلت وأنا أضرب مائدة الزينة بيدي :

— أنا وافقت علشان خاطرک .. فضلت تلح على لغاية

ما وافقت .. أنا مستعدة أموت علشان خاطرک يا بابا ، بس

مش الموته دى .. حرام عليك .. حرام عليكم يا اخواتى !

وقالت كوثر وهى تربت على كتنفى :

— بس يانادية .. كل حاجة لها حل ، وتروح لحالها ..

ثم التفتت الى أبى قائلة :

— الحقيقة احنا اللى غلطانين يا أحمد .

وقال أبى وكأنه يكاد يجن :

— غلطانين ازاي بس .. ده أنا شفتها بعينى قاعده معاه

فى جروبى ، وفهمت انها بتجبه ..

قلت وصوتى يخرق الجدران :

— يعنى لما أكلم واحد فى التليفون ولا أكلمه كلمتين

على البلاج يبأه اسمى بجبهه .. واحد طلب منى أتجوزه .. كنت

عايزنى أعمل ايه غير انى آخذ كوثر علشان تسمع كلامه
وتجى تقوله لك .. البنات الكويسين يعملوا ايه أكثر من
كده .. أكثر من أنهم يسيبوا باباهم يتصرف فى جوازهم
ومستقبلهم .

وسكت أبى كأنه اقتنع بأنه فعلا مخطيء ، وبأنه تسرع
فى اعلان خطبتي الى سمير ..
وهدأت ..

وقلت كأنى أنتهد :

— اعمل فى اللى انت عايزه يا بابا .. الأمر أمرك ..
قال وهو لا ينظر الى كأنه يخجل منى :
— أنا مش حاعمل الا اللى اتنى عايزاه يا نادية .. بس أنا
باقول نستنى شوية لما تتأكد من الكلام اللى سمعناه ..
قلت كأنى أحادث نفسى :

— ده مش كلام ، دى حقايق .. أنا بقالى شهرين باحاول
أكذب نفسى .. مش قادرة .. كل حاجة باشوفها ألعن من
التانية .. وماقلتش لك حاجة الا بعد ما عرفت ان مافيش
فايدة ..

قال كأنه يرجونى :

— طيب تفكر شوية .. المسألة مش بسيطة ..

قلت بنفس الصوت الحزين :

— أنا فكرت كثير .. وكوثر فكرت معايا كثير .. فكر

حضرتك لوحدك !

ونظر الى أبى صامتا .. وحرك شفثيه كأنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يقل .. وأدار ظهره لى وخرج فى خطوات بطيئة حزينة كأنه يسير على أشلاء .. وخرجت وراءه كوتر بعد أن نظرت الى نظرة ذات معنى ، كأنها تطمئننى على نجاح الخطبة .

وابتسمت ..

ابتسامة الفوز ..

وبقيت فى حجرتى .. ورفضت أن أخرج منها لأجلس الى مائدة الغداء .. ورفضت أن أخرج للعشاء ، وتركت أبى لكوتر تزيد فى اقناعه ، وتحقنه بالثورة على سمير ..

وفى الساعة السابعة دق جرس التليفون .. وكان سمير يتحدث كعادته كل مساء .. ولم أقل له شيئا .. بل حادثته برقة وعذوبة كعادتى ، واعتذرت عن لقائه بأنى مريضة وأشعر بصداع ، وواعدته على اللقاء فى مساء اليوم التالى ..

كان يجب ألا يعلم شيئا قبل أن تتم الخطبة ، ويفاجأ بها ، حتى لا يحاول افسادها ..

وفى صباح اليوم التالى خرج أبى مبكرا ، وقالت لى كوتر انها استطاعت أن تقنعه بفسخ الخطبة ، ولكنه صمم أن يعاود السؤال عن أخلاق سمير حتى يطمئن الى أنه لا يخطئ .. وكانت كوتر تحادثنى وفى نفسها مرارة قاسية .. كانت زائغة العينين .. مرتجفة الشفتين .. وكان شعرها مهدلا ولم تبدل ثياب نومها ، كأنه لم يعد لها من تترين له ، وتعقص

له شعرها ، وتبدل له ثيابها .. وكانت في خلال ذهولها تنظر الى نظرات سريعة أتبين فيها الحقد والكراهية .. وكنت أرى في هذه النظرات اتهاما واضحا .. انها تتهمني بأني أنا السبب .. أنا الذي حطمت قلبها وفرقت بينها وبين حبيبها .. وربما تذكرت ساعتها ان هذه ليست المرة الأولى التي حطمت فيها قلبها .. لقد حطته مرة سابقة عندما كانت طالبة تكبرني في مدرستي ، وكانت تحب مدحت ابن خالي ..

وكنت أقدر شعورها ..

وكنت أخاف هذا الشعور ..

وكان يجب أن أطمئن الى وقوفها بجانبى الى أن يتم فسخ الخطبة .. كان يجب أن أنفخ في نار حقدتها على سمير ورغبتها في الانتقام منه ، حتى لا تعدل عن الخطبة التي دبرناها ، وتحاول أن تسترضيه ثانية ..

وقلت لها وأنا أتهد :

— والله يا كوثر أنا مش عارفه اللي بنعمله ده صح ولا غلط .. يمكن سمير يكون مظلوم !?

وبرقت عيناها .. هذا البريق المخيف الذي أريده أن يضىء أمامى دائما الى أن أفسخ خطبتي .. وقالت كأنها انفجرت :

— مظلوم .. ده يستاهل الشنق ، ده بقاله ثلاثة أشهر مرمطنى .. وكان حيرمطك اتنى أكثر وأكثر .. اسألينى أنا عليه .. ده مجرم ..

وأخذت أدعى التردد والحيرة .. وهى تشجعنى على
الاستمرار فى الخطئة وتصبر عليها .. الى أن عاد أبى ..
عاد يحمل هم الدنيا كلها فوق رأسه ..
كان قد طاف بالكثيرين ممن يعرفهم يسألهم عن سمير
وأخلاقه وماضيه ، وربما سأل بعض من سبق أن سألهم قبل
أن تعلن الخطبة .. ولكن الناس عندما رأوا على وجهه دلائل
الكرب والهم . وخنموا انه يعرف عن سمير ما يعرفونه ،
بدأوا يصرحون له بالحقيقة .. الحقيقة البشعة لماضى سمير ،
وربما زادوا عليها من خيالهم لتزداد بشاعة ..
وهكذا الناس ..

انهم لا يقولون لك رأيهم .. ولكنهم يقولون لك رأى
الذى يعتقدون انك تريده .. اذا اعتقدوا انك تريد أن تسمع
مديحا فى انسان أو تأييدا لفكرة .. مدحوا وأيدوا .. وان
كنت تريد تشهيرا ورأيا معارضا .. شهروا وعارضوا !!
ترى .. كم فتاة نكبت بعد الزواج ، لأن الناس كذبوا
فى رأيهم عندما سئلوا قبل الزواج !!
وجلس أبى بجانبى ، متهدما ، محرجا ، كأنه مذنب
يستجدى الغفران .. وقال فى صوت ضعيف يقطع القلب :

— أنا غلظت صحيح .. سامحيني يا بنتى !!
وألقيت نفسى فوق صدره ، وأخذت أقبله ، وهو
يقبلنى .. كلانا يحس بأنه مذنب ، وكلانا يطلب الغفران من
الآخر .. كنت أريد أن أقول له بقبلاتى انه ملاك .. انه أتقى

من في الدنيا . وانى أنا المذنبه .. المجرمة . وهو الضحية
البريئة .

ولم تتمالك كوثر نفسها وهى ترانا يقبل أحدنا الآخر ..
فبكت .. واعتقد أبى انها تبكى حبا فيه وفى .. وفسرت أنا
بكاءها على أنه حسرة على نفسها !

وتقل أبى عينيه بينى وبين كوثر .. وارتفعت الى شفتيه
ابتسامة صغيرة كأنه يحمد الله على حبنا له .. ثم استمد من
هذا الحب قوة نفخ بها صدره .. ثم قام الى التليفون وطلب
سمير فى مقر شركة التأمين وحدد له موعدا لمقابلته فى الساعة
الرابعة فى النادى لأمر هام ..

وخلعت الدبلة من يدى ، كأنى أنزع من يدى أشواكا
انغرزت فيها .. وأعطيتها لأبى قائلة فى مرح :
— ما تنساش تديله دى !!

وجن سمير وهو يستمع الى أبى يبلغه بفسخ الخطبة ..
وروى لنا أبى ما قاله سمير ، وكيف أخذ يرجو
ويستعطف ويكذب ما يقال عنه ، ويقسم على حبه لى ..
و .. و .. الى أن قال :

— أنا عارف مين اللى عمل كده .. أنا عارف مين .. اللى
عمل كده ياسعادة البيه كوثر هانم .. أصلها ما تقبلنيش ..
زعلانه منى .. و ..

وقاطعه أبى صاحبيا :

— أنا ما أسحش لك تتكلم باللهجة دى على الست
بتاعتى .. اتفضل ..

ورمى له الدبلة وتركه وانصرف ..

ولم يقل له سمير شيئاً عن علاقته بكوثر ، فقد كان لا يزال
يأمل فى أن يجد طريقاً يعود به الى .. ولكننا أقتلنا فى
وجهه كل الطرق .. سلط علينا كل من يعرفهم من أصدقائنا ،
فرفضنا مجرد الحديث فى الموضوع .. حاول أن يتصل بى
فأبيت وكنت ألقى بسماعة التليفون بمجرد سماع صوته ..
وحاول الاتصال بكوثر ، وربما حادثها مرة أو مرتين .. ولكن
كوثر لم تعد تستطيع شيئاً بعد كل ما حدث ، حتى ولو
صفحت عنه وعادت اليه ..

وعندما فقد سمير أمه .. بدأ يتحدث فى المجتمعات عن
علاقته بزوجة أبى ، وربما تعمد أن تصل أطراف من هذا
الحديث الى أسمع أبى .. ولكن أبى كان يفسر كل ذلك
على أنه مجرد تشهير على لسان انسان موتور قذر .. فلم
يأبه به ..

وأثقت نفسى ..

وأثقت أبى .

ولكن هل هدأت الدنيا .. وهل صفت سمائى .. وهل

نمت !?

لا ..

انى لازلت .. لا أنا !

في خلال كل هذه الأحداث كانت خطابات محمود قد انقطعت عنى .. لم يعد يكتب الى .. ولم أعد أسمع منه هذه الكلمات الحلوة كطرقات رقيقة على باب الأمل .. ولم أعد أجده بجانبى لأستند اليه ، وأستمد الخير من خيره ، والقوة من قوته ، والمبادئ من مبادئه .. كنت في هذه الأيام وحيدة .. أخوض وحدى السنة اللهب التي تحيط بى ، لأصل اليه .. الى محمود .. وربما لو لم أكن أريد الوصول اليه لفضلت أن أبقى بين السنة اللهب .. في النار !

وقد خمنت أن شقيقته أو أمه قد كتبت اليه بخبر خطوبتى .. فانقطع عن الكتابة الى .. ولم أكتب له أنا أيضا، بعد الخطاب القصير الذي أرسلته اليه أطلب منه أن يثق بحبى .. لم أكن أريد أن أكتب له الا بعد أن يتم فسخ خطبتي الى سمير .. لم أكن لأجد شيئا أقوله قبل ذلك .. وكنت أكتفى بأن أمسك بصورته كل مساء وأملأ عيني منها ، وأنا أبتسم ابتسامة مسكينة كأنى أنظر اليه وأناجيه وعنقى تحت المقصلة .. ثم كنت أقول له : « تصبح على خير » وأضع الصورة فى درجى كأنى أضع حبيبي فى فراشه .. ثم أعود أبني بخيالى أعمدة الشر التي أعدها لأتصر بها على شر كوثر وسمير .. وكنت خلال هذه الأيام أيضا كلما ضقت بنفسى وضقت بالحياة وأكاد أياس وأستسلم للمكائد التي تدبر

حولى ، أخرج خطباته وأفتحها أمام عيني .. لم أكن أقرأها ..
انما كنت أقرأ سطورها فى قلبى .. كان كل ما فيها أحفظه
صم .. وكنت أفتحها أمامى كأنها أوراق بيضاء شربت عيناى
سطورها وأودعتها قلبى ..

وبعد أن فسخت الخطبة جلست أكتب اليه ..
لم أقل له كل الحقيقة .. انما قلت له أنى أجبرت على
خطبتى الى سفير ، وأنى استطعت أن أفسخها من أجله ..
وانى لا زلت عند وعدى .. أعيش كل يوم فى انتظاره .. بل
لا أعيش الا لأتظره .. وأنى أحبه ..

ولم يكده ينقضى يومان بعد أن أرسلت اليه هذا الخطاب ،
حتى جاءت شقيقته الصغيرة تزورنى على غير موعد ، وربما
لم تكن تريد رؤيتى ، انما جاءت تحمل شيئا الى .. ولكنى
— بالصدفة — فتحت لها الباب بنفسى وفرحت بها كأنها يد
محمود امتدت الى من لندن .. واحتضنتها كأنى أحتضن
قطعة منه .. وقبلتها كأنى أقبل وجنتيه ..

ولكنها كانت متحفظة ..
كان يبدو عليها الحرج ..
وترددت كثيرا قبل أن تقبل أن تدخل وتجلس معى ..
ثم قالت فى ارتباك وحياء :
— مبروك يا نادية !
قلت فى دهشة :
— مبروك على ايه ؟

قالت وكأنها تؤدى واجبا رسميا :

— مبروك على جوازك !

قلت وأنا أضحك ، ضحكة خالصة ، كأن كل ما مر بي
لم يترك أثرا :

— اتى مش عارفه انى فسخت خطبتى .. الدنيا كلها

عرفت !

وقامت من على مقعدها وكأنها لم تسمع ما قلته ، وقدمت
لى شيئا صغيرا كأنه علبة ملفوفة فى ورق أنيق ، وقالت
فى حياء :

— ماما باعتالك دى .. أورفوار باه .. لازم أنزل ..

ماما مستتيانى فى العريية تحت !

واختفت آثار ضحكتى كأن يدا ظالمة قد خنقتها ،
وأحسست بضربات قلبى تخفت وتضعف ، وقلت وأنا حائرة
بينما الطرد الصغير بين يدى لا أنظر اليه :

— ما تخليها تفضل ..

قالت وهى تتجه بسرعة نحو الباب :

— لا .. مرسى .. أصل ورانا زيارات كثير .. أورفوار!

ولم تمكنى من أن أصحبها حتى الباب .. فقد سبقتنى

اليه .. وفتحته .. ثم أغلقتة وراءها !

وجلست ساهمة ، أنظر الى الطرد نظرات شاردة .. ثم
فضضت الورق من حوله .. فوجدت علبة فضية أنيقة ،
فتحتها دون لهفة وألقيت نظرة واحدة بداخلها فعرفت ما فيها ..

خطاباتي ..

الخطابات التي أرسلتها الى محمود منذ سافر الى لندن ..

ما أروعه !!

انه لا ينسى الأصول أبدا .. ان كل شيء في الحياة له أصول وقواعد .. حتى الأخلاق الكريمة علم كعلم الحساب له أرقام مقررّة ، وعمليات جمع وضرب لا تستطيع أن تخرج عنها .. وقد طرح خبر خطبتي الى سمير من حبي له ، فكانت النتيجة أن يرسل الى خطاباتي !

بل ما أظلمه !!

هذا العقل المتزمت القاسى الذى لا يرحم ولا يبحث عن الأعذار .. العقل الذى يسيطر على القلب الى حد أن يخضعه لهذه العمليات الحسائية .. كأن الناس أرقام .. والحياة أرقام .. والحب أرقام ..

لا .. مستحيل !

ان الحياة لا يمكن أن تكون أرقاما .. ومبادئ الحب والأخلاق لا يمكن أن تكون مبادئ جامدة مقررّة كالأرقام .. انك لا تستطيع أن تتهم الجائع فى خلقه اذا سرق .. ولا تستطيع أن تتهم المظلوم فى خلقه اذا قتل .. ولا تستطيع أن تتهمنى فى حبي لمحمود اذا قبلت خطبتي الى سمير .. ان كل فرد فى الدنيا له دوافعه ونوازعه وأسبابه التى تجعل منه كائنا مفردا ليس كالآخرين ، وتجعل له دنيا خاصة ليست كالدينا

التي يعيش فيها الآخرون .. فلا يمكن أن تصدر حكما واحدا
يطبق على البشر كلهم ، ولا يمكن أن تكون نتائج العمليات
الحسائية بين الأفراد ، متفقة واحدة كما هي بين الأرقام ..
محمد + قتل = مجرم .. ولكن .. على + قتل = بطل ..
و .. خديجة و خليل + حب = زواج .. ولكن .. سنية
وسامى + حب = انتحار ..

أليس هذا صحيحا !?

ولكن محمود لا يؤمن بهذا الكلام .. انه رجل يعيش
بعقله لا بقلبه .. وعقله لا يرحم ولا يتلمس الأعذار للآخرين ..
انه يرسم للدنيا خطوطا مستقيمة منتظمة ، وكل من يخرج
عن هذه الخطوط فقد خرج عن دنياه ..

ولكنى أحب هذا القاسى ، الظالم فى قسوته ..

أحبه ..

وأتمناه ..

وأريده زوجا لى ..

وحملت العلبة التي تضم خطاباتي كأنى أحمل جتى ..
كنت ساهمة واجمة ، وكنت أحادث نفسى .. وكنت أسمع
صدى مزعجا لحديثى مع نفسى ، كأنه يتردد بين سلسلة من
الجيال الموحشة الشامخة فى واد أسود أجرد .. ومن بين هذا
الضجيج كان يلوح لى أمل واحد ، وهو أن يعدل محمود
عن موقفه بعد أن يسمع خبر فسخ خطبتى ، وأن يرد على
خطابى الأخير الذى أرسلته إليه ..

ومرت الأيام ..

أيام قاسية ، زاد في قسوتها انى لم أعد أطيق كوثر ،
ولم تعد كوثر تطيقنى .. فقد كنت أتهمها بأنها السبب في
هجران محمود لى ، وكانت تتهمنى بأنى السبب في التفريق
بينها وبين سمير . ولم نكن تبادل هذا الاتهام صراحة
وعلانية ، بل كنا تبادلنا احساسا مقيتا يغلى في نفسينا ،
وتضطرب به صدورنا .. ولم يكن يجمع بيننا الا حرصنا
نحن الاثنتين على البقاء في هذا البيت . لأن ليس لأى منا
بيت آخر !

ولم يرد محمود ..

وكتبت اليه خطابا آخر عاتبته فيه على اعادته خطاباتي
الى .. قلت له انى كنت مطمئنة الى سرى حتى لو كنت قد
تزوجت من رجل آخر .. ولكنى لم أتزوج ولا أزال انتظره ..
لأنى أحبه .. وأعيش له ..

ومرت أيام أخرى .

أيام أشد قسوة ، فقد بدأ أملى يتعد ويتلاشى حتى لم
أعد أرى منه الا وهما كالخيال البعيد .. وبدأت كوثر تشتت
في معاملة أبى والاساءة اليه .. انها من هذا الصنف من
الزوجات الذى لا يستطيع أن يحمل السعادة الى بيته الا فى
خلال الخيانة الزوجية .. الصنف الذى لا يستطيع أن يسعد
الزوج الا تكفيرا عن جريمة مستمرة .. جريمة خيائته مع
رجل آخر .. وكنت أرى هذه المعاملة السيئة فأثور ، وأحس

بكل قطعة منى تتمزق غيظا وحنقا ، ولكنى لم أكن أتدخل ..
فقد كان أبى راضيا .. كان حبه لها يتسع لكل شيء ..
واشتد بى الغيظ والحنق حتى خيل الى فى أحوال كثيرة
انى لم أعد أحتمل ، وانى على وشك أن أرتكب جريمة
أخرى .. ولكنى كنت أقاوم .. وكنت فى مقاومتى أتمنى أن
أهرب من هذا البيت .. أن أهرب من حب أبى الذى جلب
على كل هذه المصائب .. كنت أريد أن أهرب الى بيت
آخر .. الى بيت محمود ..

ولكن محمود لم يرد .. لم يصلنى منه شيء ..
وعلمت أن الله ينتقم منى ..
الله الذى خلقنى .. ينتقم منى !

ربما خلقنى ليجد شيئا ينتقم منه .. فلم يهن عليه وهو
يرفع عنى بلاءه عندما فسخ خطبتى بسمير ، الا أن يحتفظ لى
ببعض هذا البلاء ، فيحرمنى من محمود ..

أستغفرك ياربى .. ولكنى أريد أن أعرف .. أريد أن
أفهم ماذنبى فى كل ما مر بى .. ماذنبى فى هذه النفس
المعقدة .. من عقدها !?

لست أنا التى عقدهتها !?

عقدها شيء فى ظروفى ، لاذنب لى فيه ..

فلماذا تنتقم منى !?

لماذا ياربى !?

وسارت بى الحياة بطيئة .. مملة فارغة .. ووجدت نفسى

تأهية لا أدري كيف أَدفع الأيام لتتحرك ، ولا كيف أَدفع عنى الملل ، ولا كيف أملا فراغى .. كنت أخرج كثيرا كأن بيتى هو الشارع .. ودخولى هو الخروج .. كنت أخرج كل يوم صباحا ومساء .. أطوف بالمحال ، وأسرف فى الشراء ، وأكثر من زيارة الصديقات ، وأحطت نفسى بمجموعة ضخمة من الصديقات والأصدقاء ، وعرضت نفسى لغزل الشبان .. تركتهم يلقون فى آذانى كلماتهم ، ويراقصونى ويمسحون ذقونهم فى خدى خلال الرقص .. ورغم ذلك لم تسقط كلمة فى قلبى .. ولم يستطع ذقن أن يشعل خدى .. كان الفراغ — رغم كل ذلك — يتسع بى .. والملل يجثم على صدرى .. حتى كرهت وجهى من كثرة ما رأيته أمامى فى المرأة ، حتى خيل الى أنه انطبع عليها .. وانه هناك دائما فوق المرأة حتى لو لم أقف أمامها .. وكرهت فراشى الذى أنام عليه من طول ما نمت عليه .. الفراش البارد الضيق كأنه سجن صنع خصيصا على مقاس طولى وعرضى .. وكرهت البيت .. وكرهت .. وكرهت ..

وفى يوم كنت أدخل محل « رينيه » عندما التقيت بصفية ومصطفى .. كانا سويا .. وحدهما .. وهلت صفية عندما رأتنى واحتضنتنى وقبلتنى ، ثم قدمتنى الى مصطفى :

— أظن فاكراه مصطفى !!

وقلت وأنا أمد يدي إليه :

— أيوه .. ازاي الصحة .. ?

ونظر الى مصطفى نظرة طويلة .. نظرة فيها حنان
واهتمام .. ليس فيها غزل ولا شيء مما مضى .. ولكنه كان
كمن يسألني عن حالي ، ويريد أن يطمئن على سعادتي ..
وضغط على يدي وقال بصوته الكسول ، كأنه صوت
ينطلق من ماضى حياتي :

— ازيك ياناوية هانم ..?

وقالت صفية :

— سمعت انك فسخت خطبتك .. الحمد لله .. ما كانش

يستاهل !?

ومر بذهني خاطر سريع : ترى لو كانت صفية لا تزال
زوجة لأبي ، هل كان يعترض حياتي انسان كسمير ؟
لا أظن ..

ولا أدري ما الذي هبط بعيني الى يد صفية ثم الى يد
مصطفى كأنني أفتش فيهما عن شيء .. وقد وجدت شيئاً ..

وجدت دبلتين !!

ولم تقل لي صفية انها خطبت لمصطفى ، كأنه يكفي أن
يراهما الناس وحدهما ليعلموا أنهما مخطوبان .. ولم أشعر
بغيره عندما عرفت بخطبتهما .. انما شعرت بنوع من الحسد ..
حسد أبيض .. لو كانت لي شخصية صفية وقوة ارادتها فربما
كنت أنا التي خطبت الى مصطفى .. أنا التي تغلبت على
مبادئه البوهيمية وتهربه من المسؤولية ..

ترى ما الذي يخلق الشخصية ؟

لابد أنها الظروف التي تحيط بالانسان منذ يولد ؟
هذا ما قاله لى مصطفى فى يوم من الأيام ..
فما ذنبى فى ظروفى ، اذا كانت قد أوجدت لى هذه
الشخصية المعقدة ؟

وما فضل صافية فى ظروفها التي أوجدت لها هذه
الشخصية الواضحة الحلوة القوية ؟
ليس لواحد منا ذنب ، ولا فضل ..

كلنا من عمل الظروف !!
وابتسمت وأنا أستعيد تعاليم مصطفى التي كان يلتقها
لى ، ثم قلت وكان هذه الابتسامة لهما :
— مبروك !!

• وقالت صافية بمرحها الهادىء :
— الله يبارك فيكى .. عقبالك يانادية !

وعدت الى البيت ، ولمحت لأبى ساعة الغداء ، عن مقابلتى
لصافية وعن خطبتها لمصطفى . ولم أكن أقصد بذلك الا أن
أزيل كل أثر قد رسب فى صدره من اعتقاده بأن عمى قد
خانه معها ..

ولكن أبى لم يهتم كثيرا بالنبا الذى حملته له .. كان
حبه لكوثر قد ابتلع كل شىء حتى ماضيه !
وكنت فى خلال كل هذه الشهور الطويلة ، أتصل دائما
بعمى عزيز بالتليفون .. وكنت أكذب عليه وأقول له ان أبى

ذكره بكيت وكيت .. ثم دعوته عندنا لتناول الشاي ، ولكنه
رفض أن يلبي الدعوة الا اذا وجهها له أبى .

وقلت لأبى فى ساعة حنان :

— انت فاطر لما وعدت انك تعزم عمى فى فرحى .. أدينى
ما اتجوزتش ، لكن عايزه أعزم عمى ..

قال وهو يتتسم فى طيبة كأنه نسى كل شىء :

— بس مش نستنى لما تيجى مناسبة علشان تبقى طبيعية ..
ده أنا حتى عايز أكلمه على الراجل اللى مأجر أرضه ..

دا راجل حرامى يسرقه عينى عينك !

قلت وأنا أمره فى دلال :

— أهو تكلمه بكره .. أنا عزمته على الشاي .. انما
مارضيش ييجى الا لما تعزمه انت !

قال كأنه يزيح عن صدره عبئا :

— طيب هاتى ياستى التليفون .. وأنا أكلمه ..

وطلبت عمى فى التليفون ، وحادثه أبى .. وما كدت
أسمعه يقول : « ازيك ياخويا » حتى خيل الى أن أبواب

السماء قد فتحت لى .. ويد الله امتدت منها لتمسح على رأسى
وتغفر لى ..

ولكن الله لم يغفر لى ..

وقد علمت يوما أن محمود قد عاد من لندن .. عاد ولم
يتصل بى .. وترددت كثيرا قبل أن أتصل به .. ولكنى أحبه ..

أحبه الى حد أن ضعفت كرامتى أمام جبى ، فاتصلت به أنا ..

وما كاد يسمع صوتى حتى قال بلهجة طبيعية ولكنها جافة :
— ازاي الصحة يا نادية هانم !!

قلت وقلبي يضطرب كأنى أقفز بين قطع السحاب :
— يصح يا محمود ترجع من غير ما تقول لى ولا تتصل

بى ..

قال فى لهجته المهذبة :

— والله يا أفندم كنت مشغول .. جيت أمد مدة البعثة

وراجع تانى !

قلت كأنى طعنت :

— تمد البعثة !

قال :

— أيوه .. حاعمل بحث تانى .. ياخذ منى سنتين !

قلت كأنى أستعطفه :

— محمود .. أنا لازم أشوفك .. لازم أكلمك .. فيه

حاجات كثير لازم تعرفها .. انت ظالمنى يا محمود .

وسكت قليلا كأن قلبه قفز من صدره ويحاول أن يعيده

ويغلق عليه بعقله ، ثم قال فى تردد :

— والله يا أفندم مش ممكن .. أنا مسافر الليلة ..

راجع لندن ..

قلت كأنى أصرخ فى ضعف :

— الليلة !?

— أيوه ..

وسكتنا نحن الاثنين ..
سكتنا طويلا .. ثم قال في تردد :
— والله يا أفندم ، فيه حاجة معايا كنت عايز أبعثها لك ..
قلت في مرارة ساخرة :

— عارفه .. جواباتي اللي لسه مارجعتش ..
وسكت ..
وسكت ..

لم أكن أستطيع أن ألقى السماعة من يدي ، كأنى ان
ألقيتها ألقىت عمرى .. كنت متشبثة به كأنه الحياة ..
وسمعت صوته :

— دى فرصة سعيدة قوى يا نادية هانم !
وأجبت وأنا أودع الحياة :

— اورفوار يا محمود . الله يسامحك !
وألقىت السماعة قبل أن أسمع رده ..

انه لم يصفح ولم يعذر ..
هناك رجال من هذا النوع .. لا يصفحون ، ولا يتزوجون
من لا يصفحون عنهن !

انى الآن فى الواحدة والعشرين من عمرى ..
أعيش فى ملل وفراغ ، وأكره مرآتى وفراشى وبيتى ..
ولا أدري ما هو الخير والشر .. لم أعد أحاول أن أعرف ..
فليس فى حياتى ما يستحق أن يكون خيرا أو شرا .. انها

حياة كالماء ليس لها لون ولا شكل .. ولا تستطيع أن تمسكها
بيديك .

انى انسانة من العدم .. من الفراغ .. من لا شيء .. لى
تصرفات ، ولكن تصرفاتى ليس لها أهداف ولا أحاول أن
أحكم دوافعها .. قد يكون بعض هذه التصرفات خيرا ، وقد
يكون بعضها شرا .. وقد يؤدى الخير بى الى الشر .. ولكنى
لم أعد أدرى .. أو أحاول أن أدرى .. اننى مجموعة تصرفات
أو نزوات !

ولا أفكر فى الزواج .. لأن الزواج له دوافع وهدف ..
وأنا ليس لى دوافع ولا أهداف ..

وأبى لا يحاول أن يجبرنى على الزواج .. لأنه يخاف أن
يخطيء كما أخطأ عندما زوجنى لسمير .. ولأنه رجل ..
والآباء الرجال لا يستطيعون أن يفهموا البنات ..

وأمى لا تزال بعيدة عنى .. سعيدة مدللة .. لا تحتل
شيئا أو هما فى حياتها .. حتى همى ..

وعمى يدللنى .. ولكنه لا يحمل مسئوليتى ، وهو يعيش
بعيدا عنا ولم تعد علاقته بأبى كما كانت ، ولكنها علاقة فيها
الكثير من المجاملات والرسميات ..

وأنا أكره كوثر ..

وكوثر تكرهنى ..

هذه الكراهية أصبحت الحقيقة الوحيدة فى حياتى ..
حقيقة أحرص عليها لأنها تقنعنى بأنى لازلت من الأحياء .

والانسان الوحيد السعيد في بيتنا .. هو أبى .. الزوج
المخدوع !

وأنا لا أنام ..

لم يعد النوم يعذبني ، ولم يعد التفكير في الشر يقلقنى ..
ورغم ذلك فانى لا أنام ..

ربما لأنى كى أنام يجب أن أصحو .. وأنا لا أصحو ..
ليس فى حياتى اليوم صحوة ولا نوم .. انى ميتة .. أسير
كالميتة ، وأرقد فى فراشى كالميتة .. ميتة مفتحة العينين ، لم
تجد من يسدل جفنيها فوق عينيها ، حتى تبدو كأنها نائمة ..
أريد من يسدل جفونى .. حتى أنام !

متى أنام !!?

تت